مناهل العرفان

في

علوم القرآن

طبق ماقرره مجلس الأزهر الأعلى فى دراسة تخصص الكليات الأزهرية

بقلم

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ

محمد عبد العظيم الزرقاني

مدرس علوم القرآن وعلوم الحديث بتخصص الدعوة والإرشاد

بكلية أصول الدين سابقاً

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

« الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان » .

نحمده سبحانه على هذه النعم المترادفة ، ونصلى ونسلم على من نشر فى العالم هدايته وعوارفه ، سيدنا ومولانا محمد شارح الكتاب الحكيم بسنته ، ومفسر القرآن الكريم برسالته ، « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ، ولعلهم يتفكرون » . وشمل الله برضوانه وإحسانه ، آل الرسول وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، والعلماء العاملين ، وأصحاب الحقوق علينا أجمعين .

أما بعد فهذا هو الجزء الثانى من كتاب مناهل العرفان فى علوم القرآن ، وكتبته لقرائى الأكرمين كما كتبت لهم الجزء الأول ، ضارعاً إلى الله ـ جلت قدرته ـ أن يسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة ، وأن يؤيدنا فيه بالإخلاص والتوفيق حتى يكون ذخيرة عنده نافعة ، كما أسأله سبحانه أن يلطف بالبلاد والعباد ، إنه تعالى الكريم الجواد ، الفتاح الوهاب ، لا رب غيره . ولا مأمول إلا خيره ، وهو حسبنا ونعم الوكيل . نعم المولى ونعم النصير ، آمين .

ولقد نهجت فى هذا الجزء منهج سابقه ، ورتبت مباحثه على مباحثه ، وبما أن ذاك قد قطع أحد عشر مبحثا ، فلنفتتح هذا بما يليها عداً ، وهو :

المبحث الثانى عشر

فى التفسير والمفسرين وما يتعلق بهما

١ — التفسير

التفسير فى اللغة : الإيضاح والتبيين . ومنه قوله تعالى فى سورة الفرقان : « وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً » .

والتفسير فى الاصطلاح : علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية .

(والمراد بكلمة علم) المعارف التصورية. قال عبدالحكيم على المطول : إن علم التفسير من قبيل التصورات ، لأن المقصود منه تصور معانى ألفاظه ، وذلك من قبيل التعاريف، لكن أكثرها بل كلها من قبيل التعاريف اللفظية . وذهب السيد إلى أن التفسير من قبيل التصديقات ، لأنه يتضمّن حكماً على الألفاظ بأنها مفيدة لهذه المعانى التى تذكر بجانبها فى التفسير .

(وخرج بقولنا : يبحث فيه عن أحوال القرآن) العلوم الباحثة عن أحوال غيره .

(وخرج بقولنا: من حيث دلالته على مراد الله تعالى) العلوم التى تبحث عن أحوال القرآن من جهة غير جهة دلالته ، كعلم القراءات فإنه يبحث عن أحوال القرآن من حيث ضبط ألفاظه وكيفية أدائها . ومثل علم الرسم العثمانى فإنه يبحث عن أحـــوال القرآن الكريم من حيث كيفية كتابة ألفاظه .

وخرج بهذه الحيثية أيضاً المعارف التى تبحث عن أحوال القرآن من حيث إنه مخلوق أو غير مخلوق ، فإنها من علم الكلام . وكذلك المعارف الباحثة عن أحوال القرآن من حيث حرمة قراءته على الجنب ونحوها . فإنها من علم الفقه .

(وقولنا بقدر الطاقة البشرية) لبيان أنه لا يقدح فى العلم بالتفسير عدم العلم بمعانى المتشابهات ولا عدم العلم بمراد الله فى الواقع ونفس الأمر .

وعرفوا علم التفسير أيضاً بأنه علم يبحث فيه عن أحوال الكتاب العزيز من جهة نزوله وسنده وأدائه وألفاظه ومعانيه المتعلقة بالألفاظ والمتعلقة بالأحكام .

(والمراد بكلمة نزوله) مايشمل سبب النزول ومكانه وزمانه .

(والمراد بكلمة سنده) مايشمل كونه متواتراً أو آحاداً أو شاذًّا .

(والمراد بكلمة أدائه) مايشمل كل طرق الأداء كالمدّ والإدغام .

(والمراد بكلمة ألفاظه) مايتعلق باللفظ من ناحية كونه حقيقةً أو مجازاً أو مشتركاً أو مرادفاً أو صحيحاً أو معتلًّا أو معرباً أو مبنيًّا .

(والمراد بمعانيه المتعلقة بألفاظه) مايشبه الفصل والوصل .

(والمراد بمعانيه المتعلقة بأحكامه) ماهو من قبيل العموم والخصوص ، والإحكام والنسخ .

وهذا التعريف كما ترى يشمل كثيراً من جزئيات مايندرج فى قواعد علم القراءات وعلم الأصول وعلم قواعد اللغة من نحو وصرف ومعان وبيان وبديع .

وعرفوا التفسير تعريفاً ثالثاً بأنه علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ، ومدلولاتها ، وأحكامها الإفرادية والتركيبية ، ومعانيها التى تحمل عليها حال التركيب ، وغير ذلك كمعرفة النسخ وسبب النزول وما به توضيح المقام كالقصة والمثل .

وهذا تعريف وسط بين التعريفين ، ومن السهل رجــوعه إلى التعريف الأول ، لأن ما ذكر هنا بالتفصيل ، يُعتبر بياناً لمراد الله من كلامه بقدر الطاقة البشرية فى شىء من التفصيل .

التأويل :

والتأويل مرادف للتفسير فى أشهر معانيه اللغوية . قال صاحب القاموس : « أَوَّلَ الكلامَ تأويلًا وَتَأَوَّلَهُ : دَبَّرَهُ وقدَّرَهُ وَفَسَّرَهُ » ومنه قوله تعالى : « فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَاءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا

يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلا اللهُ » . وكذلك جاءت آيات كثيرة فيها لفظ التأويل ، ومعناه فى جميعها البيان والكشف والإيضاح .

أما التأويل فى اصطلاح المفسرين[1] فإنه يختلف معناه فبعضهم يرى أنه مرادف للتفسير . وعلى هذا فالنسبة بينهما التساوى . ويشيع هذا المعنى عند المتقدمين . ومنه قول مجاهد : « إن العلماء يعلمون تأويله (يعنى القرآن) وقول ابن جرير فى تفسيره : القول فى تأويل قوله تعالى كذا . . . واختلف أهل التأويل فى هذه الآية . . . »

وبعضهم يرى أن التفسير يخالف التأويل بالعموم والخصوص فقط ، ويجعل التفسير أعم مطلقا . وكأنه يريد من التأويل بيان مدلول اللفظ بغير المتبادر منه لدليل . ويريد من التفسير بيان مدلول اللفظ مطلقاً ، أعم من أن يكون بالمتبادر أو بغير المتبادر .

وبعضهم يرى أن التفسير مباين للتأويل . فالتفسير هو القطع بأن مراد الله كذا ، والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون قطع . وهذا هو قول الماتريدى . أو التفسير بيان اللفظ عن طريق الرواية ، والتأويل بيان اللفظ عن طريق الدراية . أو التفسير هو بيان المعانى التى تستفاد من وضع العبارة ، والتأويل هو بيان المعانى التى تستفاد بطريق الإشارة وقد اشتهر هذا عند المتأخرين كما نبَّه إليه العلامة الألوسى إذ قال بعد استعراضه للآراء فى هذا الموضوع ما نصه : « كل ما قيل مما ذكرنا وما لم نذكر مخالف للعرف اليوم . إذ قد تُعورِفَ عند المؤلفين من غير نكير أن التأويل معانٍ قدسية ، ومعارف ربانية ، تنهلُّ من سحب الغيب على قلوب العارفين . والتفسير غير ذلك » اهـ بتصرف فأنت

---

(١) وإنما قلنا فى اصطلاح المفسرين ليخرج اصطلاح المتكلمين ومن جاراهم ، فإنهم يريدون من التأويل ماذهب إليه الخلف من صرف نصوص ماتشابه من الكتاب والسنة عن ظاهره إلى معان تتفق وتنزيه الله تعالى عن المشابهة والمماثلة . بخلاف ماذهب إليه السلف من التفويض والإمساك عن تعيين معنى خاص .

ترى أنه جعل التأويل خاصًّا بما كان مأخوذاً بالإشارة ، والتفسير بما كان مفهوماً من العبارة .

التفسير تفسيران

لكن التفسير على نوعين بالإجمال (أحدهما) تفسير جافٌّ لا يتجاوز حلَّ الألفاظ وإعراب الجمل ، وبيان مايحتويه نظم القرآن الكريم من نكات بلاغية وإشارات فنية. وهذا النوع أقرب إلى التطبيقات العربية منه إلى التفسير وبيان مراد الله من هداياته .

(النوع الثانى) تفسير يجاوز هذه الحدود،ويجعل هدفه الأعلى تجلية هدايات القرآن وتعاليم القرآن وحكمة الله فيما شرع للناس فى هذا القرآن، على وجه يجتذب الأرواح ، ويفتح القلوب ،ويدفع النفوس إلى الاهتداء بهدى الله.وهذا هو الخليق باسم التفسير . وفيه يُساق الحديث إذا تكلمنا عن فضله والحاجة إليه .

فضل التفسير والحاجة إليه :

نهضة الأفراد والأمم لايمكن أن تكون صحيحة عن تجربة ، ولا سهلة متيسرة ، ولا رائعة مدهشة . إلا عن طريق الاسترشاد بتعاليم القرآن ونظمه الحكيمة التى روعيت فيها جميع عناصر السعادة للنوع البشرى على ماأحاط به علم خالقه الحكيم . وبَدَهِىٌّ أن العمل بهذه التعاليم لا يكون إلا بعد فهم القرآن وتدبره ، والوقوف على ما حوى من نصح ورشد ، والإلمام بمبادئه عن طريق تلك القوة الهائلة التى يحملها أسلوبه البارع المعجز . وهذا لا يتحقق إلا عن طريق الكشف والبيان لما تدل عليه ألفاظ القرآن . « وهو ما نسميه بعلم التفسير » خصوصا فى هذه العصور الأخيرة التى فسدت فيها ملكة البيان العربى ، وضاعت فيها خصائص العروبة حتى من سلائل العرب أنفسهم .

فالتفسير هو مفتاح هذه الكنوز والذخائر التى احتواها هذا الكتاب المجيد النازل لإصلاح البشر ، وإنقاذ الناس ، وإعزاز العالم .

وبدون التفسير لا يمكن الوصول إلى هذه الكنوز والذخائر ، مهما بالغ الناس فى ترديد ألفاظ القرآن ، وتوفروا على قراءته كل يوم ألف مرة بجميع وجوهه التى نزل عليها .

وهنا تلمح السرّ فى تأخر مُسْلِمَة هذا الزمن على رغم وفرة المصاحف فى أيديهم ووجود ملايين الحفَّاظ بين ظهرانيهم ، وعلى رغم كثرة عددهم ، واتساع بلادهم فى حين أن سلفنا الصالح نجحوا بهذا القرآن نجاحاً مدهشاً كان ومازال موضع إعجاب التاريخ والمؤرخين. مع أن أسلافنا أولئك كانوا فى قلة من العدد ، وضيق من الأرض ، وخشونة من العيش ، ومع أن نسخ القرآن ومصاحفه لم تكن ميسورة لهم ، ومع أن حُفاظه لم يكونوا بهذه الكثرة الغامرة .

أجل إن السرّ فى ذلك هو أنهم توفروا على دراسة القرآن واستخراج كنوز هداياته، يستعينون على هذه الثقافة العليا بمواهبهم الفطرية وملكاتهم السليمة العربية من ناحية، وبما يشرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبينه لهم بأقواله وأعماله وأخلاقه وسائر أحواله كما قال سبحانه : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » .

وعلى ذلك كان همهم الأول هو القرآن الكريم يحفظونه ويفهمونه قبل أن يحفظوه ثم يعملون بتعاليمه بدقة ، ويهتدون بهديه فى يقظة .

بهذا وحده صفت أرواحهم ، وطَهُرَت نفوسهم ، وعَظُمَتْ آثارهم ؛ لأن الروح الإنسانى هو أقوى شىء فى هذا الوجود . فمتى صفا وتهذَّب ، وحسن توجيهه وتأدَّب ، أتى بالعجب العجاب ، « وَٱللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ » .

وكذلك أتت الأمة العربية بالعجب العاجب ، فى الهداية والإرشاد وإنقاذ العالم وإصلاح البشر ، وكتب الله لهم النصر والتأييد والدولة والظفر، حتى على أقوى الدول

المعادية لدعوة الحق والإصلاح فى ذلك العهد، ودولة الفرس فى الشرق ودولة الرومان فى الغرب . تلك مَحَوْهامن لوح الوجود بهدم طغيانها وإسلام شعبها،وهذه سلبوهاما كان فى حَوْزتها من ممالك الشرق وشعوبه الكثيرة . ثم دانت لهم الدنيا فاستولوا على بعض بلاد أورُبَّةَ ، وأقاموا فيها دولة عربية شامخة البنيان ، كانت بهجة الدنيا وزينة الحياة، ومنها شعّ النور على الشعوب الأوربية، وكانت النواة الناجحة فى نهضتهم الحديثة الحاضرة (تلك هى فردوس الأندلس المفقود) ! !

أما غالب مُسْلِمَةِ اليوم . فقد اكتفوا من القرآن بألفاظ يردّدونها . وأنغام يلَحِّنُونها ، فى المآتم والمقابر والدور . وبمصاحف يحملونها أو يودعونها تركة فى البيوت . ونسوا أن بركة القرآن العظمى إنما هى فى تدبُّره وتفهمه ؛ وفى الجلوس إليه والاستفادة من هديه وآدابه ، ثم فى الوقوف عند أوامره ومراضيه ، والبعد عن مساخطه ونواهيه . والله تعالى يقول : « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ » ، ويقول سبحانه : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ؟ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » ويقول جلّ ذكره : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟ » .

فما أشبه المسلمين اليوم بالعطشان يموت من الظمأ والماء بين يديه ، والحيوان يهلك من الإعياء والنورُ من حوله يهديه السبيل لوفتح عينيه . « ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ » .

ألا إن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها ، وهو أن يعودوا إلى كتاب الله يستلهمونه الرشد ويستمنحونه الهدى ، ويحكمونه فى نفوسهم وفى كل مايتصل بهم كما كان آباؤنا الأولون يتلونه حق تلاوته بتدبر وتفكر فى مجالسهم ومساجدهم وأنديتهم وبيوتهم ، وفى صلواتهم المفروضة والنافلة ، وفى تهجدهم بالليل

والناس نيام ، حتى ظهرت آثاره الباهرة عاجلة فيهم . فرفع نفوسهم وانتشلها من حضيض الوثنية ، وأعلى هممهم وهذّب أخلاقهم ، وأرشدهم إلى الانتفاع بقُوَى الكون ومنافعه . وكان من وراء ذلك أن مهروا فى العلوم والفنون والصناعات كما مهروا فى الأخلاق والآداب والإصلاح والإرشاد ، ووصلوا إلى غاية برّزوا فيها كل أمم الدنيا . حتى قال بعض فلاسفة الغرب فى كتابه (تطوُّر الأمم) ما نصه : « إن ملكة الفنون لا تستحكم فى أمة من الأمم إلا فى ثلاثة أجيال : جيل التقليد ، وجيل الخَضْرَمَة ، وجيل الاستقلال . وشذَّ العرب وحدهم فاستحكمت فيهم ملكة الفنون فى جيل واحد » اهـ .

قال السيوطى فى بيان الحاجة إلى التفسير ما ملخصه : « القرآن إنما نزل بلسان عربى فى زمن أفصح العرب ، فكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه .

أما دقائق باطنه فلا تظهر لهم إلا بعد البحث والنظر وسؤالهم النبى ﷺ مثل قولهم : « وَأَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ » حينما نزل قوله تعالى : « ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ » . ففسَّره النبى ﷺ بالشرك ، واستدلَّ بقوله سبحانه : « إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » .

وكذلك حين قال النبى ﷺ : « مَنْ نُوقِشَ الحساب عُذِّبَ » سألته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها عن قوله تعالى : « فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً » فقال ﷺ « ذَلِكَ ٱلْعَرْضُ » وكقصة عدىّ بن حاتم فى الخيط الأبيض والخيط الأسود . ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه . بل نحن أشد الناس احتياجاً إلى التفسير ، لقصورنا عن مدارك اللغة وأسرارها بغير تعلم » اهـ .

مما تقدم يتبين أن فائدة التفسير هى التذكر والاعتبار ، ومعرفة هداية الله فى العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق ، ليفوز الأفراد والمجاميع بخير العاجلة والآجلة .

ويتبين أيضاً أن هذا العلم من أشرف العلوم الدينية والعربية ، إن لم يكن أشرفها جميعاً . وذلك لسُمُوِّ موضوعه ، وعظم فائدته .

وسمى علم التفسير لما فيه من الكشف والتبيين . واختصَّ بهذا الاسم دون بقية العلوم مع أنها كلها مشتملة على الكشف والتَبيين ، لأنه لجلالة قدره ، واحتياجه إلى زيادة الاستعداد ، وقصده إلى تبيين مراد الله من كلامه ، كان كأنه هو التفسير وحده دون ماعداه .

ب ـ أقسام التفسير

ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما أن التفسير أربعة : حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير تفسره العرب بألسنتها ، وتفسير تفسره العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله اه.

قال الزركشى فى البرهان ما ملخصه : « هذا تقسيم صحيح. فأما الذى تعرفه العرب بألسنتها فهو ما يرجع إلى لسانهم من اللغة والإعراب. فأما اللغة فعلى المفسر معرفة معانيها ومسمَّيات أسمائها . ولا يلزم ذلك القارىء . ثم إن كان مايتضمنه ألفاظها يوجب العمل دون العلم ، كفى فيه خبر الواحد والاثنين ، والاستشهاد بالبيت والبيتين . وإن كان يوجب العلم (أى الاعتقاد) لم يكف ذلك ، بل لا بد أن يستفيض ذلك اللفظ وتكثر شواهده من الشعر . وأما الإعراب فما كان اختلافه مُحيلًا للمعنى وجب على المفسر والقارئ تعلمه ، ليوصل المفسر إلى معرفة الحكم ، ويسلم القارئ من اللحن . وإن لم يكن محيلًا للمعنى ، وجب تعلمه على القارئ ليسلم من اللحن ، ولا يجب على المفسر لوصوله إلى المقصود بدونه .

وأما ما لا يُعذر أحد بجهله فهو ما تبادر إلى الأفهام معرفة معناه من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد ، وكل لفظ أفاد معنى واحداً جليًّا يعلم

أنه مراد الله تعالى . فهذا القسم لا يلتبس تأويله ، إذ كل أحد يدرك معنى التوحيد من قوله تعالى : « فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلا ٱللّٰهُ » أنه لا شريك له فى الألوهية ، وإن لم يعلم أن «لا» موضوعة فى اللغة للنفى « وإلا » موضوعة للإثبات ، وأن مقتضى هذه الكلمة الحصر ويعلم كل أحد بالضرورة أن مقتضى « أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ » ونحوه ، طلب إيجاب المأمور به ، وإن لم يعلم أن صيغة افعل للوجوب .

وأما ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فهو ما يجرى مجرى الغيوب ، كالآيات التى تذكر فيها الساعة . والروح ، والحروف المقطعة . وكل متشابه فى القرآن عند أهل الحق ، فلا مساغ للاجتهاد فى تفسيره . ولا طريق إلى ذلك إلا بالتوقيف ، بنص من القرآن أو الحديث أو إجماع الأمة على تأويله .

وأما مما يعلمه العلماء ويرجع إلى اجتهادهم ، فهو الذى يغلب عليه إطلاق التأويل . وذلك باستنباط الأحكام ، وبيان المجمل ، وتخصيص العموم . وكل لفظ احتمل معنيين فصاعدا فهو الذى لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه اعتماداً على الدلائل والشواهد دون مجرد الرأى » اهـ المقصود منه . لكنه لم يلتزم فيه ترتيب الأقسام على ماروى عن ابن عباس ولا ضير فى ذلك مادام أنه قد استوعب عدتها الأربعة كما رأيت .

وقسم بعضهم التفسير باعتبار آخر إلى ثلاثة أقسام : « تفسير بالرواية » ويسمى التفسير بالمأثور ، وتفسير بالدراية ويسمى التفسير بالرأى ، وتفسير بالإشارة ويسمى التفسير الإشارى ، وسنتحدث عن كل واحد منها إن شاء الله .

ج — التفسير المأثور

هو ماجاء فى القرآن أو السنة أو كلام الصحابة بياناً لمراد الله تعالى من كتابه

(١) مثال ماجاء فى القرآن قوله سبحانه : « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ » فإن كلمة «من الفجر» بيان وشرح للمراد من كلمة « الْخَيْطِ الْأَبْيَضِ » التى قبلها . وكذلك قوله سبحانه: «قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » فإنها بيانٌ للفظ « كلماتٍ » من قوله تعالى : « فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ » على بعض وجوه التفاسير . وقوله تعالى « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ » الآية ، فإنها بيانٌ للفظ «ما يُتْلَى عليكمْ» من قوله سبحانه: «أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ» وقوله تعالى : « لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ » الآية فإنها بيان للعهدين فى قوله سبحانه : « وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ » الأول للأوّل ، والثانى للثانى . وقوله تعالى : «وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ . النَّجْمُ الثَّاقِبُ» . فإن كلمة «النَّجْمُ الثَّاقِبُ» بيان لكلمة « الطَّارِق » التى قبلها . وغير ذلك كثير يعلم بالتدبُّر لكتاب الله تعالى .

(٢) ومثال ماجاء فى السنة شرحاً للقرآن ، أنه صلى الله عليه وسلم فسر الظلم بالشرك فى قوله سبحانه : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ، أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » وأيَّد تفسيره هذا بقوله تعالى : « إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » وفسَّر صلى الله عليه وسلم الحساب اليسير بالعَرْضِ حين قال : «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ» فقالت له السيدة عائشة : أَوَلَيْسَ قد قال الله تعالى : «فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ

حِسَاباً يَسِيراً ، وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً »فقال ﷺ : « ذَٰلِكِ ٱلْعَرْضُ » بياناًللحساب اليسير . وكذلك فسر الرسول ﷺ القوة بالرمى فى قوله سبحانه : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ » . وفى صحيح كتب السنة من ذلك شىء كثير .

وكلا هذين القسمين لا شك فى قبوله . أما الأول فلأن الله تعالى أعلم بمراد نفسه من غيره ، وأصدق الحديث كتاب الله تعالى. وأما الثانى فلأن خير الهدى هدى سيدنا محمد ﷺ ، ووظيفته البيان والشرح، مع أننا نقطع بعصمته وتوفيقه. قال تعالى: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » .

(٣) بقى القسم الثالث وهو بيان القرآن بما صحَّ وروده عن الصحابة رضوان الله عليهم : قال الحاكم فى المستدرك : « إن تفسير الصحابى الذى شهد الوحى والتنزيل له حكم المرفوع » كذلك أطلق الحاكم . وقيده بعضهم بما كان فى بيان النزول ونحوه مما لا مجال للرأى فيه ؛ وإلا فهو من الموقوف .

ووجهة نظر الحاكم ومن وافقه ، أن الصحابة رضوان الله عليهم قد شاهدوا الوحى والتنزيل، وعرفوا وعاينوا من أسباب النزول مايكشف لهم النقاب عن معانى الكتاب ولهم من سلامة فطرتهم ، وصفاء نفوسهم ، وعلو كعبهم فى الفصاحة والبيان، مايمكنهم من الفهم الصحيح لكلام الله ، وما يجعلهم يوقنون بمراده من تنزيله وهداه .

أما ما ينقل عن التابعين ففيه خلاف العلماء : منهم من اعتبره من المأثور . لأنهم تلقوه من الصحابة غالباً . ومنهم من قال : إنه من التفسير بالرأى .

وفى تفسير ابن جرير الطبرى كثير من النقول عن الصحابة والتابعين فى بيان القرآن الكريم .

بَيْدَ أن الحافظ ابن كثير يقول: إن أكثر التفسير المأثور قد سرى إلى الرُّواة من زنادقة اليهود والفرس ومُسْلِمَةِ أهل الكتاب. قال بعضهم: وجُلُّ ذلك فى قصص الرسل

مع أقوامهم ، وما يتعلق بكتبهم ومعجزاتهم ، وفى تاريخ غيرهم كأصحاب الكهف ، ومدينة إِرَمَ ذاتِ العماد، وسحر بابل ، وعَوْج بن عُنُق ، وفى أمور الغيب من أشراط الساعة وقيامتها وما يكون فيها وبعدها . وجُلُّ ذلك خرافات ومفتريات ، صدّقهم فيها الرواة حتى بعض الصحابة رضى الله عنهم . ولذلك قال الإمام أحمد : « ثلاثة ليس لها أصل: التفسير ، والمَلَاحِمُ ، والمَغَازِى »[1] .وكان الواجب جمع الروايات المفيدة فى كتب مستقلة ، كبعض كتب الحديث ، وبيان قيمة أسانيدها ، ثم يذكر فى التفسير مايصح منها بدون سند ، كما يذكر الحديث فى كتب الفقه ، لكن يعزى إلى مخرجه ا ه ما أردنا نقله .

د ـ المفسرون من الصحابة

قال السيوطى فى الإتقان : « اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة : الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأُبَىُّ بن كعب، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعرى، وعبد الله بن الزبير . أما الخلفاء فأكثر من رُوى عنه منهم ، علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه . والرواية عن الثلاثة قليلة جدًّا وكأن السبب فى ذلك تقدُّم وفاتهم » ا ه .

ومعنى هذا السبب فى إقلال الثلاثة: أبى بكر وعمر وعثمان من التفسير، أنهم كانوا فى وسط أغلب أهله علماء بكتاب الله، واقفون على أسرار التنزيل، عارفون بمعانيه وأحكامه مكتملة فيهم خصائص العروبة. أما الإمام علىّ رضى الله عنه، فقد عاش بعدهم حتى كثرت حاجة الناس فى زمانه إلى من يفسر لهم القرآن، وذلك من اتساع رقعة الإسلام، ودخول عجم فى هذا الدين الجديد كادت تذوب بهم خصائص العروبة ، ونشأ جيل من

---

(١) لعل مراد الإمام أحمد المبالغةُ تنبيهاً للأذهان إلى أن الصحيح قليل بالنسبة إلى غير الصحيح . وليس مراده عموم النفى ،فإن هناك روايات فى التفسير صحيحة؛ ولا ريب. وسيأتى ما نقل عن الإمام أحمد نفسه فى صحيفة التفسير التي رواها علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس .

أبناء الصحابة كان فى حاجة إلى علم الصحابة . فلا جرم كان ما نقل عن عليٍّ أ كثر مما نقل عن غيره ، أضف إلى ذلك ما امتاز به الإمام من خصوبة الفكر ، وغزارة العلم ، وإشراق القلب : ثم أضف أيضاً سبقَ اشتغالهم بمهامِّ الخلافة وتصريف الحكم دونه .

روى مَعْمَر عن وهب بن عبد الله بن أبى الطُّفَيْل قال : شهدت عليًّا رضى الله عنه يخطب ويقول : «سَلُونى ، فوَ اللهِ لا تسألونى عن شىء إلا أخبرتكم . وسَلُونِى عن كِتَابِ اللهِ ، فوَ اللهِ ما من آيةٍ إلّا وأنا أعلمُ أبِلَيْلٍ نَزَلَتْ أمْ بِنهارٍ ؟ أفى سهلٍ أمْ فى جَبَلٍ ؟ » .

وفى رواية عنه قال : « وَاللهِ ما نَزَلَتْ آيةٌ إلّا وقد علمتُ فِيمَ أُنْزِلَتْ ؟ وأين أنزلت ؟ إنَّ رَبِّى وَهَبَ لى قلباً عَقُولًا ، ولساناً سَؤُولا » اهـ .

وقد كثرت الروايات أيضاً عن ابن مسعود . وحسبك فى معرفة خطره وجلالة قدره ما رواه أبو نعيم عن أبى البحترى قال : قالوا لعلى : أخبرنا عن ابن مسعود ؟ قال : علم القرآن والسنة ثم انتهى ، وكفى بذلك علماً ! .

وأما ابن عباس فهو ترجمان القرآن بشهادة رسولِ اللهِ ﷺ . فعن مجاهد قال : قال ابن عباس ، قال لى رسول الله ﷺ : « نِعْمَ تَرْجُمَانُ القرآنِ أنْتَ » ! وأخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « نِعْمَ تَرْجُمَانُ القرآنِ عَبدُ اللهِ ابن عباس» . وقد دعا له النبى ﷺ بقوله : «اللهم فَقِّهْهُ فى الدين وعَلِّمْهُ التَّأويل» ورُوى أن رجلًا أتى ابن عمر يسأله عن السموات والأرض كانتا رَتْقاً ففَتَقْنَاهُمَا . أى من قوله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا » فقال : اذهب إلى ابن عباس ، ثم تعال أخبرنى . فذهب ، فسأله فقال : « كانت السموات رتقاً لا تمطر ، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت ، ففتق هذه بالمطر ، وهذه بالنبات » فرجع

إلى ابن عمر فأخبره فقال : « قد كنت أقول: ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن . فالآن قد علمت أنه أوتي علماً » ا هـ .

لكن يجب الحيطة فيما عُزِيَ إلى ابن عباس من التفسير ، فقد كثر عليه فيه الدسّ والوضْع ، كما سيأتي .

وكذلك أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ بن قيس الأنصاري أحد كتاب الوحي فقد كان رضي الله عنه من المكثرين في التفسير المبرّزين فيه ، كما اشتهر في القراءة وبرّز فيها روى له في التفسير أبو جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي ابن كعب . وإسناده صحيح .

وأما الباقي من العشرة ، وهم زيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، وعبد الله ابن الزبير ، فمع شهرتهم في التفسير كانوا أقل من الأربعة الذين قبلهم .

وقد ورد عن جماعة من الصحابة غير هؤلاء العشرة ، شيء من التفسير ، بَيْدَ أنه قليل . منهـــم أنس ، وأبو هريرة ، وابن عمر ، وجابر ، وعمرو بن العاص ، وعائشة أم المؤمنين ، رضي الله عنهم أجمعين .

هـ — تفسير ابن عباس

الرواية عنه واختلاف الرواة فيها

أكثر الصحابة تفسيراً ابن عباس . ذلك لما عرفت من أنه ترجمان القرآن ، ولتأخر الزمان به حتى اشتدّت حاجة الناس إلى الأخذ عنه بعد اتساع الإسلام ، واستبحار العمران ، ولانقطاعه وتفرغه للنشر والدعوة والتعليم ، دون أن تشغله خلافة ، أو تصرفه سياسة وتدبير لشئون الرعية ، غير أن الرواية عنه مختلفة الدرجات .

قال السيوطي في الإتقان : «ورد عن ابن عباس في التفسير ما لا يحصى كثرة بروايات

وطرق مختلفة ، فمن جيِّدها طريق علي بن أبى طلحة الهاشمي عنه . قال أحمد بن حنبل : « بمصر صحيفة فى التفسير رواها على بن أبى طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيراً » أسنده أبو جعفر النحاس .

قال ابن حجر : وهذه النسخة كانت عند أبى صالح كاتب اللَّيث، رواها عن معاوية ابن أبى صالح ، عن على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس . وقد اعتمد عليها البخارى فى صحيحه كثيراً فيما يعلق عن ابن عباس . وقال قوم : لم يسمع ابن أبى طلحة من ابن عباس التفسير، وإنما أخذه عن مجاهد أو سعيد بن جبير . ثم قال ابن حجر : بعد أن عُرفت الواسطة وهو ثقة ، فلا ضير فى ذلك ا هـ .

وأخرج منها ابن جرير الطبرى، وابن أبى حاتم، وابن المنذر كثيراً، ولكن بوسائط بينهم وبين أبى صالح .

ومن جيِّد الطرق عن ابن عباس طريق قيس عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عنه . وهذه الطريق صحيحة على شرط الشيخين. وكذا طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبى محمد مولى آل زيد بن ثابت عن عكرمة، أو سعيد بن جبير عنه . هكذا بالترديد، وإسنادها حسن وقد أخرج فيها ابن جرير وابن أبى حاتم كثيراً .

وأوهى طرقه طريق الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس . وكذا طريق مقاتل بن سليمان وطريق الضحّاك بن مُزاحِم عن ابن عباس منقطعة ، فإن الضحاك لم يلقه . وبالجملة فقد روى عن الشافعى أنه قال: «لم يَثْبُتْ عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيهٌ بمائة حديث».

و — الرواية عن غير ابن عباس من الصحابة

نحدثك عن ثلاثة أعلام من الصحابة فى التفسير ، غير ابن عباس :

(أولهم) عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، كان سادس ستة ماعلى وجه الأرض مسلم سواهم ، وكان خادم رسول الله ﷺ يلبسه نعليه ، ويمشى معه وأمامه ، فكان له من هذه الصلة النبوية خير مثقف ومؤدب . لذلك عدوه من أعلم الصحابة بكتاب الله ومعرفة محكمه ومتشابهه وحلاله وحرامه . قال فى الإتقان : قد روى عن ابن مسعود فى التفسير أكثر مما روى عن على كرم الله وجهه . وأخرج ابن جرير وغيره عنه أنه قال : « والله الذى لا إله غيره ، مانزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت ؟ ؟ . ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته » . روى عنه كثيرون ، ولكن تتبعهم العلماء بالنقد والتجريح .

(ثانيهم) على بن أبى طالب رضى الله عنه . هو ابن عم رسول الله ﷺ ؛ وصهره على ابنته السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، والخليفة الرابع من بعده . ولد رضى الله عنه وشب ودرج فى الإسلام ؛ فلم يسجد لصنم قط . وكان لصلته الوثيقة برسول الله ﷺ أثر عظيم فى استنارة نفسه ، وغزارة مادته ، وسعة علمه ، بله ماوهبه الله من فطرة صافية ، وذكاء نادر ، وعقل موهوب . حتى ضرب به المثل فى حل المشاكل فقيل : « قضية ولا أباحسن لها » . قال ابن عباس « ما أخذت من تفسير القرآن فعن على بن أبى طالب » اهـ وحسبك هذه الشهادة من ترجمان القرآن .

لكن ابتلى على رضى الله عنه بشيعة أسرفوا فى حبه ؛ وجاوزوا الحد فى تقديره ، فنسبوا إليه ماهو منه برىء وقولوه مالم يقل ، لذلك يلاحظ أن المروى عن على فيه دس

كثير ، تصدّى له صيارفة النقدمن رجال الرواية ، حتى مازوا ماصحّ مما لم يصح « وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ »

(ثالثهم) أبى بن كعب الأنصارى، كان من أعلام القراء، ومن كتّاب الوحى ، وممن شهد بدراً . ورد فيه : « وأقرؤهم لكتاب الله عز وجل أبى بن كعب » روى أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب نسخة كبيرة فى التفسير ، أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم منها كثيراً وكذا أخرج الحاكم فى مستدركه، وأحمد فى مسنده .

ز — المفسرون من التابعين

طبقاتهم ، ونقد المروى عنهم

نستطيع أن نعتبر التابعين طبقات ثلاثاً : طبقة أهل مكة ، وطبقة أهل المدينة وطبقة أهل العراق

طبقة أهل مكة

أما طبقة أهل مكة من التابعين، فقد كانوا أعلم الناس بالتفسير . نقل السيوطى عن ابن تيمية أنه قال: « أعلم الناس بالتفسير أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس . كمجاهد وعطاء بن أبى رباح ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وطاووس » .

(أما مجاهد) فقد كان أوثق من روى عن ابن عباس . ولذا يعتمد على تفسير الشافعى والبخارى وغيرهما من أقطاب العلم وأئمة الدين ، قال النووى: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به . وقال الفضيل بن ميمون: سمعت مجاهداً يقول: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة. وعنه أيضاً قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات،

أقف عند كل آية منه ، أسأله عنها . فيم أنزلت ؟ وكيف كانت ؟ .

ولا تعارض بين هاتين الروايتين، فالإخبار بالقليل لا ينافى الإخبار بالكثير. ويحتمل أن عرضه القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة كان طلباً لضبطه وتجويده وحسن أدائه. وأما عرضه إياه ثلاث مرات فكان طلباً لتفسيره ومعرفة أسراره وحكمه وأحكامه . كما يدل عليه قوله : أقف عند كل آية منه أسأله عنها: فيم أنزلت ؟ وكيف أنزلت ؟؟ .

(وأما عطاء وسعيد) فقد كان كل منهما ثقة ثبتاً فى الرواية عن ابن عباس . قال سفيان الثورى : خذوا التفسير عن أربعة : عن سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة والضحاك . وقال قتادة : أعلم التابعين أربعة ، كان عطاء بن أبى رباح أعلمهم بالمناسك ، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير الخ . وقال أبو حنيفة : ما لقيت أحداً أفضل من عطاء .

(وأما عكرمة مولى ابن عباس) فقد قال الشافعى فيه: ما بقى أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة اهـ . وقال عكرمة : كان ابن عباس يجعل فى رجلى الكبل[1] ويعلمنى القرآن والسنة وكان يقول : لقد فسرت ما بين اللوحين (لعله يريد ما بين دفتى المصحف) . وكل شىء أحدثكم فى القرآن فهو عن ابن عباس اهـ .

(وأما طاووس بن كيسان اليمانى) فقد كان من رجال العلم والعمل . وأدرك من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم نحو الخمسين . ورد أنه حج بيت الله الحرام أربعين مرة وكان مجاب الدعوة . قال فيه ابن عباس : إنى لأظن طاووساً من أهل الجنة اهـ . رضى الله عنهم أجمعين .

---

(١) الكبل « بفتح الكاف وكسرها مع سكون الباء » : القيد ، انظر القاموس .

طبقة أهل المدينة :

(منهم) زيد بن أسلم . وقد أخذ عنه ابنه عبد الرحمن ، ومالك بن أنس إمام دار الهجرة .

(ومنهم) أبو العالية ، وهو من رواة أبى بن كعب . وقد روى عنه الربيع ابن أنس .

(ومنهم) محمد بن كعب القرظى الذى قال فيه ابن عون : ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القرظى .

طبقة أهل العراق :

(منهم) مسروق بن الأجدع . كان ورعاً زاهداً صحب ابن مسعود . قال ابن معين فيه : « ثقة لا يسأل عنه ». وكان القاضى شريح يستشيره فى معضلات المسائل . روى عنه الشعبي وأبو وائل وآخرون لصدق روايته وأمانته .

(ومنهم) قتادة بن دعامة . هو من رواة ابن مسعود ، شهد له ابن سيرين بالضبط والحفظ . وقال فيه ابن المسيب : ما رأيت عراقياً أحفظ من قتادة . غير أنه كان يخوض فى القضاء والقدر ، فتحرّج بعض الناس من الرواية عنه . وقد احتجّ به أرباب الكتب الصحيحة .

(منهم) أبو سعيد الحسن البصرى . قال ابن سعد فيه : كان ثقة مأموناً وعالماً جليلًا ، وفصيحاً جميلًا ، وتقياً نقيا . حتى قيل إنه سيد التابعين .

(ومنهم) عطاء بن أبى مسلم الخراسانى . أصله من البصرة لكنه أقام بخراسان بعد أن دخلها . لذلك نسب إليها . كان من أجلاء العلماء ، غير أنه كان مصاباً بسوء الحفظ ، لذلك اختلفوا فى توثيقه .

(ومنهم) مرة الهمذانى الكوفى . لكثرة عبادته قيل له : مرة الطيب ، ومرة الخير ،

أخذ عن أبي بن كعب وعمر بن الخطاب وغيرهما من الصحابة، وروى عنه الشعبي وغيره .

هؤلاء هم أعلام المفسرين من التابعين ، استمدوا آراءهم وعلومهم مما تلقوه من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

وعنهم أخذ تابعو التابعين، وهكذا، حتى وصل إلينا دين الله وكتابه وعلومه ومعارفه سليمة كاملة ، عن طريق التلقي والتلقين ، جيلًا عن جيل ، مصداقًا لقوله سبحانه : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » . ولقوله ﷺ « يَحْمِلُ هذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُـدُولُهُ ، يَنْفُونَ عنهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ » .

نقد المروى عن التابعين :

يلاحظ على ماروى عن التابعين اعتبارات مهمة ، تثير الطعن فيه، وتوجِّه النقد إليه:

(منها) أنهم لم يشاهدوا عهد النبوة، ولم يتشرفوا بأنوار الرسول ،فيغلب على الظن أن ما يُروى عنهم من تفسير القرآن ، إنما هو من قبيل الرأى لهم ، فليس له قوة المرفوع إلى النبي ﷺ .

(ومنها) أنه يندر فيه الإسناد الصحيح .

(ومنها) اشتماله على إسرائيليات وخرافات انسابت إليه تارةً من زنادقة الفرس ، وأخرى من بعض مُسْلِمَةِ أهل الكتاب ، إما بحسن نية وإما بسوء نية .

ح ـ ضعف الرواية بالمأثور وأسبابه

علمنا أن الرواية بالمأثور ، تتناول ما كان تفسيراً للقرآن بالقرآن . وما كان تفسيراً للقرآن بالسنة ، وما كان تفسيراً للقرآن بالموقوف على الصحابة أو التابعين على رأى .

أما تفسير بعض القرآن ببعض ، وتفسير القرآن بالسنة الصحيحة المرفوعة إلى النبى ﷺ ،فلا خلاف فى وجاهته وقبوله. وأما تفسير القرآن بما يعزى إلى الصحابة والتابعين فإنه يتطرق إليه الضعف من وجوه :

(أولها) مادسّه أعداء الإسلام مثل زنادقة اليهود والفرس،فقد أرادوا هدم هذا الدين المتين عن طريق الدسّ والوضع، حينما أعيتهم الحيل فى النيل منه عن طريق الحرب والقوة، وعن طريق الدليل والحجة .

(ثانيها) مالفقه أصحاب المذاهب المتطرفة ترويجا لتطرفهم ، كشيعة علىّ المتطرفين الذين نسبوا إليه ماهو منه برىء. وكالمتزلفين الذين حطبوا فى حبل العباسيين،فنسبوا إلى ابن عباس مالم تصح نسبته إليه ، تملقاً لهم واستدراراً لدنياهم .

(ثالثها) اختلاط الصحيح بغير الصحيح ، ونقل كثير من الأقوال المعزوّة إلى الصحابة أو التابعين من غير إسنادٍ ولا تحرٍّ ، مما أدّى إلى التباس الحق بالباطل . زد على ذلك أن من يرى رأياً يعتمده دون أن يذكر له سنداً ، ثم يجىء من بعده فينقله على اعتبار أن له أصلاً ، ولا يكلف نفسه البحث عن أصل الرواية،ولا من يرجع إليه هذا القول .

(رابعها) أن تلك الروايات مليئة بالإسرائيليات،ومنها كثير من الخرافات التى يقوم الدليل على بطلانها. ومنها ما يتعلق بأمور العقائد التى لا يجوز الأخذ فيها بالظن ولا برواية

الآحاد، بل لا بد من دليل قاطع فيها، كالروايات التي تتحدث عن أشراط الساعة، وأهوال القيامة، وأحوال الآخرة تذكرُ على أنها اعتقاديات فى الإسلام.

(خامسها) أن ما نقل نقلاً صحيحاً عن الكتب السابقة التى عند أهل الكتاب كالتوراة والإنجيل، أمرنا الرسول ﷺ أن نتوقف فيه، فلا نصدقهم لاحتمال أنه مما حرفوا فى تلك الكتب، ولا نكذبهم لاحتمال أنه مما حفظوه منها، فقد قال تعالى فيهم: «أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والاختلاف فى التفسير على نوعين: منه ما مستنده النقل فقط، ومنه ما يعلم بغير ذلك، والمنقول إما عن المعصوم أو غيره، ومنه ما يمكن معرفة الصحيح منه من غيره، ومنه ما لا يمكن ذلك. وهذا القسم (أى الذى لا يمكن معرفة صحيحه من ضعيفه) عامته مما لا فائدة فيه ولا حاجة بنا إلى معرفته وذلك كاختلافهم فى لون كلب أهل الكهف واسمه، وفى البعض الذى ضرب به القتيل من البقرة، وفى قدر سفينة نوح وخشبها، وفى اسم الغلام الذى قتله الخضر، ونحو ذلك. فهذه الأمور طريقة العلم بها النقل. فما كان منها منقولاً نقلاً صحيحاً عن النبى صلى الله عليه وسلم قُبلَ. وما لا بأن نقل عن أهل الكتاب ككعب ووهب وقفَ عن تصديقه وتكذيبه، لقوله صلى الله عليه وسلم: «إذا حدثكم أهلُ الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم». وكذا ما نقل عن بعض التابعين وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب. فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض. وما نقل عن الصحابة نقلا صحيحاً فالنفس إليه أسكن مما ينقل عن التابعين، لأن احتمال أن يكون سمعه من النبى صلى الله عليه وسلم أو من بعض من سمعه منه أقوى، ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقلُّ من نقل التابعين. ومع جزم الصحابى بما يقوله كيف يقال: إنه أخذه عن أهل الكتاب وقد نهوا عن تصديقهم؟.

وأما القسم الذى يمكن معرفة الصحيح منه فهذا موجودٌ كثيراً. ولله الحمد،

وإن قال الإمام أحمد : « ثلاثة ليس لها أصل : التفسير وَالْمَلَاحِمُ والمغازى » ، وذلك لأن الغالب عليها المراسيل .

وأما مايُعلم بالاستدلال لا بالنقل ، فهذا أكثر ما فيه الخطأ من جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان . . . ثم ذكر الجهتين اللتين هما مثار الخطأ فقال : (إحداهما) حمل ألفاظ القرآن على معانٍ اعتقدوها؛ لتأييدها به . (والثانية) التفسير بمجرد دلالة اللغة العربية من غير مراعاة المتكلم بالقرآن وهو الله عزَّ وجل ، والمنزل عليه؛ والمخاطب به » اهـ أردنا نقله بتصرف قليل .

قال بعضهم : « هذا وإن كلام ابن تيمية لا ينقض قول الإمام أحمد ، فإنه لم يَعْنِ به أنه لا يوجد في تلك الثلاثة رواية صحيحة ألبتة . وإنما يَعنى أن أكثرها لا يصح له سند متصل ، وما صحَّ سنده إلى بعض الصحابة يقل فيه المرفوع الذى يحتجُّ به .

إلى أن قال : ثم إن أكثر ما رُوى فى التفسير المأثور أو كثيره ، حجابٌ على القرآن وشاغل لتاليه عن مقاصده العالية المزكّية للأنفس ، المنوِّرة للعقول . فالمفضلون للتفسير المأثور لهم شاغل عن مقاصد القرآن بكثرة الروايات التى لا قيمة لها سنداً ولا موضوعاً » اهـ ما أردنا نقله .

وكلمة الإنصاف فى هذا الموضوع أن التفسير بالمأثور نوعان : (أحدهما) ما توافرت الأدلة على صحّته وقبوله ، وهذا لا يليق بأحد ردُّه ، ولا يجوزُ إهماله وإغفاله ، ولا يجمل أن نعتبره من الصوارف عن هَدْى القرآن ، بل هو على العكس عامل من أقوى العوامل على الاهتداء بالقرآن .

(ثانيهما) مالم يصح لسبب من الأسباب الآنفة أو غيرها . وهذا يجب ردُّه ولا يجوز قبوله ولا الاشتغال به؛ اللهم إلا لتمحيصه والتنبيه إلى ضلاله وخطئه حتى لا يغتر به أحد . ولا يزال كثير من أيقاظ المفسرين كابن كثير يتحرَّوْن الصحة فيما ينقلون ، ويزيِّفون ماهو باطل أو ضعيف ولا يحابون ولا يجبنُون .

ولعل الذين أطلقوا القول فى رد المأثور إنما أرادوا المبالغة ؛ كما علمت فى توجيه كلمة الإمام أحمد بن حنبل . وعذرهم أن الصحيح منه قليل نادر ونزرٌ يسير ، حتى لقد قال الإمام الشافعى رضى الله عنه : « لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيهٌ بمائة حديث » أى مع كثرة ماروى عنه. وقد أشار ابن خلدون إلى أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم . وإنما غلبت عليهم البداوة والأُمية . وإذا تشوّفوا إلىَ معرفة شيء مما تتشوف إليه النفوس البشرية فى أسباب المكوّنات وبدء الخليقة وأسرار الوجود، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ؛ ويستفيدون منهم . إلى أن قال : وهؤلاء مثل كعب الأحبار ؛ ووهب ابن منبِّه ، وعبد الله بن سَلام . فامتلأت التفاسير من المنقولات عنهم وتُلُقِّيَتْ بالقبول، لما كان لهم من المكانة السامية . ولكن الراسخين فى العلم قد تحرّوا الصحة ، وزيفوا مالم تتوافر أدلَّة صحته اهـ بتصرف .

ملحوظة :

إياك أن تفهم هنا من عبارة ابن خلدون أو ابن تيمية أو غيرهما مايجملك تخوض مع الخائضين فى هؤلاء الأعلام الثلاثة: عبد الله بن سلام، ووهب بن منبِّه، وكعب الأحبار. فقد ضلَّ بعض الأدباء والمؤرخين من كبار الكتاب فى هذا العصر ، حين زعموا ذلك، حتى لقد سلكوا عبد الله بن سلام الصحابى الجليل فى سلك واحد مع عبد الله بن سبأ اليهودى الخبيث : الذى تظاهر بالإسلام ثم كاد له شر الكيد ، فتشيَّع لعلىّ ، وزعم أن الله حلَّ فيه وطعن على عثمان ، وأظهر الرفض عند حكم الحكمين بصفِّين ، ودعا الناس إلى ضلاله الأثيم ، حتى نُفى مراراً .

والحقيقة أن ثلاثتنا هؤلاء عدول ثقات :

أما ابن سلام فحسبك أنه صحابى من خيرة الصحابة ، ومن المبشرين بالجنة ، يروى الترمذى عن معاذ رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنَّهُ

عاشرُ عشرةٍ فى الجنةِ » وفيه نزلت آية : « وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ » وآية : « وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » على ماجاء فى بعض الروايات .

وأما وهب بن مُنَبِّه فقد كان تابعاً ثقةً واسع العلم . روى عن أبى هريرة كثيراً ، وله حديث فى الصحيحين عن أخيه همَّام . بلغ من تنسُّكه وصلاحه أنه لبث عشرين سنة يصلى الفجر بوضوء العشاء رضى الله عنه .

وأما كعب فقد كان تابعاً جليلا ، أسلم فى خلافة أبى بكر . وناهيك أن الصحابة أخذوا عنه ، كما أخذ هو عن الصحابة ، وروى عنه جماعة من التابعين مُرسلا . وله شىء فى صحيح البخارى وغيره .

ولكن يجب أن نفرق فى هذا المقام بين مايصحُّ أن يقال فيهم وما يصح أن ينقل عنهم . فأما مايصح أن يقال فيهم فهو الثقة والتقدير على نحو ما ألمعنا . وأما الذى ينقل عنهم فمنه الصحيح وغير الصحيح . لكن عدم صحة مالم يصح لا يعلل باتهامهم وجرحهم ؛ فقد علمت مَنْ هُمْ ؟ إنما يعلل بأحد أمرين :

(أولهما) رجال السند الذين ينقلون عنهم ، فقد يكون بينهم مُتهم فى عدالته أو ضبطه ، ولهذا يجب النظر فى سلسلة الرُّواة عنهم ، رجُلاً رجلا . ولدينا من كتب الجرح والتعديل مايفى بهذه الغاية . ولا يكفى الاعتماد على ذكر السند فى كتاب كبير كتفسير ابن جرير ، فقد يذكر ابن جرير أو غيره أشياء غير صحيحة ، ويسوق أسانيدها ثم لا يبين المجروح من رجال السند ولا المعدَّل فيهم . وعذره فى ذلك أن أحوال الرجال كانت معروفة لأهل ذلك الزمان فيستطيعون أن يحكموا فى ضوء هذه المعرفة بقبول الخبر أو برده . أما نحن فى هذا الزمان المتأخِّر فقد أهملنا هذا الميزان ، ولم نُعْنَ بمعرفة حال الأسانيد والرجال ، فاللوم علينا لا على أولئك الأعلام ، ولا مَعْدَى لنا عن الاسترشاد بكتب الجرح والتعديل فى هذا المقام .

(الأمر الثانى) أن يكون أولئك الثلاثة قد رَوَوْا ما رووه على أنه مما كان فى

الإسرائيليات ، فتقبلها الآخذون على أنها من الإسلاميات . ولهذا يجب النظر فى هذه المرويَّات ، فإن كانت مما يقرره الإسلام قبلناها . وإن كانت مما يَرُدُّه رددناها ، وإن كانت مما سكت عنه سكتنا عنها عملاً بقوله ﷺ : « إذا حدّثكم أهلُ الكتابِ فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » . رواه البخارى بهذا اللفظ . ورواه أحمد والبزار من حديث جابر بلفظ : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء ، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، وإنكم إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل . والله لو كان موسى بين أظهرِكم ما حلّ له إلا اتباعى » . وسبب هذا الحديث أن النبى ﷺ علم أن عمر كتب شيئاً من التوراة عن اليهود ، فغضب ﷺ وقاله .

ط ــ تدوين التفسير بالمأثور
وخصائص الكتب المؤلفة فى ذلك

جاء قرن تابعى التابعين ، وفيه أُلِّفَتْ تفاسير كثيرة ، جمعت من أقوال الصحابة والتابعين . كتفسير سفيان بن عيينة ، ووكيع بن الجراح ، وشعبة بن الحجاج ، ويزيد بن هارون ، وعبد الرزاق ، وآدم بن أبى إياس ، وإسحاق بن راهويه ، وروح بن عبادة ، وعبد بن حميد ، وأبى بكر بن أبى شيبة ، وعلى بن أبى طلحة ، والبخارى وآخرين . ومن بعدهم أَلَّف ابن جرير الطبرى كتابه المشهور ، وهو من أجلّ التفاسير ثم ابن أبى حاتم ، وابن ماجه ، والحاكم ، وابن مردويه وابن حبان ، وغيرهم .

وليس فى تفاسير هؤلاء إلا ماهو مسند إلى الصحابة والتابعين وتابعيهم ، ماعدا ابن جرير فإنه تعرض لتوجيه الأقوال ، وترجيح بعضها على بعض . وذكر الإعراب والاستنباط .

(١) تفسير ابن جرير

ابن جرير هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبرى ولد سنة ٢٢٤ أربع وعشرين ومائتين. وتوفى سنة ٣١٠ عشر وثلاثمائة. كان فريد عصره، ووحيد دهره، علماً وعملاً وحفظاً لكتاب الله، وخبرة بمعانيه، وإحاطة بالآيات ناسخها ومنسوخها، وبطرق الرواية صحيحها وسقيمها، وبأحوال الصحابة والتابعين.

لذلك كان تفسيره من أجلّ التفاسير بالمأثور وأصحها وأجمعها. لما ورد عن الصحابة والتابعين. عرضَ فيه لتوجيه الأقوال، ورجح بعضها على بعض، وذكر فيه كثيراً من الإعراب واستنباط الأحكام. وقد شهد العارفون بأنه لا نظير له فى التفاسير:

قال النووى فى تهذيبه: كتاب ابن جرير فى التفسير لم يصنف أحد مثله. وقال أبو حامد الأسفرايينى شيخ الشافعية: لو رحلَ أحد إلى الصين ليحصل تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيراً عليه.

ومن مزاياه أنه، حرّر الأسانيد وقرّب البعيد؛ وجمع ما لم يجمعه غيره غير أنه قد يسوق أخباراً بالأسانيد غير صحيحة ثم لا ينبه على عدم صحتها وقلنا إن عذره فى ذلك هو ذكر السند فى زمن توافر الناس فيه على معرفة حال السند من غير توقف على تنبيه منه. وهذا التفسير موجود إلى اليوم ومنتشر مطبوع، وهو عمدة لأكثر المفسرين.

(٢) تفسير أبى الليث السمرقندى

هو تفسير بالمأثور. يذكر فيه كثيراً من أقوال الصحابة والتابعين، غير أنه لا يذكر الأسانيد. وهو مخطوط فى مجلدين. وموجود فى مكتبة الأزهر.

(٣) الدر المنثور فى التفسير بالمأثور

هو للإمام جلال الدين السيوطى ، قال فى مقدمته : إنه لخصه من كتاب ترجمان القرآن ، وهو التفسير المسند إلى رسول الله ﷺ ، وهو مطبوع بمصر ، وقد ذكر فى كتابه الإتقان أنه شرع فى تفسير جامع لما يحتاج إليه من التفاسير المنقولة ، والأقوال المعقولة ، والاستنباط والإشارات ، والأعاريب واللغات ، ونكت البلاغة ومحاسن البديع . وسماه مجمع البحرين، ومطلع البدرين. وذكر أنه جعل كتاب الإتقان مقدمة له. وذكر فى خاتمة كتاب الإتقان نبذة صالحة من التفسير بالمأثور المرفوع إلى النبى ﷺ من أول الفاتحة إلى سورة الناس .

(٤) تفسير ابن كثير

ابن كثير هو عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن الخطيب أبى حفص عمر القرشى الدمشقى الشافعى المولود سنة ٧٠٥ المتوفى سنة ٧٧٤ . وتفسيره هذا من أصح التفاسير بالمأثور إن لم يكن أصحها جميعاً . نقل فيه عن النبى ﷺ وكبار الصحابة والتابعين . وقد أخرجته مطبعة المنار بمصر فى تسعة أجزاء . ومعه بأسفل الصفحات تفسير البغوى الآتى ذكره ، وبآخره كتاب فضائل القرآن الذى يعتبر متمماً له .

(٥) تفسير البغوى

هو العلامة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوى الفقيه الشافعى. كان إماماً فى التفسير والحديث . له التصانيف المفيدة ، ومنها معالم التنزيل . أتى فيه بالمأثور ، ولكن مجرداً عن الأسانيد .

(٦) تفسير بقىّ بن مخلد

ذكر الإمام السيوطى فى طبقات المفسرين أن بقىّ بن مخلد بن يزيد بن عبدالرحمن

الأندلسى القرطبي أحد الأعلام وصاحب التفسير والسند. أخذ عن يحيي بن يحيي الليثى. ورحل إلى المشرق . ولقى الكبار بالحجاز ومصر وبغداد . وسمع من أحمد بن حنبل وسمع بالكوفة أبا بكر بن أبى شيبة. وسمع بمصر يحيي بن بكير. وسمع بالحجاز أبامصعب الزهرى . وسمع بدمشق هشام بن عمار . وشيوخه مائتان وأربعة وثمانون رجلا. وكان إماماً ، زاهداً ، صواماً ، صادقاً ، مجاب الدعوة ، قليل المثل ، بحراً فى العلم، مجتهداً لا يقلد أحدا ، عُنِىَ بالأثر ، وليس لأحد مثل سنده فى الحديث ولا فى التفسير .

قال ابن حزم: أقطع أنه لم يؤلف فى الإسلام مثل تفسيره، لا تفسير ابن جرير ولا غيره ولد سنة ٢٠٤ أربع ومائتين للهجرة . وتفسيره الموصوف بما ترى يؤسفنا أنه لم يكتب له البقاء ولم يظفر بما ظفر به تفسير ابن جرير من هذا الخلود .

« وكم فى الخدرِ أبهى منْ عروس ولكنْ للعروس الدهـرُ ساعدْ »

(٧) أسباب النزول للواحدى :

هو أبو الحسن علىّ بن أحمد الواحدى النيسابورى: اقتصر فى تفسيره على بيان أسباب النزول بالمأثور ، وهذا نوع من التفسير لا مجال للتأويل فيه . وهو من أعظم ما ألف فى موضوعه ، على رغم توسط حجمه .

(٨) الناسخ والمنسوخ لأبى جعفر النحاس :

هو كتاب نفيس . تحدّث فيه مؤلفه عن الناسخ وذكر أقوال العلماء فى ذلك مسندةً . وقد استوعب ماقيل فى النسخ ولو لم يكن عنده صحيحاً . وهذا نوع لا مجال للرأى فيه أيضاً ، بل سبيله الوحيدة هى الرواية . وهو معدود هنا من التفسير بالمأثور ، على ضرب التوسع كما لا يخفى .

طرق المفسرين بعد العصر الأول

ثم إن كتب التفسير بالمأثور موسوعات كبيرة ، لا نستطيع الإحاطة بها ولا بأسماء

جميع مؤلفيها ، ولا بطرق كل مؤلف فيها . غير أنا نستطيع أن نجمل القول فى طرق المفسرين بعد العصر الأول فنقول :

بعد عصر الأولين الذين ألفوا فى التفسير بالمأثور، والتزموا ذكر السند بجملته، جاء قوم صنفوا فى التفسير؛ واختصروا الأسانيد، ولم ينسبوا الأقوال لقائليها . فالتبس بذلك الصحيح وغيره. وصار الناظر فى تلك الكتب يظنها كلها صحيحة. بينما هى مفعمة بالقصص وبالإسرائيليات على وجه لا تمييز فيه كأنها كلها حقائق . ومن هنا استهدفت رواياتهم للتجريح والطعن. ولولا مايقوم به المحققون فى كل عصر من إحقاق الحق ودحض الباطل، لانطمست المعالم ، واختلط الحابل بالنابل، ولكان ذلك مثار مطاعن توجه بلا حساب إلى الإسلام والمسلمين . فقد ذكروا فى قصص الأنبياء ، وفى بدء الخليقة ، والزلازل ، ويأجوج ومأجوج، وبرودة الماء الذى فى الآبار زمن الصيف ، وحرارته فى الشتاء ذكروا فى ذلك كله ما يندى له الجبينُ خجلًا ، وما لا يتفق والحقائق العلمية أبداً . وياليتهم نبهوا على وضعه ! لو أنهم فعلوا لكان الأمر هيناً . ولكنهم لم يذكروا السند كما ذكر الأولون ليستطيع المطلع عليه نقده بالرجوع إلى كتب الجرح والتعديل . ثم لم يكلفوا أنفسهم الحكم على السند بعد محاكمته إلى كتب العدل والتجريح . «وتلك ثالثة الأثافى»..

وقد عُنى بعض المفسرين بأن يسرد شتات الأقوال ، حتى إنه ذكر فى تفسير قوله سبحانه: «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ» نحو عشرة أقوال، مع أن الوارد الصحيح تفسير المغضوب عليهم باليهود، وتفسير الضالين بالنصارى . ولكن الولوع بكثرة النقول، نأى بهم عن الاقتصار على التفسير المقبول .

وكذلك نلاحظ أن كل بارع فى فن يقتصر غالباً فى تفسيره على الفن الذى برع فيه . فالمبرِّز فى العلوم العقلية كالفخر الرازى ، أُغرمَ باستعراض أقوال الحكماء والفلاسفة وشبههم والرد عليها فى تفسيره . والمبرز فى الفقه كالقرطبى، أُولعَ بتقرير الأدلة للفروع الفقهية والرد على المخالفين . والمبرز فى النحو كالزجاج والواحدى فى البسيط وأبى حيان فى البحر، يهتم أعظم الاهتمام بالإعراب ووجوهه، ونقل قواعد النحو وفروعها.

وأصحاب المذاهب المتطرفة ، والنحل الضالة ، يقصدون إلى تأويل الآيات على ما يروج مذاهبهم فى التطرف والضلال .

والأخباريون يعنيهم أن يستقصوا القصص والأخبار عمن سلف ، صحيحة كانت أو باطلة .

والإشاريون وأرباب التصوف تهمهم ناحية الترغيب والترهيب والزهد والقناعة والرضا فيفسرون القرآن بما يوافق مشاربهم وأذواقهم . وعلى الإجمال نرى كل نابغة فى فن . أو داعية إلى مذهب أو فكرة، يجتهد فى تفسير الآيات بما يوافق فنه ، ويلائم مشربه ، ويناصر مذهبه، ولو كان بعيداً كل البعد عن المقصد الذى نزل من أجله القرآن.

ولقد غالى بعضهم فجعل القرآن مشتملا على العلوم الكونية، كالطبيعة، والكيمياء والحساب ، والجبر. وما إلى ذلك . وقد سبق أن حققنا ذلك فى المبحث الأول فارجع إليه إن شئت . وربما نعود إلى القول فى هذا الموضوع مرةً أخرى .

والخلاصة هنا : أنه يجب على المفسر ملاحظة أن القرآن كتاب هداية وإعجاز، وأن يجعل هدفه الأعلى ، ومقصده الأسمى ، إظهار هدايات الله من كلامه ، وبيان وجوه إعجازه فى كتابه : « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

التفسير المحمود والتفسير المذموم

تفسير الصحابة والتابعين ، وتفسير الذين اعتمدوا على أقوال الصحابة والتابعين بالأسانيد الصحيحة، وتفسير أهل الرأى الموفّق الذين جمعوا بين المأثور الصحيح مع حذف

أسانيده وبين آرائهم العلمية المعتدلة ، كل هذه الثلاثة من التفسير المحمود . ويغلب هذا النوع الثالث فى عصرنا الحاضر؛ إذ تجمع التفاسير لدينا بين معانٍ مأثورة، ومعان توسَّعوا فى ذكرها عن طريق الرأى والاجتهاد المعتمد على العلم والاعتدال .

وهناك نوع رابع، هو تفسير أهل الأهواء والبدع، وحكمه أنه مذموم. قالوا: وأشهر الغارقين فى هذا الضلال الرمانى والجُبَّائى والقاضى عبدالجبار. ثم اختلفوا فى الزمخشرى، فمنهم من عدَّ تفسيره من هذا النوع لما فيه من مناحى الاعتزال. ومنهم من قال: إن فيه فوائد مهمة. يريد بذلك أن يلتمس له المعاذير وأن يُغَلِّب جانب الفوائد التى فيه على جانب الاعتزال الذى يحتويه . ولكن عدالة الأحكام تقضى بأن نسوى بين جميع التفاسير وأن نحاكمها إلى مبدأ واحد، فما وافق منها وجه الصواب وكان بمنأى عن البدع والأهواء فهو محمود . وما تورَّط منها فى الخطأ وتخبَّط فى الهوى والبدعة فهو مذموم ، لافرق بين الزمخشرى وغير الزمخشرى ، ولا بين معتزلى وغير معتزلى .

ميزان المدح والذم

ثم إن هناك ميزاناً لما يحمد من التفسير وما يذمّ ،وهو الفَيْصَل الذى يجب أن نحكِّمه ونزن كل تفسير به ، فما رجح فى هذا الميزان قبلناه وحمدناه ،وما طاش رفضناه وذَمَمْناه، والمدح والذم درجات بعضها فوق بعض ، على حسب استيفاء التفسير لوجوه المدح والذم أو نقصها قليلا أو كثيراً. وسنضع هذا الميزان بين يديك تحت عنوان « منهج المفسرين بالرأى » . فانتظره رويداً .

غير أنا نسترعى نظرك هنا إلى كلمة أهل البدع والأهواء ، ونريد أن تكون موفقاً فى حكمك على أية طائفة أو أى شخص ببدعة أو هوى ، وإلا خيف عليك أن تكون أنت صاحب البدعة والهوى فى حكمك . « وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ

سَبِيلِ ٱللَّهِ . إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ ٱلْحِسَابِ » .

غلطة التعصُّب للرأى :

واعلم أن هناك أفراداً بل أقواماً تعصَّبوا لآرائهم ومذاهبهم، وزعموا أن من خالف هذه الآراء والمذاهب كان مبتدعاً متَّبعاً لهواه، ولو كان متأوِّلا تأويلا سائغا يتسع له الدليل والبرهان . كأن رأيهم ومذهبهم هو المقياس والميزان ، أو كأنه الكتاب والسنة والإسلام . وهكذا استزلَّهم الشيطان وأعماهم الغرور .

ولقد نجم عن هذه الغلطة الشنيعة أن تفرَّق كثير من المسلمين شيعاً وأحزاباً ، وكانوا حرباً على بعضهم وأعداء . وغاب عنهم أن الكتاب والسنة والإسلام أوسع من مذاهبهم وآرائهم ، وأن مذاهبهم وآراءهم أضيق من الكتاب والسنة والإسلام ، وأن فى ميدان الحنيفية السمحة متسعاً لحرية الأفكار ، واختلاف الأنظار ، ما دام الجميع معتصما بحبل من الله . ثم غاب عنهم أن الله تعالى يقول : « وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا . وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً » ويقول جلَّ ذكره : « إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ » ويقول تقدَّست أسماؤه : « وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَٱخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ . وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » .

لمثل هذا أرْبأُ بنفسى وبك أن نتَّهم مسلماً بالكفر أو البدعة والهوى لمجرد أنه خالفنا فى رأى إسلامى نظرى ، فإن الترامى بالكفر والبدعة من أشنع الأمور . ولقد قرَّر علماؤنا أن الكلمة إذا احتملت الكفر من تسعة وتسعين وجهاً ثم احتملت الإيمان من وجه واحد ، حُملت على أحسن المحامل وهو الإيمان . وهذا موضوع

مفروغٌ منه ومن التدليل عليه . لكن يفتُّ فى عضدنا غفلة كثير من إخواننا المسلمين عن هــذا الأدب الإسلامى العظيم ، الذى يحفظ الوحدة ، ويحمى الأخُوَّة ، ويُظهر الإسلام بصورته الحسنة ووجهه الجميـــل من السماحة واليسر ، واتساعه لكافة الاختلافات الفكرية والمنازع المذهبية ، والمصالح البشرية ، ما دامت معتصمة بالكتاب والسنة على وجه من الوجوه الصحيحة التى يحتملها النظر السديد والتأويل الرشيد .

ولقد حدث مثل هذا الاختلاف على عهد رَسول الله ﷺ بين أصحابه ، فما تنازعوا من أجله ، بل أخذ كلٌّ برأيه وهو يحترم الآخر ورأيه ، وأقرّهم الرسول ﷺ على ذلك ولم يَعِب أحداً منهم ، على رغم أنه يترتَّب على بعض هذه الاختلافات أن ترك بعضهم الصلاة فى وقتها اجتهاداً منه ، إذ قال الرسول ﷺ يوماً لفئة من أصحابه « لا يصلينّ أحدُكم العصرَ إلا فى بنَى قُرَيْظة » فسافروا وجدُّوا ، ولكن الغزالة تدلَّت للغروب وهم لا يزالون ضاربين فى الأرض ، ولما يَصِلوا . هنالك اجتهدوا ، فمنهم من وقف عند ظاهر النص فترك العصر حتى خرج وقته مادام لم يَصِلْ إلى بنى قريظة . ومنهم من تأوّل النصّ وحمله على الكناية فى الإسراع فصلّى حين خاف على الوقت من قبل أن يصل إلى بنى قريظة .

نقول : إن مثل هذا الخلاف حدث على عهد صاحب الرسالة وأقرّه ، تيسيراً على المسلمين وإعلاماً بأن الإسلام دين الكافة ، يسع جميع البشر فى كل العصور والأحوال. وشهد المسلمون بعد ذلك عصراً سعيداً كان أئمة الدين فيه يختلفون فيما بينهم كثيرا ، ولكنهم كانوا بجانب هذا يتكارمون ويتعاونون ويتراحمون كثيرا .

وإن كنت فى شك فاسأل التاريخ عن إكرام مالك للشافعى ، واحترام الشافعى لأحمد بن حنبل حتى ورد أنه كان يتبرّك بغُسالة قميصه ، أى يتبرك الأستاذ الإمام

بغسالة قميص تلميذه المخالف له فى الرأى والاجتهاد ! ثم سَل التاريخ عن معاونة صاحب أبى حنيفة للشافعى ، ودفعه إليه كتبه فى كرم وحسن ضيافة وصدق محبة ! ولا تنسَ إباء مالك على الرشيد أن يحمل الناس فى بلاد الإسلام كلها على مُوَطَّئِهِ ومذهبه، ويعتذر إليه بأن الإسلام أوسع من موطئه ومذهبه ، وأن أصحاب رسول الله ﷺ تفرّقوا فى البلاد وَلِكلٍّ وجْهَةٌ .

أرأيتَ هذا النُّبل والطُّهر : أَجَلْ أَجَلْ !! . ولكنك ستقضى الأسف حين ترى بجانبه فئاتٍ من المسلمين أيضاً تراشقوا بالكفر ، وتراموا بالشرك ، وتقاذفوا بالتبدُّع والهوى ، لمجرد تأويل يستسيغه النظر ، ويتّسع له صدر الاستدلال . ثم اتسع الخرق على الراقع فى بعض الظروف حتى دارت معارك طاحنة بين صفوفٍ كلُّها مسلمة ، وأريقت دماء زكية كلها إسلامية ! ولا نزال نشهد من مثل هــذا الصراع القائم على التنطع مشاهدَ ما كان أغنانا عنها ، وما كان أحرانا بالحذر منها ، خصوصاً بعد ما سمعنا من الآيات ، وبعد أن أقر الرسول أمثال هذه الخلافيات ، وبعد أن قال فى حديث واحد ثلاث مرات: « هَلَكَ ٱلْمُتَنَطِّعُونَ » . وهى كلمة صغيرة ولكنها كبيرة ، تُحَذِّر وتنذر ، وتمثِّل الهلاك جاثماً فى التنطُّع بأشكاله وألوانه ، فى الأنفس والأعراض والأموال، وفى الجماعات والأفراد على سواء .

لا أريد أن أطيل فى هذا . ولكنى أريد أن أقرِّر وأكرِّر ، أن الحكم على فرد أو جماعة بالبدعة والهوى ، لا يجوز أن يكون مبنيًا على غير بدعة أو هوى .

ونرى أن من أمثلة هذا التعصب والسير مع الهوى ، أن يرمى بعض المغالين فى الاعتزال إخوانَهم من أهل السنة بأنهم حمير فى جهالتهم، وبأنهم على هَوًى فى عقيدتهم، ولم يكفهم أن يقولوا ذلك نثراً ، بل ردّدوه شعراً : وأنشدوا ـ سامحهم الله ـ :

« لجَمَاعَةٌ سَمَّوْا هَوَاهُمْ سُنَّةً وَجماعَةٌ حُمُرٌ ـ لعمرى ـ مُوكَفَه » الخ

وكذلك نرى من أمثلة هذا التعصب والسير مع الهوى أن يرمى بعض المغالين من أهل السنة إخوانهم المعتزلة بالشرك والوثنية ، لاعتقادهم أن العبد خالق لأفعال نفسه الاختيارية .

ونعتقد أن كلتا الطائفتين لو أنصتت إلى وجهة نظر صاحبتها فى هدوء ونَصفة ، لاجتمعتا على الإنسانية التى تجمع الجميع ، وعلى الإسلام الذى يؤلف بين الجميع ، وعلى الاحترام الذى يجب أن يسود الجميع ، فإن لـكلٍّ شِرْعَةً ومنهاجاً فى حدود الإسلام وأدلة الإسلام .

ولنقفْ برهةً بجانب هذا المثال ، مثال خلق الأفعال ، ليتّضح الحال ، ولنقيس عليه النظائر والأشباه عند الاختلاف والاشتباه ، ولنعلم أن المتخالفين فى ذلك مازالوا مع خلافهم إخواناً مسلمين ، تظلُّهم راية القرآن ، ويضمهم لواء الإسلام .

فى القرآن الكريم والسنة النبوية نصوص كثيرة على أن الله تعالى خالق كل شىء ، وأن مرجع كل شىء إليه وحده ، وأن هداية الخلق وضلالهم بيده سبحانه . مثل قوله عزَّ وجلَّ : « ٱللهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ . هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ . وَٱللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ . وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُ . مَنْ يَشَإِ ٱللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ . وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً . وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً . وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ٱللهُ . إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْراً . وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ، وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ . فَمَنْ يُرِدِ ٱللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ

يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَاءِ . لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ . وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ » .

وكذلك يقول النبي ﷺ : « إنْ أصابكَ شيء فلا تقُلْ لو أنِّي فعلتُ كذا كانَ كذا وكذا . ولكن قل : قدَّرَ اللهُ وما شاء فعلَ » ويقول : « الإيمانُ أن تؤمنَ باللهِ وملائكتهِ وكتُبهِ ورُسلهِ واليومِ الآخرِ ، وتؤمنَ بالقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ » ويقول : « يامُقلِّبَ القُلوبِ والأبصارِ ثبِّتْ قلبي على دينكَ » . إلى غير ذلك .

هذه النصوص وأمثالها ، إذا نظر العبد إليها لا يسعه إلا أن يردَّ الأمور كلها إلى الله معتقداً أنه الواحد الأحد ، لا شريك له في ملكه ولا في ناحية من ملكه ، وهي أفعال التكليف من عباده ، وكأن نسبة الأفعال إلى العباد هي الأخرى محض فضل من الله ، على حدِّ ما قال ابن عطاء الله : « من فضله وكرمه عليك ، أن خلق العمل ونسبه إليك » .

ويُظاهر هذه الأدلة النقلية أدلة أخرى عقلية ، ناطقة بوحدانية الله في كل شيء ، وبأن العبد لا يعقل أن يكون خالقاً لما اختاره من أفعاله ، لأنه لو كان خالقاً لها لكان عالماً بتفاصيلها ، ولكنه يشعر من نفسه بأنه تصدر عنه أشياء كثيرة جدًّا من عمله الاختياري دون أن يعرف تفاصيلها ، كخطوات المشي وحركات المضغ في الأكل ونحوها . وإذاً فليس العبد هو الخالق لها . « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ؟ » .

بجانب هذا توجد نصوص كثيرة أيضاً من الكتاب والسنة ، تنسب أعمال العباد إليهم ، وتعلن رضوان الله وحبَّه للمحسنين فيها ، كما تعلن غضبه وبغضه للمسيئين منهم . من ذلك قوله سبحانه : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا . إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا . أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ

أَن يَسْبِقُونَا . أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ ٱللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ . وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ . قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عمَا تَعْمَلُونَ . قُلْ يَاقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ . وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ . وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ التى أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

وكذلك نقرأ فى السنة النبوية : « آعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له * بادِرُوا بالأعمال فِتناً كقِطَعِ الليل المظلم * الكَيِّسُ مَنْ دانَ نفسه وعمِل لما بعدَ المَوْتِ * ياعباسُ بن عبدِ المطلبِ آعملْ لا أُغنِي عنك مِنَ آللهِ شيئاً ، يافاطمةُ بنتَ محمدٍ اعملِى لا أُغنى عنك منَ آللهِ شيئاً » إلى غير ذلك .

وهذه نصوصٌ إذا نظر العبد إليها لا يسعه إلا أن يردَّ أعمال العباد الاختيارية إليهم ، معتقداً أنهم يستحقون ثوابها إن أحسنوا وعقابها إن أساءوا . ويُظاهِر هذه الأدلة النقلية أدلة عقلية أيضاً شاهدة بعدالة الله وحكمته ، لأن العبد لو لم يكن موجِداً لما اختار من أعماله لَما كان ثمَّةَ وجهٌ لاستحقاقه المثوبة أو العقوبة . وكيف يُثاب أو يعاقب على ماليس له ولم يصدر منه .

غيْرى جَنَى وَأَنَا المُعذَّبُ فيكُمُ   فكأنَّنى سَبَّابَةُ المتندِّمِ

أهل السنة بهرتهم النصوص الأولى والأدلة العقلية التى بجانبها ، فرجّحوها وقالوا : إن العبد لا يخلق أفعال نفسه الاختيارية ، إنما هى خلق الله وحده . وإذا قيل لهم : كيف يُثاب المرء أو يعاقب على عمل لم يوجده هو ؟ وكيف يتفق هذا وما هو مقرّر من عدالة الله وحكمته فى تكليف خلقه ؟ قالوا : إن العباد – وإن لم يكونوا خالقين لأعمالهم – كاسبون لها . وهذا الكسب هو مناط التكليف ومدار الثواب والعقاب . وبه يتحقق عدل الله وحكمته فيما شرع المكلفين .

وهكذا حملوا النصوص الأولى على الخلْق ، وحملوا الثانية على الكسب ، جمعاً بين الأدلة . ثم إذا قيل لهم : ما هذا الكسب اختلف الأشعرى والماتريدى فى تحديده : أهو مقارنة القدرة القديمة للحادثة أم هو العزم المصمّم ؟ ولكلٍّ وجهةُ نظر يطول شرحها وتوجيهها .

أما المعتزلة فقد بهرتهم النصوص الثانية وما يظاهرها من برهان النقل ، فرجّحوها وقالوا : إن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية . وإذا قيل لهم : أليس الله خالق كل شىء ومنها أعمال العباد ؟ قالوا : بلى إنه خالق كل شىء حتى أعمال عباده الاختيارية بَيْدَ أنه خلق بعض الأشياء بلا واسطة وخلق بعضها الآخر بواسطة ، وأعمال المكلَّفين من القبيل الثانى . خلقها الله بوساطة خلق آلاتها فيه ، وآلاتها هى القدرة الكلية والإرادة الكلية الصالحتان للتعلق بكلٍّ من الطرفين . وليس لنا من حَوْل ولا قوة سوى أننا استعملناها على أحد وجهيها إما بحسن الاختيار وإما بسوء الاختيار . ثم لا مانع عندنا من القول بأنه سبحانه خالق لأفعال عباده ولكن على سبيل المجاز ، باعتبار أنه خالق أسبابها ووسائلها .

وإذا قيل لهم : إن مذهبكم يستلزم أن يكون لله شركاء كثيرون فى فعله ، وهم عباده المكلفون . وهذا يناقض عقيدة التوحيد وبرهان الوحدانية قالوا : لا نسلم هذا

ولا نقول به ، فإن الوحدانية ليس معناها نفى وجود ذوات أو صفات أو أفعال لغيره . إنما معناها نفى أن يكون لغيره شبه به فى ذاته أو صفاته أو أفعاله وأنتم ياأهل السنة لا تمنعون وجــود ذوات لا تشبه ذاته ، ولا تمنعون وجود صفات لا تشبه صفاته ، فلم تمنعون وجود أفعال من العباد لا تشبه أفعاله ؟ وهو ما نقول به فى خلق العباد لأعمالهم، فإنها لا تشبه أفعال الله بحال .

هكذا تجد لـكلتا الطائفتين وجهة نظر قوية وتأويلا سائغاً فيما تؤوّله من النصوص المقابلة للنصوص التى بهرتها فرجحتها . ونجد أيضاً أن كلتا الطائفتين لا تلتزم المحظور التى تحاول الأخرى أن تُلزمها إياه فى مقام الحِجاج والجدال ، بل توجِّه رأيها توجيهاً ينأى بها عن الوقوع فى المحظور . ثم نجد كلتا الطائفتين يتلاقيان أخيراً بعد طول المطاف عند نقطة الاعتقاد السديد بوحدانية الله وحكمة الله ، ولـكن على الوجه الذى استبان لها وراج عندها .

فـكيف يرضَى منصفٌ إذًا بتجريح إحداهما ورميها بأشنع التهم من كفر أو شرك أو هوى ؟ وماذا علينا أن نرجِّح ما نرجح من غير تسفيه للجانب الآخر ؟ بل ماذا علينا أن نلوذ بالصمت ونعتصم بالسكون فلا نخوض فى أمثال هذه الدقائق العويصة ، والمسالك الملتوية البعيدة ؟ لا سيما أن الرحمن الرحيم لم يكلِّفنا بها ولم يفرضها علينا .

ولقد كان سلفنا الصالح يؤمنون بوحدانية الله وعدله . ويؤمنون بقدره وأمره . ويؤمنون بهذه النصوص وتلك النصوص . ويؤمنون بأن العبد يعمل ما يعمل وأن الله خالق كل شىء . ويؤمنون بأنه تعالى تنزَّه فى قدره عن أن يكون مغلوباً أو عاجزاً وتنزَّه فى أمره وتـكليفه عن أن يكون ظالماً أو عابثاً . ثم بعد ذلك يصمتون فــلا يخوضون فى تحديد نصيب عمل الإنسان الاختيارى من قدرة الله ونصيبه من قــدرة العبد . ولا يتعرضون لبيان مَدَى ما يبلغ فعل الله فى قَدَره ، ولا لبيان مَدَى ما يبلغ

فعل العبد فى أمثال أمره . ذلك مالم يعلموه ولم يحاولوه ، لأنهم لم يكلفوه . وكان سبحانه أرحم بعباده من أن يكلفهم إياه لأنه من أسرار القدر أو يكاد، والعقل البشرى محدود التفكير ضعيف الاستعداد . ومن شَرَهِ العقول طلبُ مالاسبيل لها إليه . «وماأوتيتمْ منَ العلم إلّا قليلا » .

« لمْ يمتحنّا بما تعيا العقولُ بهِ   حرصاً علينا فلمْ نرتب ولم نهمِ

واجبنا إزاء الخلافيات

ليس من شأنى هنا أن أفصل القول فى هذه المسألة ولا فى أشباهها ، فلهذا التفصيل علم آخر . إنما هو ضربٌ من التمثيل ، نجتزئ فيه بالقليل ، لنخلص منه بعظة مهمة : هى أن المسلمين لا يجوز لهم أن ينقسموا شيعاً وأحزاباً لأمر ليس من الدين، فضلًا عن أن يكون من أصول الدين ، وإذا التمسنا المعاذير لخوض من خاضوا أو يخوضون فيه دفعاً لشبهات المشتبهين أو ضلال المضللين ، فلن نستطيع التماس عذر واحد لمن شنوها حرباً شعواء بينهم وبين إخوانهم فى الدين . وما كان لهم أن يخرجوا من مثل هذا البحث أعداء متخاذلين ، وقد كانوا بالأمس إخواناً متفاهمين متعاونين .

وإذاً فلنستمسك بالعروة الوثقى، ولنفسح صدورنا للخلافيات مادام صدر الإسلام قد وسعها . ولنعلم أنّ الإسلام أوسع من المذاهب والآراء . ولئن ضقتَ ذرعاً برأى أخيك اليوم فقد ترى أنت رأيه غداً عندما تقتنع بوجهة نظره؛ فقد رجع كثير من أعلام الأئمة عن آراء رأوها، بل عن مذاهب كانوا قد ذهبوا إليها . ولعلك لا تجهل أن للشافعى مذهبا قديما ومذهبا جديداً ، وأن الخلاف فى لواحق العقائد والأصول ، كثير الشبه بالخلاف فى الأحكام والفروع .

لهذا كله ترانى لا أذهب مع الذاهبين فى تضليل المعتزلة وتسفيه أحلامهم ونبزهم

بألقاب الكفر والفسوق ، كما لا أذهب مع الذاهبين فى تجهيل أهل السنة وتحقيرهم ونبزهم بالجهالة والجمود والهوى . «وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا. سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ * يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» .

تحذير :

وأحبُّ ألّا يفهم القارئ الكريم أننى أريدها فوضى لكل متأوِّل فى القرآن ، متلاعب بالنصوص ، عابث بتعاليم الدين . بل الذى أريده وأرجوه هو أن نفرق بين متأوِّل ومتأوِّل ، ثم ننظر أهذا التأويل سائغ أم غير سائغ ؟ أى تساعد عليه قوانين اللغة العربية ، ومقررات الإسلام المقطوع بها ، المعلومة من الدين بالضرورة ، وبراهين العقل والمنطق أم لا ؟

فالسائغ نقبله ونرحب به وإن خالف رأينا ، وغير السائغ نردُّه فى غير تردُّد ، ونحاربه فى غير هوادة ، لأن تاريخ الإسلام لم يشهد أعداء كانوا أخطر عليه من أولئك العابثين الذين تلاعبوا بنصوصه ، وعبثوا بمقرَّراته . سواء منهم من ذهب به الماضى كالباطنية ، ومن بَرِم به الحاضر كالبهائية . وقد تسمع قريباً شيئاً عن أمثالهم .

سماحة الإسلام ويسر تعاليمه

بان لك مما ذكرنا أن الإسلام دين سمح ، وأن الله تعالى لم يكلف الخلق من تعاليم دينه إلا ماجاء به كتابه الكريم ، وشرحه نبيه العظيم ، على تلك الطريقة السهلة الواضحة ، البعيدة عن التدقيقات الفلسفية ، والتعقيدات الفنية .

ولعل من تمام الفائدة فى هـذا الموضوع الخطير أن نقتطف لك كلمة قالها حُجّةُ

الإسلام الغزالى فى الإحياء ، عند بيانه لما بدّل الناس من ألفاظ العلوم إذ قال تغمّده الله برحمته .

« اللفظ الثالث ـ أى من الأسماء المحمودة التى نُقلت بالأغراض الفاسدة إلى معان غير ما أراده السلف الصالح والقرن الأول ـ التوحيد . وقد جُعل الآن عبارةً عن صناعة الكلام ، ومعرفة طريق المجادلة ، والإحاطة بطرق مناقضات الخصوم ، والقدرة على التشدق فيها بتكثير الأسئلة ، وإثارة الشبهات ، وتأليف الإلزامات ، حتى لقّب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد ، وسمى المتكلمون بعلماء التوحيد . مع أن جميع ما هو خاصّة هذه الصناعة لم يكن يُعرف منها شىء فى العصر الأول . بل كان يشتدُّ منهم النكير على من كان يفتح باباً من الجدل والمماراة . فأما ما يشتمل عليه القرآن من الأدلة الظاهرة التى تستبق الأذهان إلى قبولها فى أول السماع ، فقد كان ذلك معلوماً للكل ، وكان العلم بالقرآن هو العلم كله ، وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر لا يفهمه أكثر المتكلمين . وإن فهموه لم يتصفوا به ، وهو أن يرى الأمور كلها من الله عزَّ وجلّ رؤيةً تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط ، فلا يرى الخير والشر كله إلا منه جلّ جلاله ، إلى أن قال :

والتوحيد جوهر نفيس ، وله قشران ، أحدهما أبعد عن اللُّب من الآخر ، فخصّص الناس الاسم بالقشر وبصنعة الحراسة للقشر ، وأهملوا اللُّبَّ بالكلية . فالقشر الأول هو أن تقول بلسانك : لا إله إلا الله . وهذا يسمى توحيداً مناقضاً للتثليث الذى صرّح به النصارى ، ولكنه قد يصدر من المنافق الذى يخالف سرُّه جهره . والقشر الثانى ألّا يكون فى القلب مخالفة وإنكار لمفهوم هذا القول ، بل يشتمل ظاهر القلب على اعتقاده والتصديق به ، وهو توحيد عوام الخلق . والمتكلمون كما سبق حُرَّاس هذا القشر عن

تشويش المبتدعة. والثالث وهو اللباب أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤيةً تقطع التفاته عن الوسائط، وأن يعبده عبادةً يُفرده بها، فلا يُعبد غيره. ويخرج عن هذا التوحيد أتباع الهوى، فكل متّبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده. قال تعالى: «أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ». وقال صلى الله عليه وسلم[1]: «أَبْغَضُ إِلَٰهٍ عُبِدَ فى الأرض عند الله تعالى هُوَ ٱلْهَوَى». وعلى التحقيق من تأمّل عرف أن عابد الصنم ليس يعبد الصنم وإنما يعبد هواه، إذ نفسه مائلة إلى دين آبائه فيتبع ذلك الميل، ومَيل النفس إلى المألوفات أحد المعانى التى يعبر عنها بالهوى. ويخرج من هذا التوحيد التسخُّط على الخلق والالتفات إليهم، فإنه مَن يرى الكلّ من الله عزّ وجلّ كيف يتسخّط على غيره؟ فلقد كان التوحيد عبارة عن هذا المقام، وهو مقام الصدّيقين. فانظر إلى ماذا حُوِّل؟ وبأىّ قشر قنِعَ منه؟ وكيف اتخذوا هذا مُعتَصَمًا فى التمدُّح والتفاخر بما اسمه محمود مع الإفلاس عن المعنى الذى يستحق الحمد الحقيقى؟ وذلك كإفلاس من يصبح بُكْرَةً ويتوجّه إلى القبلة ويقول: «وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا» وهو أول كذب يفاتح الله به كل يوم إن لم يكن توجه قلبه توجهاً إلى الله تعالى على الخصوص. فإنه إن أراد بالوجه وجه الظاهر فما وجّهه إلا إلى الكعبة، وما صرفه إلا عن سائر الجهات. والكعبة ليست جهة للذى فطر السموات والأرض حتى يكون المتوجّه إليها متوجّهاً إليه تعالى عن أن تَحُدَّهُ الجهات والأقطار. وإن أراد به وجه القلب وهو المطلوب التعبُّد به فكيف يصدق فى قوله؟ وقولُه متردِّد فى أوطاره وحاجاته الدنيوية، ومتصرف فى طلب الحِيَل فى جمع الأموال والجاه واستكثار الأسباب ومتوجّه بالكلية إليها، فمتى وجّه وجهه للذى فطر السموات والأرض؟ وهذه الكلمة خبر عن حقيقة التوحيد، فالموحّـــــد

---

(١) قال العراقى فى تخريج هـذا الحديث: رواه الطبرانى من حديث أبى أُمامة بإسناد ضعيف.

هو الذى لا يرى إلا الواحد ، ولا يوجه وجهه إلا إليه . وهو امتثال قوله تعالى : « قُلِ اللهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ » . وليس المرادَ به القول باللسان ، فإنما اللسان ترجمان يصدق مرة ويكذب أخرى . وإنما موقع نظرِ الله المترجم عنه وهو القلب . وهو معدن التوحيد ومنبعه » اهـ .

وإياك أن تفهم منه الغضّ من علم التوحيد ، خصوصاً بعد أن صرّح هنا بأنه يحمى قشرة العقيدة عن تشويش المبتدعة . ولكن نقده ينصب على الإسراف فى القشور وإهمال اللباب ، كما سمعت .

تحقيق للأستاذ الإمام

وللأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده كلام فى هـــذه المسألة ، بحاشيته على العقائد العضدية ، توسع فيه كثيراً مع الفرق المخالفة ، حين عرض لحديث الترمذى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ستفترق أمتى ثلاثاً وسبعينَ فِرْقةً ، كلها فى النارِ إلّا واحدةً . قيل : ومن همْ ؟ قال : « الذينَ همْ عَلَى ما أنا عليهِ وأصحابى » . ثم ختم الشيخ بحثه فقال :

« والحق الذى يرشد إليه الشرع والعقل ، أن يذهب الناظر المتدين إلى إقامة البراهين الصحيحة على إثبات صانع واجب الوجود ، ثم منه إلى إثبات النبوات . ثم يأخذ كل ما جاءت به النبوات بالتصديق والتسليم بدون فحص فيما تكنه الألفاظ ، إلا فيما يتعلق بالأعمال على قدر الطاقة . ثم يأخذ طريق التحقيق فى تأسيس جميع عقائده بالبراهين الصحيحة ، كان ما أدت إليه ما كان ، لكن بغاية التحرى والاجتهاد .

ثم إذا فاء من فكره إلى ما جاء من عند ربه ، فوجده بظاهره ملائماً لما حققه ، فليحمد الله على ذلك . وإلا فليطرق عن التأويل ويقول : « آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا »

فانه لا يعلم مراد الله ونبيه إلا اللهُ ونبيه . على هذا المنوال يكون نسجه فيبوء من الله رضوان ؛ حيث أسس عقائده على السديد من البراهين ، واستقبل الأخبارَ الإلهية بالقبول والتسليم . وتناولها بقلب سليم .

وإن أراد التأويل لغرض ، كدفع معاند أو إقناع جاحد ، فلا بأس عليه إذا سلم برهانه من التقليد والتشويش . وهذا هــو دأب مشايخنا كالشيخ الأشعر والشيخ أبى منصور ومن ماثلهم ، لا يأخذون قولًا حتى يسدِّدوه ببراهينهم القوية على حسب طاقتهم . وهذا ما يعنى باسم السنى والصوفى والحكيم . وكلٌّ متحزب مجادل فإنما يبغى العنت وتشتيت الكلمة ، فهو فى النار . وكل مقصر فعليه العار والشنار . فاسلك سبيل السلف . واحذر فقد خلف من بعدهم خلف .

ولابدَّ فى كمال النجاة ونيل السعادة الأبدية ، من أن ينضمَّ إلى ذلك التخلى عن الرذائل ، والتحلى بالأخلاق الكاملة والأعمال الفاضلة . ومن تلك الأخلاق والأعمال تكميل قوة النظر وارتكاب طريق العدل فى كل شيء ، إذ لا ريب أن كل من خالف ما كان عليه النبى وأصحابه من الهمة والسداد والعدل والإنصاف ، وسلوك طريق الاستقامة فى جميع الأخلاق والأعمال ، ونور البصيرة فيما يأخذ ويعطى ، فهو فى النار . ومن كان على ما كانوا عليه فهو فى أعلى غرف الجنان .

وسالك هذا الطريق إما أن يكون سلوكه من قبل الالتفات إلى ماجاء فى الكتاب والسنة وكلام أولى الفضل من الراشدين قديماً وحديثاً ، فذلك هو الحكيم العلىّ والمؤمن المتوسط . وإما أن يكون مع ذلك قد سلك بنفسه مدارج الأنوار ، ووقف على ما فى ذلك من دقائق الأسرار ، حتى جلس فى حياته هذه فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، فهو الصوفى ، وهو صاحب المقصد الأسنى والمطلوب الأعلى . وفى هذا مراتب لا تحصى ، ومراقٍ لا تستقصى . وهذا وما قبله يشملهما اسم المؤمن الصادق .

فمن تحقق بهذا النور ، فله النجاة والحبور، كان ما كان ، فإن هذا هو المتحقق فيهما كان النبي عليه وأصحابه .

ولنمسك القلم حيث إن المقصود هو الإيجاز . والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب فاسلك بنفسك طريق السداد ، وانظر فيما يكون لك بعين الرشاد » اهـ .

وهنا أمسك أنا القلم أيضاً مؤملاً أن أكون قد وفيت هذا المقام المهمّ حقّه ، وأن أكون قد نجحت فى تجلية مبدأ من المبادئ الإسلامية الرشيدة، عند اختلاف وجهات الأنظار، وتباين منازع الأفكار . كفانا الله شرّ العناد والغرور والفتنة ، وجمع صفوف الأمة على حقائق الكتاب والسنة ، آمين .

ى — التفسير بالرأى

الجائز منه وغير الجائز

المراد بالرأى هنا الاجتهاد . فإن كان الاجتهاد موفقاً أى مستنداً إلى ما يجب الاستناد إليه بعيداً عن الجهالة والضلالة ، فالتفسير به محمود وإلا فمذموم . والأمور التى يجب استناد الرأى إليها فى التفسير نقلها السيوطى فى الإتقان عن الزركشى فقال ما ملخصه : للناظر فى القرآن لطلب التفسير مآخذ كثيرة أمهاتها أربعة : —

الأول : النقل عن رسول الله ﷺ مع التحرّز عن الضعيف والموضوع .

الثانية : الأخذ بقول الصحابى ، فقد قيل إنه فى حكم المرفوع مطلقاً . وخصّه بعضهم بأسباب النزول ونحوها مما لا مجال للرأى فيه .

الثالثة : الأخذ بمطلق اللغة مع الاحتراز عن صرف الآيات إلا ما لا يدلّ عليه الكثير من كلام العرب .

الرابعة الأخذ بما يقتضيه الكلام ويدل عليه قانون الشرع . وهذا النوع الرابع هو الذى دعا به النبى صلى الله عليه وسلم لابن عباس فى قوله : « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فى الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ » .

فمن فسر القرآن برأيه أى باجتهاده ملتزماً الوقوف عند هذه المآخذ معتمداً عليها فيما يرى من معانى كتاب الله ، كان تفسيره سائغاً جائزاً خليقاً بأن يسمى التفسير الجائز أو التفسير المحمود . ومن حاد عن هذه الأصول وفسر القرآن غير معتمد عليها ، كان تفسيره ساقطاً مرذولاً خليقا بأن يسمى التفسير غير الجائز أو التفسير المذموم .

فالتفسير بالرأى الجائز يجب أنْ يلاحظ فيه الاعتماد على مانقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه مما ينير السبيل للمفسر برأيه. وأن يكون صاحبه عارفاً بقوانين اللغة خبيراً بأساليبها. وأن يكون بصيراً بقانون الشريعة حتى يُنزِّلَ كلام الله على المعروف من تشريعه .

أما الأمور التى يجب البعد عنها فى التفسير بالرأى فمن أهمها التهجُّم على تبيين مراد الله من كلامه على جهالة بقوانين اللغة أو الشريعة . ومنها حمل كلام الله على المذاهب الفاسدة . ومنها الخوض فيما استأثر الله بعلمه . ومنها القطع بأن مراد الله كذا ، من غير دليل . ومنها السير مع الهوى والاستحسان .

ويمكن تلخيص هذه الأمور الخمسة فى كلمتين ، هما الجهالة والضلالة .

وينبغى أن يعلم أن فى القرآن علوماً تتنوع إلى ثلاثة :

الأول : علم لم يطلع الله عليه أحداً من خلقه بل استأثر به وحده كمعرفة حقيقة ذاته وصفاته وغيوبه التى لا يعلمها إلا هو . وهـــذا النوع لا يجوز الكلام فيه لأحد إجماعًا .

الثانى : ما أطلع الله عليه نبيه ﷺ واختصّ به . وهذا لايجوز الكلام فيه إلا له عليه الصلاة والسلام ولمن أذن له الرسول . قيل : ومنه أوائل السور .

الثالث : العلوم التى علمها الله تعالى لنبيه مما أمر بتبليغه . وهذا النوع قسمان :(قسم) لايجوز الكلام فيه بطريق السمع كالكلام فى الناسخ والمنسوخ والقراءات ، وقصص الأمم الماضية ، وأسباب النزول ، وأخبار الحشر والنشر والمعاد. (وقسم) يعرف بطريق النظر والاستدلال ، وهذا منه المختلف فى جوازه ، وهو مايتعلق بالآيات المتشابهات. ومنه المتفق على جوازه وهو مايتعلق بآيات الأحكام والمواعظ والأمثال والحكم ونحوها لمن له أهلية الاجتهاد .

العلوم التى يحتاجها المفسر

وقد بيّن العلماء أنواع العلوم التى يجب توافرها فى المفسر فقالوا : هى اللغة والنحو ، والصرف ، وعلوم البلاغة ، وعلم أصول الفقه ، وعلم التوحيد ومعرفة أسباب النزول ، والقصص ، والناسخ ، والمنسوخ ، والأحاديث المبينة للمجمل والمبهم ، وعلم الموهبة ، وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم ، ولا يناله من فى قلبه بدعة أو كبر أو حبُّ دنيا أو ميل إلى المعاصى . قال تعالى : « سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » وقال الإمام الشافعى :

شَكَوْتُ إلى وكيع سوءَ حِفظى ... فأرشدنى إلى تركِ المعاصى
وأخبرنى بِأنَّ العِلْمَ نُورٌ ... ونُورُ اللهِ لايُهْدَى لعاصِى »

ملاحظة :

هذه الشروط التى ذكرناها، وهذه العلوم كلها، إنما هى لتحقيق أعلى مراتب التفسير : مع إضافة تلك الاعتبارات المهمة المسطورة فى الكلمات القيمة الآتية . أما المعانى العامة التى يستشعر منها المرء عظمة مولاه ، والتى يفهمها الإنسان عند إطلاق اللفظ الكريم ، فهى قدر يكاد يكون مشتركاً بين عامة الناس ، وهو المأمور به للتدبُّر والتذكر ، لأنه سبحانه سهّله ويسره . وذلك أدنى مراتب التفسير .

قال العلامة المرحوم الشيخ محمد عبده ماخلاصته : ـ

للتفسير مراتب : أدناها أن يبين بالإجمال ما يُشرِبُ القلبَ عظمةَ الله وتنزيهه ويصرف النفس عن الشر، ويجذبها إلى الخير. وهذه هى التى قلنا إنها متيسرة لكل أحد « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ، فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟ » .

وأما المرتبة العليا فهى لا تتم إلا بأمور :

(أحدها) : فهم حقائق الألفاظ المفردة التى أودعها القرآن ، بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة ، غير مكتفٍ بقول فلان وفهم فلان ، فإن كثيراً من الألفاظ كانت تستعمل فى زمن التنزيل لمعانٍ، ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد. ومن ذلك لفظ التأويل. اشتهر بمعنى التفسير مطلقاً أو على وجه مخصوص، ولكنه جاء فى القرآن بمعان أخرى كقوله تعالى: « هَلْ يَنْظُرُونَ إلا تَأْوِيلَهُ، يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ : قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ» . فإن المراد به العاقبة ، وما يعد به القرآن من المثوبة والعقوبة، أى ما يؤدى إليه الأمر فى وعده ووعيده ، فعلى المحقِّق المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعانى التى كانت مستعملة فى عصر نزوله .والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه ، بأن يجمع ما تكرر فى مواضع منه ، وينظر فيه ، فربما استعمل بمعان مختلفة كلفظ الهداية وغيره . ويحقق كيف يتفق معناه مع جملته من الآية؟ فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه . وقد قالوا : إن القرآن يفسر بعضه بعضا ، وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ موافقته لما سبق له من القول ، واتفاقه مع جملة المعنى ، وائتلافه مع القصد الذى جاء له الكتاب بجملته .

(ثانيها): الأساليب. فينبغى أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة. وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته ، مع التفطُّن لنكته ومحاسنه ، والوقوف على مُراد المتكلم منه . نعم إننا لا نتسامى إلى فهم مُراد الله تعالى كله على وجه الكمال

والتمام . ولكن يمكننا فهم ما نهتدى به بقدر الطاقة . ويحتاج فى هذه إلى علم الإعراب. وعلم الأساليب (المعانى والبيان) . ولكن مجرد العلم بهذه الفنون وفهم مسائلها وحفظ أحكامها لا يفيد المطلوب . ترون فى كتب العربية أن العرب كانوا مسدّدين فى النطق، يتكلمون بما يوافق القواعد قبل أن توضع . أتحسبون أن ذلك كان طبيعياً لهم ؟ كلا. وإنما هى ملكة مكتسبة بالسماع والمحاكاة، لذلك صار أبناء العرب أشدّ عجمةً من العجم عندما اختلطوا بهم. ولو كان طبيعياً ذاتياً لهم، لما فقدوه فى مدة خمسين سنة من بعد الهجرة.

(ثالثها) : علم أحوال البشر . فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب وبين فيه ما لم يبينه فى غيره . وبيّن فيه كثيراً من أحوال الخلق وطبائعه وسننه الإلهية فى البشر ، وقصّ علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها . فلا بدّ للنظر فى هذا الكتاب من النظر فى أحوال البشر فى أطوارهم وأدوارهم ومناشىء اختلاف أحوالهم ، من قوة وضعف ، وعز وذل ، وعلم وجهل وإيمان وكفر . ومن العلم بأحوال العالَم الكبير علويه وسفليه . ويحتاج فى هذا إلى فنون كثيرة ؛ من أهمها التاريخ بأنواعه .

أجمل القرآن الكلام عن الأمم ، وعن السنن الإلهية ، وعن آياته فى السموات والأرض وفى الآفاق والأنفس ، وهو إجمالٌ صادرٌ عمن أحاط بكل شىء علماً . وأمرنا بالنظر والتفكر والسير فى الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذى يزيدنا ارتقاء وكمالًا . ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة فى ظاهره ، لكنّا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده ، لا بما حواه من علم وحكمة .

(رابعها): العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن ، فيجب على المفسر القائم بهذا الفرض الكفائى أن يعلم ما كان عليه الناس فى عصر النبوّة من العرب وغيرهم ، لأن القرآن ينادى بأن الناس كلهم كانوا فى شقاء وضلال، وأن النبى صلى الله عليه وسلم بعث به لهدايتهم وإسعادهم . وكيف يفهم المفسر ما قبحته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة

أو ما يقرب منها إذا لم يكن عارفاً بأحوالهم وما كانوا عليه . . يروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : « إن أجهل الناس بأحوال الجاهلية هو الذى يخشى أن ينقض عُـرَى الإسلام عروةً عروةً » اﻫ بالمعنى . والمراد أن من نشأ فى الإسلام ، ولم يعرف حال الناس قبله ، يجهل تأثير هدايته وعناية الله بجعله مغيراً لأحوال البشر ، ومخرجاً لهم من الظلمات إلى النور .

ومن جهل هذا يظن أن الإسلام أمر عادى ، كما ترى بعض الذين يتربونَ فى النظافة والنعيم يعدُّون التشديد فى الأمر بالنظافة والسواك من قبيل اللغو؛ لأنه من ضروريات الحياة عندهم، ولو اختبروا غيرهم من طبقات الناس لعرفوا الحكمة فى تلك الأوامر، وتأثير تلك الآداب من أين جاء ؟ .

(خامسها): العلم بسيرة النبى ﷺ وأصحابه، وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف فى الشؤون دنيويها وأخرويها » انتهى من تفسير المنار بتصرف قليل .

الاختلاف فى جواز التفسير بالرأى :

يختلف العلماء فى التفسير بالرأى بين مجيز ومانع . والتحقيق ماقدمناه بين يديك من الجواز بشروطه ، والمنع عند عدم توافر شروطه . وأن ذلك فى غير أدنى مراتب التفسير . أما هذا الأدنى فهو جائز من غير اعتبار تلك الشروط ، لأن الله يسره حتى للعامة كما أسلفنا . ونسوق إليك هنا أدلة المانعين والمجيزين لتزداد بصيرة وتنورا فى هذا الموضوع :

أدلة المانعين :

يستدل المانعون بأدلة : (الأول)أن التفسير بالرأى قول على الله بغير علم ، والقول على الله بغير علم منهى عنه. فالتفسير بالرأى منهى عنه .

دليل الصغرى أن المفسر بالرأى ليس متيقناً أنه مصيب ، وقُصارى أمره أنه يظن ، والقائل بالظن قائلٌ على الله بغير علم . ودليل الكبرى قوله تعالى : « وأن تقولوا عَلَى ٱللهِ مالَا تعلمون » المعطوف على ماقبله من المحرمات فى قوله سبحانه :

« قُلْ إنما حَرَّم رَبِّىَ ٱلْفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنهاَ وَماَ بَطَنَ ، وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وأن تُشْرِكُوا بِاللهِ مالَمْ يُنزِّلْ بِهِ سلطاناً ، وَأَنْ تقُولُوا عَلَى ٱللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

لكن أجاب المجيزون عن هذا الدليل بمنع الكبرى ، لأن القائل بالظن فيما لا يوجد عليه نصٌّ قاطع ، ولا دليل عقلى ، إنما يستند إلى علم من الله أى إلى دليل قطعى منه سبحانه على صحة العمل بهذا الظن كقوله تعالى : « لا يُكَلِّفُ ٱللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهاَ » . وكقوله صلى الله عليه وسلم مامعناه « من ٱجتَهَدَ وأخطأَ فلهُ أجْرٌ ، وإِنْ أَصابَ فلهُ أجرَانِ » .

(الدليل الثانى) الحديثان الآتيان :

(١) ما يرويه الترمذى عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « ٱتقُّوا ٱلحدِيثَ عَلَىَّ إِلَّا ماَ عَلِمْتُمْ ، فَمَنْ كَذَبَ عَلَىَّ مُتَعمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ . وَمَنْ قالَ فى القرآنِ برَأْيِهِ فَلْيَتبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » .

(٢) ما يرويه أبو داود عن جندب قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَالَ فِى القرآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصابَ فقَدْ أَخطَأَ » .

وأُجيب عن هذين الحديثين بأجوبة ثلاثة :ـ

(أولها) أنهما محمولان على من قال برأيه فى نحو مشكل القرآن ومتشابهه مما لا يعلم إلا من طريق النقل عن النبى ﷺ وأصحابه .

(ثانيها) أنهما محمولان على من قال فى القرآن قولًا وهو يعلم أن الحق خلافه، كأصحاب المذاهب الفاسدة الذين يتأولون القرآن على وفق هواهم ليحتجُّوا به على صحة آرائهم.

(ثالثها) أنهما محمولان على قول من يأخذ بظاهر الكلام، من غير أن يستند إلى نقل أو يكلف نفسه البحث عن مُبْهَمَاتِ القرآن ومافيه من حذف وإضمار وتقديم وتأخير ونحو ذلك.. فالنقل لابد منه لكل مفسر، كيلا يقع فى الخطأ. أما التوسع فى الفهم واستنباط صحيح الآراء فهو خطوة أخرى بعد النقل. لأن الأخذ بظاهر العربية وحده غير كافٍ ولا سديد. تأمل قوله سبحانه: «وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا» فإن معناه: وآتينا ثمود الناقة معجزة واضحة، وبينة لائحة، تدلهم على صدق صالح عليه الصلاة والسلام وصدق ماجاء به، فظلموا بعقرها أنفسهم.

والواقف عند ظاهر اللغة العربية يظن أن المراد من الإبصار نظر العين، ولا يدرى بماذا ظلموا؟ ولا من ظلموا؟ أظلموا أنفسهم أم غيرهم؟

هذه احتمالات فى الحديثين. والدليل إذا تطرّق إليه الاحتمال، سقط به الاستدلال. ويجاب عن حديث جندب زيادة على سابقه بأنه حديث لم تثبت صحته، وعلى فرض صحته فإنه يحتمل أن يكون معناه: «فقد أخطأ طريق التماس المعنى» ذلك لأن السبيل فى معرفة ألفاظ القرآن إنما هى اللغة وعلومها. والسبيل إلى معرفة أسباب نزوله وتمييز ناسخه ومنسوخه ونحو ذلك إنما هو النقل الصحيح. والسبيل إلى القطع بمراد الله إنما هو الوارد عن النبى ﷺ. فإن لم يظفر بوارد فلا بأس من أن يقيس ويجتهد ويستدل بما ورد على مالم يرد.

الدليل الثالث: ما ورد عن الصحابة والتابعين من أنهم كانوا يتحرّجون عن القول فى القرآن بآرائهم. ومن ذلك ماروى عن الصديق رضى الله عنه أنه قال:

« أيُّ سماء تظلني ؟ وأيُّ أرضٍ تقلني ؟ إذا قلتُ في القرآن برأيي أو بما لا أعلمُ ؟ » .
وما ورد عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال: أنا لا أقول في القرآن شيئاً . وروى عن الشعبي أنه قال : ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت: القرآن، والروح ، والرؤى (أى تأويل الأحلام) ، إلى غير ذلك من الأخبار التي تدلُّ على امتناعهم من أن يقولوا في القرآن بآرائهم .

وأجيب عن ذلك (أولًا): بأن إحجامهم عن القول في القرآن كان ورعاً خشيةَ ألَّا يصيبوا عينَ اليقين . والورع : ترك مالا بأس به حذراً من الوقوع فيما به بأس .

(ثانياً) : أن إحجامهم يحتمل أنه مقيد بمالم يعرفوا وجه الصواب فيه . أما إذا عرفوا وجه الصواب فإنهم لا يمتنعون ولو كان وجه الصواب ظنياً لا قطعياً . هذا أبو بكر نفسه يفتي في الكلالة حين سئل عنها في الآية الكريمة ، « يَسْتَفْتُونَكَ ، قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ » الخ ويقول: أقول فيها برأيي. فإن كان صواباً فمن الله. وإن كان غير ذلك فمني ومن الشيطان . الكلالة : كذا وكذا . ومثل هذا ورد عن على وابن عباس وغيرهما من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين .

(ثالثاً): أن إحجامهم يحتمل أيضا التقييد بما كان من التفسير على وجه قاطع فيما لم يقم فيه دليل قاطع .

(رابعاً) : أن إحجامهم يحتمل أيضاً التقييد بما إذا قام غيرهم عنهم بواجب تفسير القرآن وبيانه . أما إذا انحصرت المسئولية فيهم فمعقول أنهم لا يمتنعون وقتئذ وإلا كانوا كاتمين للعلم وآثمين . حاشاهم من ذلك حاشاهم . رحمهم الله وأحسن جزاءهم ومثواهم .

أدلة المجيزين للتفسير بالرأى :

استدلَّ المجيزون للتفسير بالرأى استدلالات عدّة أيضا :

(أولها): أن الله تعالى يقول: « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ » ويقول: « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ » ويقول: « وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ » . وجه الاستدلال أن الله تعالى حثّ على تدبر القرآن والاعتبار بآياته ، والاتعاظ بمواعظه . وهذا يدل على أن أولى الألباب بما لهم من العقل السليم واللب الصافى ، عليهم أن يتأولوا ما لم يستأثر الله بعلمه . إذ التدبر والاتعاظ فرع الفهم والتفقه فى كتاب الله . والآية الكريمة تدل على أن فى القرآن ما يستنبطه أى يستخرجه أولو الألباب والفهم الثاقب .

(ثانيها) : أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال فى دعائه لابن عباس : « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي ٱلدِّينِ وَعَلِّمْهُ ٱلتَّأْوِيلَ » فلو كان التأويل مقصوراً على السماع والنقل للفظ التنزيل لما كان هنالك فائدة لتخصيصه . فدل على أن التأويل خلاف النقل . وإذن فهو التفسير بالاجتهاد والرأى .

(ثالثها): لو كان التفسير بالرأى غير جائز لتعطل كثير من الأحكام. واللازم باطل. ووجه الملازمة أن النبى ﷺ لم يذكر تفسير كل آية ، والمجتهد مأجور وإن أخطأ ، مادام أنه قد استفرغ وسعه ، ولم يهمل الوسائل الواجبة فى الاجتهاد ، وكان غرضه الوصول إلى الحق والصواب .

ويمكن أن يجعل الخلاف لفظيًّا بأن يحمل كلام المجيزين للتفسير بالرأى على التفسير بالرأى المستوفى لشروطه الماضية ؛ فإنه يكون حينئذ موافقاً لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وكلام العرب . وهذا جائز ليس بمذموم ولا منهى عنه . ثم يحمل كلام المانعين للتفسير بالرأى على ما فقدت شروطه السابقة ، فإنه يكون حينئذ مخالفاً للأدلة الشرعية واللغة العربية . وهذا غير جائز بل هو محطُّ النهى ومصبُّ الذم . وعليه

يحمل كلام ابن مسعود إذا قال: ستجدون أقواماً يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم فعليكم بالعلم، وإياكم والتبدُّع، وإياكم والتقطُّع » وكذلك يحمل قول عمر أيضاً : « إنما أخاف عليكم رجلين رجلًا يتأوَّل القرآن على غير تأويله، ورجلًا ينافس ٱلْمُلْكَ على أخيه » .

وقول عمر أيضاً : ماأخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهاه إيمانه ، ولا من فاسق بَيِّنٍ فِسْقُهُ ، ولكنى أخاف عليها رجلا قد قرأ القرآن حتى أذْلَقَهُ بلسانه ثم تأوَّله على غير تأويله » .

فكل هذا محمول على مالم يوافق تفسيره الأدلة الشرعية ولا قواعد اللغة العربية ولا يخفى أن القول فى القرآن بالرأى معناه أن الله أراد بكلامه كذا . وهذا أمرٌ له خطره الخطير ، ومسئوليته الجسيمة ، نسأل الله تعالى السلامة .

ل ـ منهج المفسرين بالرأى

وخلاصة مامضَى أنه يجب على من يحاول أعلى مراتب التفسير بالرأى أن يأخذ حذره وأن يتذرَّع بكل العلوم التى نوَّهنا بها ، ليكون قد أصاب المراد أو كاد، ووجب عليه أن ينهج منهج الصواب والسداد ، باتباع مايأتى :

(أولًا : أن يطلب المعنى من القرآن ، فإن لم يجده طلبه من السنة لأنها شارحة للقرآن ، فإن أعياه الطلب رجع إلى قول الصحابة ، فإنهم أدرى بالتنزيل وظروفه ، وأسباب نزوله. شاهدوه حين نزل، فوق ماامتازوا به من علم وعمل . « وخيرُ مافسَّرته بالوارد » .

(ثانياً): إن لم يظفر بالمعنى فى الكتاب والسنة ومأثورات الصحابة وجب عليه أن يجتهد وسعه متبعاً مايأتى :

١ ـ البدء بما يتعلق بالألفاظ المفردة من اللغة والصرف والاشتقاق. ملاحظاً المعانى التى كانت مستعملة زمن نزول القرآن الكريم .

٢ ـ إرداف ذلك بالكلام على التراكيب من جهة الإعراب والبلاغة ، على أن يتذوّق ذلك بحاسّته البيانية .

٣ ـ تقديم المعنى الحقيقى على المجازى، بحيث لا يُصار إلى المجاز إلا إذا تعذّرت الحقيقة .

٤ ـ ملاحظة سبب النزول . فإن لسبب النزول مدخلا كبيراً فى بيان المعنى المراد، كما سبق تحقيقه فى مبحث أسباب النزول .

٥ ـ مراعاة التناسب بين السابق واللاحق، بين فقرات الآية الواحدة، وبين الآيات بعضها وبعض .

٦ ـ مراعاة المقصود من سياق الكلام .

٧ ـ مطابقة التفسير المفسَّر من غير نقص ولا زيادة .

٨ ـ مطابقة التفسير لما هو معروف من علوم الكون ، وسنن الاجتماع ، وتاريخ البشر العام ، وتاريخ العرب الخاص أيام نزول القرآن .

٩ ـ مطابقة التفسير لما كان عليه النبىّ ﷺ فى هَدْيه وسيرته، لأنه ﷺ هو الشارح المعصوم للقرآن بسنته الجامعة لأقواله وأفعاله وشمائله وتقريراته .

١٠ ـ ختام الأمر ببيان المعنى والأحكام المستنبطة منه فى حدود قوانين اللغة والشريعة والعلوم الكونية .

١١ ـ رعاية قانون الترجيح عند الاحتمال ، وهو ما يأتى :

م — قانون الترجيح عند الاحتمال

قال السيوطى فى الإتقان مانصه : « كل لفظ احتمل معنيين فصاعدا ، فهو الذى لايجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه . وعليهم اعتماد الدلائل دون مجرد الرأى .

فإن كان أحد المعنيين أوضح وجب الحمل عليه ، إلا أن يقوم الدليل على إرادة غيره .

وإذا تساويا والاستعمال فيهما حقيقة ، لكن فى أحدهما لغوية أو عرفية ، وفى الآخر شرعية ، فالحمل على الشرعية أولى ، إلا أن يدل الدليل على إرادة اللغوية ، كما فى قوله تعالى : « وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ » وإن كانت فى أحدهما عرفية والآخر لغوية ، فالحمل على العرفية أولى .

وإن اتفقا فى ذلك أيضاً ، فإن تنافى اجتماعهما . ولم يمكن إرادتهما باللفظ الواحد ، كالقرء للحيض والطهر ، اجتهد فى المراد منهما ، بالأمارات الدالة عليه فما ظنَّه فهو مراد الله تعالى فى حقه .

وإن لم يظهر له شىء فهل يتخير أو يأخذ بالأغلظ أو بالأخف ؟ أقوال . وإن لم يتنافيا ، وجب الحمل عليهما عند المحققين . ويكون ذلك أبلغ فى الإعجاز والفصاحة ، إلا إن دل دليل على إرادة أحدهما » اهـ .

ن — أوجه بيان السنة للقرآن

سبق غير مرة أن بيَّنَّا أن السنة شارحة للقرآن ، لأن الرسول ﷺ وظيفته التبليغ والبيان ، بمثل قوله تعالى : « وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » ومثل قوله صلى الله عليه وسلم : أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَه ، ألا يُوشِكُ رَجُــلٌ شَبْعَانٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ (وجاء في رواية) مُتَّكِئٌ على أريكته ، يقول : « عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحِلُّوهُ ، وما وجدتم فيه من حــرام فحرِّمُوه الخ » .

ومعنى قوله ﷺ : « لقد أوتيتُ الكتابَ ومثله مَعَهُ » أنه أوتى من الوحي غير المتلو، مثل الوحي المتلو، تبييناً له وتوضيحاً، وكلٌ من عند الله. قال تعالى : « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى » .

وقوله في هذا الحديث : (يُوشِكُ رَجُلٌ الخ) يدل على أنه سيأتي قوم يتمسكون بظاهر القرآن ، كالروافض والخوارج ، ويتركون الاستدلال بالسنة المبينة للقرآن ، فضلوا وأضلوا .

والمراد بقوله على أريكته — وهي السرير — أنه ممن أطغتهُ النعمة، وألهتهُ عن السعي في طلب العلم ، والبحث عن أحاديث الرسول ﷺ .

وهذا الحديث يدل على أن ما صح ثبوته عن النبي ﷺ قولًا أو فعلًا فهو حجة بنفسه كالقرآن الكريم .

ثم إن بيان السنة على وجوه شتى : —

(أحدها) بيان المجمل في القرآن ، كبيان مواقيت الصلوات الخمس ، وعــدد ركعاتها ، وكيفية ركوعها وسجودها وغير ذلك ، وبيان مقادير الزكاة وأوقاتها وأنواعها ،

وبيان مناسك الحج ونحوها. مما ورد فى القرآن مجملًا وبينته السنة. ولذا قال ﷺ: « خذوا عنِّى مَنَاسِكَكُمْ » وقال : « صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِى أُصَلِّى » .

قال أحمد بن حنبل : « السنة تفسر الكتاب وتبينه » .

(ثانيها) بيان أحكام زائدة على ما جاء به القرآن: كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها ، وتحريم أكل الْحُمُرِ الأهلية وكل ذى ناب من السِّباع ، والقضاء باليمين والشاهد ، وغير ذلك مما هو مقرر فى علم الأصول والفقه .

(ثالثها) بيان معنى لفظ أو متعلقه ، كتفسير « المغضوب عليهم » باليهود ، «والضالِّين» بالنصارى . وبيان قوله تعالى : « لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ » بأنها مطهرة من الحيض والغائط والنخامة والبزاق . . وتفسير قوله تعالى : « فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ » بأنهم يزحفون على أستاههم ويقولون: حبة فى شعيرة، بدلا من امتثال قوله تعالى لهم : «ٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ » . وغير ذلك مما خُصِّص به العام ، أو قُيِّد به المطلق ، وهو كثير فى كتب السنة .

س — التعارض بين التفسير بالرأى

والتفسير بالمأثور وما يتبع فى الترجيح بينهما

ينبغى أن يعلم أن التفسير بالرأى المذموم ليس مراداً هنا ، لأنه ساقط من أول الأمر فلا يقوى على معارضة المأثور .

ثم ينبغى أن يعلم أن التعارض بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأى المحمود معناه التنافى بينهما ؛ بأن يدل أحدهما على إثبات والآخر على نفى ، كأن كلًّا من المتنافيين وقف فى عرض الطريق فمنع الآخر من السير فيه .

وأما إذا لم يكن هناك تناف فلا تعارض وإن تغايرا ، كتفسيرهم الصراط المستقيم

بالقرآن ، أو بالسنة ، أو بطرق العبودية ، أو طاعة الله ورسوله . فهذه المعانى غير متنافية وإن تغايرت . وكذا ما قيل فى قوله تعالى : « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ » مما هو مذكور فى كتب التفسير ، فليس بمتناف ، فلا يكون متعارضاً ولا متناقضاً .

قيل فى تفسير هذه الآية : الظالم هو المرجأ إلى أمر الله ، والمقتصد هو الذى خلط عملًا صالحاً وآخر سيئاً ، والسابق للخيرات بإذن الله هو الذى تمحض للخير . وقيل : السابق المخلص ، والمقتصد المرائى ، والظالم كافر النعمة غير الجاحد لها . وقيل : السابق من رجحت حسناته ، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته ، والظالم من رجحت سيئاته . وقيل : السابق العالم ، والمقتصد المتعلم ؛ والظالم الجاهل . وقيل الظالم الذى يعبده على الغفلة والعادة ، والمقتصد الذى يعبده على الرغبة والرهبة ، والسابق الذى يعبده على الهيبة والاستحقاق . وقيل : الظالم من أخذ الدنيا حلالًا كانت أو حراماً ، والمقتصد من يجتهد ألّا يأخذها إلا من حلال ، والسابق من أعرض عنها جملة . وقيل : الظالم طالب الدنيا ، والمقتصد طالب العقبى ، والسابق طالب المولى . وقيل غير ذلك . وفى دار الكتب المصرية بمصر مجلد مخطوط لعلىّ بن محمد بن عمر التونسى اسمه : « تحفة الأحباب » فى تفسير قوله تعالى : « ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ » .

إذا تقرّر هذا فإن التفسير بالمأثور الثابت بالنص القطعى ، لا يمكن أن يعارَض بالتفسير بالرأى ؛ لأن الرأى إما ظنى وإما قطعى أى مستند إلى دليل قطعى من عقل أو نقل ، فإن كان قطعيًّا فلا تعارض بين قطعيين . بل يُؤَوَّل المأثور ، ليرجع إلى الرأى المستند إلى القطعى ، إن أمكن تأويله ، جمعاً بين الدليلين . وإن لم يمكن تأويله حُمِل اللفظ الكريم على ما يقتضيه الرأى والاجتهاد ، تقديماً للأرجح على المرجوح .

أما إذا كان الرأى ظنياً بأن خلا من الدليل القاطع واستند إلى الأمارات والقرائن الظاهرة فقط فإن المأثور القطعى يقدَّم على الرأى الظنى ضرورة أن اليقين أقـــوى من الظن .

هذا كله فيما إذا كان للمأثور قطعياً . أما إذا كان المأثور غير قطعى فى دلالته لكونه ليس نصًا ، أو فى متنه لكونه خبر آحاد ، ثم عارضه التفسير بالرأى ؛ فلا يخلو الحال ، إما أن يكون ما حصل فيه التعارض مما لا مجال للرأى فيه ، وحينئذ فالمعوَّل عليه المأثور فقط ولا يقبل الرأى .

وإن كان للرأى فيه مجال ، فإن أمكن الجمع فبها ونعمت . وإن لم يمكن قدم المأثور عن النبى ﷺ أو عن الصحابة لأنهم شاهدوا الوحى ، وبعيدٌ عليهم أن يتكلموا فى القرآن بمجرد الهوى والشهوة .

أما المأثور عن التابعين فإذا كان منقولا عن أهل الكتاب قدِّم التفسير بالرأى عليه . وأما إذا لم ينقل عنهم رجعنا به إلى السمع . فما أيده السمع حُمل النظم الكريم عليه . فإن لم يترجّح أحدهما بسمع ولا بغيره من المرجِّحات فإننا لا نقطع بأن أحدهما هـــو المراد . بل ننزل اللفظ الكريم منزلة المجمل قبل تفصيله ، والمشتبه أو المبهم قبل بيانه .

ع — أهم كتب التفسير بالرأى

قد علم مما سبق أن التفسير بالرأى منه الممدوح الجائز ، ومنه المذموم غير الجائز وهاك بياناً بأشهر من ألَّف فى القسم الأول من أهل السنة ومؤلفاتهم :

١ — الإمامان الجليلان جـــلال الدين محمد المحلى ، وجلال الدين عبد الرحمن السيوطى .

وهما صاحبا التفسير المعروف بتفسير الجلالين .

٢ ـ الإمام البيضاوى ناصر الدين بن سعيد صاحب التفسير المسمى « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » .

٣ ـ الإمام فخر الدين الرازى محمد بن العلامة ضياء الدين عمر المشهور بخطيب الرى صاحب التفسير المسمى « مفاتيح الغيب » .

٤ ـ أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى الطحاوى صاحب التفسير المسمى « إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم » .

٥ ـ العلامة شهاب الدين الألوسى صاحب التفسير المسمى : « روح المعانى » .

٦ ـ نظام الدين الحسن محمد النيسابورى صاحب التفسير المسمى « غرائب القرآن ورغائب الفرقان » .

٧ ـ العلامة الشيخ محمد الشربينى الخطيب صاحب التفسير المسمى « السراج المنير فى الإعانة على معرفه كلام ربنا الخبير » .

٨ ـ أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى صاحب التفسير المسمى « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » .

٩ ـ علاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادى صاحب التفسير المعروف « بتفسير الخازن » .

تفسير الجلالين :

أما تفسير الجلالين فكتاب قيم ، سهل المأخذ إلى حدّ ما ، مختصر العبارة كثيراً ، يكاد يكون أعظم التفاسير انتشاراً ونفعاً ، وإن كان أصغرها أو من أصغرها شرحا وحجماً ، تداولته طبقات مختلفة من أهل العلم وغيرهم . وطبع طبعات كثيرة متنوعة .

طبع مرة وحده مجرداً، وأخرى بحاشية المصحف ، وثالثة مع حاشية الصاوى ، ورابعة مع حاشية الجمل. وأوسع حواشيه حاشية الجمل. والعجيب أن كثيراً من فطاحل العلماء كانوا يختارونه لأعلى دراسة عرفت فى التفسير ، كمادة أساسية يدورون حولها ؛ ويستلهمون وحيها . حتى إن دروس التفسير الشهيرة؛ للعلامة المرحوم الشيخ محمد عبده ، كانت مادته فيها تفسير الجلالين ، على ماسمعت .

تفسير البيضاوى :

وأما تفسير البيضاوى فهو كتاب جليل دقيق ، جميع بين التفسير والتأويل على قانون اللغة العربية ، وقرر الأدلة على أصول أهل السنة. وقد التزم أن يختم كل سورة بما يروى فى فضلها من الأحاديث ، غير أنه لم يتحرَّ فيها الصحيح . وأحسن حواشيه المتداولة حاشية الشهاب الخفاجى ، وإن كان له حواش أخرى كثيرة ، منها حاشية سعدى أفندى ، وحاشية الروشنى ، وحاشية الششترى ، وحاشية الشيروانى ، وحاشية السمرقندى على تفسير الفاتحة، وحاشية الإسفرايني على جزء عم ، وحاشية ابن أميرخان على سورة الملك .

تفسير الفخر الرازى :

سيأتى الكلام علية تحت عنوان تفاسير أهل الكلام .

تفسير أبى السعود :

تفسير رائع ممتاز يستهويك حسن تعبيره ؛ ويروقك سلامة تفكيره ، ويروعك ما أخذ نفسه به من تجلية بلاغة القرآن ، والعناية بهذه الناحية المهمة فى بيان إعجازه ،

مع سلامة فى الذوق ، وتوفيق فى التطبيق ، ومحافظة على عقائد أهل السنة . وبعد عن الحشو والتطويل .

تفسير النيسابورى :

يمتاز بسهولة عبارته ، وبتحقيق ما يحتاج إلى تحقيق ، مع قصد وخلو من الحشو وقد عنى بأمرين يلتزمهما: الكلام على القراءات والأوقف فى أول كل مرحلة من مراحل التفسير . والكلام على التأويل الإشارى فى آخر كل مرحلة من تلك المراحل . وهو مطبوع طبعة شهيرة على هامش تفسير ابن جرير . وهو مختصر لتفسير الفخر الرازى مع تهذيب كبير .

تفسير الألوسى :

سيأتى الكلام عليه عند التفسير الإشارى .

تفسير النسفى :

كتاب جليل . متداول مشهور ، سهل ودقيق . قال فيه صاحب كشف الظنون: هو كتاب وسط فى التأويلات ، جامع لوجوه الإعراب والقراءات ، متضمن لدقائق علم البديع والإشارات ، مرشح لأقاويل أهل السنة والجماعة ، خال من أباطيل أهل البدع والضلالة . ليس بالطويل الممل ، ولا بالقصير المخل اهـ .

تفسير الخطيب :

كتاب عظيم يعنى بثلاثة أشياء ، تقرير الأدلة وتوجيهها ، والكلام على المناسبات بين السور والآيات ، وسرد كثير من القصص والروايات .

تفسير الخازن :

تفسير مشهور ، يعنى بالمأثور ، بيد أنه لا يذكر السند ، وله ولوع بالتوسع فى الروايات والقصص ، ومن مزاياه أنه يتبع القصة ببيان ما فيها من باطل ؛ حتى لا ينخدع بها غرٌّ ولا يفتتن جاهل .

ف ـ تفاسير الفرق المختلفة

كالتفسير الإشارى وتفاسير أهل الكلام وأشهر الكتب فى ذلك

منيت الأمة بأن تفترق أكثر من سبعين فرقة ، وأن يلبسها الله شيعاً ويذيق بعضها بأس بعض ، وإن كانت لا تزال طائفة من هـذه الأمة ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ، حتى يأتى أمر الله . وقد تناولت كل طائفة كتاب الله تفسره بما ارتضتـه لنفسها من اعتدال أو تطرف . فظهرت مجموعة التفاسير كالمرايا المجلوة تنطبع فيها صور المفسرين لها على اختلاف مشاربهم ، وتباين منازعهم . ولا غرو ، فكل إناء بما فيه ينضح ، وكلٌّ يغنى على ليلاه .

ومن هنا تجد تفاسير أهل السنة تظهر فيها عقيدة أهل السنة ، وتفاسير المعتزلة تظهر فيها عقيدة الاعتزال ، والشيعة تظهر فى تفاسيرهم عقيدة التشيع ، وهلم وهلم .

وقد تكلمنا تحت العنوان السابق على نماذج من تفاسير أهل السنة ، فلنتكلم هنا على نماذج من تفاسير الفرق المختلفة .

ص ـ تفاسير المعتزلة

ولنبدأ بكتاب الكشاف للزمخشرى ، ثم كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضى عبد الجبار ، وهما نموذجان من تفاسير أهل الكلام من المعتزلة .

كتاب الكشاف :

أما كتاب الكشاف فصاحبه هو محمود بن عمر بن محمد بن عمر النحوى اللغوى المعتزلى الملقب بجار الله . ولد سنة ٤٦٧ هـ سبع وستين وأربعمائة . وتوفى سنة ٥٣٨ ثمان وثلاثين وخمسمائة ، بعد أن برع فى اللغة والأدب والنحو ومعرفة أنساب العرب حتى فاق أقرانه ثم تظاهر بالاعتزال ودعا إليه . وكتابه خير كتاب أو من خير الكتب التى يرجع إليها فى التفسير من ناحية البلاغة، رغم نزعته الاعتزالية . وأغلب التفاسير من بعده أخذت منه واعتمدت عليه .

ويمتاز الكشاف بأمور : (منها) خلوه من الحشو والتطويل (ومنها) سلامته من القصص والإسرائيليات (ومنها) اعتماده فى بيان المعانى على لغة العرب وأساليبهم (ومنها) عنايته بعلمى المعانى والبيان والنكات البلاغية ، تحقيقاً لوجوه الإعجاز (ومنها) سلوكه فيما يقصد إيضاحه طريق السؤال والجواب كثيراً . ويعنون السؤال بكلمة « إن قلت » بفتح التاء . ويعنون الجواب بكلمة « قلت » بضم التاء . وللكشاف حواش كثيرة . منها حاشية ابن كمال باشا زاده ، وحاشية علاء الدين المعروف بالبهلوان، وحاشية الشيخ حيدر ، وحاشية الرهاوى .

وإليك مواضع من كتابه ينحو فيها نحو الاعتزال ، ويقرر عقيدة القول بالمنزلة بين المنزلتين، وبأن أفعال العباد مخلوقة لهم ، وبأن رؤية الله فى الدار الآخرة مستحيلة .

(١) يقول عند تفسير قوله تعالى : « ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ » الخ ما نصه :
(فإن قلتَ) : ما الإيمان الصحيح ، (قلتُ) : أن يعتقد الحق ، ويعرب عنه بلسانه ويصدقه بعمله . فمن أخلّ بالاعتقاد وإن شهد وعمل فهو منافق . ومن أخلّ بالشهادة فهو كافر . ومن أخلّ بالعمل فهو فاسق اهـ . فأنت تراه فسر الإيمان بما يثبت به المنزلة بين المنزلتين . . . وهى منزلة الفاسق بين منزلة المؤمن ومنزلة الكافر . فينفى الإيمان عن سليم العقيدة ما دام أنه قد أخل بواجب العمل . وهو محجوج من أهل السنة بأن هذا التفسير لا يوافق اللغة ولا الشرع . أما اللغة فلأن معنى الإيمان التصديق لا غير ؛ وكذا الشرع بدليل عطف العمل عليه . والعطف يقتضى المغايرة بين المتعاطفين .

(٢) ويقول فى تفسير قوله سبحانه « وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » مانصه :
وإسناد الرزق إلى نفسه للإعلام بأنهم ينفقون الحلال المطلق الذى يستأهل أن يُضاف إلى الله اهـ . وهذا منه إيماء ورمز إلى أن الرزق الحلال من الله ، وأن الرزق الحرام من العبد .

ويردُّ عليه أهل السنة بقوله سبحانه : « هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ » فالله هو الخالق الرازق لا غيره . سواء أكان الرزق حلالا أم حراماً .

(٣) ويقول فى تفسير قوله تعالى : « خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ » الخ مانصه : —
(فإن قلت) لم أسند الختم إلى الله تعالى ؟، وإسناده إليه يدل على المنع من قبول الحق والتوصل إليه بطرقه ، وهو قبيح . والله تعالى منزه عن فعل القبيح بدليل : « وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » . « وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا هُمُ ٱلظَّالِمِينَ » . « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ » الخ ما قال : ثم أول إسناد الختم إلى الله بأن الكلام

استعارة أو مجاز. على معنى أن الشيطان هو الخاتم أو الكافر ، وأسند إلى الله تعالى لأنه هو الذى أقدره ومكّنه . وهذا المذهب يلزمه فى نظر أهل السنة أمور كلها باطلة :

(منها) مخالفة الدليل العقلى القائم على وحدانية الله تعالى ، وأنه لا شىء من الكائنات إلا وهو أثر من آثار القادر لا غيره .

(ومنها) مخالفة الدليل النقلى كقوله تعالى : « ٱللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ » .

(ومنها) القول بأن هذه الأشياء ، نفذ فيها مراد الشيطان أو الكافر ، بخلاف مراد الله . وهذا أشنع ما يقال :

(ومنها) قياس الغائب على الشاهد ، إذ جعلوا المنع من قبول الحق قبيحاً من الله قياساً على قبحه منا .

(ومنها) الجهل بحقيقة الظلم . وحقيقتهُ أنه التصرف فى ملك الغير بغير إذنه . ولا ملك إلا لله . « لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ » . « إِنْ كُلُّ مَنْ فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا آتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا » فلا ظلم فى فعله تعالى على أىِّ وجه كان .

(ومنها) أن ما تمسكوا به من أفعال العباد لو كانت مخلوقة لله تعالى لما نعاها عليهم، ولما عاقبهم بها . ولما قامت له حجة عليهم، كل ذلك مبنى على قاعدتهم الخاطئة من التحسين والتقبيح العقليين ، وعلى قياسهم الغائب على الشاهد كما سبق ، وكلا هذين لا يسلم لهم ، ثم يردُّ عليهم بالمثل فيقال لهم : يقبح من الشاهد أن يمكِّن غيرَه من فعل شىء ثم يعاقبه عليه ، فكذلك الغائب . وأنتم تقولون إن القدرة التى يخلق بها العبد فعله فى زعمكم ، هى مخلوقة لله تعالى مع علمه بما سيفعله العبد بها . ولا يخفى أن ذلك بمثابة إعطاء سيف لمن يبغى به على الناس ، وذلك قبيح فى الشاهد ، فهو قبيح فى الغائب . وما تجيبون به عن هذه نجيبكم به عن تلك . فالجواب هو الجواب .

(٤) ويقول في تفسير قوله تعالى « فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ » ما نصه : ولا غاية للفوز وراء النجاة من سخط الله والعذاب السرمدى ونيل رضوان الله والنعيم المخلد اه. وأنت ترى أن فى ذلك تعريضا بإنكار رؤية الله؛ إذ يصرح بأن النجاة والرضوان والنعيم لا غاية للفوز وراءها مع أنه لم يذكر الرؤية. وقد صرح بإنكارها فى سورة الأنعام إذ قال فى تفسير قوله تعالى: « لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَارَ » ما نصه : البصر هو الجوهر اللطيف الذى ركّبه الله فى حاسة النظر ؛ به تدرك المبصرات فالمعنى أن الأبصار لا تتعلق به ولا تدركه ، لأنه متعال عن أن يكون مبصَرا فى ذاته ، إذ الأبصار إنما تتعلق بما كان فى جهة أَصالةً أو تبعاً ، وذلك كالأجسام والهيئات اه .

ويردّ عليه أهل السنة (أولا) بأن الإدراك المنفى عبارة عن الإحاطة . ومنه قوله تعالى « حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ » أى أحاط به. وقوله سبحانه حكاية عن قوم موسى: « إِنَّا لَمُدْرَكُونَ » أى مُحاطٌ بنا. فالمنفى إذن عن الأبصار إحاطتها به عزّ وجلّ، لا مجرد الرؤية . ومن المعلوم أنه تعالى لا تحيط به الأفهام ؛ وهذا لا يمنع أن تعرفه . فالإحاطة للعقل منفية كنفى الإحاطة للبصر. وما دون الإحاطة من المعرفة للعقل والرؤية للبصر ، ثابت غير منفى .

(ثانيا) أن الزمخشري لم يذكر على إحاطة الرؤية عقلًا دليلًا ولا شبه دليل ، سوى أنه استبعد أن يكون المرئى لا فى جهة . وهذا نعارضه بالمثل فنقول : يلزمكم استبعاد أن يكون الموجود لا فى جهة، إذ الاتباع للوهم يبعدهما جميعاً، والانقياد للعقل يبطل هذا الوهم ويجيزهما معاً .

وحسبنا هذا. فحبل النقاش بين أهل السنة والمعتزلة طويل وميدان الأخذ والرد بينهما علم الكلام ، فارجع إليه إن شئت المزيد . عصمنى الله وإياك من الزلل ، ووفّقنا للقصد فى الاعتقاد والعمل ، آمين .

كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن :

مؤلفه هو القاضي عبد الجبار بن أحمد بن الخليل . وكنيته أبو الحسن البغدادى. برع فى علم الكلام، وفاق أهل زمانه، ووضع كتباً جليلة، وإليه انتهت رياسة المعتزلة ومشيختها، فصاروا يأخذون برأيه ، ويعتمدون على كتبه ، إلى أن توفى سنة ٤١٥ خمس عشرة وأربعمائة . وله مصنفات كثيرة ، من أهمها كتابه هذا : « تنزيه القرآن عن المطاعن ».

وهو مرتّب على مسائل تتضمن سؤالا وجوابه ، ولم تكن همته تفسير القرآن ، بل كان كل همه موجَّها نحو تأييد مذهبه . لذلك تراه لم يفسر جميع القرآن ، بل يذكر من السورة الآية التى يستطيع أن يؤولها على مقتضى عقيدته ويؤيد بها مذهب المعتزلة على نمط مافعل الزمخشرى فى الأمثلة التى بين يديك. وهذا الكتاب يحتوى كثيراً من الفوائد على رغم تعصُّبه المذهبى وعدم عنايته بالتفسير كما يجب .

ق — تفاسير الباطنية

الباطنية قوم رفضوا الأخذ بظاهر القرآن وقالوا : للقرآن ظاهر وباطن، والمراد منه باطنه دون ظاهره . ويستدلون بقوله تعالى: « فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ » وهم فرق متعددة على المثال الآتى :

١ ـ القرامطة : نسبة إلى حمدان قرمط إحدى قرى واسط ، وهو الذى تزعمهم فيما ذهبوا إليه .

٢ ـ الإسماعيلية : نسبة إلى إسماعيل أكبر أولاد جعفر الصادق ، وذلك لأنهم كانوا يعتقدون الإمامة فيه . وقيل إنهم سموا إسماعيلية، لانتسابهم إلى محمد بن إسماعيل.

٣ ـ السبعية : نسبة إلى عدد السبعة . ذلك لأنهم يعتقدون أن فى كل سبعة إماماً يقتدى به .

٤ ـ الحرمية : نسبة إلى الحرمة . وذلك لأنهم يستبيحون الحرمات .

٥ ـ البابكية : نسبة إلى زعيمهم بابك الخرمى الذى خرج بأذربيجان .

٦ ـ المحمرة : سموا بذلك للبسهم الحمرة .

ومذهب الباطنية على عمومه وباء انتقل إليهم بطريق العدوى من المجوس . ومن تأويلاتهم الفاسدة فى القرآن أنهم يقولون فى تفسير قوله تعالى: «وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ»: إن الإمام عليًّا وَرِثَ النبي فى علمه .

ويقولون : معنى الجنابة أنها مبادرة المستجيب بإفشاء السر قبل أن ينال رتبة الاستحقاق . ومعنى الغسل تجديدُ العهد على من فعل ذلك . ومعنى الطهارة التبرِّى من اعتقاد كل مذهب سوى متابعة الإمام. ومعنى التيمُّم: الأخذُ من المأذون إلى أن يشاهد الداعى الإمام ، ومعنى الصيام : الإمساكُ عن كشف السر .

ويقولون : إن (الكعبة) هى النبي ﷺ ، (والباب) علىّ ، (والصفا) هو النبي ، (والمروة) على ، (ونار إبراهيم) هى غضب النمروذ عليه ، (وعصا موسى) هى حجته . إلى غير ذلك من الخرافات التى لا يقبلها عقل ولا يؤيدها نقل .

وهذه التأويلات الفاسدة من أشد وأنكى ما يصاب به الإسلام والمسلمون ؛ لأنها تؤدى إلى نقض بناء الشريعة حجراً حجرا ، وإلى الخروج من رِبْقَة الإسلام وحلِّ عُراه عروةً عروة ، ولأنها تجعل القرآن والسنة فوضى فاحشة يقال فيهما ماشاء الهوى أن يُقال ، كأنهما لغو من الكلام ، أو كلأ مباح للبهائم والأنعام .وأخيراً ينفرط عقد المسلمين ، ويكون بأسهم بينهم من جراء هذا العبث بتلك الضوابط الدينية الكبرى ،

والحوافظ الأدبية العظمى . ومادام لكل واحد أن يفهم من القرآن ماشاء له الهوى والشهوة دون اعتصام بالشريعة ، ولا التزام لقواعد اللغة، لم يعد القرآن قرآناً ،وإنما هما الهوى والشهوة فحسب .

لهذا شرطنا فى التفسير ماشرطنا .وفى مقدمة شروطه التزام قوانين الشريعةوالتزام قواعد اللغة العربية . أما التزام قوانين الشريعة فلكيلا تتهافت النصوص وتتناقض التعاليم .

وأما التزام قواعد اللغة فلأن القرآن نزل بلسان عربى مبين . ويقول منزله جلّ شأنه : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »وقضية عروبته هذه أن يفهم على قوانين لغة العرب، وإلا فلا يرجى أن يعقل مافيه ، ولا أن يفهم مايحويه . وذلك معنى قوله : « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » بعد قوله « عربيًّا » .

ر ـ تفاسير الشيعة

الشيعة طائفة كبيرة بالغت فى حبها للإمام على وتقديرها إياه ،والمبالغة والإسراف حتى فى الفضائل يعود بها إلى الرذائل .

ولهذا يقول علماء الأخلاق : الفضيلة وسط بين رذيلتين . ويقولون : إذا خرج الشيء عن حده عاد إلى ضده .

ومن هنا أمر الإسلام بالاعتدال حتى فى حب النبى ﷺ وتقديره .

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ. وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » ويقول النبى ﷺ لأمته : « لاتطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم . ولكن قولوا عبدُ اللهِ ورسوله » .

ولكن الشيعة بالغوا وأسرفوا فى حب الإمام وتقديره . وهم فرق فمنهم من أغرق فى نفس التشيع حتى كفر . وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن سبأ اليهودى عدو الله الذى ما أظهر الإسـلام إلا بقصد الكيد له والإفساد فيه . ولهذا كانت تلك الفرقة فى موقف خصومة وحرب من المسلمين . حتى ورد أن الإمام عليًّا نفسه شنّ الغارة عليهم وحاربهم وطاردهم .

ومنهم قوم معتدلون لم يسقطوا فى هاوية الكفر ، وإن خالفوا أهل السنة والجماعة فى تفضيل أبى بكر وعمر وعثمان، وتقديمهم على الإمام على فى الخلافة رضى الله عنهم أجمعين ولهؤلاء مذاهب ودراسات ، وكتب وتفسيرات ، وأدلة وتأويلات .

ومن تفاسير الشيعة كتاب يسمى :

مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار .

مؤلفه يدعى المولى عبد اللطيف الكازلانى من النجف . وهذا التفسير مشتمل على تأويلات تشبه تأويلات الباطنية السابقة . فالأرض يفسرها بالدين ، وبالأئمة عليهم السلام ؛ وبالشيعة ، وبالقلوب التى هى محل العلم وقراره ، وبأخبار الأمم الماضية الخ فيقول فى قوله تعالى : « أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا » المراد دين الله وكتاب الله . ويقول فى قوله: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ» المراد أو لم ينظروا فى القرآن الخ فأنت ترى أنه قد حمل اللفظ الذى لا يجهله أحد على معان غريبة من غير دليل . وما حمله على ذلك إلا مركب الهوى والتعصب الأعمى لمذهبه . وذلك لا شك ضلال لا يقل عن ضلال الباطنية ولا البهائية .

« وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ » .

ش ـ التفسير الإشارى

هو تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوّف، ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر المراد أيضاً.

وقد اختلف العلماء فى التفسير المذكور، فمنهم من أجازه ومنهم من منعه. وإليك شيئاً من أقوال العلماء لتعرف وجه الحق فى ذلك:

قال الزركشى فى البرهان: كلام الصوفية فى تفسير القرآن قيل: إنه ليس بتفسير، وإنما هو معانٍ ومواجيد يجدونها عند التلاوة، كقول بعضهم فى قوله تعالى: « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَـٰتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ » إن المراد النفس. يريدون أن علة الأمر بقتال من يلينا هى القرب، وأقرب شىء إلى الإنسان نفسه.

وقال ابن الصلاح فى فتاويه: وجدت عن الإمام أبى الحسن الواحدى المفسر أنه قال: صنف أبو عبد الرحمن السلمى حقائق فى التفسير، فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر. قال ابن الصلاح: وأنا أقول: الظن بمن يوثق به منهم إذا قال شيئاً من ذلك أنه لم يذكره تفسيراً، ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة، فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية، وإنما ذلك منهم تنظير لما ورد به القرآن. فإن النظير يذكر بالنظير. ومع ذلك فياليتهم لم يتساهلوا بمثل ذلك. لما فيه من الإبهام والالتباس.

وقال النسفى فى عقائده: «النصوص على ظواهرها؛ والعدول عنها إلى معان يدّعيها أهل الباطل إلحاد» اهـ. قال التفتازانى فى شرحه: سميت الملاحدة باطنية لادعائهم أن النصوص ليست على ظاهرها، بل لها معان لا يعرفها إلا المعلم. وقصدهم بذلك نفى الشريعة

بالـكلية . قال : وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها ، ومع ذلك ففيها إشارات خفية إلى دقائق تنـكشف لأرباب السلوك يمـكن التوفيق بينها وبين الظواهر المرادة ، فهو من كمال الإيمان ، ومحض العرفان .

ومن هنا يعلم الفرق بـين تفسير الصوفية المسمى بالتفسير الإشارى ، وبين تفسير الباطنية الملاحدة . فالصوفية لا يمنعون إرادة الظاهر ، بل يحضون عليه ويقولون : لا بدّ منه أولا . إذ من ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم الظاهر ، كمن ادعى بلوغ سطح البيت قبل أن يجاوز الباب .

وأما الباطنية فإنهم يقولون : إن الظاهر غير مراد أصلًا ، وإنمـا المراد الباطن . وقصدهم نفى الشريعة .

ونقل السيوطى فى الإتقان عن ابن عطاء الله فى لطائف المنن ما نصه : اعلم أن تفسير هذه الطائفة لـكلام الله وكلام رسوله بالمعانى الغريبة ، ليس إحالة للظاهر عن ظاهره . ولـكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جاءت الآية له ودلت عليه فى عرف اللسان . وثَمَّ أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه . وقد جاء فى الحديث : (لـكل آية ظهر وبطن). فلا يصدّنك عن تلقى هذه المعانى منهم ، أن يقول لك ذو جدل ومعارضة: هذا إحالة لـكلام الله وكلام رسوله ﷺ . فليس ذلك بإحالة . وإنما يكون إحالة لو قالوا : لا معنى للآية إلا هذا . وهم لم يقولوا ذلك بل يقررون الظواهر على ظواهرها مراداً بها موضوعاتها ، ويفهمون عن الله ما أفهمهم ا هـ .

ملحوظة :

لعل من المناسب هنا أن نسوق إليك عبارة عن السيوطى فى بيان معنى ظهر الآية وبطنها ، وحد الحرف ، ومطلع الحد . قال نوّر الله ضريحه : « فإن قلت » : فقد قال الفريابى: حدثنا سفيان عن يونس بن عبيد عن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه سلم

« لكل آية ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ولكل حد مطلع » قلت : أما الظهر والبطن ففى معناه أوجه :

(أحدها) أنك إذا بحثت عن باطنها ، وقسته على ظاهرها ، وقفت على معناها .

(الثانى) أنه ما من آية إلا عمل بها قوم ، ولها قوم سيعملون بها ، كما قال ابن مسعود .

(الثالث) أن ظاهرها لفظها ، وباطنها تأويلها .

(الرابع) قال أبو عبيدة : ـ وهو أشبهها بالصواب ـ إن القصص التى قصها الله تعالى عن الأمم الماضية وما عاقبهم به ، ظاهرها الإخبار بهلاك الأولين وحديث حدث به عن قوم ، وباطنها وعظ الآخرين وتحذيرهم أن يفعلوا كفعلهم ، فيحلّ بهم مثل ما حلّ بهم .

وحكى ابن النقيب (قولا خامساً) : أن ظهرها ماظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر وبطنها ماتضمنته من الأسرار التى أطلع الله عليها أرباب الحقائق .

ومعنى قوله (ولكل حرف حد) أى منتهى فيما أراد الله من معناه . وقيل : لكل حكم مقدار من الثواب والعقاب .

ومعنى قوله : (ولكل حد مطلع) لكل غاية من المعانى والأحكام مطلع يتوصل به إلى معرفته ، ويوقف على المراد به . وقيل : كل ما يستحق من الثواب والعقاب يطلع عليه فى الآخرة عند المجازاة . وقال بعضهم : الظاهر التلاوة والباطن الفهم والحد أحكام الحلال والحرام ، والمطلع الإشراف على الوعد والوعيد . قلت : يؤيد هذا ما أخرجه ابن أبى حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس قال : إن القرآن ذو شجون وفنون ، وظهور وبطون لا تنقضى عجائبه ، ولا تُبلغ غايته ، فمن أوغل فيه برفق نجا ، ومن أوغل فيه بعنف هوى ، أخبار وأمثال ، وحلال وحرام ، وناسخ ومنسوخ ، ومحكم ومتشابه . وظهر وبطن : فظهره التلاوة ، وبطنه التأويل

فجالسوا به العلماء ، وجانبوا به السفهاء اهـ :غير أن الوجه الأول الذى نقله السيوطى فى معنى الظهر والبطن ليس بواضح. وإذا التمسنا له بعض الاحتمالات تشابه أو اتحد بما بعده من الأقوال . والقول الخامس متحدٌ كذلك مع الثالث أو قريب منه . فتأمل .

شروط قبول التفسير الإشارى :

مما تقدم يعلم أن التفسير الإشارى لا يكون مقبولاً إلا بشروط خمسة وهى :

(١) ألا يتنافى وما يظهر من معنى النظم الكريم .

(٢) ألا يُدَّعَى أنه المراد وحده دون الظاهر .

(٣) ألا يكون تأويلاً بعيداً سخيفاً ، كتفسير بعضهم قوله تعالى : «وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ» بجعل كلمة «لمعَ» ماضياً . وكلمة «المحسنين» مفعوله .

(٤) ألا يكون له معارض شرعى أو عقلى .

(٥) أن يكون له شاهد شرعى يؤيده .

كذلك اشترطوا . بيدأن هذه الشروط متداخلة، فيمكن الاستغناء بالأول عن الثالث، وبالخامس عن الرابع. ويحسن ملاحظة شرطين بدلهما أحدهما بيان المعنى الموضوع له اللفظ الكريم أولاً . ثانيهما ألَّا يكون من وراء هذا التفسير الإشارى تشويش على المفسَّر له. وسيأتيك فى نصيحتى وفى كلام الغزالى مايقرر هذين الشرطين .

ثم إن هذه شروط لقبوله بمعنى عدم رفضه فحسب، وليست شروطاً لوجوب اتباعه والأخذ به . ذلك لأنه لا يتنافى وظاهر القرآن ، ثم إن له شاهداً يعضده من الشرع ، وكل ما كان كذلك لا يرفض . وإنما لم يجب الأخذ به لأن النظم الكريم لم يوضع للدلالة عليه، بل هو من قبيل الإلهامات التى تلوح لأصحابها غير منضبطة بلغة، ولا مقيدة بقوانين .

أهم كتب التفسير الإشارى

وأهم كتب التفسير الإشارى أربعة: تفسير النيسابورى، وتفسير الألوسى، وتفسير التسترى، وتفسير محيي الدين بن عربى.

(١) أما تفسير النيسابورى: فقد تقدّم الكلام عليه، وبقى أن نذكر لك عنه أنه بعد أن يوفى الكلام على ظاهر معنى الآية أو الآيات يقول: قال أهل الإشارة. أو يقول: (التأويل) ثم يسوق المعنى الإشارى لتلك الآية أو الآيات تحت هذا العنوان. مثال ذلك أنه قال بعد التفسير الظاهر لقوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً» الآيات. قال ما نصه: «التأويل: ذبح البقرة إشارة إلى ذبح النفس البهيمية، فإن فى ذبحها حياة القلب الروحانى، وهو الجهاد الأكبر: «مُوتُوا قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا».

« اقْتُلُونِي يَا ثِقَاتِي إِنَّ فِي قَتْلِي حَيَاتِي
وَحَيَاتِي فِي مَمَاتِي وَمَمَاتِي فِي حَيَاتِي »

مُت بالإرادة تحيَ بالطبيعة. وقال بعضهم: مُتْ بالطبيعة تحيَ بالحقيقة «مَا هِيَ؟ إِنَّهَا بَقَرَةٌ»: نفسٌ تصلح للذبح بسيف الصدق، «لَا فَارِضٌ» فى سن الشيخوخة، فيعجز عن وظائف سلوك الطريق لضعف القوى البدنية، كما قيل: الصوفى بعد الأربعين بارد. «وَلَا بِكْرٌ» فى سن شَرْخ الشباب، يستهويه سكره. «عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ» لقوله تعالى: «حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً» «بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ» إشارة إلى صفرة وجوه أصحاب الرياضات. «فَاقِعٌ لَوْنُهَا» يريد أنها صفرة زين؛ لا صفرة شين. فإنها سيما الصالحين «لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ»: لا تحتمل ذلة الطمع، ولا تثير بآلة الحرص أرض الدنيا لطلب زخارفها ومشتهياتها. «ولا تسقى الحرث» ولا يسقى حرث الدنيا بماء وجهه عند الخلق؛ وبماء وجاهته عند الخالق، فيذهب ماؤه عند الحق وعند الخلق. «مُسَلَّمَةٌ» من آفات صفاتها، ليس فيها علامة طلب غير الله «وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ» بمقتضى الطبيعة،

لولا فضل الله وحسن توفيقه :

« وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا » يعنى القلب : « فَادَّارَأْتُمْ » فاختلفتم أنه كان من الشيطان . أم من الدنيا أم من النفس الأمارة « فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا » ضرب لسان البقرة المذبوحة بسكين الصدق على قتيل القلب بمداومة الذكر ، فحيي بإذن الله ، وقال « إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ » .

« وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ » مراتب القلب فى القسوة مختلفة : فالتى يتفجر منها الأنهار قلوب يظهر عليها لغليان أنوار الروح بترك اللذات والشهوات بعضُ الأشياء المشبهة بخرق العادات ، كما يكون لبعض الرهبان والهنود . والتى تشقق فيخرج منها الماء ، هى التى يظهر عليها فى بعض الأوقات عند انخراق الحجب البشرية من أنوار الروح فيريه بعض الآيات والمعانى المعقولة ، كما يكون لبعض الحكماء ؛ والتى تهبط من خشية الله ما يكون لبعض أهل الأديان والملل من قبول عكس أنوار الروح من وراء الحجب فيقع فيها الخوف والخشية .

وهذه المراتب مشتركة بين المسلمين وغيرهم . والفرق أنها فى المسلمين مؤيدة بنور الإيمان ، فيزيدون فى قربهم وقلوبهم ودرجاتهم . ولغيرهم ليست مؤيدة بالإيمان ، فيزيدوا فى غرورهم وعجبهم وبعدهم واستدراجهم . والمسلمون مختصون بكرامات وفراسات تظهر لهم من تجلِّى أنوار الحق ورؤية برهانه .

فإراءة الآيات للخواصِّ « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ » . « وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » . لكن إراءة البرهان لأخصِّ الخواص كما جاء فى حق يوسف « لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ » .

سئل الحسن بن منصور عن البرهان فقال : واردات تُرد على القلوب ، فتعجز القلوب عن تكذيبها . والله أعلم اهـ .

(مثال ثان) قال النيسابورى أيضاً بعد تفسير قوله تعالى: « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ » مانصه : « التأويل » مساجد الله التى يذكر فيها اسمه عند أهل النظر ، النفس، والقلب، والروح ، والسر، والخفى وهو سر السر. وذكر كل مسجد منها مناسب لذلك المسجد . فذكر مسجد النفس الطاعات والعبادات ، ومنع الذكر فيه بترك الحسنات وملازمة السيئات. وذكر مسجد القلب التوحيد والمعرفة، ومنع الذكر فيه بالتمسك بالشبهات، والتعلق بالشهوات، فإن القلوب المعلقة بالشهوات عقولها عنى محجوبة. وذكر مسجد الروح بالشوق والمحبة، ومنع الذكر فيه بالحظوظ والمسكنات. وذكر مسجد السر المراقبةُ والشهود ، ومنع الذكر فيه بالركون إلى الكرامات. وذكر مسجد الخفى وهو سر السر ، بذل الوجود ، وترك الموجود . ومنع الذكر فيه بالالتفات إلى المشاهدات والمكاشفات » الخ ما قال .

(٢) وأما تفسير الألوسى فاسمه روح المعانى . ومؤلفه العلامة المحقق شهاب الدين السيد محمد الألوسى البغدادى مفتى بغداد المتوفى سنة ١٢٧٠ سبعين ومائتين وألف . وهذا التفسير من أجل التفاسير وأوسعها وأجمعها . نظم فيه روايات السلف بجانب آراء الخلف المقبولة. وألف فيه بين مايفهم بطريق العبارة ومايفهم بطريق الإشارة. رحمه
آراء الخلف المقبولة . وألف فيه بين مايفهم بطريق العبارة ومايفهم بطريق الاشارة. رحمه
الله وتجاوز عنه .

ومما قاله فى التفسير الإشارى بعد أن فسّر قوله تعالى: « وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً، فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » إلى آخر الآيات بعدها . قال مانصه :

ومن مقام الإشارة فى الآيات : وإذ قلتم ياموسى القلب، لن نؤمن الإيمان الحقيقى حتى نصل إلى مقام المشاهدة والعيان . فأخذتكم صاعقة الموت الذى هو الفناء فى التجلى الذاتى . وأنتم تراقبون أو تشاهدون . ثم بعثناكم بالحياة الحقيقية . والبقاء بعد الفناء ،

لكي تشكروا نعمة التوحيد والوصول بالسلوك فى الله عز وجل. وظللنا عليكم غمام تجلى الصفات، لكونها حجبت شمس الذات، الخ ماقال.

(مثال ثان): قال بعد تفسير قوله تعالى: « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » قال مانصه:

وإذ أخذنا ميثاقكم المأخوذ بدلائل العقل، بتوحيد الأفعال والصفات، ورفعنا فوقكم طور الدماغ، للتمكن من فهم المعانى وقبولها. أو أشار سبحانه بالطور، إلى موسى القلب، وبرفعه إلى علوه واستيلائه فى جو الإرشاد والشرائع، لكى تتقوا الشرك والجهل والفسق، ثم أعرضتم بإقبالكم إلى الجهة السفلية بعد ذلك. فلولا حكمة الله بإمهاله، وحكمه بإفضاله، لعاجلتكم العقوبة، ولحلّ بكم عظيم المصيبة.

« إلى اللهِ يُدعى بالبراهينِ مَنْ أُبى
فإنْ لم يُجِبْ، بَادَتْهُ بِيضُ الصَّوارِمِ »

فهذه الإشارة إنما يعرفها ذو الوجد والمشاهدة، وهى لأصحابها رياض يانعة، وأنوار لامعة. اهـ.

(٣) تفسير التسترى: هو أبو محمد سهل بن عبد الله التسترى المتوفى سنة ٣٨٣ ثلاث وثمانين وثلثمائة. وتفسيره هذا لم يستوعب كل الآيات، وإن استوعب السور، وقد سلك فيه مسلك الصوفية مع موافقته لأهل الظاهر. وإليك نموذجاً منه إذ يقول فى تفسير البسملة مانصه: ـ

(الباء) بهاء الله عز وجل. (والسين) سناء الله عز وجل. (والميم) مجد الله عز وجل. (والله) هو الاسم الأعظم الذى حوى الأسماء كلها. وبين الألف واللام

منــه حرف مـكنى غيب إلى غيب ، وسر من سر إلى سر ، وحقيقـة من حقيقـة إلى حقيقـة . لا ينـال فهمه إلا الطاهر من الأدناس ، الآخذ من الحلال قواما ضرورة الإيمان .

(والرحمن) اسم فيه خاصة من الحرف المـكنى بين الألف واللام .(والرحيم) هو العاطف على عباده بالرزق فى الفرع ، والابتداء فى الأصل ، رحمة لسابق علمه القديم . قال أبو بكر : أى بنسيم روح الله اخترع من ملـكه ما شاء رحمة لأنه رحيم وقال على ابن أبى طالب رضى الله عنه : الرحمن الرحيم . اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر . فنفى الله بهما القنوط عن المؤمنين من عباده اﻫ .

ومن تفسيره بما هو قريب من المعنى الظاهر قوله فى تفسير الآية الـكريمة .

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى » الخ ما نصه : ـ

أفـكان شاكًا فى إيمانه حتى سأل ربه أن يريه آية معجزة ليصح معها إيمانه ؟ فقال سهل : لم يكن سؤاله ذلك عن شك ، وإنما كان طالباً زيادة اليقين ، يقيناً فى قدرة الله وتمـكينا فى خلقه . ألا تراه كيف قال : « أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ بَلَى » فلو كان شاكًا لم يُجبْ ببلى . ولو علم الله منه الشك وهو أخبر ببلى وستر الشك ، لـكشف الله ذلك . إذ كان مثله مما لا يخفى اﻫ .

وهذا الـكتاب صغير الحجم ، غير أنه غزير المادة فى موضوعه ، مشتمل على كثير من علاج الشبهات، ودفع الإشكالات. يقع فى نحو من ٣١٤أربع عشرة وثلاثمائة صفحة وهو مطبوع بمصر .

(٤) تفسير ابن عربى : هو عبد الله محمد بن على بن محمد بن أحمد بن عبد الله . محيي الدين بن عربى ، الحاتمى ، الصوفى ، الفقيه ، المحدث . ولد بمرسية سنة ٥٦٠ ستين وخمسمائة وتوفى فى دمشق سنة ٦٣٨ ثمان وثلاثين وستمائة .

ومن مصنفاته كتاب الجمع والتفصيل ، فى إبداء معانى التنزيل. ومنها إيجاز البيان فى الترجمة عن القرآن. وقد طبع تفسيره فى جزأين بالمطبعة الأميرية سنة ١٢٨٧ سبع وثمانين ومائتين بعد الألف ، وقد قال فى خطبته ما نصه :

قد تذكرت خبراً قد أتانى فازدهانى ، مما وراء المقاصد والأمانى، قول النبي الأمى الصادق ، عليه أفضل الصلوات من كل صامت وناطق : « ما من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع ». وفهمت منه أن الظهر هو التفسير، والبطن هو التأويل ، والحدّ ما يتناهى إليه المفهوم من معنى الكلام ، والمطلع ما يصعد إليه منه فيطلع على شهود الملك العلام .

وقد نقُل عن الإمام المحقق السابق ، جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال : لقد تجلى الله تعالى لعباده فى كلامه ولكن لا يبصرون . وروى عنه عليه السلام أنه خرّ مغشيًّا عليه وهو فى الصلاة ، فسُئِلَ عن ذلك فقال : « مازلت أردّد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها » .

قال : فرأيت أن أعلق بعض مايسنح لى فى الأوقات، من أسرار حقائق البطون ، وأنوار شوارق الكائنات ، دون مايتعلق بالظواهر والحدود ؛ فإنها قد عين لها حدٌ محدود . وقد قيل : « مَنْ فسَّر القرآن برأيه فقد كفر » وأما التأويل فلا يبقى ولا يذر، فإنه باختلاف أحوال المستمع وأوقاته ، فى مراتب سلوكه وتفاوت درجاته . وكلما ترقَّى عن مقام انفتح له باب فهم جديد ، واطلع به على لطيف معنى عتيد . إلى أن قال : « وكل مالا يقبل التأويل عندى أو لا يحتاج إليه ، فما أوردته أصلا » الخ اهـ .

ومن تفسيره الإشارى لقول الله تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً » ما نصه :

« إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » هى النفس الحيوانية . وذبحها قمع هواها الذى هو حياتها ومنبعها ، من الأفعال الخاصة بها بشفرة سكين الرياضة . وقال فى تفسير آية « وَلِسُلَيْمَانَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً » إلى قوله : « وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ » من سورة الأنبياء ، قال مانصه :

ولسليمان الرِّيحَ » أى سخرنا لسليمان العقل العملى ، والمتمكن على عرش النفس فى الصدر ، ريح الهوى « عاصفة » فى هبوبها . « تَجْرِى بِأَمْرِهِ » مطيعة له « إلى الأرض » أرض البدن المتدرب بالطاعة والأدب . « ٱلَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا » بتمييز الأخلاق والملكات الفاضلة والأعمال الصالحة . « وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ » من أسباب الكمال « عالمين » . « وَمِنَ ٱلشَّيَاطِينِ » شياطين الوهم والتخييل ، « مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ » فى بحر الهيولى الجسمانية ويستخرجون درر المعانى الجزئية « وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ » من التركيب والتفصيل والمصنوعات ، وتهييج الدواعى المكسوبات وأمثالها . « وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ » عن الزيغ والخطأ والتسويل الباطل والكذب « وَأَيُّوبَ » النفس المطمئنة الممتحنة بأنواع البلاء فى الرياضة ، البالغة كمال الزكاء فى المجاهدة « إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ » عند شدة الكرب فى الجد ، وبلوغ الطاقة والوسع فى الجهد . « أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ » من الضعف والانكسار والعجز . « وَأَنْتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ » بالتوسعة والروح . « فَٱسْتَجَبْنَا لَهُ » بروح الأحوال عن كد الأعمال ، عند كمال الطمأنينة ونزول السكينة « وَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ » من ضر الرياضة بنور الهداية . ونفسنا عنه ظلمة الكرب ، بإشراق نور القلب « وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ » القوى النفسية التى ملكناها وأمتناها بالرياضة ، بإحيائها بالحياة الحقيقية . « وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ » من إمداد القوى الروحانية وأنوار الصفات القلبية ، ووفرنا عليهم أسباب الفضائل الخلقية ، وأحوال العلوم النافعة الجزئية « رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ » اهـ .

ت ـ نصيحة خالصة

بيد أن هذا التفسير كما ترى ،جاء كله على هذا النمط دون أن يتعرض لبيان المعانى الوضعية للنصوص القرآنية . وهنا الخطر كل الخطر . فإنه يخاف على مُطالعه أن يفهم أن هذه المعانى الإشارية، هى مراد الخالق إلى خلقه فى الهداية إلى تعاليم الإسلام ، والإرشاد إلى حقائق هذا الدين الذى ارتضاه لهم .

ولعلك تلاحظ معى أن بعض الناس قد فتنوا بالإقبال على دراسة تلك الإشارات والخواطر ، فدخل فى رُوعهم أن الكتاب والسنة بل الإسلام كله ماهى إلا سوانح وواردات ، على هذا النحو من التأويلات والتوجيهات . وزعموا أن الأمر ما هو إلا تخيلات ، وأن المطلوب منهم هو الشطح مع الخيال أينما شطح ، فلم يتقيدوا بتكاليف الشريعة ، ولم يحترموا قوانين اللغة العربية فى فهم أبلغ النصوص العربية : كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ .

والأدْهَى من ذلك أنهم يتخيَّلون ويخيِّلون إلى الناس ، أنهم هم أهل الحقيقة الذين أدركوا الغاية ،واتصلوا بالله اتصالا أسقط عنهم التكاليف، وسما بهم عن حضيض الأخذ بالأسباب ، ما داموا فى زعمهم مع رب الأرباب. وهذا ـ لعمر الله ـ هو المصاب العظيم الذى عمل له الباطنية وأضرابهم من أعداء الإسلام ، كيما يهدموا التشريع من أصوله ، ويأتوا بنيانه من قواعده.« يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ. وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ » .

فواجب النصح لإخواننا المسلمين يقتضينا أن نحذِّرهم الوقوع فى هذه الشباك، ونشير عليهم أن ينفضوا أيديهم من أمثال تلك التفاسير الإشارية الملتوية ، ولا يعوِّلوا على أشباهها مما ورد فى كلام القوم بالكتب الصوفية. لأنها كلها أذواق ومواجيد،خارجة

عن حدود الضبط والتقييد . وكثيراً ما يختلط فيها الخيال بالحقيقة والحق بالباطل. وإذا تجردت من ذلك فقلما يظهر منها مراد القائل . وإذا ظهر فقد يكون من الكفريات الفاحشة ، التى نستبعد صدورها من العلماء والمتصوفة بل من صادق عامة المسلمين . والتى نرى الطعن فيها بالدس والوضع ،أقرب وأسلم من الطعن فيمن عُزيت إليه بالكفر والفسق .

فالأحْرَى بالفَطِن العاقل، أن ينأى بنفسه عن هذه المزالق، وأن يفرَّ بدينه من هذه الشبهات. وأمامه فى الكتاب والسنة وشروحهما على قوانين الشريعة واللغة رياضٌ وجنات. « أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ » ؟ ! .

قال ﷺ : « فمن اتقى الشبهات فقد استَبْرَأَ لدينه وعِرْضِهِ » .

وقال ﷺ : « دَعْ ما يَرِيبُكَ إلى مالا يَرِيبك » وبالله تعالى توفيقى وتوفيقك . نسأله تعالى أن يخرجنا من ظلمات الأوهام ، وأن يحققنا بحقائق الدين وتعاليم الإسلام ، آمين .

كلمة لحجة الإسلام الغزالى :

وأختم نصيحتى هذه بكلمة قيِّمة تتصل بموضوعنا اتصالا ماسًّا، وهى مدبَّجة ببراعة الإمام الغزالى ، حين عرض فى كتابه الإحياء للذكر والتذكير وما أدخله الناس فيهما، فقال ـ بلَّل الله ثراه ـ :

وأما الشطح فنعنى به صنفين من الكلام أحدثهما بعض الصوفية :

(أحدهما) الدعاوى الطويلة العريضة فى العشق مع الله تعالى ، والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة حتى ينتهى قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب ، والمشاهدة بالرؤية ، والمشافهة بالخطاب، فيقولون: قيل لنا كذا وقلنا كذا، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلَّاج الذى صُلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس

ويستشهدون بقوله : أنا الحق . وربما حكى عن أبى يزيد البسطامى أنه قال : سبحانى سبحانى . !! وهذا فنٌّ من الكلام عظيم ضرره على العوام ، حتى لقد ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم ، وأظهروا مثل هذه الدعاوى ، فإن هذا الكلام يستلذه الطبع ، إذ فيه البطالة من الأعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال ، فلا تعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم ، ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة . ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا: هذا إنكار مصدره العلم والجدل، والعلم حجاب، والجدل عمل النفس ، وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق . . فهذا ومثله مما قد استطار فى البلاد شرره ، وعظم فى العوامّ ضرره ، حتى من نطق بشىء منه فقتله أفضل فى دين الله من إحياء عشرة . وأما أبو يزيد البسطامى رحمه الله ، فلا يصح عنه ما يحكى، وإن سمع ذلك منه فعله كان يحكيه عن الله عزَّ وجلَّ فى كلام يردِّده فى نفسه ، كما لو سمع وهو يقول: «إنَّنِى أَنَا ٱللهُ لَا إِلَٰهَ إلا أَنَا فَاعْبُدْنِى» فإنه ما كان ينبغى أن يفهم منه ذلك إلا على سبيل الحكاية .

(الصنف الثانى من الشطح): كلمات غير مفهومة ، لها ظواهر رائقة، وفيها عبارات هائلة ، وليس وراءها طائل. وتلك إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها ، بل يصدرها عن خبط فى عقله ، وتشويش فى خياله ، لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه . وهذا هو الأكثر. وإما أن تكون مفهومة له ، ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره ، لقلة ممارسته للعلم وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعانى بالألفاظ الرشيقة . ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوِّش القلوب ويدهش العقول ويحير الأذهان ، أو يحمل على أن يفهم منها معانٍ ما أريدت ، ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه. وقد قال صلى الله عليه وسلم: « ماحدَّثَ أحدكم قوماً بحديثٍ لا يفقهونه إلا كانَ

فتنةً عليهم(١) » وقال ﷺ : كلموا الناسَ بما يعرفون ، ودعــوا ماينكرونَ ، أتريدونَ ، أنْ يكذَّبَ اللهُ ورسولهُ(٢) » وهذا فيما يفهمه صاحبه ولا يبلغه عقل المستمع ، فكيف فيما لايفهمه قائله ؟ فإن كان يفهمه القائل دون المستمع فلا يحلُّ ذكره . وقال عيسى عليه السلام : « لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء فى موضع الداء » وفى لفظ آخر : « من وضع الحكمة فى غير أهلها فقد جهل ، ومن منعها أهلها فقد ظلم . إن للحكمة حقًّا ، وإن لها أهلًا ، فأعطِ كلَّ ذى حقٍّ حقهُ » .

وأما الطامّات فيدخلها ماذكرناه فى الشطح ، وأمرٌ آخر يخصها ، وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لايسبق منها إلى الأفهام فائدة ، كدأب الباطنية فى التأويلات . فهذا أيضاً حرام وضرره عظيم ، فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها من غير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل ، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ ، وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ ، فإن مايسبق منه إلى الفهم لا يوثق به والباطن لاضبط له ، بل تتعارض فيه الخواطر ، ويمكن تنزيله على وجوه شتى . وهذا أيضاً من البدع الشائعة العظيمة الضرر وإنما قصد أصحابها الإغراب ، لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذّة له . وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها ، وتنزيلها على رأيهم ، كما حكيناه من مذاهبهم فى كتاب المستظهرى المصنف فى الرد على الباطنية .

---

(١) هذا الحديث رواه مسلم فى مقدمة صحيحه ، موقوفاً على ابن مسعود . ورواه العقيلى فى الضعفاء .

(٢) هذا الحديث رواه البخارى موقوفاً على علىّ ، ورفعه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من طريق أبى نعيم .

ومثال تأويل أهل الطامات قول بعضهم فى تأويل قوله تعالى « اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى » إنه إشارة إلى قلبه ، وقال هو المراد بفرعون وهو الطاغى على كل إنسان. وفى قوله تعالى : « وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ » أى كل مايتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله عزّ وجلّ فينبغى أن يلقيه . وفى قوله ﷺ : « تَسَحَّرُوا فإن فى السُّحورِ بَرَكَةً[1] » أراد به الاستغفار فى الأسحار ، وأمثال ذلك حتى ليحرفون القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره ، وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء. وبعض هذه التأويلات يعلم بطلانها قطعاً ، كتنزيل فرعون على القلب،فإن فرعون شخص محسوس تواتر إلينا النقل بوجوده ودعوة موسى له ، كأبى جهل وأبى لهب وغيرهما من الكفار. وليس من جنس الشياطين والملائكة مما لم يدرك بالحسّ حتى يتطرّق التأويل إلى ألفاظه. وكذلك حمل السحور على الاستغفار ، فإنه كان صلى الله عليه وسلم يتناولُ الطعام ويقول : « تَسَحَّرُوا[2] » « وهلموا إلى الغِذَاء المبارَكِ[3] ». فهذه أمور يدرك بالتواتر والحسّ بطلانها نقلا ، وبعضها يعلم بغالب الظن، وذلك فى أمور لا يتعلق بها الإحساس. فكل ذلك حرام وضلالة وإفساد للدين على الخلق. ولم ينقل شىء من ذلك عن الصحابة ولا عن التابعين ولا عن الحسن البصرى مع إكبابه على دعوة الخلق ووعظهم. فلا يظهر لقوله صلى الله عليه وسلم : « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»[4] معنى إلا هذا

---

(١) هذا الحديث رواه البخارى ومسلم .

(٢) هذا الحديث رواه البخارى .

(٣) هذا الحديث رواه أبو داود والنسائى وابن حبان من حديث العرباض بن سارية. وضعفه ابن القطان .

(٤) رواه البخارى ومسلم وقيل بتواتره .

النمط . وهو أن يكون غرضه ورأيه تقرير أمر وتحقيقه . فيستجرُّ شهادة القرآن إليه ، ويحمله عليه ، من غير أن يشهد لتنزيله عليه دلالة لفظية لغوية أو نقلية .

ولا ينبغى أن يفُهم منه أنه يجب ألا يفسر القرآن بالاستنباط والفكر ، فإن من الآيات ما نقل فيها عن الصحابة والمفسرين خمسة معانٍ وستة وسبعة ، وعُلم أن جميعها غيرمسموع من النبى ﷺ ، فإنها قد تكون متنافية لاتقبل الجمع، فيكون ذلك مستنبطا بحسن الفهم وطول الفكر . ولهذا قال ﷺ لابن عباس رضى الله عنه : « اللهم فَقِّهْهُ فى الدِّين وعَلِّمْهُ التأويل » .

ومن يستجيز من أهل الطامّات مثل هذه التأويلات مع علمه بأنها غير مرادة بالألفاظ، ويزعم أنه يقصد بها دعوة الخلق إلى الخالق ، يضاهى من يستجيز الاختراع والوضع على رسول الله ﷺ لما هو فى نفسه حق ولكن لم ينطق به . كمن يضع فى كل مسألة يراها حقاً حديثاً عن النبى ﷺ ، فذلك ظلم وضلال ودخول فى الوعيد المفهوم من قوله ﷺ : « من كَذَبَ عَلَيَّ مُتعمداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّار » . بل الشر فى تأويل هذه الألفاظ أطمُّ وأعظم لأنه مبطل للثقة بالألفاظِ وقاطع طريق الاستفادة والفهم من القرآن بالكلية . فقد عرفت كيف صرف الشيطان دواعى الخلق عن القوانين المحمودة إلى المذمومة . فكل ذلك من تلبيس علماء السوء بتبديل الأسامى . فإن اتبعت هؤلاء اعتماداً على الاسم المشهور من غير التفات إلى ماعرف فى العصر الأول، كنت كمن طلب شرف الحكمة باتباع من يسمى حكيماً، فإن اسم الحكيم صار يُطلق على الطبيب والشاعر والمنجِّم فى هذا العصر . وذلك بالغفلة عن تبديل الألفاظ .

ثم قال : « اللفظ الخامس ـ أى من الألفاظ التى وقع فيها التلبيس ـ لفظ الحكمة فإن اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجِّم حتى على الذى يدحرج القرعة

على أكفّ السوادية فى شوارع الطرق، . والحكمة هى التى أثنى الله عزّ وجلّ عليها فقال « يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيراً » وقال ﷺ: « كلمةٌ من الحكمة يتعلمها الرَّجُلُ خيرٌ له من الدنيا وما فيها[1] » فانظر ما الذى كانت الحكمة عبارة عنه ؟ وإلى ماذا نقل ؟ وقِسْ به من بقية الألفاظ واحترز عن الاغترار بتلبيسات علماء السوء فإن شرهم على الدين أعظم من من شر الشياطين ، إذ الشياطين بواسطتهم يتدرّج إلى انتزاع الدين من قلوب الخلق . ولهذا لما سئل رسول الله ﷺ عن شر الخلق أبَى وقال : « اللَّهمّ غفراً[2] » حتى كرروا عليه فقال : « هُم علماء السوء ».

فقد عرفت العلم المحمود والعلم المذموم ومثار الالتباس . وإليك الخيرة فى أن تنظر لنفسك فتقتدى بالسلف ، أو تتدلى بحبل الغرور وتتشبَّه بالخلف . فكل ما ارتضاه السلف من العلم قد اندرس ، وما أكبّ الناس عليه فأكثره مبتدَع ومحدَث . وقد صحّ عن رسول الله ﷺ : « بدأ الإسلام غريباً . وسيعودُ غريباً كما بدأ ، فَطُوبَى للغرباء » فقيل: يارسول الله ومَن الغُرَباء ؟ قال : « الذين يُصْلِحُونَ ما أفسدهُ الناسُ من سُنَّتِى . والذين يُحْيُونَ ما أماتوه من سُنَّتِى[3] » وفى خبر آخر : « هُم المتمسِّكُون بما أنتم عليه اليوم[4] » وفى حديث آخر : « الغُرَباء ناسٌ قليلٌ صالحون بينَ ناسٍ كثير . مَنْ يُبْغِضُهُمْ فى الخلق أكثرُ ممن يُحِبُّهُمْ[5] » .

---

(١) هذا الحديث روى ابن المبارك فى الزهد والرقائق مثله مرسلا ، وفى مسند الفردوس بسند ضعيف .

(٢) هذا الحديث رواه البزار فى مسنده بسند ضعيف .

(٣) هذا الحديث رواه مسلم من حديث أبى هريرة مختصراً، وهو بتمامه عند الترمذى من حديث عمرو بن عوف وحسَّنه .

(٤) هذا الحديث يقول الحافظ العراقى فى تخريجه : لم أرَ له أصلا .

(٥) هذا الحديث رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو .

وقد صارت تلك العلوم غريبة بحيث مقت ذكراها . ولذلك قال الثورى رحمه الله : « إذا رأيت العالم كثير الأصدقاء فاعلم أنه مخلط ، لأنه إن نطق بالحق أبغضوه » انتهى كلام الإمام الغزالى، ضاعف الله أجره وأحسن ذُخره، ووهبنا السلامة والعافية بمنه وكرمه ، آمين .

ت — تفاسير أهل الكلام

كل إنسان تغلب عليه نزعته فى كتابته، وتلوح عقيدته من خلال تأليفه وتحديثه كما قلنا . وذلك هو الشأن فى علماء الكلام حين تصدّوا لتفسير كتاب الله. فالسنىّ لاحت على تفسيره أنوار أهل السنة. والمعتزلىّ فاحت من جوانب بيانه روائح الاعتزال. والشيعىّ هبّت من نواحى تأويله ريح التشيُّع . وهكذا .

بَيْدَ أن الفرق بينهم كبير ، فى التعصُّب أو القصد ، وفى الإيجاز أو البسط .

وقد مضى بك الحديث فى تفاسير المعتزلة والشيعة. ورأيت كيف كان الزمخشرى فى اعتزاله مقتصداً مستخفياً ؟ وكيف كان القاضى عبدالجبار متعصباً مُسْتَعْلِناً ؟ وكيف كان المولى عبد اللطيف متشيِّعاً مسرفاً .

وكذلك تجـــد فى أهل السنة أنفسهم من هو قاصد فى تأييد عقيدته بتفسيره كأولئك الذين ترجمناهم وترجمنا تفاسيرهم من قبل ، عند الكلام على أشهر كتب التفسير بالرأى المحمود .

ومن أهل السنة من استبسل فى الدفاع عن عقيدتهم فى تفسيره . وعلى رأس هؤلاء الإمام فخر الدين الرازى ، الذى شنّها حـــرباً شعواء فى كل مناسبة ، على أهل الزيغ

---

(١) هذا الحديث رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو .

والانحراف فى العقيدة . وقد سلك فى تفسيره « مفاتيح الغيب » المشهور بتفسير الفخر، مسلكَ الحكماء الإلٰهيين . فصاغ أدلته فى مباحث الإلٰهيات على نمط استدلالاتهم العقلية، ولكن مع تهذيبها بما يوافق أصول أهل السنة. وكذلك تعرّض لشبههم بالنقض والتفنيد فى كثير من المواضع .

كما أنه سلك طريقة الطبيعيين فى الكونيات فتكلّم فى الأفلاك والأبراج، وفى السماء والأرض، وفى الحيوان والنبات، وفى أجزاء الإنسان، وغير ذلك مما جرّ إليه الاستدلال على وجود الله جلّ جلاله . غفر الله له وشكر صنيعه « وَٱللَّهُ خَيْرُ الشَّاكِرِينَ » .

خ ـ مزج العلوم الأدبية والكونية

وغيرها بالتفسير ؛ وسبب ذلك ، وأثره

القرآن كتاب هداية وإعجاز، وهدايته وإعجازه يصوّرهما المفسِّر ويشرحهما فى تفسيره، على قدر مافيه من استعداد ومقدرة، وعلى قدر ماعند الناس من علوم ومعارف وأفكار.

ولقد مرّت على القرآن الكريم منذ نزوله إلى الآن عصور وقرون، وأمم وأجيال والقرآن ـ كما كان وكما سيبقى ـ كتابٌ ينشر نور الهداية ويرفع لواء الإعجاز. وكان الذين شُوفِهوا به لأول مرة، عربًا اكتملت فيهم خصائص العروبة، وإن كانوا مع ذلك أُمِّيِّين لا إلمام لهم بالقراءة والكتابة ، ولا شأن لهم بعلوم تدرس ، ولا بكتب تقرأ .

لهذا وذاك كان فهمهم لهداية هذا الكتاب وإعجازه، وتصويرهم لها بالتفسير والبيان، من الأمور الهينة السهلة ، الجارية على الفطرة والبساطة، لا يحتاجون فى ذلك إلى اصطلاحات فنية ، ولا إلى قواعد نحوية وبلاغية ، ولا إلى نظريات علميَّة .

أما إعجازه فكان معروفًا لهم بمحض السليقة العربية السليمة والذوق البلاغى الرقيق. وأما هدايته فكانوا يفهمونها كذلك بعقولهم الصافية، وذكائهم الموهوب، ولغتهم العربية الفصحى التى نزل بها القرآن .

وإذا استعانوا فبالنظر فى كتاب الكون وآيات الله فى الآفاق ، وبمـا خلق الله فيهم وحولهم من عجائب السموات والأرض ، ثم بما يسمعون من بيان رسول الله ﷺ .

مضى الأمر على ذلك مدة . ثم جاء نصر الله والفتح ووطَّأت الأرضُ أكنافها للمسلمين، وأظلَّت راية الإسلام أمماً وشعوباً لم تكن تعرف العربية، ولكنها كانت على ثقافة فى العلوم والفنون والفلسفة . وقد اختلطت هذه الأمم المفتوحة بتلك الأمم الفاتحة، فكان من نتائج هذا الاتصال مع امتداد الزمان أمران :

(أحدهما) أن فسدت اللغة العربية، وأصبح الجميع بحاجة إلى ضوابط تضبطها وتضمن سلامتها ، وتعصم الناس من الخطأ فى فهم الكتاب والسنة . فنشأت بسبب ذلك العلوم الأدبية أو علوم اللغة العربية .

(ثانيهما) أن تُرجمت علوم هذه الأمم الداخلة فى الإسلام وهُذِّبت ونقحت وذاعت ثقافتها بين المسلمين على اختلاف أجناسهم فكان من مقتضيات الحكمة التوفيق بينها وبين القرآن من ناحية، وفهم القرآن فى ضوئها من ناحية أخرى. وإنما كان ذلك من مقتضيات الحكمة ، لأن الإسلام ليس عَدُوًّا للعلم كما يزعم الأفّاكون، بل هو صديق العلم وحليفه، إن لم نقل كأنه هو ! .

بهذه الأسباب بدأت العلوم الأدبية والعلوم الكونية تتدخل فى تفسير القرآن وتمتزج به على اعتبار أن هدايته وإعجازه لا يُفهمان فهماً صحيحاً كاملاً بالنسبة إليهم إلا عن طريق هذه العلوم والمعارف .

أما علوم اللغة والأدب ، فلأن بها يعرف ضبط الكلمات أبنيتها وهيئاتها وأواخرها، ومدلولات الألفاظ على اختلاف أنواعها ؛ والإحاطة بمعانى التراكيب ، والتمييز بين

العالى والنازل من الأساليب. ولا ريب أن إدراك معانى القرآن، وذوق بلاغته وإعجازه، لا يتأتى لغير العرب الخلص إلا عن هذا الطريق .

وأما العلوم الكونية، فلأن الله تعالى دعا الناس كثيراً أن ينظروا فى هذا الكون، وحضهم بقوة أن يقرءوا صحيفة هذا الوجود ، ليصلوا من الكون إلى مكوِّنه، وليستدلوا بالوجود على موجده ، ولينتفعوا أبلغ انتفاع بتلك القوى العظيمة التى خلقها لأجلهم ، وسخرهـــا لنفعهم . قال تعالى فى سورة الجاثية : « ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْـــرِهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »

فلا عجب إذا فهموا تلك الألفاظ الكونية التى فى القرآن على النحو الذى هداهم إليه العلم ، والثقافة التى تثقفوها فى علوم الكون .

ومعلومٌ أن المفسر لا يفسر لنفسه ، إنما يفسر للناس ، فكان من الواجب أن يساير أفكارهم ، ويشرح ألفاظ القرآن فى الظواهر الطبيعية والعلمية ، وسنن الله الكونية ، وقوانين الاجتماع والسياسة، وقواعد الاقتصاد والأخلاق، وسائر التشريعات الشخصية والمدنية والجنائية والحربية ، نقول : يجب على المفسر أن يشرح ألفاظ القرآن فى ذلك كله وفيما يشبهه ، بالطريقة العلمية المألوفة لهم ، وبالأفكار الغالبة عليهم الملائمة لأذواقهم . وإلا فما بلغ رسالته ، ولا أدّى أمانته . وكيف يخاطب العالم بغير ما يفهمون، ويدخل إليهم من غير الباب الذى يدخلون ؟ .

هذه هى الأسباب التى جعلت التفسير يمتزج بالعلوم الأدبية والكونية وغيرها، وجعلت العلوم الأدبية والكونية تحتلُّ مكانها فى كتب التفسير. وإن كان هذا الامتزاج يختلف

ضعفاً وقوة ، وقلة وكثرة ، وتوفيقاً وخذلاناً ، باختلاف مواهب المفسرين واستعداد الجمهور ، وتقدُّم الزمان وتأخره فى هذه العلوم .

فتفاسير الزجاج وأبى حيان وأضرابهما مليئة بالمباحث النحوية، وتفاسير الزمخشرى وأبى السعود وأشباههما مليئة بالمباحث البلاغية ؛ وتفسير الخازن ومن لفَّ لفَّه ملىء بالأخبار والقصص وتفسير الجواهر للعلامة المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى ملىء بالعلوم الكونية وهو تفسير حديث يشتمل ـ كما قال صاحبه ـ على عجائب بدائع المكوّنات ، وغرائب الآيات الباهرات. يقع فى خمسة وعشرين مجلداً، وقد تمّ طبعه بمصر عام ١٣٥٢ اثنين وخمسين وثلاثمائة وألف للهجرة ، رحم الله مؤلفه وجزاه خيراً .

آثار هذا الامتزاج :

أما آثار امتزاج العلوم الأدبية بالتفسير ، فيمكن تلخيصها فيما يأتى :

(١) بيان معانى القرآن وهداياته .

(٢) إظهار فصاحة القرآن وبلاغته .

(٣) الدلالة على وجوه إعجاز القرآن ، من ناحية الأسلوب والبيان .

وأما آثار امتزاج العلوم الكونية بالتفسير ، فيمكن تلخيصها فيما يلى :

(١) مسايرة أفكار الناس ومعارفهم ، وتفسير القرآن لهم تفسيراً يشبع حاجتهم من الثقافة الكونية .

(٢) إدراك وجوه جديدة للإعجاز فى القرآن من ناحية ما يحويه أو يرمز إليه من علوم الكون والاجتماع .

(٣) دفع مزاعم القائلين بأن هناك عداوة بين العلم والدين .

(٤) استمالة غير المسلمين إلى الإسلام من هذا الطريق العلمى الذى يخضعون له دون سواه فى هذه الأيام .

(٥) الحثّ على الانتفاع بقوى الكون ومواهبه .

(٦) امتلاء النفس إيماناً بعظمة الله وقدرته حينما يقف الإنسان فى تفسير كلام الله على خواصِّ الأشياء ودقائق المخلوقات حسب ماتصوِّرها علوم الكون .

هذا ـ وإن لامتزاج العلوم الكونية والأدبية بالتفسير آثاراً أخرى مشتركة بينهما نجملها فيما يأتى :

(١) زيادة الثقة بالقرآن وعروبته ومعارفه وإعجازه .

(٢) والإيمان بأنه كتابٌ غنىٌّ بكل مايحتاج إليه البشر من ألوان السعادة .

(٣) والإيمان بأنه كتاب الساعة ، ودستور الناس إلى يوم القيامة ، يصلح لكل زمان ومكان . ولا يستغنى عن كنوزه وذخائره إنسان .

شروط لا بدّ منها :

تلك الآثار الجليلة التى ألمعنا إليها ، لاتتحقق جلائلها إلا إذا روعيت فيها الأمور الآتية :

(١) ألّا تطغى تلك المباحث عن المقصود الأول من القرآن ، وهو الهداية والإعجاز . أما إن أسرف المفسر واشتغل بتفريعات العلوم الأدبية ، ونظريات الفنون الكونية ، فقد انعكست الآية ، ولم يعد التفسير تفسيراً . بل يكون أشبه بكتب العلوم والفنون منه بكتب التفسير . كما قال بعض العلماء الظرفاء يصف تفسيراً مشهوراً بالاستطراد والتطويل والضرب فى كثير من العلوم . قال : « لقد حوى هذا التفسير كلّ شىء إلا التفسير » .

(٢) أن يلاحظ فى امتزاج التفسير بتلك العلوم ، ما يلائم العصر ، ويوائم الوسط ،

لأن تلك الأبحاث الكونية والأدبية ، قد تكون ضرورية ومفيدة أيما فائدة إذا شرح بها القرآن فى عصر من عصور الثقافة ، أو لجمهور من المفتونين بالمادة وعلوم الكون ، أو لطائفة من المتأدبين المشغوفين بفنون البلاغة فى القول. بينما تكون هذه الأبحاث نفسها نكبة وفتنة ، إذا شُرح بها القرآن فى عصر من عصور الجهالة ، أو لفئة أخرى من فئات الناس . « وما من أحد يخاطب قوماً بغير ماتسعه عقولهم إلا كان فتنة عليهم » .

(٣) أن تذكر تلك الأبحاث على وجهٍ يدفع المسلمين إلى النهضة، ويلفتهم إلى جلال القرآن ، ويحرِّكهم إلى الانتفاع بقوى هذا الكون العظيم الذى سخره الله لنا ، انتفاعاً يعيد لأمة الإسلام نهضتها ومجدها .

وهاك نموذجاً على سبيل التمثيل ، وإن أسرف فى هذا السبيل، إسرافاً أنساه نفس التفسير والتأويل .

قال العلامة المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى فى كتابه « القرآن والعلوم العصرية » مانصه :

قال الله تعالى : « ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَارَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَائِبَيْنِ . وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ . وَآتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ. وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا. إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ » عبر الله تعالى بكاف الخطاب ست مرات ، فجعل الماء لنا ، وتسخير الشمس والقمر لنا ، وتسخير الليل والنهار لنا . وقد آتانا من كل ما سألناه فى ضمائرنا ، وما تمنته نفوسنا .

فهل هذا الخطاب استثنى منه المسلمون ؟ فهل جعل الله الثمرات فى الأرض خاصة بغير المسلمين ؟ أم الخطاب عام؟ . وهل الفلك التى تجرى فى البحر ما بين آسيا وأفريقيا وأوربة فى المحيط الهندى والهادى والبحر الأحمر وبحر الظلمات بين أوربة وأمريكا . هل هذه

السفن خاصة بالإفرنج! وكيف نام المسلمون عن علوم التجارة فأصبحت بأيدى غيرهم من الفرنجة وأهل أمريكا وهم صفر اليدين؟ . فالسفن التى تمخر عُباب الأنهار والبحار فى سائر أنحاء كرتنا الأرضية بيد الفرنجة ، وهم هم الذين يدرسون علوم المعادن والكهرباء والبخار و « التلغراف » البرق الذى له سلك ، والبرق الذى بلا سلك . أليس من العار عليكم أيها المسلمون أن تكونوا ٣٥٠ مليوناً[1] ولا سفن لكم فى البحار كما لغيركم،وقدخاطبكم الله تعالى فقال : « وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ » على قواعد علمية بعد معرفة صناعة الحديد لبنائها ، والخشب لتكميلها ، والبخار لتسييرها ، والكهرباء والمغناطيس لمعرفة الأخبار فيها،وقراءة علم الفلك والكواكب السيارة والثابتة للاهتداء بها فى طرق البحار ، ودرس علوم البحار وطرقها ومناطقها ومافيهامن مسالك. حتى لا تضل السفن سواء السبيل فتغرق ويهلك مافيها. وبعد دراسة علوم السحب والرياح والعواصف، حتى يلبس الرُّبَّان لكل حال لَبوسها، وينهج النهج الذى ينجى السفينة . ثم قال: « وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَارَ » . ولا جرم أن الأنهار تسقى الزروع ، ولها فى جريانها قوة تستخرج منها الكهرباء فتغنى عن الفحم والبترول . والمسلمون فى بقاع الأرض غافلون عن أنهارهم، وتكاد تصبح بيد غيرهم . « وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ » . والليل والشمس والقمر ؛ لها حساب دقيق لا يُهتدى إليه إلا بعلم الحساب والهندسة والجبر ثم الفلك ، فلا تطلع الشمس ولا تغرب ، ولا يشرق النجم ولا يغرب، ولا يطلع سيَّار ولا يأفل، إلا بمواعيد موقوتة لا تنقص ثانية، بل كل ذلك بمقدار. ولو حرم البشر ذلك يوماً واحداً لاختلّ أمر حياتهم. فها هى سفن البحار وقُطُرات اليابسة؛ كلها تسير بحساب الشمس والكواكب . ولو أغفل الناس بعض ذلك لاختلَّت مواعيدهم ،

(١) جاء فى بعض المصادر الموثوق بها أن عدد المسلمين يزيد الآن كثيراً على أربعمائة مليون .

ولتصادمت قطراتهم ؛ ولمات كثير منهم . ويعرف ذلك كل من اطلع على طرف من علم الفلك فى هذه الأيام » انتهى ما أردنا نقله بقليل من التصرف .

كلمة ختامية

لاتحسبنّ أن مانوّهنا به فى هذا المبحث قد أحاط بما كُتب من تفاسير القرآن ، ولاتحسبنّ أن ما كتب من جميع التفاسير قد أحاط بكل ماأودعه الله القرآنَ من أحكام وحِكَم ومعارف وأسرار . بل إن ماذكرناه هنا من التفسير قُلٌّ من كُثْر ، ثم إن ماحوته تلك الموسوعات التفسيرية على كثرتها لم تأخذ من القرآن إلا كما يأخذ المخيط إذا أدخل البحر . ويروقنى ماقاله بعض الأعلام حين سئل : ماخير تفسير للقرآن ؟ فأجاب : الدهر . يعنى أن العلوم والمعارف والأفكار والحوادث والتجارب التى تجدّ فى الزمن عوامل مهمّة فى شرح القرآن . وكل حقبة من سلسلة هذه الأزمان الطويلة ، تكشف عن بعض مخبوءات أسراره التى لم تكن معروفة من قبل .

وإن كنت فى شك فهاكَ دور الكتب ومكتبات العالم ، فإنها لاتزال ـ على كثرة ماضاع واندثر ـ زاخرةً بأمواج كالجبال من التفاسير ، مما لايمكن أن يحيط به إلا العليم الخبير . وإنه ليُعْييك استقصاء أسمائها ، فضلًا عن استقراء مسمَّياتها . وإنك لتجد فيها فنونًا وألوانًا وشؤونًا مما فتح الله على العلماء فى بيان كتابه : منها تفاسير بالمأثور وتفاسير بالرأى . ومنها تفاسير ظواهر العبارة وتفاسير غوامض الإشارة . ومنها تفاسير يغلب عليها صنعة الكلام ، وأخرى يغلب عليها صنعة البلاغة وثالثة يغلب عليها النحو والإعراب ، ورابعة يغلب عليها تفاريع الأحكام وخامسة يغلب عليها علوم الكون ، إلى غير ذلك . ومنها تفاسير كل القرآن وتفاسير جزء منه أو سورة أو آية .

ولقد اطلعتُ ـ وأنا قصير الباع قليل الاطلاع ـ على فهارس تفاسير خاصة بكلٍّ مما يأتى ، وقد يكون مع ذلك تنوّعُ التأليف وتعدد المؤلفين فى الشىء الواحد :

منها تفاسير لجزء عم ، ولجزء تبارك ، ولسورة الفاتحة ، ولسورة يوسف ، ولسورة الرعد ، ولسورة الكهف ، ولسورة النور ، ولسورة يس ، ولسورة الحجرات ، ولسورة الحديد ، ولسورة القدر ، ولسورة الفيل ، ولسورة التكاثر ، ولسورة الكوثر ، ولسورة الإخلاص وحدها ، ولسورة الإخلاص مع المعوذتين .

ومنها تفاسير للبسملة ؛ ولآية الكرسى ، ولأول سورة الأنبياء ، ولأول سورة الفتح ، ولحروف المعجم فى فواتح السور ، ولآية « إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ » . ولآية « إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ » ، ولآية « إِنَّ ٱللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » . ولآية « إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ » ولآية « أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَالَةَ بِالْهُدَى » ولآية « فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ » . ولآية « قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا » ولآية « لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا » . ولآية « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ » . ولآية « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ » . ولآية « وَآيَةٌ لَهُمُ ٱللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ » ولآية « إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ ٱللهُ لَهُمْ » . ولآية « إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِنْدَ ٱللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا » . ولآية « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ » . ولآية « مَا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللهُ لَهُ » ولآية « لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ » بغير ما قاله المفسرون من قبل . وهو تفسير للعلامة الجليل الشيخ يوسف الدجوى

وإن تعجب فهناك رسالة فى معنى حرف الواو ، أو وجه ثبوت الواو فى قوله تعالى : « وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » من أواخر سورة الزُّمَر .

أرأيتَ ذلك وأضعافَ ذلك ! إنه قبسٌ من نور القرآن ، وشعاعٌ من شمس الحقيقة الكبرى ، وبصيص من تجليات هدايات الله لبعض عباده ! .

أما النور كله ، والهُدَى كله ، فذلك سرٌّ من أسرار الربوبية ، وكنزٌ من كنوز الألوهية . وشتَّان ما بين علم الخالق وعلم الخلق ، وأين كمالُ السيد من نقص العبد ؟!.

نهاية القول :

ونهاية القول أن هذا فنٌّ جديد أيضاً من فنون إعجاز القرآن ، حيث أقام الله كتابه آياتٍ بيِّنات للناس فى معارفه ومعانيه ، كما أقامه آياتٍ بيِّنات لهم فى ألفاظه ومبانيه ! .

« قُلْ : فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ » .

« وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ، وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ »

اللهم أتمم علينا نعمتك ولا تحرمنا هدايتك ، واسلكنا بالقرآن فى سلك المهديِّين الهادين ، وارفعنا به إلى أعلى عليين ، آمين آمين .

وَ « ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَانَا لِهَٰذَا ، وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا ٱللَّهُ » ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق ومبعوث الحق سيدنا محمد وآله وصحبه ومن والاه .

المبحث الثالث عشر

فى ترجمة القرآن وحكمها تفصيلا

أهمية هذا المبحث .

نوجه الأذهان فى فاتحة هذا المبحث إلى أهميته وخطره ، من نواح ثلاث :

(أولاها) دقته وغموضه إلى حد جعل علماءنا يختلفون فيه قديما وحديثاً ، وجعل مصرنا العزيزة منذ أعوام ميدانا لتطاحن الأفكار والآراء فيه منعاً وتجويزاً .

(ثانيها) أن كثيرا من الناس قاموا فى زعمهم بنقل القرآن إلى لغات كثيرة، وترجمات متعددة ، بلغت بإحصاء بعض الباحثين مائة وعشرين ترجمة، فى خمس وثلاثين لغة ما بين شرقية وغربية ، وتكرر طبع هذه الترجمات حتى إن ترجمة واحدة هى ترجمة جورج سيل الانجليزى طبعت أربعا وثلاثين مرة .

وأوفر هذه الترجمات وأكثرها طبعا هى الترجمات الانكليزية فالفرنسية فالألمانية فالإيطالية . وهناك خمس ترجمات فى كل من اللغتين الفارسية والتركية ، وأربع ترجمات باللغة الصينية ، وثلاث باللاتينية ، واثنتان بالأفغانية ، وواحدة بالجاوية ، وأخرى بالأوردية .

ومن هؤلاء الذين ترجموه من يحمل للإسلام عداوة ظاهرة، ومنهم من يحمل حباً له ولكنه جاهل به ، « وعدو عاقل خير من صديق جاهل » .

(ثالثتها) وقوع أغلاط فاحشة فى هذه التى سموها ترجمات؛ وكان وجودها معولا هداما لبناء مجد الإسلام ، ومحاولة سيئة لزلزلة الوحدة الدينية واللغوية والاجتماعية. لأمتنا الإسلامية (صانها الله) .

أمام هذه الوقائع القائمة ، والحقائق الماثلة ، والمحاولات الخطيرة ما كان ينبغى لنا أن نقف مكتوفى الأيدى ، مكممى الأفواه ، كأن الأمر لا يعنينا فى قليل ولا كثير، على حين أن الذى وضع منهم فكرة هذه الترجمات ، وتولى كبر هذه المؤامرة ، رجل من رجال

دينهم ، ومطران من مطارنتهم ، يدعى يعقوب بن الصليبى ،إذ خيل إلى قومه أنه ترجم آيات جمة من القرآن باللسان السريانى فى القرن الثانى عشر الميلادى. ثم نشرت خلاصتها فى هذا القرن سنة ١٩٢٥ خمس وعشرين وتسعمائة وألف ميلادية ، نقلا عن نسخة مخطوطة بالمتحف البريطانى بلندن ، مشفوعة بترجمة إنكليزية لها . وتابع هذا المطران أحبار ورهبان ، كانوا أسبق من غيرهم فى هذا الميدان .

وأنت خبير بما يريدون ، « والله أعلم بما يبيتون » .

راجع فى ذلك محاضرات الفيكنت دى طرازى[1] ،ثم انظر ما كتبه العلامة أبو عبد الله الزنجانى فى كتابه : تاريخ القرآن إذ يقول :

« ربما كانت أول ترجمة إلى اللغة اللاتينية لغة العلم فى أوربا،وذلك سنة ١١٤٣ بقلم (كنت) الذى استعان فى عمله ببطرس الطليطلى وعالم ثان عربى،فيكون القرآن قد دخل أوربا عن طريق الأندلس ، وكان الغرض من ترجمته عرضه على دى كلونى بقصد الرد عليه . ونجد فيما بعد أن القرآن ترجم ونشر باللاتينية ،(١٥٠٩)ولكن لم يسمح للقراء أن يقتنوه ويتداولوه ، لأن طبعته لم تكن مصحوبة بالردود. وفى عام(١٥٩٤)أصدر هنكلمان ترجمته ، وجاءت على الأثر (١٥٩٨)طبعة مراتشى مصحوبة بالردود» انتهى ما أردنا نقله..

أفلا ترى معى أنه يجب علينا بإزاء ذلك أن ندلى برأى سديد فى هذا الأمر الجلل؟ لنعلم ما يراد بنا وبقرآننا ، ولننظر إلى أى طريق نحن مسوقون ؟ عسى أن يدفعنا هذا التحرى والتثبت ، إلى اتخاذ إجراء حازم ، ننتصف فيه للحق من الباطل،ونؤدى به رسالتنا فى نشر هداية الإسلام والقرآن على بصيرة ونور !

ثم ألا ترى معى أنه يجب علينا بإزاء ذلك أيضا أن نتجرد فى هذا البحث عن العصبية

---

(١) هى محاضرات ظفرت بها فى نسخة مخطوطة تحت عنوان « القرآن: محاضرات علمية تاريخية » ألقاها سنة ١٩٤١ م الفيكنت فيلب دى طرازى مؤسس دار الكتب فى بيروت . والعضو فى عدة مجامع علمية شرقية وغربية .

والغايات الشخصية ، فنمسه مسا رفيقا هادئا ، وندرسه دراسة واسعة منظمة ، ونلتزم فيه أدب البحث وإنصاف الباحث، ونجعل الله وحده غايتنا فيما نحاول ونعالج؟ « والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » .

ولنبدأ الكلام ببيان معنى الترجمة لغة وعرفا ، ثم بتقسيمها إلى حرفية وتفسيرية ، ثم ببيان الفرق بين الترجمة والتفسير ؛ فإن تحديد معانى الألفاظ وتحقيق المراد منها ، مجهود مهم ومفيد ، لاسيما ما كان من الأبحاث الخلافية ؛ كهذا البحث الذى نعانيه . فلقد هدانا الاستقراء إلى أن تحديد معانى الأمور الخلافية ، أو تحرير محل النزاع (بعبارة فنية أزهرية). كثيرا ماقرب بين وجهات النظر المختلفة، وطالما أظهر أن خلاف المختلفين كان لفظيا لا حقيقيا ، لأن النفى والإثبات بينهم لم يتواردا على أمر واحد ، بل إن ما أثبته بعضهم لم يخالف أحد فى إثباته بالمعنى الذى أراده، وما نفاه البعض الآخر لم يخالف أحد فى نفيه بالمعنى الذى أراده كذلك، ورجع الأمر أخيرا إلى مجرد اختلاف فى العبارات لا اختلاف فى الاعتبارات . ولو أنهم اتفقوا بادئ ذى بدء على هذه الاعتبارات . لما اختلفت العبارات ، ولما حدث خلاف ألبتة .

إذن فإننا نستميح قارئنا الكريم عذراً ، إذا أطنبنا فى توضيح المعنى المراد الذى يدور عليه الكلام فى هذا الموضوع ، وإذا استطردنا ببيان ما اشتبه به وكان سببا فى النزاع، فنذكر أن لفظ (ترجمة) يطلق على معان متعددة، بعضها لغوى؛ وبعضها عرفى عام.

الترجمة فى اللغة :

وضعت كلمة ترجمة في اللغة العربية ، لتدل على أحد معان أربعة :

(أولها) تبليغ الكلام لمن لم يبلغه . ومنه قول الشاعر :

« إن الثمانين ـ وبلغتها ـ قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

(ثانيها) تفسير الكلام بلغته التى جاء بها . ومنه قيل فى ابن عباس : إنه ترجمان القرآن. ولعل الزمخشرى فى كتابه أساس البلاغة يقصد هذا المعنى إذ يقول: « كل ما ترجم

عن حال شيء فهو تفسرته » .

(ثالثها) تفسير الكلام بلغة غير لغته . وجاء في لسان العرب وفي القاموس ، أن الترجمان هو المفسر للكلام. وقال شارح القاموس ما نصه: « وقد ترجمه وترجم عنه إذا فسر كلامه بلسان آخر قاله الجوهري » اهـ .

وجاء في تفسير ابن كثير والبغوي أن كلمة ترجمة تستعمل في لغة العرب بمعنى التبيين مطلقا سواء اتحدت اللغة أم اختلفت .

(رابعها) نقل الكلام من لغة إلى أخرى . قال في لسان العرب: « الترجمان بالضم والفتح[١] هو الذي يترجم الكلام أي ينقله من لغة إلى أخرى . والجمع تراجم[٢] »اهـ. وشارح القاموس بعد أن أورد المعنى السابق في ترجمه وترجم عنه قال : « وقيل نقله من لغة إلى أخرى » اهـ .

ولكون هذه المعاني الأربعة فيها بيان، جاز على سبيل التوسع إطلاق الترجمة على كل ما فيه بيان مما عدا هذه الأربعة، فقيل ترجم لهذا الباب بكذا أي عنون له . وترجم لفلان أي بيّن تاريخه . وترجم حياته أي بيّن ما كان فيها . وترجمة هذا الباب كذا أي بيان المقصود منه . وهلم جرا .

الترجمة في العرف :

نريد بالعرف هنا عرف التخاطب العام ، لا عرف طائفة خاصة ولا أمة معينة .جاء هذا العرف الذي تواضع عليه الناس جميعا . نخص الترجمة بالمعنى الرابع اللغوي في إطلاقات اللغة السابقة، وهو نقل الكلام من لغة إلى أخرى. ومعنى نقل الكلام من لغة إلى أخرى ، التعبير عن معناه بكلام آخر من لغة أخرى ، مع الوفاء بجميع معانيه ومقاصده كأنك نقلت الكلام نفسه من لغته الأولى إلى اللغة الثانية .

(١) عبارة القاموس تدل على أنه يضبط بضم التاء والجيم وبفتحهما ، وبفتح التاء وضم الجيم . (٢) وهذا خلاف ماذاع على الألسنة من استعمال تراجم جمعا لترجمة . فاحفظ ذلك .

وهذا هو السر فى تعبيرهم بنقل الـكلام. مع العلم بأن الـكلام نفسه لا ينتقل من لغته بحال.

ويمكننا أن نعرف الترجمة فى هذا العرف العام بعبارة مبسوطة فنقول : هى التعبير عن معنى كلام فى لغة بكلام آخر من لغة أخرى مع الوفاء بجميع معانيه ومقاصده .

فكلمة (التعبير) جنس ، وما بعده من القيود فصل وقولنا : (عن معنى كلام) يخرج به التعبير عن المعنى القائم بالنفس حين يخرج فى صورة اللفظ أول مرة. وقولنا:(بكلام آخر) يخرج به التعبير عن المعنى بالـكلام الأول نفسه ، ولو تـكرر ألف مرة .

وقولنا : (من لغة أخرى) يخرج به التفسير بلغة الأصل ، ويخرج به أيضا التعبير بمرادف مكان مرادفه ، أو بكلام بدل آخر مساو له ، على وجه لا تفسير فيه ، واللغة واحدة فى الجميع .

قولنا : (مع الوفاء بجميع معانى الأصل ومقاصده) يخرج به تفسير الـكلام بلغة غير لغته ؛ فإن التفسير لا يشترط فيه الوفاء بكل معانى الأصل المفسر ومقاصده ، بل يكفى فيه البيان ولو من وجه . وسنوافيك قريبا بتفصيل ذلك .

تفسير الترجمة :

وتنقسم الترجمة بهذا المعنى العرفى إلى قسمين : حرفية وتفسيرية، فالترجمة الحرفية هى التى تراعى فيها محاكاة الأصل فى نظمه وترتيبه . فهى تشبه وضع المرادف مكان مرادفه. وبعض الناس يسمى هذه الترجمة ترجمة لفظية ، وبعضهم يسميها مساوية .

والترجمة التفسيرية هى التى لا تراعى فيها تلك المحاكاة أى محاكاة الأصل فى نظمه وترتيبه ، بل المهم فيها حسن تصوير المعانى والأغراض كاملة .ولهذا تسمى أيضا بالترجمة المعنوية . وسميت تفسيرية لأن حسن تصوير المعانى والأغراض فيها جعلها تشبه التفسير، وما هى بتفسير كما يتبين لك بعد .

فالمترجم ترجمة حرفية يقصد إلى كل كلمة فى الأصل فيفهمها، ثم يستبدل بها كلمة تساويها فى اللغة الأخرى مع وضعها موضعها وإحلالها محلها، وإن أدى ذلك إلى خفاء المعنى المراد

من الأصل ، بسبب اختلاف اللغتين فى مواقع استعمال الكلام فى المعانى المرادة إلفاً واستحسانا .

أما المترجم ترجمة تفسيرية ، فإنه يعمد إلى المعنى الذى يدل عليه تركيب الأصل فيفهمه ، ثم يصبه فى قالب يؤديه من اللغة الأخرى ، موافقا لمراد صاحب الأصل ، من غير أن يكلف نفسه عناء الوقوف عند كل مفرد ولا استبدال غيره به فى موضعه .

ولنضرب مثالا للترجمة بنوعيها على فرض إمكانها فى آية من الكتاب الكريم : قال الله تعالى : « ولا تجعلْ يدكَ مغلولةً إلى عُنُقِكَ ولا تبسُطْها كلَّ البسْطِ » فإنك إذا أردت ترجمتها ترجمة حرفية ؛ أتيت بكلام من لغة الترجمة ؛ يدل على النهى عن ربط اليد فى العنق وعن مدها غاية المد ، مع رعاية ترتيب الأصل ونظامه ، بأن تأتى بأداة النهى أولا ، يليها الفعل المنهى عنه متصلا بمفعوله ومضمراً فيه فاعله ، وهكذا . . ولكن هذا التعبير الجديد قد يخرج فى أسلوب غير معروف ولا مألوف فى تفهيم المترجَم لهم ما يرمى إليه الأصل من النهى عن التقتير والتبذير . بل قد يستنكر المترجم لهم هذا الوضع الذى صيغ به هذا النهى ويقولون : ما باله ينهى عن ربط اليد بالعنق وعن مدها غاية المد ؟ ! وقد يلصقون هذا العيب بالأصل ظلما ، وما العيب إلا فيما يزعمونه ترجمة للقرآن من هذا النوع .

أما إذا أردت ترجمة هذا النظم الكريم ترجمة تفسيرية ، فإنك بعد أن تفهم المراد وهو النهى عن التقتير والتبذير فى أبشع صورة منفرة ، منها تعمد إلى هذه الترجمة فتأتى منها بعبارة تدل على هذا النهى المراد ، فى أسلوب يترك فى نفس المترجَم لهم أكبر الأثر فى استبشاع التقتير والتبذير . ولا عليك من عدم رعاية الأصل فى نظمه وترتيبه اللفظى .

وإنما قلنا عند عرض هذا المثال : « على فرض إمكانها » لما ستعرفه بعد من استحالة الترجمة بهذا المعنى العرفى فى القرآن الكريم . والمثال لا يشترط صحته كما هو معلوم .

ما لا بد منه فى الترجمة مطلقا :

لا بد لتحقيق معنى الترجمة مطلقا حرفية كانت أو تفسيرية ، من أمور أربعة :

(أولها) معرفة المترجِم لأوضاع اللغتين لغة الأصل ولغة الترجمة !

(ثانيها) معرفته لأساليبهما وخصائصهما .

(ثالثها) وفاء الترجمة بجميع معانى الأصل ومقاصده على وجه مطمئن .

(رابعها) أن تكون صيغة الترجمة مستقلة عن الأصل ، بحث يمكن أن يستغنى بها عنه ، أن تحل محله ، كأنه لا أصل هناك ولا فرع . وسيأتى بيان ذلك فى الفروق بين الترجمة والتفسير .

ما لا بد منه فى الترجمة الحرفية :

ثم إن الترجمة الحرفية تتوقف بعد هذه الأربعة على أمرين آخرين :

(أحدهما) وجود مفردات فى لغة الترجمة مساوية للمفرادت التى تألف منها الأصل : حتى يمكن أن يحل كل مفرد من الترجمة محل نظيره من الأصل ، كما هو ملحوظ فى معنى الترجمة الحرفية .

(ثانيهما) تشابه اللغتين فى الضمائر المستترة ، والروابط التى تربط المفردات لتأليف التراكيب ، سواء فى هذا التشابه ذوات الروابط وأمكنتها . وإنما اشترطناهذا التشابه، لأن محاكاةهذه الترجمة لأصلها فى ترتيبه تقتضيه. ثم إن هذين الشرطين عسيران، وثانيهما أعسر من الأول. فهيهات أن تجد فى لغة الترجمة مفرادت مساوية لجميع مفردات الأصل. ثم هيهات هيهات أن تظفر بالتشابه بين اللغتين المنقول منها والمنقول إليها فى الضمائر المستترة وفى دوام الروابط بين المفردات لتأليف المركبات .

ومن أجل هذه العزة والندرة قال بعضهم : إن الترجمة الحرفية مستحيلة . وقال آخرون : إنها ممكنة فى بعض الكلام دون بعض . ولقد علمت أنها بعد هذه الصعوبات يكتنفها الغموض وخفاء المعنى المقصود كما مر فى المثال السابق . أما الترجمة التفسيرية فميسورة فيما لا يعجز عنه البشر ، والمعانى المرادة من الأصل واضحة فيها غالبا . ولهذا اعتمدوا عليها فى الترجمات الزمنية ، وفضلها التراجم والمشتغلون بالترجمات على قسيمتها الترجمة الحرفية .

فروق بين الترجمة والتفسير :

ومهما تكن الترجمة حرفية أو تفسيرية فإنها غير التفسير مطلقا ، سواء أكان تفسيراً بلغة الأصل ، أم تفسيرا بغير لغة الأصل . وقد أشرنا إلى ذلك إجمالا فى شرح تعريف الترجمة آنفاً . ولكن كثيرا من الكاتبين اشتبه عليهم الأمر ، فحسبوا أن الترجمة التفسيرية هى التفسير بغير لغة الأصل ؛ أو هى ترجمة تفسير الأصل .

ثم رتبوا على ذلك أن خلعوا حكمها على ترجمة الأصل نفسه ، وكان لهذا اللبس والاشتباه مدخل فى النزاع والخلاف . لهذا نستبيح لأنفسنا أن نقف هنا وقفة طويلة . نرسم فيها فروقا أربعة لا فرقا واحدا بين هذين المشتبهين فى نظرهم .

(الفارق الأول) أن صيغة الترجمة صيغة استقلالية يراعى فيها الاستغناء بها عن أصلها وحلولها محله . ولا كذلك التفسير ، فإنه قائم أبدا على الارتباط بأصله ، بأن يؤتى مثلا بالمفرد أو المركب ، ثم يشرح هذا المفرد أو المركب شرحا متصلا به اتصالا يشبه اتصال المبتدأ بخبره إن لم يكن إياه . ثم ينتقل إلى جزء آخر مفرد أو جمله ، وهكذا من بداية التفسير إلى نهايته ، بحيث لا يمكن تجريد التفسير وقطع

وشائج اتصاله بأصله مطلقا . ولو جرد لتفكك الكلام وصار لغوا أو أشبه باللغو ، فلا يؤدى معنى سليما ، فضلا عن أن يحل فى جملته وتفصيله محل أصله .

(الفارق الثانى) أن الترجمة لا يجوز فيها الاستطراد ، أما التفسير فيجوز بل قد يجب فيه الاستطراد . وذلك لأن الترجمة مفروض فيها أنها صورة مطابقة لأصلها حاكية له ، فمن الأمانة أن تساويه بدقة من زيادة ولا نقص ، حتى لو كان فى الأصل خطأ لوجب أن يكون الخطأ عينه فى الترجمة ، بخلاف التفسير فإن المفروض فيه أنه بيان لأصله وتوضيح له . وقد يقتضى هذا البيان والإيضاح أن يذهب المفسر مذاهب شتى فى الاستطراد ، توجيها لشرحه ، أو تنويرا لمن يفسر لهم على مقدار حاجتهم إلى استطراده. ويظهر ذلك فى شرح الألفاظ اللغوية خصوصا إذا أريد بها غير ماوضعت له ، وفى المواضع التى يتوقف فهمها أو الاقتناع بها على ذكر مصطلحات أو سوق أدلة أو بيان حكمة .

وهذا هو السر فى أن أكثر تفاسير القرآن الكريم تشتمل على استطرادات متنوعة، فى علوم اللغة ، وفى العقائد ، وفى الفقه وأصوله ، وفى أسباب النزول ، وفى الناسخ والمنسوخ ، وفى العلوم الكونية والاجتماعية ، وغير ذلك .

ومن ألوان هذا الاستطراد ، تنبيهه على خطأ الأصل إذا أخطأ، كما نلاحظ ذلك فى شروح الكتب العلمية . ويستحيل أن تجد مثل هذا فى الترجمة ، وإلا كان خروجا عن واجب الأمانة والدقة فيها .

(الفارق الثالث) أن الترجمة تتضمن عرفا دعوى الوفاء بجميع معانى الأصل ومقاصده، ولا كذلك التفسير، فإنه قائم على كمال الإيضاح كما قلنا، سواء أكان هذا الإيضاح بطريق إجمالى أو تفصيلى ، متناولا كافة المعانى والمقاصد أو مقتصرا على بعضها دون بعض ، طوعا للظروف التى يخضع لها المفسر ومن يفسر لهم .

والدليل على هذا الفارق، هو حكم العرف العام الذى نتحدث الآن بلسانه. وإليك مثلا من أمثاله :

رجل عثر فى مخلفات أبيه على صحيفتين مخطوطتين بلغة أجنبية وهو غير عالم بهذا اللسان الأجنبى ، فدفعهما إلى خبير باللغات يستفسره عنهما . وإذا الخبير يجيبه قائلا : إن الصحيفة الأولى خطاب تافه من معوز أجنبى يستجدى أباك فيه ويستعينه، أما الثانية فوثيقة بدين كبير لأبيك على أجنبى .هنالك مزق الرجل خطاب الاستجداء ولم يحفل به، أما الوثيقة فاعتد بها وطلب من هذا المتمكن فى اللغات أن يترجمها له ، ليقاضى المدين أمام محكمة لغتها لغة الترجمة .

أليس معنى هذا أن التفسير لم يكفه؟بدليل أنه طلب الترجمة من المترجم، علما بأنها هى التى تفى بكل ماتضمنته تلك الوثيقة وبكل مايقصد منها ، فلا تضعف له بها حجة ، ولا يضيع عليه حق ؟ .

ثم ألست ترى فى هذا المثال أيضا أن العرف يحكم بأن التفسير لا يشترط أن يعرض لجميع التفاصيل ، بل يكفى فيه بيان المضمون ، على حين أنه يرى الترجمة صورة مطابقة لأصلها ، وافية بكافة معانيه ومقاصده ؟ .

(الفارق الرابع) أن الترجمة تتضمن عرفا دعوى الاطمئنان إلى أن جميع المعانى والمقاصد التى نقلها المترجم ، هى مدلول كلام الأصل وأنها مرادة لصاحب الأصل منه . ولا كذلك التفسير بل المفسر تارة يدعى الاطمئنان ، وذلك إذا توافرت لديه أدلته . وتارة لا يدعيه، وذلك عند ماتعوزه تلك الأدلة .ثم هو طورا يصرح بالاحتمال ويذكر وجوها محتملة مرجحا بعضها على بعض، وطورا يسكت عن التصريح أو عن الترجيح. وقد يبلغ به الأمر أن يعلن عجزه عن فهم كلمة أو جملة ويقول :ربُّ الكلام أعلم بمراده. على نحو ما نحفظه لكثير من المفسرين إذا عرضوا لمتشابهات القرآن ولفواتح السور المعروفة.

ودليلنا على أن الترجمة تتضمن دعوى الاطمئنان إلى ماحوت من معان ومقاصد، هو شهادة العرف العام أيضا بذلك ، وجريان عمل الناس جميعاً فى الترجمات على هذا الاعتبار . فهم يحلونها محل أصولها إذا شاءوا ،ويستغنون بها عن تلك الأصول. بل قد ينسون هذه الأصول جملة ، ويغيب عنهم أن الترجمات ترجمات ،فيحذفون لفظ ترجمة من الاسم ، ويطلقون عليها اسم الأصل نفسه ، كأنما الترجمة أصل ، أو كأنه لا أصل هناك ولا فرع .

وإن كنت فى ريب فاسأل مابين أيدينا من ترجمات عربية لطائفة من كتبهم التى يقدسونها ، ويطلقون على بعضها اسم توراة وعلى بعضها اسم إنجيل ، وما هما بالتوراة ولا بالإنجيل ، إنما هما ترجمتان عربيتان لأصلين عبريين[1] باعترافهم. ولكنهم أسقطوا وأسقط العرف العام معهم لفظ ترجمة من العنوانين الاثنين . وما ذاك إلا لما وقر فى النفوس من أن الترجمة صورة مطابقة للأصل ، مطمئنة إلى أنها تؤدى جميع مؤداه ، لافرق بينهما إلا فى القشرة اللفظية . وقل مثل ذلك فيما نعرفه من ترجمات للقوانين والوثائق الدولية والشخصية،ومن ترجمات للكتب العلمية والفنية والأدبية، وهى كثيرة غنية عن التنويه والتمثيل .

يقال كل هذا فى الترجمات ، ولا يمكن أن يقال مثله فى التفسير ، فإننا ما سمعنا ولا سمع الدهر أن كلة تفسير أسقطت من عنوان كتاب من كتبه . بل المعروف عكس ذلك . فكثيرا ما يسقط فى الاستعمال اسم الأصل المفسر ، على حين أن لفظ التفسير لا يسقط بحال . ويدل على هذا تلك الإطلاقات الشائعة : تفسير البيضاوى،تفسير النسفى تفسير الجلالين ، وما أشبهها من تفسيرات القرآن الكريم . ألم يكف بهذا سندا على

---

(١) صوابه : « غير عربيين »وذلك لأن إنجيل مرقس ولوقا ويوحنا أصلها يونانى، أما إنجيل متى فأصله عبرى .

أن التفسير مراعى فيه أنه بيان لايمكن أن يقوم مقام المبين ، ولا أن يدعى فيه الاطمئنان إلى أنه واف بجميع أغراضه ومعانيه .

الترجمة والتفسير الإجمالى بغير لغة الأصل :

بيدأن هنا دقيقة نرشدك إليها . هى أن التفسير بغيرلغة الأصل يشبه الترجمة التفسيرية شبهاً قريباً . إذا كان هذا التفسير إجماليًّا قائماً على اختيار معنى واحد من المعانى المحتملة . ولعل هذا التشابه هو الذى أوقع بعضهم فى الاشتباه ودعوى الاتحاد بين الترجمة التفسيرية وترجمة التفسير . أو التفسير بغير لغة الأصل . ولكن النظر الصحيح لايزال يقضى بوجود الفوارق الأربعة السابقة بين هذين النوعين أيضاً . فالمفسر يقتضيه واجب البيان ألا يسوق المعنى الإجمالى المختار من بين عدة معان محتملة حتى يوجه هذا الاختيار ، وهذا التوجيه محقق للاستطراد الزائد على مدلول الأصل . ثم إن صنيعه هذا سيشعر القارئ أن للأصل معانى أخرى قد يكون هذا الذى اختير من بينها غير سديد . وقد يتوقف المفسر جملة ويعلن عجزه إذا ما أشكل عليه المعنى ورأى أن يلوذ بالصمت. هذا محقق لعدم الوفاء بجميع معانى الأصل ولعدم الاطمئنان الذى نوهنا به . ثم إن صيغة هذا التفسير لا بد من أن ترتبط بالأصل ولو بالإشارة والتلويح ، فيقال : معنى هذه الآية أو الجملة هو كذا . . أو يقال معنى الآية المرقومة برقم كذا من سورة كذا هو كذا وكذا . . وذلك محقق لعدم استقلال الصيغة . بخلاف الترجمة فى ذلك كله .

فإن افترضت أن هذا المفسر سيترك وجه الاختيار وسيقطع الصلة قطعاً بين التفسير وأصله ، أجبناك بأن هذا التصرف فى الحقيقة لا تفسير ولا ترجمة ، بل هو ذبذبة خرج بها الكلام عما يجب فى التفسير وفى الترجمة جميعاً . لأنه لم يشرح ولم يبين حتى يكون مفسرا كما يجب ، ولم يصور معانى الأصل ومقاصده كلها حتى يكون مترجماً كما يجب. فإن أدى ذلك إلى الناس بعنوان أنه ترجمة للأصل، فإما أن يكون صادرا فى هذا الأداء عن قصور أو عن تقصير. فإن كان عن قصور فهو العجز والجهالة، وإن كان عن تقصير فهو تضليل

للناس وإيهام لهم أن ما أتاه ترجمة ، وماهو بترجمة . وتلك خيانة لهم ولما زعم ترجمته ، والله لايهدى كيد الخائنين .

تنبيهان مفيدان :

(أولهما) : أنه لافرق بين الترجمة الحرفية والتفسيرية من حيث الحقيقة ، فكلتاهما تعبير عن معنى كلام فى لغة بكلام آخر من لغة أخرى مع الوفاء بجميع معانى الأصل ومقاصده. وما الفرق بينهما إلا شكلى وهو أن يحل كل مفرد فى الترجمة الحرفية محل مقابله من الأصل ، بخلاف التفسيرية كما بينا . فلا تظن بعد هذا أن كلمة ترجمة تنصرف إلى الحرفية أكثر مما تنصرف إلى التفسيرية كما يظن بعض الناس. بل التفسيرية أثبت قدما، وأعرق وجودا ، وأقرب إلى الأذهان عند الإطلاق لأنها هى الميسورة ؛ وهى الواضحة، وهى التى يتداولها المترجمون والقراء جميعا . أما الحرفية فإنها تكاد تكون نظرية بحتة، وذلك من تعسرها أو تعذرها، ومن غموضها وخفائها أحيانا، ومن ندرة إقبال التراجم والقراء عليها كما سبق .

(ثانيهما) أن تفسير الأصل بلغته، يساوى تفسيره بغير لغته ،فيما عدا القشرة اللفظية. ألا ترى أنك إذا قرأت درس تفسير للخاصة كاشفاً فيه عن معان معينة باللغة العربية ،ثم قرأت هذا الدرس عينه للعامة كاشفاً عن هذه المعانى نفسها ولكن بلغة المخاطبين العامية، فهل تشك فى مساواة هذا التفسير لذاك فى بيان المعانى المعينة التى فهمتها من الأصل ؟ . وهل تجد بينهما خلافاً إلا فى لغة التعبير وقشرة اللفظ ؟ .

إذا لاحظنا ذلك أمنا الاشتباه من هذه الناحية ، وأمكن أن نستغنى فى بحثنا هذا بذكر المساوى عن ذكر مُساويه ؛ ثقة بأن مايقال فى أحدهما يقال مثله فى الآخر . فتنبه إلى ذلك دائماً ، وبالله توفيق وتوفيقك .

الترجمة ليست تعريفاً منطقيا :

أوجس بعض الباحثين خيفة من أن يظن أحد أن الترجمة من قبيل التعريف اللفظى. ولكننا إذا أنعمنا النظر رأينا أن الترجمة بالمعنى العرفى الذى قررناه ، لايمكن أن تكون تعريفاً لفظيًا ولا حقيقيا وذلك من وجهين :

(أحدهما) أن التعاريف كلها من قبيل التصورات، أما الترجمة فكلام تام وقضايا كاملة ، وهى بلا شك من قبيل التصديقات .

(ثانيهما) أن صيغة التعريف مرتبطة دائمابالمعرف ، لأنها قول شارح له ، والشرح والبيان مرتبط فى صيغته بالمشروح والمبين ، أما الترجمة فقد فرغنا من أن صيغتها مستقلة عن الأصل المترجم، لأن الغرض منها أن تقوم به بدلا منه ،وأن يستغنى بها عنه،فلامعنى لأن يجتمع فيها البدل والمبدل منه .

نعم إن تفسير المفرد بلغة غير لغته ، يكون من قبيل التعريف الحقيقى إن أفاد حصول صورته فى ذهن المفسر له ويكون من قبيل التعريف اللفظى إن أفاد حضور صورته الحاصلة من قبل ، على نمط قولهم فى تعريف الإنسان لمن لا يعرف حقيقته : « الإنسان حيوان ناطق » وقولهم فى تعريف البشر لمن يعرف حقيقة الإنسان ولا يعرف دلالة لفظ البشر عليه : « البشر هو الإنسان » . ولكننا لسنا هنا بصدد المفردات وتفسيرها ، فبحثنا فى الترجمة لا فى التفسير ، وفى الكلام المفيد لا الكلمات المفردة .

القرآن ومعانيه ومقاصده

الآن وقد انتهينا من الكلام على أول المتضايفين فى لفظ (ترجمة القرآن) ، نقف معك وقفة أخرى بجانب ثانى هذين المتضايفين وهو القرآن نفسه ، لنستبين المراد به هنا، ولنعرف أنواع معانيه ومقاصده تمهيدا للحكم الصحيح عليه بأنه تمكن ترجمته أو لا تمكن.

المراد بالقرآن هنا :

ولقد سبقت كلمتنا فى بيان مدلول القرآن، وعرض الآراء والمذاهب فيه عرضا واسعا، بالمبحث الأول فى الجزء الأول من هذا الكتاب . فارجع إليه إن شئت .

بيد أنا نلفت نظرك إلى أن المراد هنا فى مبحث الترجمة هو اللفظ المعجز ، لا الصفة القديمة صفة الكلام، ولا الكلمات النفسية الحكمية، ولا النقوش المكتوبة، على ماقررناه ثمة . وإنما كان المراد بالقرآن خصوص اللفظ المعجز ، لأن الترجمة أضيفت إليه. وبدهى أن الترجمة لا تتناول إلا ما كان لفظا حقيقيا مصورا بصورة الحرف والأصوات ، ولا تتناول الصفة القديمة ، ولا الكلمات الحكمية الغيبية، ولا النقوش المكتوبة ، اللهم إلا بضرب من التأويل .

معانى القرآن نوعان :

وبما أن الترجمة ملحوظ فيها الإحاطة بمعانى الأصل كلها ، نحيطك علما بأن القرآن الكريم ، بل أى كلام بليغ ، لا بد أن يحتوى ضربين من المعانى هما المعانى الأولية والمعانى الثانوية ، أو المعانى الأصلية والمعانى التابعة . فالمعنى الأولى لأى كلام بليغ هو ما يستفاد من هذا الكلام ومن أى صيغة تؤديه سواه ، ولو بلغة أخرى . كمجرد إسناد محكوم به إلى محكوم عليه . وسمى معنى أوليا لأنه أول مايفهم من اللفظ. وسمى أصليا لأنه ثابت ثبات الأصول ، لا يختلف باختلاف المتكلمين ولا المخاطبين ولا لغات التخاطب . بل هو مما يستوى فيه العربى والعجمى ، والحضرى والبدوى ، والذكى والغبى .

أما المعنى الثانوى فهو ما يستفاد من الكلام زائداً على معناه الأولى . وسمى ثانويا لأنه متأخر فى فهمه عن ذلك . وسمى تابعا لأنه أشبه بقيد فيه ، والقيد تابع للمقيد .

أو لأنه يتغير بتغير التوابع ، فيختلف باختلاف أحوال المخاطبين ، وباختلاف مقدرة المتكلمين ، وباختلاف الألسنة واللغات ، عكس ماتقدم . ولنضرب لك أمثالا توضح دقائق هذين النوعين :

إذا أردت أن تخبر عن حاتم بالجود قلت: (جاد حاتم) إن كنت تخاطب خالى الذهن من هذا الخبر. وقلت: (حاتم جواد) إذا كنت تخاطب شاكا مترددا فيه . وقلت:(إن حاتما جواد) إذا كنت تخاطب منكرا غير مسرف فى إنكاره . وقلت:(والله إن حاتما لجواد) إذا كان مخاطبك مسرفا فى الإنكار. وقلت: (حاتم سخى جواد، كريم معطاء) إذا كان المقام مقام مدح .وقلت : (ماجواد إلا حاتم) إذا كان مخاطبك يعتقد العكس وأن غير حاتم هو الجواد. وقلت(حاتم ممدود السماط). أو (كان فى بنى طيء بحر كثير الفيضان) إذا كان مخاطبك على شيء من الذكاء . وقلت : (حاتم مهزول الفصيل . أو غمر حاتم بإنعامه الأنام) إذا كان مخاطبك على جانب عظيم من الذكاء .

فأنت ترى أن هذه الأمثلة كلها دارت على معنى واحد استوت جميعها فى أدائه، هو نسبة الجود إلى حاتم، فذلك هو المعنى الأولى أو الأصلى . ثم أنت ترى بعد ذلك أن المعنى الأولى زيدت عليه خصوصيات مختلفة ، ومزايا متغايرة بتغاير هذه الأمثلة ، ففى المثال الأول تجرد من مؤكدات الحكم ، لأن المخاطب خالى الذهن . وفى الثانى تأكيد باسمية الجملة استحسانا ، لأن المخاطب شاك . وفى الثالث تأكيد بمؤكدين : اسمية الجملة وإن ، لأن المخاطب منكر إنكارا يقتضيهما . وفى الرابع تأكيد بمؤكدات أربعة، اسمية الجملة . وإن واللام والقسم ، لأن المخاطب مسرف فى الإنكار . وفى الخامس إطناب لأن المقام للمدح ، وهو يقتضى الإطناب . وفى السادس قصر للجود على حاتم ، لأن المخاطب يعتقد العكس ، فقصرت أنت قصر قلب لتعكس مراده عليه. وفى السابع تجوز فى التعبير بكناية قريبة واستعارة تصريحية ، لأن المخاطب على شيء من الذكاء . وفى الثامن تجوز فى التعبير بكناية بعيدة واستعارة مكنية ، لأن المخاطب على جانب عظيم من الذكاء، بحيث تكفيه الإشارة الخفية واللمحة القصية.

ثم إن هذه النكات البلاغية ، والاعتبارات الزائدة ، يختص بها اللسان العربى كما أن لكل لغة خصائصها .

وهذه الاعتبارات مع فصاحة المفردات هى مناط بلاغة الكلام والمتكلم . وعلوم البلاغة على سعتها ووفرة مباحثها وحسن بلاء الباحثين فيها ، لا تكفى وحدها لتصل بدارسها إلى مصاف البلغاء وذوى اللسن والبيان ، بل غايتها أن يعرف بها أن هذه الحال تقتضى هذا الاعتبار . وأن تلك الحال تقتضى ذلك الاعتبار ، وهكذا . أما التطبيق والقدرة على الصياغة البلاغية فشأو بعيد ، يتوقف على أمور كثيرة . منها الإلمام بظروف الكلام وأحوال المخاطبين . ومنها الإحاطة بدرجة تلك الأحوال قوة وضعفا . ومنها الإتيان بالخصوصيات المناسبة لهذه الأحوال والمقامات . ومنها الذوق البلاغى أو الحاسة البيانية التى تكتسب بممارسة كلام البلغاء وأساليبهم . وترويض النفس على محاكاتهم وتقليدهم وإلا فكم رأينا من مهرة فى علوم اللسان لا يحسنون صناعة الكلام، ولا يستطيعون حيلة إلى أقل درجات البيان، فضلا عن أن يبرزوا فى هذا الميدان.

والكلام البليغ يتفاوت تفاوتا بعيد المدى، تبعا لدرجة توافر هذه الأمور فيه كلا أو بعضا . ولم تعرف الدنيا ولن تعرف كلاما بلغ الطرف الأعلى والنهاية العظمى، فى الإحاطة بكل الخواص البلاغية ، سوى القرآن الكريم ، الذى انقطعت دونه أعناق الفحول من البلغاء وانبهرت فى حلبته أنفاس الموهوبين من الفصحاء . حتى شهدوا على أنفسهم بالعجز حين شاهدوا روائع الإعجاز ، ورأوا أن كلامهم وإن علا فهو طبعة الخلق أما القرآن فهو طبعة الخلاق !

« صبغة الله ! ومن أحسن من الله صبغة ؟ ونحن له عابدون » .

مقاصد القرآن الكريم

بما أن الترجمة عرفا لابد أن تتناول مقاصد الأصل جميعا، فإنا نقفك على أن لله تعالى

فى إنزال كتابه العزيز ثلاثة مقاصد رئيسية : أن يكون هداية الثقلين ، وأن يقوم آية لتأييد النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن يتعبد الله خلقه بتلاوة هذا الطراز الأعلى من كلامه المقدس .

هداية القرآن :

وهداية القرآن تمتاز بأنها عامة ، وتامة ، وواضحة .

أما عمومها فلأنها تنتظم الإنس والجن فى كل عصر ومصر ، وفى كل زمان ومكان. قال الله سبحانه : « وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومَن بَلغ ». وقال جلت حكمته: « وهذا كتابٌ أنزلناهُ مباركٌ مُصدِّقُ الذى بينَ يديهِ ، ولتُنذِر أمَّ القُرَى ومَن حَوْلَها »، وقال عزاسمه : « قُلْ يأيها الناسُ إنى رسولُ الله إليكم جميعاً ». وقال عمت رحمته : « وإذ صَرفْنا إليكَ نَفراً من الجنِّ يستمعونَ القرآن، فلما حضروه قالوا أنصتوا، فلما قضى ولَّوا إلى قومِهِمْ منذرينَ * قالوا ياقومنا إنَّا سمعنا كتاباً أُنزِل من بعدِ موسى مصدقاً لما بين يديه ، يهدِى إلى الحقِّ وإلى طريقٍ مُستقيم * ياقومنا أجيبُوا دَاعِيَ اللهِ وآمنوا بهِ يغفر لكم منْ ذنوبكم ويُجِرْكُم من عذابٍ أليمٍ * ومَنْ لا يجب داعيَ الله فليس بمعجزٍ فى الأرضِ وليسَ لهُ من دونهِ أولياء، أولئكَ فى ضلالٍ مبينٍ » .

وأما تمام هذه الهداية فلأنها احتوت أرقى وأوفى ما عرفت البشرية وعرف التاريخ من هدايات الله والناس، وانتظمت كل مايحتاج إليه الخلق فى العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات على اختلاف أنواعها وجمعت بين مصالح البشر فى العاجلة والآجلة، ونظمت علاقة الإنسان بربه وبالكون الذى يعيش فيه ، ووفقت بطريقة حكيمة بين مطالب الروح والجسد. اقرأ ـ إن شئت ـ قوله سبحانه « ليس البرَّ أن تولُّوا وجوهكم قِبل المشرقِ والمغربِ ، ولكنَّ البرَّ من آمنَ واليومِ الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيينَ . وآتى المالَ على حُبِّهِ ذوى القربى واليتامى والمساكينَ وابنَ السبيلِ والسائلينَ وفى الرِّقابِ ،

وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفونَ بعهدهم إذا عاهدُوا، والصابرينَ فى البأساء والضرَّاء وحينَ البأس . أولئك الذين صَدَقُوا ، وأولئك هُمُ المتقونَ » . وقال جل جلاله « يأيها الناسُ إنا خلقناكم مِنْ ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لِتعارفوا، إنّ أكرمكم عِند اللهِ أتقاكم ، إن الله عليم خبيرٌ » وقال عز من قائل « يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ، واشكروا للهِ إن كنتم إياهُ تعبدونَ » . وقال تعالت حكمته « فإذا قُضِيتِ الصلاةُ فانتشروا فى الأرضِ وابتغوا من فضلِ اللهِ واذكروا اللهَ كثيراً لعلّكم تفلحُونَ » إلى غيرِ ذلك من آيات كثيرة .

وأما وضوح هذه الهداية : فلعرضها عرضا رائعا مؤثراً ، توافرت فيه كل وسائل الإيضاح وعوامل الإقناع : أسلوب فذ معجز فى بلاغته وبيانه . واستدلال بسيط عميق يستمد بساطته وعمقه من كتاب الكون الناطق وأمثال خلابة تخرج أدق المعقولات فى صورة أجلى الملموسات . وحكم بالغات تبهر الألباب بمحاسن الإسلام وجلال التشريع . وقصص حكيم مختار يقوى الإيمان واليقين ، ويهذب النفوس والغرائز ويصقل الأفكار والعواطف ، ويدفع الإنسان دفعا إلى التضحية والنهضة ويصور له مستقبل الأبرار والفجار ، تصويراً يجعله كأنه حاضر تراه الأبصار فى رابعة النهار . والأمثلة على ذلك كثيرة فى القرآن ، يخرجنا استعراضها عما نحن بسبيله الآن .

والمهم أن نعلم فى هذا المقام أن الهدايات القرآنية الكريمة ، منها ما استفيد من معانى القرآن الأصلية ، ومنها ما استفيد من معانيه التابعة ، أما القسم الأول فواضح لا يحتاج إلى تمثيل ، وهو موضع اتفاق بين الجميع . وأما القسم الثانى ففيه دقة جعلت بعض الباحثين يجادل فيه وإنا نوضحه لك بأمثلة نستمدها من فاتحة الكتاب العزيز :

منها : استفادة أدب الابتداء بالبسملة فى كل أمر ذى بال ، أخذا من ابتداء الله كتابه بها ، ومن افتتاحه كل سورة من سوره بها عدا سورة التوبة .

ومنها : استفادة أن الاستعانة فى أى شئ لا تستمد إلا من اسم الله وحده ، أخذا من إضافة الاسم إلى لفظ الجلالة موصوفا بالرحمن الرحيم ، ومن القصر المفهوم من البسملة على تقدير عامل الجار والمجرور متأخرا ، ومن تقدير هذا العامل عاما لا خاصا .

ومنها: استفادة الاستدلال على أن الحمد مستحق لله بأمور ثلاثة: تربيته تعالى للعوالم كلها ، ورحمته الواسعة التى ظهرت آثارها وتأصل اتصافه تعالى بها، وتصرفه وحده بالجزاء العادل فى يوم الجزاء . وذلك أخذا من جريان هذه الأوصاف على اسم الجلالة فى مقام حمده بقوله سبحانه : « الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين » .

ومنها : استفادة التوحيد بنوعيه توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية من القصر الماثل فى قوله سبحانه : « إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعين » .

ومنها : استفادة دليل هذا التوحيد من الآيات السابقة عليه ووقوعه هو فى سياقها عقيبها كما تقع النتيجة عقب مقدماتها .

ومنها : استفادة أن الهداية إلى الصراط المستقيم هى المطمع الأسمى الذى يجب أن يرمى إليه الناس ويتنافس فيه المتنافسون . يدل على ذلك اختيارها والاقتصار على طلبها والدعاء بها ، ثم انتهاء سورة الفاتحة بها كما تنتهى البدايات بمقاصدها .

ومنها : استفادة أن الهداية لا يرجى فيها إلا الله وحده ، لأنها انتظمت مع آيات التوحيد قبلها فى سمط واحد .

ومنها : استفادة أدب من الآداب ، هو أن يقدم الداعى ثناء الله على دعائه، استنتاجا من ترتيب هذه الآيات الكريمة ، حيث تقدم فيها ما يتصل بحمد الله وتمجيده وتوحيده، على ما يتصل بدعائه واستهدائه .

هذه أمثلة اقتبسناها من سورة الفاتحة ونحن لا نظن أن أحدا يخاصم فيها . وهاك مثالين مما وقع فيه خلاف العلماء :

(المثال الأول) استفادة وجوب الترتيب بين أعضاء الوضوء فى الطهارة، أخذاً من مخالفة مقتضى الظاهر فى ذكر هذه الأعضاء بآية الوضوء ، إذ يقول الله سبحانه : « يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين » فأنت ترى أنه ـ تعالت حكمته ـ ذكر الرأس وهو ممسوح بين الأعضاء الأخرى وهى مغسولة ، وكان مقتضى الظاهر أن تتصل المغسولات بعضها ببعض وتذكر قبل الممسوح أو بعده لأن المغسولات متماثلة، والعرب لا تفصل بين المتماثلات إلا لحكمة . والحكمة هنا هى إفادة وجوب الترتيب بين أعضاء الوضوء فى الطهارة على نمط الترتيب الماثل فى هذه الآية .

وثمة وجه آخر لاستفادة حكم هذا الترتيب أيضا . ذلك أن الآية المذكورة لم تعرض فيها أعضاء الوضوء مرتبة ترتيبا تصاعديا ولا ترتيبا تنازليا ، فلم يبدأ فيها بالأعالى متبوعة بالأسافل ولا بالأسافل متبوعة بالأعالى ، بل ذكر فيها عال ثم سافل ثم أعلى ثم أسفل، وذلك خلاف مقتضى الظاهر ، ومثله لا يصدر فى لغة العرب إلا لحكمة وما الحكمة هنا فيما نفهم إلا إفادة وجوب الترتيب فى الوضوء . وبهذا قال الشافعية والحنابلة وإن خالفهم الحنفية والمالكية .

(المثال الثانى) استفادة وجوب مسح ربع الرأس فى الوضوء ، أخذا من مخالفة مقتضى الظاهر أيضا فى قوله سبحانه: « وامسحوا برءوسكم » حيث دخلت باء الجر على الرءوس وهى الممسوحة ، مع أن الظاهر كان يقتضى دخولها على آلة المسح وهى راحة اليد، ولكن مخالفة هذا الظاهر فى كلام عربى بليغ ، دلتنا على أنه نزل الرأس منزلة آلة المسح إرشادا إلى أن اليد توضع على الرأس وتحرك كأننا مسحنا اليد بالرأس. وبهذه الطريقة تنمسح الناصية عادة ، وهى تقدر بربع الرأس ، فالواجب إذن هو مسح ربع الرأس ، وبهذا أخذ الحنفية ، وإن خالفهم الأئمة الثلاثة (رضوان الله عليهم أجمعين) .

ولسنا هنا بصدد مقارنات فقهية أو موازنات مذهبية ؛ حتى نناصر رأياً على رأى، أو نرجح فهماً على فهم . فحسبنا فى هذا الموضوع بيان دلالة نظم القرآن الكريم باعتبار معانيه الثانوية على هدايات متنوعة من عقائد وأحكام وآداب وأدلة ولطائف ، وإن اختلف الناس فى إدراكها على مقدار اختلاف مواهبهم واستعدادهم ، لأن هذه المعانى الثانوية دقيقة الطرق ، لطيفة المسالك ، ومن شأن الدقائق واللطائف أن يكون مجال التفاوت بين الفاهمين لها بعيدا . بخلاف دلالة نظم القرآن الكريم على هداياته باعتبار معانيه الأصلية فإنها واضحة قل أن يقع فيها تفاوت أو خلاف ، لأن هذه المعانى - كما قررنا - يستوى فيها العربى والعجمى ، والحضرى والبدوى ، والذكى والغبى .

واعلم أن قرآنية القرآن وامتيازه ، ترتبط بمعانيه الثانوية وما استفيد منها ، أكثر مما ترتبط بمعانيه الأصلية وما استفيد منها، للاعتبارات الآنفة ، ولأن المعانى الأصلية ضيقة الدائرة محدودة الأفق ، أما المعانى الثانوية فبحر زاخر متلاطم الأمواج، تتجلى فيها علوم الله وحكمته وعظمته الإلهية ، وتظهر منها فيوضات الله وإلهاماته العلوية على من وهبهم هذه الفيوضات والإلهامات من عباده المصطفين وورثة كلامه المقربين ، وأهل الذوق والصفاء من العلماء العاملين ، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه آمين .

إعجاز القرآن :

المقصد الثانى من نزول القرآن الكريم ، أن يقوم فى فم الدنيا آية شاهدة برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن يبقى على جبهة الدهر معجزة خالدة تنطق بالهدى ودين الحق ظاهراً على الدين كله ! . ووجوه إعجاز القرآن كثيرة نفصلها فى مبحثها إن شاء الله . بيد أنا ننبهك هنا إلى أن بلاغته العليا وجه بارز من هذه الوجوه . بل هى أبرز وجوهه وجوداً ، وأعظمها أفرادا ، لأن كل مقدار ثلاث آيات قصار معجز ، ولو كان هذا

المقدار من آية واحدة طويلة . فقد تحدى الله أئمة البيان أن يأتوا بسورة من مثله، وأقصر سورة هي سورة الكوثر، وآياتها ثلاث قصار. وإذا كان أئمة البيان في عصر ازدهاره والنباغة فيه قد عجزوا فسائر الخلق أشد عجزا . ولقد فرغنا من أن بلاغة القرآن منوطة بما اشتمل عليه من الخصوصيات والاعتبارات الزائدة وأنت خبير بأنها سارية فيه سريان الماء في العود الأخضر أو سريان الروح في الجسم الحي، وأن نظم القرآن الكريم مصدر لهداياته كلها سواء منها ما كان طريقه هيكل النظم ، وما كان طريقه تلك الخصوصيات الزائدة عليه . وهنا يطالعك العجب العاجب حين تجد دليل صدق الهداية الإسلامية قد آخاها ؛ واتحد مطلعهما في سماء القرآن فأداه وأداها ! ! .

التعبد بتلاوة القرآن .

المقصد الثالث من نزول القرآن أن يتعبد الله خلقه بتلاوته ، ويقربهم إليه ويأجرهم على مجرد ترديد لفظه ولو من غير فهمه ، فإذا ضموا إلى التلاوة فهما زادوا أجرا على أجر، قال الله تعالى : « إن الذين يتلونَ كتابَ الله وأقامُوا الصَّلاةَ وأنفقوا مِمَّا رزقناهم سِرًّا وعلانيةً يرجون تجارةً لَنْ تَبُور * ليوفِّيهمْ أجورهم ويزيدَهم من فضلِهِ ، إنه غفورٌ شكورٌ » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها . لا أقول الْمْ حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » رواه الترمذي وقال : حسن صحيح . وروى الحاكم مثله مرفوعا وقال : صحيح الإسناد وجاء في حديث آخر عن أنس أنه قال : أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن وسنده ضعيف غير أنه يتقوى بغيره ثم إن هذه خصيصة امتاز بها القرآن ، أما غيره فلا أجر على مجرد تلاوته ، بل لا بد من التفكر فيه وتدبره ، حتى الصلاة هي عماد الدين ، ليس لامرء من ثوابها إلا بمقدار ما عقل منها . .

وإنما انفرد القرآن بهذه المزية لحكم سامية ، وفوائد ذات شأن :

(أولها) توفير عامل مهم من عوامل المحافظة على القرآن وبقائه مصونا من التغيير والتبديل اللذين أصابا كتب الله من قبل. ذلك أن هذا الأجر العظيم الذى وعده الله من يتلو كتابه العزيز ولو غير متفهم لمعانيه، من شأنه أن يحبب الناس فى قراءة القرآن ويدفعهم إلى الإكثار منها، ويحركهم إلى استظهاره وحفظه. ولا ريب أن انتشار القراءة والقراء والحفاظ ، يجعل القرآن كثير الدوران على الألسنة ، واضح المعالم فى جميع الأوساط والطبقات ، وهنا لا يجرؤ أحد على تغيير شىء فيه ، وإلا لاقى أشد العنت من عارفيه ، كما حدث لبعض من حاولوا هذا الإجرام ، من أعداء الإسلام .

(ثانيها) إيجاد وحدة للمسلمين لغوية ، تعزز وحدتهم الدينية ، وتيسر وسائل التفاهم والتعاون فيما بينهم ، فتقوى بذلك صفوفهم ، وتعظم شوكتهم ، وتعلو كلمتهم .

وتلك سياسة إلاهية عالية ، فطن لها الإسلام على يد هذا النبى الأمى فى عهد قديم من عهود التاريخ ، ونجحت هذه السياسة نجاحا باهراً ، حتى انضوى تحت اللسان العربى أمم كثيرة مختلفة اللغات، ونبغ منهم نابغون سبقوا كثيراً من العرب فى علوم القرآن وعلوم لغة القرآن، بينما أمم كبيرة فى هذا العصر الحديث الذى يزعمونه عصر العلم والنور ، قد حاولت مثل هذه المحاولة بتقرير لسان عام ولغة عالمية مشتركة أسموها لغة « الاسبرنتو » ، فكانت محاولة فاشلة ، فضلا عن أنها جاءت مسبوقة متأخرة .

(ثالثها) استدراج القارئ إلى التدبر والاهتداء بهدى القرآن عن طريق هذا الترغيب المشوق ، وبوساطة هذا الأسلوب الحكيم .

فإن من يقرأ القرآن فى يومه وهو غافل عن معانيه، يقرؤه فى غده وهو ذاكر لها. ومن قرأه فى غده وهو ذاكر لها، أوشك أن يعمل بعد غد بهديها. وهكذا ينتقل القارئ من درجة إلى درجة أرقى منها، حتى يصل إلى الغاية بعد تلك البداية . « كل من سار على

المحبوب وصل » ويرحم الله ابن عطاء الله السكندرى إذ يقول فى حكمه : « لا تترك الذِّكر لعدم حضورك مع الله فيه ؛ لأن غفلتك عن وجود ذكره ، أشد من غفلتك فى وجود ذكره . فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة ، إلى ذكر مع وجود يقظة . ومن ذكر مع وجود يقظة ، إلى ذكر مع وجود حضور . ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور . وما ذلك على الله بعزيز » .

حكم ترجمة القرآن تفصيلا

على ضوء هذه المعلومات التى سقناها فى تجلية معنى المتضايفين من لفظ ترجمة القرآن ، يسهل علينا أن ندرك أن لهذا المركب الإضافى أربعة معان رئيسية ؛ ثلاثة منها ترجع إلى اللغة وحدها ، والرابع تشترك فيه اللغة والعرف العام الذائع بين الأمم . ولا ريب أن هذا المعنى الرابع هو الجدير بالعناية والاهتمام ؛ لأنه المتبادر إلى الأفهام ، والمقصود فى لسان التخاطب العام .

وها نحن أولاء نستعرض تلك المعانى الأربعة ، مشفوعا كل معنى منها بحكمه المناسب له ، عسى أن تكون هذه الطريقة أبعد عن الخطأ والشطط ، وأهدى إلى الصواب والاعتدال .

١ ـ ترجمة القرآن بمعنى تبليغ ألفاظه

تطلق ترجمة القرآن إطلاقا مستندا إلى اللغة ويراد بها : تبليغ ألفاظه . وحكمها حينئذ أنها جائزة شرعا . والمراد بالجواز هنا ما يقابل الحظر فيصدق بالوجوب وبالندب . وإن شئت دليلا فها هو صلى الله عليه وسلم كان يقرأ القرآن ويسمعه أولياءه وأعداءه . ويدعو إلى الله به فى مولده ومهاجره ، وفى سفره وحضره ، والأمة من ورائه نهجت نهجه ، فبلَّغت ألفاظ القرآن ، وتلقاها بعضهم عن بعض فردا عن فرد ، وجماعة عن جماعة ، وجيلا عن جيل ،

حتى وصل إلينا متواترا . . ثم هاهو القرآن نفسه يتوعد كاتميه ويقول : « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد مابيناه للناس فى الكتاب. أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون * إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا ، فأولئك أتوب عليهم، وأنا التواب الرحيم » .

والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج . ومن كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » رواه البخارى والترمذى وأحمد . ويقول صلى الله عليه وسلم : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » رواه الشيخان .

٢ ـ ترجمة القرآن بمعنى تفسيره بلغته العربية

هذا هو الإطلاق الثانى المستند إلى اللغة أيضا كما مر . ويراد به تفسير القرآن بلغته العربية لا بلغة أخرى . وغنى عن البيان أن حكمه الجواز بالمعنى الآنف . وإن كنت فى شك فهاك القرآن نفسه يقول الله فيه لنبيه صلى الله عليه وسلم . « وأنزلنا إليكَ الذكرَ لتبينَ للناسِ مانزل إليهم » . ولقد قام الرسول صلوات الله وسلامه عليه ببيانه العربى خير قيام ، حتى اعتبرت السنة النبوية كلها شارحه له، ونقل منها فى التفسير بالمأثور شئ كثير . ولقد تأثر العلماء رسولَ الله فى ذلك منذ عهد الصحابة إلى اليوم، وهاهى المكتبات العامة والخاصة زاخرة بالتفاسير العربية للقرآن الكريم على رغم ماانذثر منها، وعلى رغم ما يأتى به المستقبل من تفاسير يؤلفها من لا يقنعون بقديم ، ويتلقاها عنهم من يجدون فى أنفسهم حاجة إلى عرض جديد لعلوم القرآن والدين . مما يدل على أن القرآن بحر الله الخضم ، وأن العلماء جميعا من قدامى ومحدثين ، لا يزالون وقوفا بساحله ، يأخذون منه على قدر قرائحهم وفهومهم . والبحر بعد ذلك هو البحر فى فيضانه وامتلائه ، والقرآن هو القرآن فى ثروته وغناه بعلومه وبأسراره . « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » .

ترجمة القرآن بمعنى تفسيره بلغة أجنبية

هذا هو الإطلاق الثالث المستند إلى اللغة أيضاً ويراد به تفسير القرآن بلغة غير لغته، أى بلغة عجمية لا عربية. ولا ريب عندنا فى أن تفسير القرآن بلسان أعجمى لمن لا يحسن العربية، يجرى فى حكمه مجرى تفسيره بلسان عربى لمن يحسن العربية. فكلاهما عرض لما يفهمه المفسر من كتاب الله بلغة يفهمها مخاطبه، لاعرض لترجمة القرآن نفسه، وكلاهما حكاية لما يستطاع من المعانى والمقاصد، لا حكاية لجميع المقاصد. وتفسير القرآن الكريم يكفى فى تحققه أن يكون بياناً لمراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية ولو جاء على احتمال واحد؛ لأن التفسير فى اللغة هو الإيضاح والبيان، وهما يتحققان ببيان المعنى ولو من وجه ولأن التفسير فى الاصطلاح علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله بقدر الطاقة البشرية، وهذا يتحقق أيضاً بعرض معنى واحد من جملة معان يحتملها التنزيل. وإذا كان تفسير القرآن بياناً لمراد الله بقدر الطاقة البشرية، فهذا البيان يستوى فيه ما كان بلغة العرب وما ليس بلغة العرب، لأن كلا منهما مقدور للبشر، وكلا منهما يحتاجه البشر، بيد أنه لابد من أمرين: أن يستوفى هذا النوع شروط التفسير باعتبار أنه تفسير، وأن يستوفى شروط الترجمة باعتبار أنه نقل لما يمكن من معانى اللفظ العربى بلغة غير عربية. وشروط التفسير ذكرناها فى الجزء الأول بالمبحث الثانى عشر من هذا الكتاب، وشروط الترجمة ذكرناها بهذا المبحث عن كثب.

أمور مهمة:

ونسترعى نظرك إلى أمور مهمة: (أولها) أن علماءنا حظروا كتابة القرآن بحروف غير عربية. وعلى هذا يجب عند ترجمة القرآن بهذا المعنى إلى أية لغة أن تكتب

الآيات القرآنية إذا كتبت بالحروف العربية . كيلا يقع إخلال وتحريف فى لفظه ؛ فيتبعهما تغير وفساد فى معناه .

سئلت لجنة الفتوى فى الأزهر عن كتابة القرآن بالحروف اللاتينية ، فأجابت بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسوله بما نصه[1] « لا شك أن الحروف اللاتينية المعروفة خالية من عدة حروف توافق العربية، فلا تؤدى جميع ما تؤديه الحروف العربية، فلو كتب القرآن الكريم بها على طريقة النظم العربى ـ كما يفهم من الاستفتاء ـ لوقع الإخلال والتحريف فى لفظه، ويتبعهما تغير المعنى وفساده . وقد قضت نصوص الشريعة بأن يصان القرآن الكريم من كل ما يعرضه للتبديل والتحريف. وأجمع علماء الإسلام سلفا وخلفا على أن كل تصرف فى القرآن يؤدى إلى تحريف فى لفظه أو تغيير فى معناه ممنوع منعا باتا ، ومحرم تحريما قاطعا . وقد التزم الصحابة رضوان الله عليهم ومن بعدهم إلى يومنا هذا كتابة القرآن بالحروف العربية » .

(الأمر الثانى) : أن تفاسير القرآن المتداولة بيننا تتناول المفرد من الأصل، وبجانبه شرحه، ثم تتناول الجملة أو الآية وشرحها متصل بها كذلك غالبا. ومعنى هذا أن ألفاظ القرآن منبثة فى ثنايا التفسير على وجه من الارتباط والإحكام، بحيث لو جردنا التفاسير من ألفاظ الأصل لعادت التفاسير لغوا من القول، وضربا من السخف. ونحن لا نريد هنا فى تفسير القرآن بلغة أجنبية أن تذكر مفردات القرآن وجمله مكتوبة بتلك اللغة الأجنبية أو مترجمة بهذه اللغة ، ثم تشفع بتفسيرها المذكور ؛ فلقد قررنا أن كتابة القرآن بغير العربية ممنوعة وسنقرر أن ترجمته بالمعنى العرفى مستحيلة . إنما نريد هنا نوعا من التفسير يجوز أن يصدر بطائفة من ألفاظ الأصل على ما هى عليه فى عروبتها رسما ولفظا، إذا وضع لطائفة من المسلمين ثم يذكر عقبها المعنى الذى فهمه المفسر غير مختلط بشىء من

---

(١) انظر المجلد السابع من مجلة الأزهر صفحة ٤٥ .

ألفاظ الأصل ولا ترجمته ، بل يكون هذا المعنى كله من كلام المفسر ، ويصاغ بطريقة تدل على أنه تفسير لا ترجمة كأن يقال : معنى الآية المرقومة برقم كذا من سورة كذا هو كذا وكذا . أو يقال فى أول كل نوبة من نوبات التفسير : معنى هذه الجملة أو الآية كذا . ثم يبين فى كلتا الطريقتين أن هذا المعنى مقطوع به أو أنه محتمل ، ويستطرد بما يظن أن حاجة المخاطبين ماسة إليه من التعريف بالمصطلحات الإسلامية ، والأسرار والحكم التشريعية والتنبيه على الأخطاء التى وقعت فيها الترجمات المزعومة ، ونحو ذلك مما يوقع فى روع القارئ أن مايقرؤه ليس ترجمة للأصل محيطة بجميع معانيه ومقاصده، إنما هو تفسير فحسب ، لم يحمل من معانى القرآن ومقاصده إلا قُلًّا من كُثْر، وقطرة من بحر . أما القرآن نفسه فأعظم من هذا التفسير بكثير ، كيف وهو النص المعجز فى ألفاظه ومعانيه من كلام العليم الخبير ؟ ! .

(الأمر الثالث) : أن ترجمة القرآن بهذا المعنى مساوية لترجمة تفسيره العربى . لأن الترجمة هنا لم تتناول فى الحقيقة إلا رأى هذا المفسر وفهمه لمراد الله على قدر طاقته، خطأ كان فهمه أو صوابا ، ولم تتناول كل مراد الله من كلامه قطعا . فكأن هذا المفسر وضع أولا تفسيرا عربيا ثم ترجم هذا التفسير الذى وضعه . وإن شئت فقل : إنه ترجم تفسيرا للقرآن قام هو به غير أنه لم يدونه ، وأنت خبير بأن التفسير هو التفسير ، سواء أدونه صاحبه أم لم يدونه .

(الأمر الرابع) ذهب بعضهم إلى تسمية هذا النوع ومايشبهه ترجمة تفسيرية للقرآن بالمعنى العرفى. ونحن ـ مع علمنا بأن الخلاف فى التسمية تافه ـ لا نستطيع أن نرى رأيهم، لشهادة العرف التى أقمناها ثم اعتمدنا عليها فى رسم الفوارق الأربعة بين أى ترجمة وأى تفسير. فترجمة القرآن ـ على فرض إمكانها ـ تصوير لكل ماأراد منزله من معانيه ومقاصده وترجمة التفسير تصوير لكل ما أراد المفسر من معانيه ومقاصده . والقرآن لا يمكن أن يكون فى معانيه المرادة لله خطأ أبدا ، فإذا صحت ترجمته على فرض إمكانها، وجب ألا

تحمل ولا تصور خطأ . أما التفسير فيمكن أن يكون فى معانيه المرادة للمفسر خطأ أى خطأ ، وعلى هذا فترجمة هذا التفسير ترجمة صحيحة لا بد أن تحمل هذا الخطأ وتصوره ؛ وإلا لما صح أن تكون ترجمة له لأن الترجمة صورة مطابقة للأصل ، ومرآة حاكية له على ما هو عليه ؛ من صواب أو خطأ ، إيمان أو كفر ، حق أو باطل .

والقرآن ملىء بالمعانى والأسرار الجلية والخفية إلى درجة تعجز المخلوق عن الإحاطة بها ، فضلا عن قدرته على محاكاتها وتصويرها ، بلغة عربية أو أعجمية. أما التفسير فمعانيه محدودة ، لأن قدرة صاحبه محدودة ، مهما حلق فى سماء البلاغة والعلم . وعلى هذا فمدسة أى مصور له ، تستطيع التقاطه وتصويره بالترجمة إلى أية لغة .

(الأمر الخامس) : يجب أن تسمى مثل هذه الترجمة ، ترجمة تفسير القرآن ، أو تفسير القرآن بلغة كذا . ولا يجوز أن تسمى ترجمة القرآن بهذا الإطلاق اللغوى المحض ، لما علمت من أن لفظ ترجمة القرآن مشترك بين معان أربعة ، وأن المعنى الرابع هو المتبادر إلى الأذهان عند الإطلاق ، نظرا إلى أن العرف الأممى العام لا يعرف سواه . ولا يجوز أيضا أن تسمى ترجمة معانى القرآن ، لأن الترجمة لا تضاف إلا إلى الألفاظ . ولأن هذه التسمية توهم أنها ترجمة للقرآن نفسه ، خصوصا إذا لاحظنا أن كل ترجمة لا تنقل إلا للمعانى دون الألفاظ .

(الأمر السادس) يحسن أن يدون التفسير العربى وتشفع به ترجمته هذه ، ليكون ذلك أنفى للريب ، وأهدى للحق ، وأظهر فى أنه ترجمة تفسير لا ترجمة قرآن ، ومن عرف قدر القرآن لم يبخل عليه بهذا الاحتياط ، لاسيما فى هذا الزمن الذى تنمر فيه أعداء الإسلام ، وحاربونا فيه بأسلحة مسمومة من كل مكان .

(الأمر السابع) يجب أن يصدر هذا التفسير المترجم بمقدمة تنفى عنه فى صراحة أنه ترجمة للقرآن نفسه ، وتبين أن ترجمة القرآن نفسه بالمعنى المتعارف أمر دونه خرط القتاد ،

لأن طبيعة تأليف هذا الكتاب تأبى أن يكون له نظير يحاكيه، لا من لغته ولا من غير لغته، وذلك هو معنى إعجازه البلاغى. ومن أراد أن يتصور هذا اللون من ألوان إعجازه فلينتقل هو إلى هذا الكتاب ولغته، فيتذوقه بها وبأساليبها، ومن المحال أن ينتقل هذا الكتاب العزيز، تاركا عرشه الذى بوأه الله إياه وهو عرش اللغة العربية. وماذا يبقى للملك من عزة وسلطان إذا هو تخلى عن عرشه وملكه؟ وهذا القرآن جعله الله ملك الكلام، وتوجه بتاج الإعجاز، واختار لغته العربية مظهراً لهذا الإعجاز والاعتزاز! « وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد » .

فوائد الترجمة بهذا المعنى

لترجمة القرآن بهذا المعنى فوائد كنا فى غنى عن بيانها، بما أشرنا إليه من أنها كالتفسير العربى الذى اتفق الجميع على جوازه بشرطه. ولكن بعض الباحثين توقفوا فى جواز هذه الترجمة كما توقفوا فى جواز الترجمة بالمعنى الآتى مع بعد ما بينهما؛ ثم تذرعوا بأنه لا فائدة ترجى منها، وأثاروا شبهات حولها. لهذا نبسط القول ببيان فوائد هذه الترجمة، ثم بدفع الشبهات عنها. أما فوائدها فنشرحها فيما يأتى :

(الفائدة الأولى): رفع النقاب عن جمال القرآن ومحاسنه لمن لم يستطع أن يراها بمنظار اللغة العربية من المسلمين الأعاجم ، وتيسير فهمه عليهم بهذا النوع من الترجمة، ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ، ويعظم تقديرهم للقرآن، ويشتد شوقهم إليه، فيهتدوا بهديه، ويغترفوا من بحره ، ويستمتعوا بما حواه من نبل فى المقاصد وقوة فى الدلائل ، وسمو فى التعاليم ، ووضوح وعمق فى العقائد، وطهر ورشد فى العبادات، ودفع قوى إلى مكارم الأخلاق ، وردع زاجر عن الرذائل والآثام ، وإصلاح معجز للفرد وللمجموع، واختيار موفق لأحسن القصص ، وإخبار عن كثير من أنباء الغيب ، وكشف عن معجزات

أكرم الله بها رسوله وأمته ، إلى غير ذلك مما من شأنه أن يسمو بالنفوس الإنسانية، ويملأ العالم حضارة صحيحة ومدنية .

وإنك لتستطيع أن ترى هذه الفائدة ماثلة بين عينيك إذا ماشاهدت أستاذا ممتازا يلقى درسا من دروس التفسير على العامة ، يجلى معانى القرآن لهم بمهارته ، ويتنزل إلى مستواهم فيخاطبهم ، ويتخير من المعانى أصحها وأمسها بحاجتهم ، ويعالج عند المناسبة مايعرف من جهالتهم وشبهتهم . والله لكأنى بهذا المدرس اللبق وقد نفخ فيهم من روح القرآن فأحيا مواتهم ، وداوى أمراضهم ، وقادهم إلى النهضة، وجعلهم يؤمنون بهذا الكتاب عن علم وذوق وشعور ووجدان، بعد أن كانوا يؤمنون به إيمانا أشبه بالتقليد الأعمى أو بمحاكاة الصبيان .

ولقد دلتنا التجارب على أن كثيرا من هؤلاء الذين أحسوا جلال القرآن عن طريق تفسيره، فكروا فى حفظه، واستظهاره ودراسة لغته وعلومه، ليرتشفوا بأنفسهم من منهله الروى، ويشبعوا نهمتهم من غذائه المنى ، مادام هذا التفسير وغيره لا يحمل كل معانى الأصل، وما دام ثواب الله يجرى على كل من نظر فى الأصل أو تلا نفس ألفاظ الأصل .

(الفائدة الثانية) دفع الشبهات التى لفقها أعداء الإسلام وألصقوها بالقرآن وتفسيره كذبا وافتراء ثم ضللوا بها هؤلاء المسلمين الذين لا يحذقون اللسان العربى فى شكل ترجمات مزعومة للقرآن ، أو مؤلفات علمية وتاريخية للطلاب ، أو دوائر معارف للقراء، أو دروس ومحاضرات للجمهور ، أو صحف ومجلات للعامة والخاصة .

(الفائدة الثالثة) تنوير غير المسلمين من الأجانب فى حقائق الإسلام وتعاليمه، خصوصاً فى هذا العصر القائم على الدعايات ، وبين نيران هذه الحروب التى أوقدها أهل الملل والنحل الأخرى ، حتى ضل الحق أو كاد يضل فى سواد الباطل ، وخفت صوت الإسلام أو كاد يخفت بين ضجيج غيره من المذاهب المتطرفة والأديان المنحرفة .

(الفائدة الرابعة) إزالة الحواجز والعواثير التى أقامها الخبثاء الماكرون للحيلولة بين الإسلام وعشاق الحق من الأمم الأجنبية. وهذه الحواجز والعواثير ترتكز فى الغالب على أكاذيب افتروها تارة على الإسلام، وتارة أخرى على نبى الإسلام . وكثيرا ماينسبون هذه الأكاذيب إلى القرآن وتفاسيره، وإلى تاريخ الرسول وسيرته، ثم يدسونها فيما يزعمونه ترجمات للقرآن ، وفيما يقرأ الناس ويسمعون بالوسائل الأخرى . فإذا نحن ترجمنا تفسير القرآن أو فسرنا القرآن بلغة أخرى مع العناية بشروط التفسير وشروط الترجمة، ومع العناية التامة بدفع الشبهات والأباطيل الرائجة فيهم عند كل مناسبة، تزلزلت بلا شك تلك القصور التى أقاموها من الخرافات والأباطيل ، وزالت العقبات من طريق طلاب الحق وعشاقه من كل قبيل .

وهاك كلمة يؤيدنا بها الكاتب الانجليزى الشهير (برناردشو) إذ يقول : « لقد طبع رجال الكنيسة فى القرون الوسطى دين الإسلام بطابع أسود حالك، إما جهلا وإما تعصبا، إنهم كانوا فى الحقيقة مسوقين بعامل بغض محمد ودينه، فعندهم أن محمداً كان عدوا للمسيح . ولقد درست سيرة محمد الرجل العجيب ، وفى رأيى أنه بعيد جداً من أن يكون عدواً للمسيح . إنما ينبغى أن يدعى منقذ البشرية، الخ ما قال بمجلة ذى مسلم رفيو بلكنو الهند فى جزء مارس سنة ١٩٣٣ .

(الفائدة الخامسة) براءة ذمتنا من واجب تبليغ القرآن بلفظه ومعناه ، فإن هذه الترجمة جمعت بين النص الكريم بلفظه ورسمه العربيين ، وبين معانى القرآن على ما فهمه المفسر وشرحه باللغة الأجنبية ، قال السيوطى وابن بطال والحافظ ابن حجر وغيرهم من العلماء : « إن الوحى يجب تبليغه. ولكنه قسمان: قسم تبليغه بنظمه ومعناه وجوبا ، وهو القرآن : وقسم يصح أن يبلغ بمعناه دون لفظه ، وهو ما عدا القرآن . وبذلك يتم التبليغ » .

دفع الشبهات عن هذه الترجمة

الشبهة الأولى ودفعها :

يقولون: إن المترجم للتفسير مضطر إلى الترجمة العرفية الممنوعة وهى ترجمة كل مايسوقه فى كل نوبة للتفسير من آية أو آيات ، لأن التفسير بيان ، فلابد أن يعرف المبين أولا ثم يعرف البيان . ولأنه إذا ترجم التفسير بدون الآية كانت الترجمة غير مؤدية للمطلوب ، لعدم التئامها مع ماقبلها .

ونجيب على هذا بأننا شرطنا ألا تكون ألفاظ الأصل ولا ترجمتها العرفية منبثة بين ثنايا التفسير بلغة أجنبية، بل قلنا: إن التفسير يجزأ أجزاء، وتساق الآية أو الآيات فى كل نوبة من نوبات هذه التجزئة باللفظ والرسم العربيين، إن كنا نترجم هذه الترجمة لطائفة من إخواننا المسلمين، ثم يشار إليها فى تفسيرها فيقال: معنى هذه الآية أو الآيات كذا.. أو يقال: الآية المرقومة برقم كذا من سورة كذا معناها كذا وكذا . . بعبارة مجردة من ألفاظ الأصل وترجمتها ترجمة عرفية. ويكفى فى ارتباط المبين ببيانه أن يكون بأى وجه من وجوه الارتباط . وهو هنا قد ذكر أولا بلفظه ورسمه العربيين، ثم أشير إليه باسم إشارة أو ببيان رقمه من السورة واسم سورته من القرآن .

أما الالتئام فمن السهل رعاية الانسجام بين جمل التفسير بعضها مع بعض فى كل نوبة فى نوباته. وأما انسجام هذه النوبات كلها بعضها ببعض، بحيث يتألف منها كلام واحد مترابط كأنه سبيكة واحدة فشىء لم يشترطه أحد فى التفسير، ولا يضيرنا فقده شيئا مادام التفسير كلاما منجما على نوبات متفرقة ، لا كلاما واحداً فى نوبة واحدة ، وأما التئام الآيات بعضها ببعض فهو حاصل لامحالة ولكن ليس من الواجب أن يعرض له هذا التفسير ولا غيره من التفاسير .

الشبهة الثانية ودفعها :

يقولون : إن تفسير القرآن يشتمل عادة على كيفية نطق ألفاظه ومدلولات مفرداته، وأحكامها الإفرادية والتركيبية ، ومعانيها التي تحمل عليها حال التركيب، واختلاف المعاني عند الوقف على بعض الكلمات والابتداء بما بعدها وعند وصل الأولى بالثانية. ويشتمل أيضا على معرفة السنة لأنها بيان القرآن ، وعلى أقوال الصحابة والأئمة المجتهدين وغير ذلك وترجمة مثل هذا مع الاستيفاء أمر متعذر .

ونجيب على هذا بأن استيفاء الأمور المذكورة لم يشترطه أحد فى أصل التفسير العربى، فبدهى ألا يشترط ذلك فى ترجمته وهى صورة له . كيف وقد علمنا أن التفسير هو البيان ولو من وجه . وكل ما على المفسر أن يكون حكيما ، يلاحظ حال من يفسر لهم على قدر طاقته ، فيضمّن تفسيره مايحتاجون إليه ، ويعفيهم مما لاتسعه عقولهم ، وإلا كان فتنة عليهم . ولعل ذلك سر من أسرار تنوع التفاسير العربية التي بين أيدينا، ما بين مختصر ومتوسط ومطول ، وما بين تفسير بالمأثور وتفسير بالمعقول . وما بين تفسير معنى بالناحية البلاغية وآخر معنى بالناحية النحوية ، وثالث معنى بالناحية الكلامية، ورابع معنى بالناحية الفقهية ، إلى غير ذلك .

وإذا كان هذا ماثلا أمام أعيننا فى التفاسير العربية، فكيف نذهب إلى إنكاره إذا وقع مثله فى التفاسير بلغة أجنبية ؟ !

الشبهة الثالثة ودفعها :

يقولون : لا حاجة إلى هذا التفسير بلسان غير عربى ، ولا إلى ترجمة أى تفسير من التفاسير ، لإمكان الاستغناء عنهما بترجمة تعاليم الإسلام وهداياته .

والجواب أنا بينا وجه الحاجة إليه فى الفوائد التى ذكرناها آنفا . ثم إن ترجمة تفسير القرآن وتفسير القرآن بلغة أجنبية. كلاهما مثل ترجمة تعاليم الإسلام وهداياته. فكلها

معارف دينية ، وكلها من كلام البشر لا من كلام الله المعجز. وقد جوزتم ترجمة تعاليم الإسلام وهداياته . فلتجوزوا ترجمة التفسير بلغة أجنبية أيضا ، لأن ما جاز على أحد المثلين يجوز على الآخر قطعا .

ثم إن الرسائل المتحدثة عن الإسلام وتعاليمه بلغات أجنبية ، قد تكون ضرورية لا بد منها فى بعض الظروف والمناسبات ، ولكنها لا تغنى عن هذا التفسير الذى نحن بصدده الآن، للفوائد التى شرحناها قريبا فيه ، فوجوده شاهد من مشاهد الحق على بطلان ماجاء فى تلك الترجمات الخاطئة ، ييسر على المنصفين وطلاب الحقائق أن يحاكموا تلك الترجمات إلى ما جاء فى هذا التفسير خصوصا إذا صدر من هيئة إسلامية موثوق بها ، وعرض عند كل مناسبة ـ كما قلنا ـ لنقض الشبهات التى ضلت فيها الترجمات الزائغة .

يضاف إلى هذا أن المسلم الأعجمى يستعين بهذا التفسير على تدبر كتاب الله وتفهمه لأية آية من أية سورة يريد . والرسائل المقترحة لا يمكن أن تفى بذلك كله .

وإن أبيت إلا مثلا مما قرره علماؤنا فى ذلك فاستمع إلى جار الله الزمخشرى عند تفسيره لقوله سبحانه : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » إذ يقول مانصه: « فإن قلت : لم يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العرب وحدهم، وإنما بعث إلى الناس جميعا « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا » ، بل إلى الثقلين وهم على ألسنة مختلفة . فإن لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة . . . قلت : لا يخلو : إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها . فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفى التطويل . فبقى أن ينزل بلسان واحد . فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول، لأنهم أقرب إليه، وإذا فهموا عنه وبينوه وتنوقل عنهم وانتشر قامت التراجم (كذا) ببيانه وتفهيمه، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم فى كل أمة من أمم العجم، مع ما فى ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة، والأقطار المتنازحة والأمم المختلفة، والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد،

واجتهادهم فى تعلم لفظه وتعلم معانيه ، وما يتشعب عن ذلك من جليل الفوائد، وما يتكاثر فى إتعاب النفوس وكدّ القرائح فيه من القرب والطاعات ، المفضية إلى جزيل الثواب . ولأنه أبعد من التحريف والتبديل ، وأسلم من التنازع والاختلاف. ولأنه لو نزل بألسنة الثقلين كلها مع اختلافها وكثرتها وكان مستقلا بصفة الإعجاز فى كل واحد منها ، وكلم الرسول العربى كل أمة بلسانها كما كلم أمته التى هو منها يتلوه عليهم معجزا ، لكان ذلك أمراً قريباً من الإلجاء » اهـ باختصار طفيف .

وقوله : « قامت التراجم ببيانه وتفهيمه » يشعر بأن مراده تفاسير القرآن بلغات أجنبية ، لا ترجمات القرآن نفسه بالمعنى العرفى . وذلك لأن التفسير هو الذى يبين القرآن ويفهمه . أما الترجمة فتصوير للأصل فحسب وليس من وظيفتها البيان والتفهيم. ولو كان مراده بالترجمات ترجمات القرآن نفسه لم يستقم كلامه، لأن الذين فهموا القرآن عن الرسول والذين نقلوه عنه لم يقوموا بترجمة القرآن الكريم إلى الأمم المختلفة . إنما شرحوه لهم بعد أن بلغوهم نفس ألفاظه العربية .

ومما يؤيد ذلك قوله : « مع ما فى ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة الخ » . لأن اجتماع الجميع على كتاب واحد ، لا يتأتى مع وجود ترجمات لنفس الكتاب ، بل هو مدعاة إلى الانصراف عن الأصل اكتفاء بالترجمات كما تقدم تفصيل ذلك . فتأمل .

٤ — ترجمة القرآن بمعنى نقله إلى لغة أخرى

هذا هو الإطلاق الرابع المستند إلى اللغة . ثم هو الإطلاق الوحيد فى عرف التخاطب الأممى العام .

ويمكننا أن نعرّف ترجمة القرآن بهذا الإطلاق تعريفا مضغوطا على نمط تعريفهم فنقول : هى نقل القرآن من لغته العربية إلى لغة أخرى . ويمكننا أن نعرفها تعريفا

مبسوطا فنقول: ترجمة القرآن هى التعبير عن معانى ألفاظه العربية ومقاصدها بألفاظ غير عربية، مع الوفاء بجميع هذه المعانى والمقاصد.

ثم إنْ لوحظ فى هذه الترجمة ترتيب ألفاظ القرآن، فتلك ترجمة القرآن الحرفية أو اللفظية أو المساوية، وإن لم يلاحظ فيها هذا الترتيب، فتلك ترجمة القرآن التفسيرية أو المعنوية.

والناظر فيما سلف من الكلام على معنى الترجمة وتقسيمها والفروق بينها وبين التفسير يستغنى هنا عن شرح التعريف والتمثيل للمعرف فى قسميه؛ كما يستغنى عن التدليل على أن هذا المعنى وحده هو المعنى الاصطلاحى الفريد فى لسان التخاطب العام بين الأمم، ويعلم أن ترجمة القرآن بهذا المعنى خلاف تفسيره بلغته العربية. وخلاف تفسيره بغير لغته العربية، وخلاف ترجمة تفسيره العربى ترجمة حرفية أو تفسيرية، فارجع إلى هذا الذى أسلفناه إن شئت.

الحكم على هذه الترجمة بالاستحالة العادية:

أما حكم ترجمة القرآن بهذا المعنى فالاستحالة العادية والشرعية أى عدم إمكان وقوعها عادة، وحرمة محاولتها شرعا. ولنا على استحالتها العادية طريقان فى الاستدلال:

(الطريق الأول) أن ترجمة القرآن بهذا المعنى تستلزم المحال، وكل مايستلزم المحال محال. والدليل على أنها تستلزم المحال أنه لا بد فى تحققها من الوفاء بجميع معانى القرآن الأولية والثانوية، وبجميع مقاصده الرئيسية الثلاثة، وكلا هذين مستحيل. أما الأول فلأن للمعانى الثانوية للقرآن مدلولة لخصائصه العليا التى هى مناط بلاغته وإعجازه كما بينا من قبل، وما كان لبشر أن يحيط بها فضلا عن أن يحاكيها فى كلام له، وإلا لما تحقق هذا الإعجاز. وأما الثانى فلأن المقصد الأول من القرآن - وهو كونه هداية - إن

أمكن تحقيقه فى الترجمة بالنسبة إلى كل ما يفهم من معانى القرآن الأصلية فهو لا يمكن تحقيقه بالنسبة إلى كل ما يفهم من معانى القرآن التابعة ؛ لأنها مدلولة لخصائصه العليا التى هى مناط إعجازه البلاغى كما سبق .

وكذلك مقصد القرآن الثانى وهى كونه آية لا يمكن تحقيقه فيما سواه من كلام البشر عربيا كان أو عجميا ، وإلا لما صح أن يكون آية خارقة ، ومعجزة غير ممكنة ، حين تتناول هذا المقصد قدرة البشر . كيف والمفروض أن القرآن آية بل آيات ، ومعجزة بل معجزات لا يقدر عليها إلا الله وحده جل وعلا ؟ !

ويجرى هذا المجرى مقصد القرآن الثالث . وهو كونه متعبدا بتلاوته ، فإنه لا يمكن أن يتحقق فى الترجمة ، لأن ترجمة القرآن غير القرآن قطعا . والتعبد بالتلاوة إنما ورد فى خصوص القرآن وألفاظه عينها بأساليبها وترتيباته نفسها ، دون أى ألفاظ أو أساليب أخرى ، ولو كانت عربية مرادفة لألفاظ الأصل وأساليبه .

(الطريق الثانى) أن ترجمة القرآن بهذا المعنى مثل للقرآن ، وكل مثل للقرآن مستحيل . أما أنها مثل له فلأنها جمعت معانيه كلها ومقاصده كلها لم تترك شيئا ، والجامع لمعانى القرآن ومقاصده مثل له أى مثل . وأما أن كل مثل للقرآن مستحيل ، فلأن القرآن تحدى العرب أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه ، فعجزوا عن المعارضة والمحاكاة ، وهم يومئذ أئمة البلاغة والبيان ، وأحرص ما يكونون على الغلبة والفوز فى هذا الميدان وإذا كان هؤلاء قد عجزوا وانقطعوا ، فغيرهم ممن هم دونهم بلاغة وبيانا أشد عجزا وانقطاعا . « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » . وإذا كان الإنس والجن قد حقت عليهم كلمة العجز عن أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه بلغته العربية ، فأحرى أن يكون عجزهم أظهر لو حاولوا هذه المعارضة بلغة غير عربية لأن اتحاد اللغة فى المساجلة بين كلامين ، من شأنه أن يقرب

التشابه والتماثل إذا كانا ممكنين . نظرا إلى أن الخصائص البلاغية واحدة فيما به التحدى وما به المعارضة . أما إذا اختلفت لغة التحدى ولغة المعارضة فهيهات أن يتحقق التشابه والتماثل بدقة، لأن الخصائص البلاغية فى أحد اللسانين غير الخصائص البلاغية فى اللسان الآخر . ويوجد منها فى أحدهما ما يوجد فى الآخر . فيتعين التفاضل ويتعذر التماثل قطعا. ولهذا يصرح كثير من المتمكنين فى اللغات بأن ترجمة النصوص الأدبية فى أية لغة ترجمة دقيقة أمر مستحيل. وأن مايتداوله الناس مما يزعمونه ترجمات لبعض كتب أدبية فهو مبنى على ضرب من التسامح فى نقل معانى الأصل وأغراضه بالتقريب لا بالتحقيق. وذلك غير الترجمات الدقيقة لمثل العلوم والقوانين والوثائق المنضبطة ، فإنها ترجمات حقيقية ، مبنية على نقل معانى الأصل وأغراضه كلها بالتحقيق لا بالتقريب .

ولكى نوضح لك معنى المثلية المستحيلة فى ترجمة القرآن بهذا المعنى، نرشدك إلى أن هذه الترجمة لا تتحقق إلا بأمور بعضها مستحيل وبعضها ممكن. ذلك أنه لا بد فيها ـ على ضوء ماتقدم ـ من أن تكون وافية بجميع معانى القرآن الأصلية والتابعة على وجه مطمئن وأن تكون وافية كذلك بجميع مقاصده الثلاثة الرئيسية ، وتلك أمور مستحيلة التحقق كما سبق بيانه. ثم لا بد فيها أيضا من أن تكون صيغتها صيغة استقلالية، خالية من الاستطراد والتزيد ، وتلك أمور ممكنة الوقوع فى ذاتها ، لكنها إذا أضيفت إلى سابقتها كان المجموع مستحيلا ، لأن المؤلف من الممكن والمستحيل مستحيل .

فإذا أريد بعد ذلك أن تكون ترجمة القرآن هذه حرفية، وجب أن يعتبر فيها أمران زائدان: وجود مفردات فى لغة الترجمة مساوية لمفرادت القرآن ، ووجود ضمائر وروابط فى لغة الترجمة مساوية لروابط القرآن ، حتى يمكن أن يحل كل مفرد من الترجمة محل نظيره من الأصل ، كما هو المشروط فى الترجمة الحرفية . وهذا ـ لعمر الله ـ مما يزيد التعذر استفحالا والاستحالة إيغالا ، ويجعل هذه الترجمة ـ لو وجدت ـ مثلا للقرآن ياله من مثل ، وشبيها لا يطاوله شبيه ، ومعارضا لا يغالبه معارض ! ! . وقد عرفت دليل

بطلان كل ما يصدق عليه أنه مثل للقرآن . وفى هذا يقول الله سبحانه : « قل لئن اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآن لا يأتونَ بمثلهِ ولو كانَ بعضهم لبعض ظهيراً » . فنفى المثلية عن القرآن كما نفى المثلية عن نفسه فى قوله : « ليس كمثلهِ شىءٌ » وبالغ فى النفى وفى التحدى لجمع الإنس والجن على هذا العجز . ثم أكد هذا النفى وهذا التحدى مرة أخرى بتقرير عجز الثقلين عن المثلية ، على فرض معاونة بعضهم لبعض فيها ، واجتماع قواهم البيانية والعلمية عليها .

الحكم على هذه الترجمة بالاستحالة الشرعية :

الآن وقد تقرر أن ترجمة القرآن بهذا المعنى العرفى من قبيل المستحيل العادى ، لا نتردد فى أن نقرر أيضاً أنها من قبيل المستحيل الشرعى ، أى المحظور الذى حرمه الله. وذلك من وجوه ثمانية :

« الوجه الأول » أن طلب المستحيل العادى حرمه الإسلام ، أيا كان هذا الطلب ولو بطريق الدعاء، وأيا كان هذا المستحيل ترجمة أو غير ترجمة، لأنه ضرب من العبث، وتضييع للوقت والمجهود فى غير طائل . والله تعالى يقول : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » . والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « لا ضرر ولا ضرار » رواه الحاكم فى المستدرك وقال: صحيح على شرط مسلم، يضاف إلى ذلك أن طلب المستحيل العادى غفلة أو جهل بسنن الله الكونية ، وبحكمته فى ربط الأسباب بمسبباتها العادية، تطامينا لخلقه ، ورحمة بعباده « إن الله بالناس لرءوف رحيم » .

ولقد يعذر بعض الجهلة إذا ظنوا أن بعض المحالات أمور ممكنة فطلبوها، ولكن الذى يحاول ترجمة القرآن بهذا المعنى لا يعذر بحال . لأن القرآن نفسه أعذر حين أنذر بأنه لا يمكن أن يأتى الجن والإنس بمثله ، وإن اجتمعوا له وكان بعضهم لبعض ظهيرا وبذلك « قطعت جهيزة قول كل خطيب » .

« الوجه الثانى » أن محاولة هذه الترجمة فيها ادعاء عمل لإمكان وجود مثل أو أمثال للقرآن ، وذلك تكذيب شنيع لصريح الآية السابقة . ولقوله سبحانه : « وقال الذين لا يرجون لقاءنا ائتِ بقرآنٍ غير هذا أو بدِّله . قل ما يكونُ لى أن أُبدله من تلقاء نفسى ، إن أتبعُ إلا ما يوحى إلىّ . إنى أخافُ إن عصيت ربى عذابَ يومٍ عظيم * قل لو شاء اللهُ ما تلوتهُ عليكم ولا أدراكم بهِ ، فقد لبثتُ فيكم عمراً من قبلهِ ، أفلا تعقلونَ » .

فإن المتأمل فى هاتين الآيتين يجد فيهما وجوهاً دالة على التحريم ، حيث عنون الله عن طلاب التبديل بأنهم لا يرجون لقاءه ؛ وأمر الرسول أن ينفى نفياً عاماً إمكانه تبديله من تلقاء نفسه ، كما أمره أن يعلن أن اتباعه مقصور على ما يوحى إليه نسخاً أو إحكاماً. ومعنى هذا أن التبديل هو هوًى من الأهواء الباطلة ، والرسول لا يتبع أهواءهم ولا هوى نفسه ولا هوى أحد . « وما ينطقُ عنِ الهوى * إن هوَ إلا وحىٌ يوحى » وفى ختام الآية الأولى إشارة إلى أن هذه المحاولة التى يحاولونها عصيان لله ، وأنه يخاف منها عذاب يوم عظيم . وفى الآية الثانية إعلام بأن القرآن من محض فضل الله ، وأن الرسول ما كان يستطيع تلاوته عليهم ، ولا كان الله يعلمهم به على لسان رسوله ، لولا مشيئة الله وإيحاؤه به . ثم حاكمهم إلى الواقع وهو أن الرسول نشأ بينهم وعاش عمرا طويلا فيهم ، حتى عرفوا حديثه وأسلوبه وأنه مهما حلق فى سماء البلاغة ؛ فبينه وبين حديث القرآن وأسلوبه بُعد ما بين مكانة الخالق وأفضل الخلق . وأنه ما كان ينبغى أن يفترى الكذب على الله ويدعى أنه أوحى إليه ولم يوح إليه ، على حين أنه معروف بينهم بأنه الصادق الأمين ، « فما كان ليذر الكذب على الناس ثم يكذب على الله » ثم أعلن القرآن أخيرا أن هذا الطلب إهمال منهم لمقتضى العقل والنظر ، وانحطاط إلى دركة الحيوان والحجر ، إذ قال لهم « أفلا تعقلون » .

وإذا كان هذا مبلغ نعى القرآن على طلاب بدل للقرآن أو مثيل له من الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، وهو أفصح الناس لسانا وبيانا . وأعلمهم بمعانى القرآن ومقاصده ، وأعرفهم بأسرار الإسلام وروح تشريعه ؛ فما بالك بطلاب هذه الترجمة والساعين إليها من هم أقل شأنا من الرسول صلى الله عليه وسلم مهما قيل فى علمهم وفضلهم وجلالة قدرهم ؟ .

(الوجه الثالث) أن محاولة هذه الترجمة تشجع الناس على انصرافهم عن كتاب ربهم ، مكتفين ببدل أو أبدال يزعمونها ترجمات له . وإذا امتد الزمان بهذه الترجمات فسيذهب عنها اسم الترجمة ويبقى اسم القرآن وحده علماً عليها ، ويقولون : هذا قرآن بالانجليزية ، وذاك قرآن بالفرنسية ، وهكذا ، ثم يحذفون هذا المتعلق بعد ، ويجتزئون بإطلاق لفظ القرآن على الترجمة . ومن كان فى شك فليسأل متعارف الأمم فيما بين أيديهم من ترجمات . وما لنا نذهب بعيدا؟ فلنسائل أنفسنا نحن : ما بالنا نقول بملء فمنا : هذه رواية ماجدولين ، لترجمتها العربية والأصل فرنسى ، وهذا إنجيل برنابا أو يوحنا لترجمتهما العربية والأصل غير عبرى ، إلى غير ذلك من إطلاقاتنا الكثيرة على ترجمات شتى فى الدين والعلم والأدب والقوانين والوثائق ونحوها .

وهاك شاهدا أبلغ من ذلك كله : جاء فى ملحق لمجلة الأزهر أن أهالى جاوه المسلمين ، يقرءون الترجمة الأفرنجية ويقرئونها أولادهم ويعتقدون أن مايقرءون هو القرآن الصحيح اه فقل لى — بربك — ما الذى يمنع كل قطر من الأقطار الإسلامية وغير الإسلامية إذن أن يكون له قرآن من هذا الطراز ، لو ذهبنا إلى القول بجواز هذه الترجمة ؟ وهل تشك بعد ذلك فى حرمة كل مايؤدى إلى صرف الناس عن كتاب الله ، وإلى تفرقهم عنه وضلالهم فى مسماه ؟

(الوجه الرابع) أننا لو جوزنا هذه الترجمة ، ووصل الأمر إلى حد أن يستغنى الناس عن القرآن بترجماته ، لتعرض الأصل العربى للضياع كما ضاع الأصل العبرى للتوراة

والإنجيل . وضياع الأصل العربي نكبة كبرى تغري النفوس على التلاعب بدين الله تبديلا وتغييرا، مادام شاهد الحق قد ضاع ، ونور الله قد انطفأ، والمهيمن على هذه الترجمات قد زال (لاقدر الله). ولاريب أن كل مايعرض الدين للتغيير والتبديل، وكل مايعرض القرآن للإهمال والضياع ، حرام بإجماع المسلمين .

(الوجه الخامس) أننا إذا فتحنا باب هذه الترجمات الضالة ، تزاحم الناس عليها بالمناكب ، وعملت كل أمة وكل طائفة على أن تترجم القرآن في زعمها بلغتها الرسمية والعامية ، ونجم عن ذلك ترجمات كثيرات لاعداد لها ، وهي بلاشك مختلفة فيما بينها، فينشأ عن ذلك الاختلاف في الترجمات، خلاف حتمي بين المسلمين، أشبه باختلاف اليهود والنصارى في التورة والإنجيل . وهذا الخلاف يصدع بناء المسلمين ويفرق شملهم، ويهيئ لأعدائهم فرصة للنيل منهم، ويوقظ بينهم فتنة عمياء كقطع الليل المظلم، فيقول هؤلاء لأولئك: قرآننا خير من قرآنكم ، ويرد أولئك على هؤلاء تارة بسب اللسان ، وأخرى بحد الحسام، ويخرون ضحايا هذه الترجمات، بعد أن كانوا بالأمس إخوانا يوحد بينهم القرآن، ويؤلف بينهم الإسلام . وهذه الفتنة ـ لا أذن بها الله ـ أشبه بل هي أشد من الفتنة التي أوجس خيفة منها أمير المؤمنين عثمان بن عفان . وأمر بسببها أن تحرق جميع المصاحف الفردية ، وأن يجتمع المسلمون على تلك المصاحف العثمانية الإجماعية .

(الوجه السادس) أن قيام هذه الترجمات الآثمة يذهب بمقوم كبير من مقومات وجود المسلمين الاجتماعي ، كأمة عزيزة الجناب قوية السناد ؛ ذلك أنهم سيقنعون غداً بهذه الترجمات كما قلنا . ومتى قنعوا بها فسيستغنون لامحالة عن لغة الأصل وعلومها وآدابها وأنت تعلم والتاريخ يشهد ، أنها رباط من أقوى الروابط فيما بينها وكان لهذا الرباط أثره الفعال العظيم في تدعيم وحدة الأمة وبنائها، حين كانوا يقرءون القرآن نفسه ،ويدرسون من أجله علوم لغته العربية وآدابها، تذرعا إلى حسن أدائه وفهمه، حتى خدموا هذه العلوم ونبغوا فيها ، ولمع في سمائها رجال من الأعجام برزوا كثيراً من أعلام

العرب فى خدمتها وخدمة كتاب الله وعلومه بها . وبهذا قامت اللغة العربية لسانا عاما للمسلمين ، ورابطا مشتركا بينهم . على اختلاف أجناسهم ولغاتهم الإقليمية ؛ بل ذاب كثير من اللغات الإقليمية فى هذه اللغة الجديدة لغة القرآن الكريم .

وإن كنت فى ريب فسائل التاريخ عن وحدة المسلمين وعزتهم يوم كانت اللغة العربية صاحبة الدولة والسلطان فى الأقطار الإسلامية شرقية وغربية ، عربية وعجمية . يوم كانت لغة التخاطب بينهم ، ولغة المراسلات ، ولغة الأذان والإقامة والصلوات ، ولغة الخطابة فى الجمع والأعياد والجيوش والحفلات ، ولغة المكاتبات الرسمية بين خلفاء المسلمين وأمرائهم وقوادهم وجنودهم ، ولغة مدارسهم ومساجدهم وكتبهم ودواوينهم .

ونحن فى هذا العصر الذى زاحمتنا فيه اللغات الأجنبية وصارت حربا على لغتنا العربية ، حتى تبلبلت ألسنتنا وألسنة أبنائنا وخاصتنا وعامتنا ، يتأكد علينا أمام هذا الغزو اللغوى الجائح ، أن نحشد قوانا لحماية لغتنا والدفاع عن وسائل بقائها وانتشارها . وفى مقدمة هذه الوسائل إبقاء القرآن على عربيته ، والضرب على أيدى العاملين على ترجمته . وما ينبغى لنا أن نحطب فى حبلهم ، ولا أن نسايرهم فى قياس ترجمة القرآن بهذا المعنى على ترجمة غيره فى الجواز والإمكان . فأين الثرى من الثريا ؟ وأين كلام العبد العاجز من كلام الله المعجز ؟ . وما أشبه هؤلاء بالمفتونين من أمة موسى حين جاوز الله بهم البحر وأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم « قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهةٌ ، قال إنكم قوم تجهلونَ * إنَّ هؤلاء متبرماهم فيهِ وباطلٌ ما كانوا يعملونَ » !

جاء فى كتاب الرسالة للشافعى ما خلاصته : « إنه يجب على غير العرب أن يكونوا تابعين للسان العرب ، وهو لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم جميعا . كما يجب أن يكونوا تابعين له دينا ـ وأن الله تعالى قضى أن ينذروا بلسان العرب خاصة . . ثم قال : « فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده ، حتى يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ويتلو به كتاب الله ، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير

وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك . وكلما ازداد من العلم باللسان الذى جعله الله لسان من ختم به نبوته وأنزل به آخر كتبه ، كان خيرا له » .

وجاء فى كتاب الرسالة أيضاً أن المسور بن مخرمة رأى رجلا أعجمى اللسان أراد أن يتقدم للصلاة . فمنعه المسور بن مخرمة وقدم غيره ولما سأله عمر رضى الله عنه فى ذلك قال له : إن الرجل كان أعجمى اللسان وكان فى الحج ، فخشيت أن يسمع بعض الحاج قراءته فيأخذ بعجمته . فقال له عمر : أصبت. وقال الشافعى : « لقد أحببت ذلك » . اهـ قال فى الكشاف « الأعجمى من لا يُفهم كلامه للكنته أو لغرابة لغته ، فجاز أن يكون لسانه ألكن أو تكون لغته غريبة » .

(الوجه السابع) أن الأمة أجمعت على عدم جواز رواية القرآن بالمعنى. وأنت خبير بأن ترجمة القرآن بهذا المعنى العرفى ، تساوى روايته بالمعنى فكلتاهما صيغة مستقلة وافية بجميع معانى الأصل ومقاصده ، لافرق بينهما إلا فى القشرة اللفظية. فالرواية بالمعنى لغتها لغة الأصل . وهذه الترجمة لغتها غير لغة الأصل. وعلى هذا يقال إذا كانت رواية القرآن بالمعنى فى كلام عربى ممنوعة إجماعا ، فهذه الترجمة ممنوعة كذلك ، قياساً على هــذا المجمع عليه ، بل هى أحرى بالمنع ، للاختلاف بين لغتها ولغة الأصل .

(الوجه الثامن) أن الناس جميعاً مسلمين وغير مسلمين، تواضعوا على أن الأعلام لا يمكن ترجمتها سواء أكانت موضوعة لأشخاص من بنى الإنسان ، أم لأفراد من الحيوان، أم لبلاد وأقاليم، أم لكتب ومؤلفات . حتى إذا وقع علم من هذه الأعلام أثناء ترجمة ما ، ألفيته هو هو ثابتاً لا يتغير، عزيزاً لا ينال، متمتعاً بحصانته العلمية، لا ترزؤه الترجمة شيئاً، ولا تنال منه منالا. وما ذاك إلا لأن واضعى هذه الأعلام قصدوا ألفاظها بذاتها، واختاروها دون سواها للدلالة على مسمياتها ، فكذلك القرآن الكريم علم ربانى قصد الله سبحانه ألفاظه دون غيرها. وأساليبه دون سواها، لتدل على هداياته وليؤيد بها

رسوله ، وليتعبد بتلاوتها عباده . وكان سبحانه حكيما فى هذا التخصيص والاختيار، لمكان الفضل والامتياز فى هذه الأساليب والألفاظ المختارة .

ومن تفقه فى أساليب اللغة العربية ، وعرف أن خفة الألفاظ على الأسماع وحسن جرسها فى النفوس مدخلا فى فصاحة الكلام وبلاغته، أيقن أن القرآن فذ الأفذاذ فى بابه، وعلم الأعلام فى بيانه لأن ما فيه من الأساليب البلاغية والموسيقى اللفظية ، أمر فاق كل فوق ، وخرج عن كل طوق « ولو أن قرآنا سُيِّرت بهِ الجبالُ أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى . . بل للهِ الأمرُ جميعاً » ، فأنى لمخلوق بعد هذا أن يحاكيه بترجمة مساوية أو مماثلة « سبحانكَ هذا بهتانٌ عظيمٌ » .

دفع الشبهات الواردة على منع هذه الترجمة

الشبهة الأولى ودفعها :

يقولون : إن تبليغ هداية القرآن إلى الأمم الأجنبية واجب؛ لما هو معروف من أن الدعوة إلى الإسلام عامة لا تختص بجيل ولا بقبيل . وهذا التبليغ الواجب يتوقف على ترجمة القرآن لغير العرب بلغاتهم ، لأنهم لا يحذقون لغة العرب بينما القرآن عربى. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . ونجيب على هذه الشبهة (أولا) بأن هذا التبليغ لا يتوقف على ترجمة القرآن لهم تلك الترجمة العرفية ، الممنوعة بل يمكن أن يحصل بترجمته على المعنى اللغوى السالف وهو تفسيره بغير لغته على ما شرحناه آنفا . ويمكن أن يكون بتبليغهم هداية القرآن وتعاليمه ، ومحاسن الإسلام ومزاياه . ودفع الشبهات التى تعترضهم فى ذلك . إما بمحادثات شفهية ، وإما بمؤلفات على شكل رسائل تنشر ، أو مجلات تذاع ، أو كتب تطبع ، يختار الداعى من ذلك ما هو أنسب بحال المدعوين ، وما هو أيسر له وأنجح لدعوته فيهم .

(ثانياً) أن الله تعالى لم يكلفنا بالمستحيل « لا يكلفُ اللهُ نفساً إلا وسْعَها » . وقد أشبعنا القول فى بيان استحالة ترجمة القرآن بذلك المعنى العرفى استحالة عادية . فواضح ألا يكلفنا الله إياها .

(ثالثاً) أن القول بوجوب هذه الترجمة يستلزم المحال ؛ وهو التناقض فى أحكام الله تعالى . ذلك أن الله حرمها كما تقرر من قبل ، فكيف يستقيم القول بأنه أوجبها، مع أن الحاكم واحد وهو الله، ومحل الحكم واحد وهو الترجمة، والمحكوم عليه واحد وهم المكلفون فى كل زمان ومكان .

(رابعاً) أن الرسول ﷺ وهو أعرف الناس بأحكام الله وأنشط الخلق فى الدعوة إلى الله ، لم يتخذ هذه الترجمة وسيلة إلى تبليغ الأجانب مع أنه قد دعا العرب والعجم ، وكاتب كسرى وقيصر ، وراسل المقوقس والنجاشى . وكانت جميع كتبه لهم عربية العبارة ، ليس فيها آية واحدة مترجمة ، فضلا عن ترجمة القرآن كله . وكان كل ما فى هذه الكتب دعوة صريحة جريئة إلى نبذ الشرك واعتناق التوحيد والاعتراف برسالته ﷺ ووجوب طاعته واتباعه وكان ﷺ يدفع كتبه هذه إلى سفراء يختارهم من أصحابه فيؤدونها على وجهها ، وهؤلاء الملوك والحكام قد يدعون تراجم يفسرونها لهم، وقد يسألون السفراء ومن يتصل بهم عن تعاليم الإسلام ، وشمائل نبى الإسلام، وصفات الذين اتبعوه، ومدى نجاح هذه الرسالة مما عساه أن يلقى ضوءاً على حقيقة الداعى ودعوته .

انظر حديث هرقل فى أوائل صحيح البخارى .

(خامساً) أن الصحابة رضوان الله عليهم ، وهم مصابيح الهدى وأفضل طبقة فى سلف هذه الأمة الصالح ، وأحرص الناس على مرضاة الله ورسوله ، وأعرفهم بأسرار الإسلام وروح تشريعه ، لم يفكروا يوما ما فى هذه الترجمة ، فضلا عن أن يحاولوها أو يأتوها . بل كان شأنهم شأن الرسول الأعظم ﷺ يدعون بالوسائل التى دعا بها، على نشاط رائع

عجيب فى النشر والدعوة والفتح. فلو كانت هذه الترجمة العرفية من مواجب الإسلام لكان أسرع الخلق إليها رسول الله وأصحابه. ولو فعلوه لنقل وتواتر، لأن مثله مما تتوافر الدواعى على نقله وتواتره.

الشبهة الثانية ودفعها

يقولون: إن كتبه صلى الله عليه وسلم إلى العظماء من غير العرب يدعوهم إلى الإسلام، تستلزم إقراره على ترجمتها؛ لأنها مشتملة على قرآن وهم أعجام، ولأن الروايات الصحيحة ذكرت فى صراحة أن هرقل وهو من هؤلاء المدعوين، دعا ترجمانه فترجم له الكتاب النبوى وفيه قرآن.

والجواب أن هذه الكتب النبوية لا تستلزم إقرار الرسول ﷺ على تلك الترجمة العرفية الممنوعة. بل هى إذا استلزمت فإنما تستلزم الإقرار على نوع جائز من الترجمة وهو التفسير بغير العربية، لأن التفسير بيان ولو من وجه وهو كاف فى تفهم مضمون الرسائل المرسلة. على أن هذه الرسائل الكريمة لم تشتمل على القرآن كله، ولا على آيات كاملة منه. بل كل مافيها مقتبسات نادرة جدًّا. ولا ريب أن المقتبسات من القرآن ليس لها حكم القرآن.

وهاكم نماذج تتبينون منها مبلغ هذه الحقيقة:

١ ـ فكتابه صلى الله عليه وسلم الذى أرسله مع دحية بن خليفة الكلبى إلى هرقل، هذا نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم.

سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين. وإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين (أى الفلاحين) ويأهل الكتاب

تعالوا إلى كلمةٍ سواء بيننا وبينكم : ألا نعبدَ إلا اللهَ ، ولا نشركَ بهِ شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دونِ اللهِ . فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمونَ » .

فأنت ترى أن ما فى هذا الكتاب من القرآن لم يبلغ آية تامة ، لأن الآية مبتدأة بقوله تعالى : « قل يأهلَ الكتابِ » ولكن الكتاب حذف منه لفظ (قل) وزيد فيه حرف الواو ، والحذف والزيادة دليلان ماديان على الاقتباس .

٢ ـ وكتابه ﷺ الذى بعث به مع عبدالله بن حذافة إلى كسرى ، هـذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس .

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله. أدعوك بدعاية الله،فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين. أسلم تسلم. فإن توليت فعليك إثم المجوس » .

فأنت ترى فى هذه الرسالة النبوية أنها اشتملت على كلمة (لأنذرَ من كان حيًّا ويحقَّ القولُ على الكافرين) ، على حين أن نص الآية فى القرآن الكريم ، (لينذِرَ من كانَ حيًّا) وهذا دليل الاقتباس .

٣ ـ وقل مثل ذلك فى سائر رسائله ﷺ . فإن كتابه إلى المقوقس هو نص كتابه إلى هرقل ، لا فرق بينهما إلا فى كلمة (الأريسيين) إذ أبدلت بها كلمة (القبط) ، وإلا فى اسم المرسل إليه ومكانته كما هو واضح .

٤ ـ وكذلك كتابه إلى جيفر وعبد ملكى عمان ، ليس فيه إلا كلمة (لأنذرَ من كان حيًّا ويحق القولُ على الكافرينَ) : وهى التى فى رسالته صلى الله عليه وسلم إلى كسرى[1] .

---

(١) راجع فى ذلك ما كتبه الزرقانى على المواهب (ص ٣٢٦ ـ ٣٦٩ ج ٣)والسيرة الحلبية (ص ٣٦٢ ـ ٣٧٨ ج ٢) . وكتاب العلم من صحيح البخارى .

الشبهة الثالثة ودفعها :

يقولون : إن جميع المحذورات التى تخشى من الترجمة موجودة فى التفسير باللفظ العربى نفسه . وقد أجمعت الأمة على عدم التحاشى عن هذه المحذورات ، فيجب ألا يتحاشى عنها فى الترجمة أصلا . إذ لا فرق بين التعبير باللفظ العربى والتعبير باللفظ العجمى عن المراد بالآيات ، بعد أن يكون المعبر والمفسر والمترجم مستكملا للشروط والمؤهلات الواجبة لمن يعرض نفسه للتفسير والترجمة .

والجواب أنهم إن أرادوا بالترجمة فى كلامهم تلك الترجمة العرفية ، فقد بسطنا من وجوه المحذورات فيها ما جعلها حجرا محجورا ، وإثما محظورا . ورسمنا من الفروق ما جعل بينها وبين التفسير بونا بعيدا ؛ سواء أكانت هى ترجمة حرفية أم تفسيرية ، وسواء أكان هو تفسيرا بلغة الأصل أم بغير لغة الأصل .

وإن أرادوا بالترجمة فى كلامهم تلك الترجمة اللغوية على معنى التفسير بلغة أجنبية ، فكلامهم فى محل التسليم والقبول . ولكن لا يجوز أن تخاطب العرف العالمى العام بهذا الإطلاق اللغوى الخاص بنا لأنه لا يعرفه .

الشبهة الرابعة ودفعها :

يقولون : إن الترجمة العرفية للقرآن إذا تعذرت بالنسبة إلى معانيه التابعة ، فإنها تمكن بالنسبة إلى معانيه الأصلية . وعلى هذا فلنترجم القرآن بمعنى أننا ننقل معانيه الأصلية وحدها . لا سيما أنها هى المشتملة على الهداية المقصودة منه دون معانيه التابعة .

ونجيب على هذه الشبهة (أولا) بأن نقل معانى القرآن الأصلية لا يسمى ترجمة للقرآن عرفا ، لأن مدلول ألفاظ القرآن مؤلف من المعانى الأصلية والتابعة . فترجمته نقل معانيه كلها لا فرق بين ما كان منها أوليا وما كان ثانويا ، ونقل مقاصده كلها كذلك . ومحال

نقل جميع هذا كما سبق . وعلى هذا لا يجوز أن يعتبر مجرد نقل المعانى الأصلية دون التابعة ودون بقية مقاصده ترجمة له . اللهم إلا إذا جاز أن تسمى يد الإنسان إنسانا ، ورجل الحيوان حيوانا .

ثم إن إطلاق الترجمة على هذا المعنى المراد، لو كان مقصوراً على قائليه ولم يتصل بالعرف العام ، لهان الخطب وسهل الأمر ، وأمكن أن يلتمس وجه للتجوز ولو بعيدا . ولكن العرف الذى نخاطبه لا يفهم من كلمة ترجمة إلا أنها صورة مطابقة للأصل، وافية بجميع معانيه ومقاصده ، لا فرق بينهما إلا فى القشرة اللفظية . فإذا نحن نقلنا المعانى الأصلية للقرآن وحدها ، ثم قلنا لأهل هذا العرف العالمى العام : هذه هى ترجمة القرآن، نكون قد ضللنا أهل هذا العرف من ناحية ، ثم نكون قد بخسنا القرآن حقه من الإجلال والإكبار من ناحية أخرى، فزعمنا أن له مثلا يناصيه، وشبيهاً يحاكيه، على حين أن الذى جئنا به ما هو إلا صورة مصغرة لجزء منه ، وبين هذه الصورة وجلال الأصل مراحل شتى ، كالذى يصور الجزء الأسفل من إنسان عظيم ، ثم يقول للناس : هذه صورة فلان العظيم .

(ثانياً) أن تلك المعانى التابعة الثانوية ، فياضة بهدايات زاخرة، ومعارف واسعة فلا نسلم أن معانى القرآن الأولية وحدها هى مصدر هداياته. وارجع إلى ماذكرناه سابقا فى هذا الصدد ، فإن فيه الكفاية .

الشبهة الخامسة ودفعها :

يقولون إن الذين ترجموا القرآن إلى اللغات الأجنبية ، غيروا معانيه ، وشوهوا جماله ، وأخطأوا أخطاء فاحشة ، فإذا نحن ترجمنا القرآن بعناية ، أمكن أن نصحح لهم تلك الأخطاء . وأن نرد إلى القرآن الكريم اعتباره فى نظر أولئك الذين يقرءون تلك الترجمات الضالة، وأن نزيل العقبات التى وضعت فى طريقهم إلى هداية الإسلام؛ وبذلك نكون قد أدينا رسالتنا فى النشر والدعوة إلى هذا الدين الحنيف .

ونجيب على هذا بأن الذين زعموا أنهم ترجموا القرآن ترجمة عربية شوهوا جماله وغضوا من مقامه باعترافكم. فإن أنتم ترجمتم ترجمتهم وحاولتم محاولتهم فستقعون لا محالة فى قريب مما وقعوا فيه ، وستمسون بدوركم عظمة هذا القرآن وجلاله ، مهما بالغتم فى الحيطة ، وأمعنتم فى الدقة ، ونبغتم فى العلم، وتفوقتم فى الفهم ، لأن القرآن أعز وأمنع من أن تناله ريشة أى مصور كان ، من إنس أو جان كما بينا ذلك أوفى بيان .

أما إذا حاولتم ترجمة القرآن على معنى تفسيره بلغة أجنبية ، فذلك موقف آخر ، نؤيدكم فيه ، ونوافقكم عليه ، وندعو القادرين معكم إليه .

الشبهة السادسة ودفعها :

يقولون: جاء فى صريح السنة مايؤيد القول بجواز ترجمة القرآن؛ فقد قال الشرنبلالى فى كتابه « النفحة القدسية » مانصه :

« روى أن أهل فارس كتبوا إلى سلمان الفارسى أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسية فكتب لهم :« بسم الله الرحمن الرحيم ـ بنام يزدان بخشايند » فكانوا يقرءون ذلك فى الصلاة حتى لانت ألسنتهم. وبعد ما كتب عرضه على النبى ﷺ . كذا فى المبسوط،قاله فى النهاية والدراية » .

ونجيب على هذا من وجوه : (أولها) أن هذا خبر مجهول الأصل ، لايعرف له سند ، فلا يجوز العمل به ، (ثانيها) أن هذا الخبر لو كان لنقل وتواتر ، لأنه مما تتوافر الدواعى على نقله وتواتره . (ثالثها) أنه يحمل دليل وهنه فيه . ذلك أنهم سألوه أن يكتب لهم ترجمة الفاتحة فلم يكتبها لهم . إنما كتب لهم ترجمة البسملة. ولو كانت الترجمة ممكنة وجائزة ، لأجابهم إلى ماطلبوا وجوبا ، وإلا كان كاتما وكاتم العلم ملعون . (رابعها) أن المتأمل فى الخبر يدرك أن البسملة نفسها لم تترجم لهم كاملة ، لأن هـذه

الألفاظ التى ساقتها الرواية على أنها ترجمة للبسملة، لم يؤت فيها بلفظ مقابل للفظ «الرحمن». وكأن ذلك لعجز اللغة الفارسية عن وجود نظير فيها لهذا الاسم الكريم. وهذا دليل مادى على أن المراد بالترجمة هنا الترجمة اللغوية لا العرفية ، على فرض ثبوت الرواية.
(خامسها) أنه قد وقع اختلاف فى لفظ هذا الخبر بالزيادة والنقص وذلك موجب لاضطرابه ورده. والدليل على هذا الاضطراب أن النووى فى المجموع نقله بلفظ آخر هذا نصه: «إن قوما من أهل فارس طلبوا من سلمان أن يكتب لهم شيئاً من القرآن ، فكتب لهم الفاتحة بالفارسية».

وبين هذه الرواية وتلك مخالفة ظاهرة، إذ أن هذه ذكرت الفاتحة وتلك ذكرت البسملة بل بعض البسملة. ثم إنها لم تعرض لحكاية العرض على النبى صلى الله عليه وسلم، أما تلك فعرضت له.

(سادسها) أن هذه الرواية على فرض صحتها معارضة للقاطع من الأدلة السابقة القائمة على استحالة الترجمة وحرمتها. ومعارض القاطع ساقط.

حكم قراءة الترجمة والصلاة بها

تكاد كلمة الفقهاء تتفق على منع قراءة ترجمة القرآن بأى لغة كانت فارسية أو غيرها، وسواء أكانت قراءة هذه الترجمة فى صلاة أم فى غير صلاة. لولا خلاف واضطراب فى بعض نقول الحنفية.

وإليك نبذاً من أقوال الفقهاء على اختلاف مذاهبهم ، تتنور بها فى ذلك.

مذهب الشافعية :

١ ـ قال فى المجموع (ص ٣٧٩ ج ٣): مذهبنا ـ أى الشافعية ـ أنه لا تجوز قراءة القرآن بغير لسان العرب ، سواء أمكنته العربية أم عجز عنها ، وسواء أكان فى

الصلاة أم فى غيرها. فإن أتى بترجمته فى صلاة بدلا عنها لم تصح صلاته ، سواء أحسن القراءة أم لا . وبه قال جماهير العلماء ، منهم مالك وأحمد وأبو داود » .

٢ ـ وقال الزركشى فى البحر المحيط : « لا تجوز ترجمة القرآن بالفارسية ولا بغيرها ، بل تجب قراءته على الهيئة التى يتعلق بها الإعجاز . لتقصير الترجمة عنه ، ولتقصير غيره من الألسن عن البيان الذى خص به دون سائر الألسن .

٣ ـ وجاء فى حاشية ترشيح المستفيدين (ص ٥٢ ج ١) : من جهل الفاتحة لا تجوز له أن يترجم عنها ، لقوله تعالى : « إنا أنزلناهُ قرآناً عربيًّا » والعجمى ليس كذلك . وللتعبد بألفاظ القرآن .

٤ ـ وجاء فى الاتقان للسيوطى : « تجوز قراءة القرآن بالمعنى لأن جبريل أداه باللفظ ، ولم يبح له إيحاؤه بالمعنى » .

مذهب المالكية :

١ ـ جاء فى حاشية الدسوقى على شرح الدردير للمالكية (ص ٢٣٢ ـ ٢٣٦ ج ١) .

« لا تجوز قراءة القرآن بغير العربية . بل لا يجوز التكبير فى الصلاة بغيرها ولا بمرادفه من العربية . فإن عجز عن النطق بالفاتحة بالعربية وجب عليه أن يأتم بمن يحسنها . فإن أمكنه الائتمام ولم يأتم بطلت صلاته . وإن لم يجد إماماً سقطت عنه الفاتحة ، وذكر الله تعالى وسبحه بالعربية وقالوا : على كل مكلف أن يتعلم الفاتحة بالعربية وأن يبذل وسعه فى ذلك ، ويجهد نفسه فى تعلمها ومازاد عليها ، إلا أن يحول الموت دون ذلك وهو بحال الاجتهاد فيعذر » .

٢ ـ وجاء فى المدونة (ص ٦٢ ج ١) : « سألت ابن القاسم عمن افتتح الصلاة بالأعجمية وهو لا يعرف العربية : ماقول مالك فيه ؟ فقال : سئل مالك عن الرجل يحلف بالعجمية فكره ذلك وقال : أما يقرأ ؟ أما يصلى ؟ إنكارا لذلك » أى ليتكلم بالعربية

لابالعجمية . قال : ومايدريه الذى قال ، أهو كما قال ؟ . أى الذى حلف به أنه هو الله، مايدريه أنه هو أم لا . قال : قال مالك : « أكره أن يدعو الرجل بالعجمية فى الصلاة ولقد رأيت مالكا يكره العجمى أن يحلف ويستثقله . قال ابن القاسم : وأخبرنى مالك أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه نهى عن رطانة الأعاجم ، وقال : إنها خب أى خبث وغش » .

مذهب الحنابلة :

١ ـ قال فى المغنى (ص ٥٢٦ ج ١) : « ولا تجزئه القراءة بغير العربية، ولا إبدال لفظ عربى ، سواء أحسن القراءة بالعربية أم لم يحسن . ثم قال : فإن لم يحسن القراءة بالعربية لزمه التعلم فإن لم يفعل مع القدرة عليه لم تصح صلاته » .

٢ـ وقال ابن حزم الحنبلى فى كتابه المحلى (ص ٢٥٤ ج ٣) من قرأ أم القرآن أو شيئاً منها أو شيئاً من القرآن فى صلاته مترجماً بغير العربية ،أو بألفاظ عربية غير الألفاظ التى أنزل الله تعالى ، عامدا لذلك ؛ أو قدم كلمة أو أخرها عامدا لذلك ؛ بطلت صلاته ، وهو فاسق ؛ لأن الله تعالى قال : « قرآناً عربيًّا » ، وغير العربى ليس عربيا ؛ فليس قرآنا ، وإحالة عربية القرآن تحريف لكلام الله . وقد ذم الله تعالى من فعلوا ذلك فقال : « يحرِّفون الكلم عن مواضعه » .

ومن كان لايحسن العربية فليذكر الله تعالى بلغته لقوله تعالى : « لا يكلف اللهُ نفساً إلا وسعها » . ولا يحل له أن يقرأ أم القرآن ولا شيئا من القرآن مترجما على أنه الذى افترض عليه أن يقرأه ، لأنه غير الذى افترض عليه ، كما ذكرنا،فيكون مفتريا على الله » .

مذهب الحنفية :

اختلفت نقول الحنفية فى هذا المقام ، واضطرب النقل بنوع خاص عن الإمام ؛ ونحن مختصر لك الطريق بإيراد كلمة فيها تلخيص للموضوع ، وتوفيق بين النقول، اقتطفناها من ـ

مجلة الأزهر (ص ٣٢ و ٣٣ و ٦٦ و ٦٧ من المجلد الثالث) بقلم عالم كبير من علماء الأحناف إذ جاء فيها باختصار وتصرف مايلى :

أجمع الأئمة على أنه لا تجوز قراءة القرآن بغير العربية خارج الصلاة . ويمنع فاعل ذلك أشد المنع ، لأن قراءته بغيرها من قبيل التصرف فى قراءة القرآن بما يخرجه عن إعجازه ، بل بما يوجب الركاكة .

وأما القراءة فى الصلاة بغير العربية فتحرم إجماعا للمعنى المتقدم ، لكن لو فرض وقرأ المصلى بغير العربية ، أتصح صلاته أم تفسد ؟ .

ذكر الحنفية فى كتبهم أن الإمام أبا حنيفة كان يقول أولا : إذا قرأ المصلى بغير العربية مع قدرته عليها اكتفى بتلك القراءة . ثم رجع عن ذلك وقال : (متى كان قادرا على العربية ففرضه قراءة النظم العربى . ولو قرأ بغيرها فسدت صلاته لخلوها من القراءة مع قدرته عليها ، والإتيان بما هو من جنس كلام الناس حيث لم يكن المقروء قرآنا) .

ورواية رجوع الإمام هذه تعزى إلى الأقطاب فى المذهب . ومنهم نوح بن مريم ، وهو من أصحاب أبى حنيفة ، ومنهم على بن الجعد وهو من أصحاب أبى يوسف . ومنهم أبو بكر الرازى ، وهو شيخ علماء الحنفية فى عصره بالقرن الرابع .

ولا يخفى أن المجتهد إذا رجع عن قوله ، لا يعد ذلك المرجوع عنه قولا له ، لأنه لم يرجع عنه إلا بعد أن ظهر له أنه ليس بصواب وحينئذ لا يكون فى مذهب الحنفية قول بكفاية القراءة بغير العربية فى الصلاة للقادر عليها ، فلا يصح التمسك به ، ولا النظر إليه ، لاسيما أن إجماع الأئمة ـ ومنهم أبو حنيفة ـ صريح فى أن القرآن اسم للفظ المخصوص الدال على المعنى ، لا للمعنى وحده .

أما العاجز عن قراءة القرآن بالعربية فهو كالأمى فى أنه لا قراءة عليه . ولكن إذا فرض أنه خالف وأدى القرآن بلغة أخرى ، فإن كان مايؤديه قصة أو أمرا أو نهيا فسدت

صلاته، لأنه متكلم بكلام وليس ذكرا. وإن كان ما يؤديه ذكرا أو تنزيها لا تفسد صلاته، لأن الذكر بأى لسان لا يفسد الصلاة لا لأن القراءة بترجمة القرآن جائزة، فقد مضى القول بأن القراءة بالترجمة محظورة شرعا على كل حال.

توجيهات وتعليقات

جاء فى كلام بعض الأئمة وأقطاب علماء الأمة، ما أوقع بعض كبار الباحثين فى اشتباه. لذلك نرى إتماما للبحث، وتمحيصا للحقيقة، أن نسوق نماذج من هذا الكلام، ثم نتبعها بما نعتقد توجيها لها، أو تعليقا عليها.

١ — كلمة للإمام الشافعى

جاء فى كتاب الأم للشافعى رحمه الله تحت عنوان: (إمامة الأعجمى) ص ١٤٧ ج ١ ما نصه: «وإذا ائتموا به، فإن أقاما معا أم القرآن، ولحن أو نطق أحدهما بالأعجمية أو لسان أعجمى فى شىء من القرآن غيرها، أجزأته ومن خلفه صلاتهم، إذا كان أراد القراءة لما نطق به من عجمة ولحن، فإن أراد به كلاما غير القراءات فسدت صلاته» اهـ.

قالوا فى بيان مراد الشافعى من كلمته هذه: «ومراده أن الإمام والمؤتم إذا أحسنا قراءة الفاتحة، ثم لحن أو نطق أحدهما بلهجة أعجمية أو لغة أعجمية فى شى من القرآن غير الفاتحة، لا تبطل صلاتهما. والمراد من الأعجمية اللهجة، ومن اللسان اللغة، كما هو استعماله فى هذه المواطن. فهذا النص يدل على أن اللسان الأعجمى بعد قراءة المفروض عنده — وهو الفاتحة — لا يبطل الصلاة. وهو موافق للحنفية فى هذا» اهـ.

ونقول توجيها لكلام الشافعى، وتأييداً لما ذهبنا إليه: قد أسلفنا الكلام فى مذهب الحنفية، فلا نعيده. أما الذى ذكروه من أن هذا هو مراد الشافعى ـ رحمه الله ـ فسلم، بيد أنه يحتاج إلى تكملة لابد منها، وهى أن عدم بطلان الصلاة فى هذه الصورة، مشروط بأن تقصد القراءة، أما إذا كان المقصود كلاما غير القراءة فإنها تبطل. ثم إن منشأ عدم البطلان ليس هو جواز قراءة غير الفاتحة بالأعجمية كما فهموا، إنما منشؤه أن هذه القراءة بالأعجمية وقعت فى غير ركن وفى غير واجب للصلاة، لما هو مقرر فى مذهب الشافعية من أن قراءة مازاد على الفاتحة ليس واجبا فى الصلاة بحال. وهذا لا ينافى أن القراءة بالأعجمية محرمة كما سبق فى نصوص الشافعية بين يديك، وكما عرف من كلام الشافعى نفسه وقد أسلفناه قريباً، ولهذه المسألة نظائر، منها الصلاة فى الأرض المغصوبة، فإنها محرمة، ومع حرمتها فإنها صحيحة، ويؤيد حرمة القراءة بالأعجمية أن الشافعى فى كلامه هنا، قد سوى بين اللحن والقراءة بالأعجمية ونظمهما فى سلك واحد مع ما هو معلوم من أن اللحن فى القرآن حرام بإجماع المسلمين.

٢ ـ كلمة للمحقق الشاطبى

قال الشاطبى ـ وهو من أعلام المالكية ـ (فى ص ٤٤، ٤٥ ج ٢) من كتابه الموافقات تحت عنوان (منع ترجمة القرآن) ما نصه: «للغة العرب من حيث هى ألفاظ دالة على معان نظران: أحدهما من جهة كونها ألفاظا وعبارات دالة على معان مطلقة، وهى الدلالة الأصلية، والثانى من جهة كونها ألفاظا وعبارات مقيدة دالة على معان خادمة، وهى الدلالة التابعة. فالجهة الأولى هى التى تشترك فيها الألسنة وإليها تنتهى مقاصد المتكلمين ولا تختص بأمة دون أخرى. فإنه إذا حصل فى الوجود فعل لزيد مثلا كالقيام، ثم أراد كل صاحب لسان الإخبار عن زيد بالقيام؛ تأتى له ما أراد من غير كلفة. ومن هذه الجهة يمكن فى لسان العرب الإخبار عن أقوال الأولين ممن ليسوا من أهل اللغة العربية، وحكاية كلامهم. ويتأتى فى لسان العجم حكاية أقوال العرب والإخبار عنها. وهذا لا إشكال

فيه . وأما الجهة الثانية فهى التى يختص بها لسان العرب فى تلك الحكاية وذلك الإخبار، فإن كل خبر يقتضى فى هذه الحالة أموراً خادمة لذلك الإخبار ، بحسب المخبر والمخبر عنه والمخبر به، ونفس الإخبار فى الحال والمساق، ونوع الأسلوب من الإيضاح والإخفاء والإيجاز والإطناب وغير ذلك » وبعد أن مثل الشاطبى لهذا بنحو ما مثلنا سابقا قال : « وبهذا النوع الثانى اختلفت العبارات وكثير من أقاصيص القرآن ، لأنه يأتى مساق القصة فى بعض السور على وجه ، وفى بعضها على وجه آخر ، وفى ثالثة على وجه ثالث ، وهكذا ما تقرر فيه من الإخبار ، لا بحسب النوع الأول ، إلا إذا سكت عن بعض التفاصيل فى بعض ، ونص عليه فى بعض . وذلك أيضاً لوجه اقتضاه الحال والوقت « وما كان ربك نسيًّا » .

ثم قال : « إذا ثبت هذا فلا يمكن من اعتبر هذا الوجه الأخير (أى الدلالة التابعة) أن يترجم كلاما من الكلام العربى بكلام العجم فضلا عن أن يترجم القرآن وينقل إلى لسان غير عربى ، إلا مع فرض استواء اللسانين فى استعمال ما تقدم تمثيله ونحوه . فإذا ثبت ذلك فى اللسان المنقول إليه مع لسان العرب ؛ أمكن أن يترجم أحدهما إلى الآخر . وإثبات مثل هذا بوجه بين عسير » .

« وقد نفى ابن قتيبة إمكان الترجمة فى القرآن ، يعنى على هذا الوجه الثانى . فأما على الوجه الأول فهو ممكن ، ومن جهته صح تفسير القرآن وبيان معناه للعامة ومن ليس له فهم يقوى على تحصيل معناه . وكان ذلك جائزا باتفاق أهل الإسلام . فصار هذا الاتفاق حجة فى صحة الترجمة على المعنى الأصلى » . اهـ ما أردنا نقله بتصرف طفيف .

قالوا : هذا كلام مدلل ، وبحث موجه ، من عالم جليل محقق ، وأصولى نظار مدقق ، وهو ينطق بجواز ترجمة القرآن ، مع الدليل والبرهان .

ونحن نقول : إن كلام الشاطبي صريح في أن الممكن هو نقل المعاني الأصلية للقرآن دون التابعة ، وعلى هذا فإطلاقه لفظ ترجمة القرآن على ما أدى تلك المعاني الأصلية وحدها ، إطلاق لغوي محض لا نخالف فيه ، بل ندعو إليه ونشجع عليه ، مع التحفظات التي بسطناها فيما سلف .

أما الترجمة العرفية ـ وفيها يساق الحديث ـ فإن الشاطبي لا يريدها قطعا ، ولا يذهب إلى القول بها لا في القرآن ولا في غير القرآن من النصوص الأدبية . ولنا على ذلك أدلة خمسة نسوقها إليك .

(أولها) أنه قال في لغة الواثق تلك الكلمة الصريحة : « إذا ثبت هذا فلا يمكن من اعتبر هذا الوجه الأخير أن يترجم كلاما من الكلام العربي بكلام العجم ، فضلا عن أن يترجم القرآن وينقل إلى لسان غير عربي » .

(ثانيها) أنه نقل في كلمته المذكورة عن ابن قتيبة أنه نفى إمكان الترجمة في القرآن على هذا الوجه الثاني ، ثم أقره على هذا النفي بهذا التوجيه .

(ثالثها) أنه مالكي المذهب . والمالكية من أشد الناس تحرجا من الترجمة ، على ما علمت من نصوصهم السابقة .

(رابعها) أنه تردد أثناء بحثه في الترجمة ترددا يدل على أنه لم يقطع برأي يخالف مذهبه . إنما هو مجرد بحث فحسب ، أما الحكم فمسلم ، على حد قولهم : البحث وارد والحكم مسلم . والدليل على تردده ما جاء في الجزء الثاني من كتابه الموافقات (ص ٦٣) إذ يقول : « إذا ثبت أن للكلام من حيث دلالته على المعنى جهتين ، كان من الواجب أن ينظر في الوجه الذي تستفاد منه الأحكام : هل يختص بجهة المعنى الأصلي أو يعم الجهتين . أما استفادتها من الجهة الأولى فلا خلاف فيه . وأما استفادتها من الجهة الثانية فهو محل تردد . ولكل واحد من الطرفين وجهة من النظر » ثم قال : « قد تبين تعارض الأدلة في المسألة ، وظهر

أن الأقوى من الجهتين جهة اللاتمين استفادة الأحكام منها . لكن بقى فيها نظر آخر : ربما إخال أن لها دلالة على معان زائدة على المعنى الأصلى ، هى آداب شرعية، وتخلقات حسنة ، فيكون لها اعتبار فى الشريعة ، فلا تكون الجهة الثانية خالية من الدلالة جملة . وعند ذلك يشكل القول بالمنع مطلقا » اه مختصرا .

أرأيت هذا التردد كله ؟ ثم أرأيت كيف أخطأه التوفيق فى أن يجزم كما جزمنا باستفادة أنواع الهدايات الإسلامية ، من جهة المعانى الثانوية للقرآن الكريم ،على نحو مافصلناه تفصيلا ، ومثلنا له تمثيلا ؟ . والكمال لله وحده .

(خامسها) أنه قال فى الجزء الثانى من كتابه الموافقات أيضا (ص ٤٢) : « إن القرآن أنزل بلسان العرب، فطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة . . . ثم قال : « فمن أراد تفهمه فمن جهة لسان العرب يفهمه . ولا سبيل إلى تفهمه من غير هذه الجهة » .

وذلك برهان يدل على أن ترجمة القرآن فى نظره، لا يمكن أن تفى بهداياته ومقاصده. وأن طالب فهمه لا طريق له إلا أن ينتقل هو إلى القرآن ولغته ،فيدرسه على ضوء ما تقرر من قواعد هذه اللغة وأساليبها . ولا سبيل إلى هذه الدراسة طبعا إلا بحذق هذه اللغة وعلومها .

٣ ـ كلمة لحجة الإسلام الغزالى

جاء فى كتاب المستصفى للغزالى (١٦٩ ج ١) مانصه : « ويدل على جوازه (أى جواز رواية الحديث بالمعنى للعالم) الإجماع على جواز شرح الشرع للعجم بلسانهم . فإذا جاز إبدال العربية بعجمية ترادفها فلأن يجوز إبدال عربية بعربية ترادفها وتساويها أولى . وكذلك كان سفراء رسول الله ﷺ فى البلاد يبلغونهم أوامره بلغتهم. وهذا لأنا نعلم ألا تعبد فى اللفظ ، وإنما المقصود فهم المعنى وإيصاله إلى الخلق ،وليس ذلك كالتشهد والتكبير وما تعبد فيه باللفظ) . اه

قالوا : إن هـذه العبارة بعمومها تتناول القرآن والسنة ، لأنهما أساس الشرع ، فترجمتهما إذن جائزة . والكتاب كالسنة فى هذا الجواز .

ونحن نقول : إن عبارة الغزالى هـذه تأبى هذا الاستنتاج من وجوه : (أولها) ما حكاه من الإجماع فى هذا المقام ، ومعلوم أن الإجماع لم ينعقد أبدا على جواز ترجمة القرآن ، بل كاد ينعقد على عدم الجواز كما مر بك قريبا .

(ثانيها) أن سفراء الرسول ﷺ وهم الذين ساقهم الغزالى هنا مساق الاستدلال ، لم يترجموا القرآن للأعاجم . ولو ترجموه لنقل تواترا ، لأنه مما تتوافر الدواعى على نقله وتواتره إنما كانوا يترجمون تعاليم الإسلام وأوامر الرسول ﷺ ، كما ذكر الغزالى نفسه

(ثالثها) أن الغزالى فى عبارته المسطورة ، قد صرح بأن ما تعبدنا الله فيه باللفظ لا تجوز روايته بالمعنى . وعلى هذا لا يجوز أن يترجم بالأولى . ولا ريب أن القرآن الكريم متعبد بلفظه إجماعا ، فلا يجوز أن يروى بالمعنى ولا أن يترجم أبدا .

(رابعها) أن عبارة الغزالى فى كتابه الوجيز (ص ٢٦ ، ٢٧) موافقة بالنص لما جاء فى كتب الشافعية ، إذ يقول : « لا تقوم ترجمة الفاتحة مقامها . ولا تجزئ الترجمة للعاجز عن العربية » . وعبارته فى كتابه إلجام العوام (ص ١٤ - ١٩) يذهب فيها مذهب المتشددين ، فيقول بوجوب إبقاء أسماء الله وصفاته والمتشابه من الحديث على ما هى عليه وعدم النطق بها وبألفاظ القرآن بغير العربية .

موقف الأزهر من ترجمة القرآن الكريم

منذ بضع سنوات اتجه الأزهر اتجاها قويا إلى بحث موضوع ترجمة القرآن الكريم وانتهى الأمر بعد طول النقاش والحوار إلى أن قررت مشيخته الجليلة ترجمة تفسيره

وتألفت بالفعل لجنة من خيرة علمائه ورجالات وزارة المعارف لوضع تفسير عربى دقيق للقرآن ، تمهيداً لترجمته ترجمة دقيقة بوساطة لجنة فنية مختارة . وقد اجتمعت لجنة التفسير بضع مرات برياسة العلامة الباحث مفتى مصر الأكبر، وكان من أثر هذه الاجتماعات أن وضعت دستورا تلتزمه فى عملها العظيم ، ثم بعثت بهذا الدستور إلى كبار العلماء والجماعات الإسلامية فى الأقطار الأخرى ، لتستطلعهم آراءهم فى هذا الدستور ، رغبة منها فى أن يخرج هذا التفسير العربى فى صورة ما أجمع عليه إلا يمكنه .

وبما أن هذا الدستور قد حوى من ألوان الحيطة والحذر ما يتفق وجلال الغاية ، فإنا نعرض عليك هنا موادهِ وقواعده ، لتضيفها أنت إلى ما أبديناه من التحفظات السابقة. وها هى تلك القواعد كما جاءت فى مجلة الأزهر (٦٤٨،٦٤٩ . من المجلد السابع):

١ ـ أن يكون التفسير خاليا ما أمكن من المصطلحات والمباحث العلمية ، إلا ما استدعاه فهم الآية .

٢ ـ ألا يتعرض فيه للنظريات العلمية ، فلا يذكر مثلا التفسير العلمى للرعد والبرق عند آية فيها رعد وبرق ، ولا رأى الفلكيين فى السماء والنجوم عند آية فيها سماء ونجوم . إنما تفسر الآية بما يدل عليه اللفظ العربى ، ويوضح موضع العبرة والهداية فيها .

٣ ـ إذا مست الحاجة إلى التوسع فى تحقيق بعض المسائل وضعته اللجنة فى حاشية التفسير .

٤ ـ ألا تخضع اللجنة إلا لما تدل عليه الآية الكريمة ، فلا تتقيد بمذهب معين من المذاهب الفقهية ولا مذهب معين من المذاهب الكلامية وغيرها،ولا تتعسف فى تأويل آيات المعجزات وأمور الآخرة ونحو ذلك .

٥ ـ أن يفسر القرآن بقراءة حفص ، ولا يتعرض لتفسير قراءات أخرى إلا عند الحاجة إليها .

٦ ـ أن يجتنب التكلف فى ربط الآيات والسور بعضها ببعض .

٧ ـ أن يذكر من أسباب النزول ما صح بعد البحث ، وأعان على فهم الآية .

٨ ـ عند التفسير تذكر الآية كاملة أو الآيات إذا كانت كلها مرتبطة بموضوع واحد . ثم تحرر معانى الكلمات فى دقة . ثم تفسر معانى الآية أو الآيات مسلسلة فى عبارة واضحة قوية ، ويوضع سبب النزول والربط وما يؤخذ من الآيات فى الوضع المناسب .

٩ ـ ألا يصار إلى النسخ إلا عند تعذر الجمع بين الآيات .

١٠ ـ يوضع فى أوائل كل سورة ما تصل إليه اللجنة من بحثها فى السورة : أمكية هى أم مدنية ؟ وماذا فى السورة المكية من آيات مدنية ، والعكس .

١١ ـ توضع للتفسير مقدمة فى التعريف بالقرآن وبيان مسلكه فى كل ما يحتويه من فنونه ، كالدعوة إلى الله ، وكالتشريع ، والقصص والجدل ، ونحو ذلك ، كما يذكر فيها منهج اللجنة فى تفسيرها .

طريقة التفسير :

ورأت اللجنة بعد ذلك أن تضع قواعد خاصة بالطريقة التى تتبعها فى تفسير معانى القرآن الكريم ، ننشرها فيما يلى :

١ ـ تبحث أسباب النزول والتفسير بالمأثور ، فتفحص مروياتها وتنقد ، ويدون الصحيح منها بالتفسير ، مع بيان وجه قوة القوى ، وضعف الضعيف من ذلك .

٢ ـ تبحث مفردات القرآن الكريم بحثا لغويا ، وخصائص التراكيب القرآنية بحثا بلاغيا ، وتدون .

٣ ـ تبحث آراء المفسرين بالرأى والتفسير بالمأثور ، ويختار ما تفسر الآية به ، مع بيان وجه رد المردود وقبول المقبول .

٤ ـ وبعد ذلك كله يصاغ التفسير مستوفيا ما نص على استيفائه فى الفقرة الثانية من القواعد السابقة . وتكون هذه الصياغة بأسلوب مناسب لأفهام جمهرة المتعلمين ، خال من الإغراب والصنعة .

فذلكة البحث

لقد انتهى بنا هذا البحث ـ كما ترى ـ إلى حقائق مهمة ، أعتقد أنها إذا روعيت بإنصاف ، أزالت خلاف المختلفين فى هذا الموضوع ، أو جعلته خلافا لفظيا لا يليق أن يكون مثاراً لجدال ، ولا مجالا لنزاع : فترجمة القرآن حرفية كانت أو تفسيرية ، غير تفسيره بلغة عربية أو أجنبية . وتفسير القرآن بلغة أجنبية ، يساوى ترجمة التفسير العربى للقرآن الكريم . وترجمة القرآن بالمعنى العرفى العام لا بد لتحققها من الوفاء بجميع معانى القرآن ومقاصده ، سواء أكانت ترجمة حرفية أم تفسيرية . وما الفرق بين الحرفية والتفسيرية إلا شكلى ، هو مراعاة ترتيب الأصل ونظامه فى الأولى دون الثانية وترجمة القرآن مشترك لفظى بين معان أربعة ، منها ما اتفقوا على جوازه ، وهو ترجمته بمعنى تبليغ ألفاظه ، وترجمته بمعنى تفسيره بلغة عربية ومنها ما يجب أن يتفقوا على منعه وهو ترجمته بمعنى نقله إلى لغة أجنبية ، مع الوفاء بجميع معانيه ومقاصده ، ومنها ما اختلف فيه ولكن الأدلة متضافرة على جوازه ، وهو ترجمته بمعنى تفسيره بلغة أجنبية مع استيفاء شروط التفسير والترجمة فيه ، ومع التحفظات التى أبديناها وأبدتها لجنة التفسير الأزهرية من قبل .

وتعجبنى لهذه المناسبة كلمة للزركشى فى كتابه البحر المحيط أسوقها إليك فى الختام إذ قال :

« (مسألة) لا يجوز ترجمة القرآن بالفارسية وغيرها ، بل يجب قراءته على هيئته التى يتعلق بها الإعجاز ؛ لتقصير الترجمة عنه ، ولتقصير غيره من الألسن عن البيان الذى خص به دون سائر الألسن . قال الله تعالى : « بلسان عربى مبين » . هـذا لو لم يكن مُتحدًّى بنظمه وأسلوبه ، وإذا لم تجز قراءته بالتفسير العربى المتحدى بنظمه ، فأحرى ألا تجوز بالترجمة بلسان غيره . ومن هنا قال القفال فى فتاويه : عندى أنه لا يقدر أحد أن يأتى بالقرآن بالفارسية . قيل له : فإذن لا يقدر أحد أن يفسر القرآن ، قال : ليس كذلك ، لأن هناك يجوز أن يأتى ببعض مراد الله ويعجز عن البعض . أما إذا أراد أن يقرأه بالفارسية ، فلا يمكن أن يأتى بجميع مراد الله » .

« وفرق غيره بين الترجمة والتفسير فقال : يجوز تفسير الألسن بعضها ببعض ، لأن التفسير عبارة عما قام فى النفس من المعنى ، للحاجة والضرورة ، والترجمة هى إبدال اللفظة بلفظة تقوم مقامها فى مفهوم المعنى للسامع المعتبر لتلك الألفاظ ، فكأن الترجمة إحالة فهم السامع على الاعتبار ، والتفسير تعريف السامع بما فهم المترجم . وهذا فرق حسن » اهـ.

أحسن الله لنا الخاتمة ، وجمعنا جميعاً على الحق والرشد ، وجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه « أولئكَ الذينَ هَدَاهُم اللهُ ، وأولئكَ هم أولو الألباب » .

المبحث الرابع عشر فى النسخ

أهمية هذا المبحث :

لهذا المبحث أهمية خاصة ، وذلك من وجوه خمسة : (أولها) أنه طويل الذيل ، كثير التفاريع ، متشعب المسالك .

(ثانيها) أنه تناول مسائل دقيقة ، كانت مثاراً لخلاف الباحثين من الأصوليين ، الأمر الذى يدعو إلى اليقظة والتدقيق . وإلى حسن الاختيار مع الإنصاف والتوفيق .

(ثالثها) أن أعداء الإسلام من ملاحدة ومبشرين ومستشرقين قد اتخذوا من النسخ فى الشريعة الإسلامية أسلحة مسمومة ، طعنوا بها فى صدر الدين الحنيف ، ونالوا من قدسية القرآن الكريم . ولقد أحكموا شراك شبهاتهم ، واجتهدوا فى ترويج مطاعنهم ، حتى سحروا عقول بعض المنتسبين إلى العلم والدين من المسلمين . فجحدوا وقوع النسخ وهو واقع ، وأمعنوا فى هذا الجحود الذى ركبوا له أخشن المراكب ، من تمحلات ساقطة وتأويلات غير سائغة .

(رابعها) أن الإلمام بالناسخ والمنسوخ ، يكشف النقاب عن سير التشريع الإسلامى ، ويطلع الإنسان على حكمة الله فى تربيته للخلق وسياسته للبشر ، وابتلائه للناس ، مما يدل دلالة واضحة ، على أن نفس محمد النبى الأمى لا يمكن أن تكون المصدر لمثل هذا القرآن ، ولا المنبع لمثل هذا التشريع . إنما هو تنزيل من حكيم حميد .

(خامسها) أن معرفة الناسخ والمنسوخ ركن عظيم فى فهم الإسلام وفى الاهتداء إلى صحيح الأحكام ، خصوصاً إذا ما وجدت أدلة متعارضة لا يندفع التناقض بينها إلا بمعرفة سابقها من لاحقها ، وناسخها من منسوخها . ولهذا كان سلفنا الصالح يعنون بهذه الناحية ، يحذقونها ، ويلفتون أنظار الناس إليها ، ويحملونهم عليها . حتى لقد جاء فى الأثر أن ابن عباس رضى الله عنهما فسر الحكمة فى قوله تعالى : « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا » بمعرفة ناسخ القرآن ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه . ومقدمه ومؤخره وحلاله ، وحرامه . وورد أن علياً كرم الله وجهه دخل المسجد فإذا رجل يخوف الناس. فقال : ماهذا ؟ قالوا : رجل يذكر الناس . فقال : ليس برجل يذكر الناس، ولكنه يقول أنا فلان بن فلان فاعرفونى فأرسل إليه فقال : أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال : لا قال : فاخرج من مسجدنا ولا تذكر فيه . . . وروى أنه ـ كرم الله وجهه ـ مر على قاص.

فقال : أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال : لا . قال : هلكت وأهلكت ، يريد أنه عرّض نفسه وعرّض الناس للهلاك ، مادام أنه لا يعرف الناسخ من المنسوخ .

لهذه الوجوه الخمسة التي بسطناها ، يقتضينا الواجب أن نعنى بهذا المبحث ، وأن نسير فيه بقدر على حذر ، متوسعين فيما ينبغي التوسع فيه ، مقتصدين فيما وراء ذلك . وحسبنا الله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

ماهو النسخ ؟

النسخ في اللغة :

يطلق النسخ في لغة العرب على معنيين : (أحدهما) : إزالة الشيء وإعدامه . ومنه قول الله تعالى : « وماأرسلنا من قبلكَ من رسولٍ ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطانُ في أُمنيَّته . فينسخُ اللهُ مايلقي الشيطانُ ثم يحكِمُ اللهُ آياته » . ومنه قولهم نسخت الشمس الظل ، ونسخ الشيب الشباب ، ومنه تناسخ القرون والأزمان .

(والآخر) نقل الشيء وتحويله مع بقائه في نفسه . وفيه يقول السجستاني من أئمة اللغة : « والنسخ أن تحول مافي الخلية من النحل والعسل إلى أخرى . ومنه تناسخ المواريث بانتقالها من قوم إلى قوم ، وتناسخ الأنفس بانتقالها من بدن إلى غيره ، عند القائلين بذلك . ومنه نسخ الكتاب لما فيه من مشابهة النقل . وإليه الإشارة بقوله تعالى : « إنا كنا نستنسخُ ما كنتم تعملونَ » . والمراد به نقل الأعمال إلى الصحف ، ومن الصحف إلى غيرها » اهـ .

وقد اختلف العلماء بعد ذلك في تعيين المعنى الذي وضع له لفظ النسخ : فقيل إن لفظ النسخ وضع لكل من المعنيين وضعا أوليا . وعلى هذا يكون مشتركا لفظيا ، وهو الظاهر من تبادر كلا المعنيين بنسبة واحدة عند إطلاق لفظ النسخ . وقيل إنه وضع للمعنى الأول

وحده ، فهو حقيقة فيه مجاز فى الآخر . وقيل عكس ذلك . وقيل وضع للقدر المشترك بينهما. ولكن هذه الآراء الأخيرة يعوزها الدليل ولا يخلو توجيهها من تكلف وتأويل.

النسخ فى الاصطلاح :

لقد عـــرّف النسخ فى الاصطلاح بتعاريف كثيرة مختلفة . لا نرى من الحكمة استعراضها ، ولا الموازنة بينها ونقدها . وما دام الغرض منها كلها هـــو تصوير حقيقة النسخ فى لسان الشرع ، فإننا نجتزئ بتعريف واحد نراه أقرب وأنسب ، وهو (رفع الحكم الشرعى بدليل شرعى) .

ومعنى رفع الحكم الشرعى قطع تعلقه بأفعال المكلفين لا رفعه هو ، فإنه أمر واقع ، والواقع لا يرتفع . . والحكم الشرعى هو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين إما على سبيل الطلب أو الكف أو التخيير ، وإما على سبيل كون الشىء سببا أو شرطا أو مانعا أو صحيحا أو فاسدا . . والدليل الشرعى هو وحى الله مطلقا متلوا أو غير متلو ، فيشمل الكتاب والسنة. أما القياس والإجماع ففى نسخهما والنسخ بهما كلام نستقبله فى موضع آخر .

وقولنا : (رفع) جنس فى التعريف ، خرج عنـــه ما ليس برفع ، كالتخصيص فإنه لا يرفع الحكم وإنما يقصره على بعض أفــــراده . وسيأتى بسط الفروق بين النسخ والتخصيص فانتظره .

وقولنا : (الحكم الشرعى) قيد أول ، خرج به ابتداء إيجاب العبادات فى الشرع ، فإنه يرفع حكم العقل ببراءة الذمة ، وذلك كإيجاب الصلاة فإنه رافع لبراءة ذمة الإنسان منها قبل ورود الشرع بها ، ومع ذلك لا يقال له نسخ وإن رفع هذه البراءة ، لأن هذه البراءة حكم عقلى لا شرعى ؛ بمعنى أنه حكم يدل عليه العقل حتى من قبل مجىء الشرع . ولا يقدح فى كونه حكما عقليًّا أن الشرع جاء يؤيده بمثل قوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

وقولنا : (بدليل شرعى) قيد ثان ، خرج به رفع حكم شرعى بدليل عقلى ، وذلك كسقوط التكاليف عن الإنسان بموته أو جنونه أو غفلته ، فإن سقوط التكاليف عنه بأحد هذه الأسباب يدل عليه العقل، إذ الميت والمجنون والعاقل لا يعقلون خطاب الله حتى يستمر تكليفهم ، والعقل يقضى بعدم تكليف المرء إلا بما يتعقله ، وأن الله تعالى إذا أخذ ماوهب أسقط ماوجب . ولا يقدح فى كون هذا الدليل عقليا مجىء الشرع معززا له بمثل قوله ﷺ : « رفع القلم عن ثلاث ، النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يفيق » .

توجيهات أربعة :

وإنى أوجه نظرك فى هذا التعريف إلى نقاط أربع :

(أولاها) أن التعبير برفع الحكم يفيد أن النسخ لا يمكن أن يتحقق إلا بأمرين (أحدهما) أن يكون هذا الدليل الشرعى متراخيا عن دليل ذلك الحكم الشرعى المرفوع. (والآخر) أن يكون بين هذين الدليلين تعارض حقيقى، بحيث لا يمكن الجمع بينهما وإعمالهما معاً. أما إذا انتفى الأمر الأول ولم يكنْ ذلك الدليل الشرعى متراخياً عن دليل الحكم الأول فلا نسخ ، وذلك كقوله تعالى : « وأتِمُّوا الصِّيام إلى الليل » فإن الغاية المذكورة وهى قوله : « إلى الليل » تفيد انتهاء حكم الصوم، وهو وجوب إتمامه بمجرد دخول الليل . ولكن لا يقال لهذه الغاية الدالة على انتهاء هذا الحكم إنها نسخ .وذلك لاتصالها بدليل الحكم الأول، وهو قوله: « ثم أتموا الصيام » بل تعتبر الغاية المذكورة بيانا أو إتماما لمعنى الكلام وتقديرا له بمدة أو شرط. فلا يكون رافعا وإنما يكون رافعا إذا ورد الدليل الثانى بعد أن ورد الحكم مطلقا واستقر من غير تقييد ، بحيث يدوم لولا الناسخ . ولهذا زاد بعضهم تقييد الدليل الشرعى فى تعريف الناسخ بالتراخى. وزاد بعضهم كلمة « على وجه لولاه

لكان الحكم الأول ثابتا » . وقد علمت من هذا الذى ذكرناه أنه لا حاجة إلى هاتين الزيادتين ، بل هما تصريح بما علم من التعبير فى التعريف بكلمة « رفع » وأما إذا انتفى الأمر الثانى ، بأن لم يكن بين الدليلين تعارض حقيقى ، فإنه لا نسخ ، لأن النسخ ضرورة لا يصار إليها إلا إذا اقتضاها التعارض الحقيقى ، دفعا للتناقض فى تشريع الحكيم العليم ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وحيث لا تعارض هناك على الحقيقة فلا حاجة إلى النسخ ، لأنه لا تناقض . ولا ريب أن إعمال الدليلين ولو بنوع تأويل ، خير من إعمال دليل وإهدار آخر . ولهذا حكم الغزالى فى كتابه المستصفى بغلط من زعموا تعارضا وتوهموا نسخا بين قوله سبحانه : « واستشهدوا شهيدَين من رجالكُم » وبين الخبر الوارد بقبول شهادة الواحد واليمين ، معتمدين على ما ظهر لهم فى الآية من أنها تدل على أنه لا حجة للحكم سوى المذكور فيها من شهادة اثنين ، مع أن هذا الظاهر لهم غير صحيح ، لأن الآية لا تدل إلا على كون الشاهدين حجة وعلى جواز الحكم بقولهما ، أما امتناع الحكم بحجة أخرى كما فهموا ، فلا تدل الآية عليه حتى يكون تعارض بينها وبين الخبر المذكور ، بل هو كالحكم بالإقرار . وذكر حجة واحدة لا يمنع وجود حجة أخرى .

(ثانيتها) أن التعريف المذكور يفيد أن النسخ لا يتوجه إلا إلى الحكم وهو كذلك فى الواقع ونفس الأمر ، وتقسيمهم النسخ إلى نسخ تلاوة ونسخ حكم تقسيم صورى للإيضاح فحسب ، لأن ما أسموه نسخ تلاوة لم يخرج عن كونه نسخ حكم ، إذ أن نسخ تلاوة الآية لا معنى له فى الحقيقة إلا نسخ حكم من أحكامها ، وهو رفع الإثابة على مجرد ترتيلها ، وصحة الصلاة بها ، ونحوهما .

(ثالثتها) أن هذا التعريف يشمل النسخ الواقع فى الكتاب وفى السنة جميعا ،

سواء أكانت السنة قولية أم فعلية أم وصفية أم تقريرية ، وسواء منها ما كان نبويا وما كان قدسيا ، لأنهـــا كلها وحى بالفعل أو بالقوة ، والرسول ﷺ أقامه الله فى محراب الإمامة لخلقه، وجعله الأسوة الحسنة لعباده ، وأمر الجميع باتباعه ،فهو إذن لا يمكن أن يصدر فيما يشرع لأمته ابتداء أو نسخا ، إلا عن إيحـــاء الله إليه تصريحا أو تقريرا .

مثال نسخ الكتاب بالكتاب قوله سبحانه : « لا يحلُّ لكَ النساءُ من بعدُ ولا أن تبدّل بهنّ من أزواجٍ » فإنها نسخت بقوله سبحانه : « يأيها النبيُّ إنا أحللنا لكَ أزواجكَ اللاتى آتيتَ أُجورَهُنَّ ، وما ملكتْ يمينُكَ مما أفاءَ اللهُ عليكَ ، وبناتِ عمكَ وبناتِ عماتِكَ ، وبناتِ خالكَ وبناتِ خالاتِكَ اللاتى هاجرْنَ معكَ، وامرأةً مؤمِنةً إن وهبَتْ نفسها للنبيِّ إن أرادَ النبيُّ أن يستنكحها ، خالصةً لك من دونِ المؤمنينَ » .

ومثال نسخ السنة بالسنة نسخ الوضوء مما مست النار بأكله ﷺ من الشاة ولم يتوضأ .

(رابعتها) أن الإضافة فى كلمة « رفع الحكم الشرعى » الواردة فى تعريف النسخ، من قبيل إضافة المصدر لمفعوله، والفاعل مضمر وهو الله تعالى. وذلك يرشد إلى أن الناسخ فى الحقيقة هو الله ، كما يدل عليه قوله سبحانه : « ما ننسخْ من آية أو نُنْسِهَا » ويرشد أيضا إلى أن المنسوخ فى الحقيقة هو الحكم المرتفع . وقد يطلق الناسخ على الحكم الرافع فيقال : وجوب صوم رمضان نسخ وجوب صوم عاشوراء . وقد يطلق النسخ على دليله كذلك ، فيقال : آية المواريث نسخت آية الوصية للوالدين والأقربين . ويقال : خبر أكل الرسول من الشاة ولم يتوضأ ، ناسخ لخبر وضوئه ﷺ مما مست النار . وهلم . والخطب فى ذلك جد يسير .

مالا بد منه فى النسخ

ولعلك تدرك مما سبق أنه لا بد فى تحقق النسخ من أمور أربعة :

(أولها) أن يكون المنسوخ حكما شرعيا .

(ثانيها) أن يكون دليل رفع الحكم دليلا شرعيا .

(ثالثها) أن يكون هذا الدليل الرافع متراخيا عن دليل الحكم الأول غير متصل به كاتصال القيد بالمقيد والتأقيت بالمؤقت .

(رابعها) أن يكون بين ذينك الدليلين تعارض حقيقى .

تلك أربعة لا بد منها لتحقق النسخ باتفاق جمهرة الباحثين. وثمة شروط اختلفوا فى شرطيتها . منها أن يكون ناسخ القرآن قرآنا وناسخ السنة سنة . ومنها كون النسخ مشتملا على بدل للحكم المنسوخ . ومنها كون الناسخ مقابلا للمنسوخ مقابلة الأمر للنهى والمضيق للموسع . ومنها كون الناسخ والمنسوخ نصين قاطعين ، إلى غير ذلك مما يطول شرحه ، وقد يأتيك نبؤه .

الفرق بين النسخ والبداء

البداء (بفتح الباء) يطلق فى لغة العرب على معنيين متقاربين .

(أحدهما) الظهور بعد الخفاء . ومنه قول الله سبحانه : « وبدَا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبونَ » ، « وبدَا لهم سيئاتُ ما عملوا » . ومنه قولهم : بدا لنا سور المدينة .

(والآخر) نشأة رأى جديد لم يك موجودا . قال فى القاموس: « وبدا له فى الأمر بدواً ، وبداء ، وبداة ؛ أى نشأله فيه رأى » اﻫ. ومنه قوله الله تعالى :« ثم بدَا لهم من

بعدِ مارأَوُا الآياتِ ليسجُنُنَّهُ حتى حين » . أى نشألهم فى يوسف رأى جديد ، هو أن يسجن سجنا وقتيا ، بدليل قوله : « ليسجننهُ حتى حين » . ولعل هذا المعنى الثانى هو الأنسب والأوفق بمذهب القائلين به ـ قبحهم الله ـ . ولأن عباراتهم المأثورة عنهم جرت هذا المجرى فى الاستعمال دون الاستعمال الأول. كتلك الكلمة التى نسبوها كذبا إلى جعفر الصادق رضى الله عنه : « ما بدا لله تعالى فى شىء كما بدا له فى إسماعيل » .

ذانك معنيان متقاربان للبداء ، وكلاهما مستحيل على الله تعالى، لما يلزمهما من سبق الجهل وحدوث العلم ، والجهل والحدوث عليه محالان ؛ لأن النظر الصحيح فى هذا العالم، دلنا على أن خالقه ومدبره ، متصف أزلا وأبدا بالعلم الواسع المطلق المحيط بكل ما كان وماسيكون وما هو كائن ، كما هدانا هذا النظر الصحيح إلى أنه تعالى لا يمكن أن يكون حادثا ولا محلا للحوادث . وإلا لكان ناقصا يعجز عن أن يبدع هذا الكون ويدبره هذا التدبير المعجز ! . ذلك إجمال لدليل العقل .

أما أدلة النقل فنصوص فياضة ناطقة بأنه تعالى أحاط بكل شىء علما ، وأنه لا تخفى عليه خافية « ما أصابَ من مصيبةٍ فى الأرضِ ولا فى أنفسكم إلا فى كتابٍ من قبلِ أن نبرأها ، إن ذلكَ على اللهِ يَسير » . « وعندهُ مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هُو ويعلم ما فى البرِّ والبحرِ ، وما تسقُطُ من ورقةٍ إلا يعلمها ، ولا حَبَّةٍ فى ظُلُمَاتِ الأرض ولا رطبٍ ولا يابس إلا فى كتابٍ مبينٍ » الله يعلَمُ ما تحملُ كلُّ أنثى ، وما تَغيضُ الأرحامُ ، وما تزداد * وكلُّ شىء عندهُ بمقدارٍ * عالم الغيبِ والشهادةِ الكبيرُ المتعال * سواء منكم من أسرَّ القولَ ومن جهرَ بهِ ، ومن هو مُسْتَخْفٍ بالليلِ وساربٌ بالنهارِ » . إلى غير ذلك من مئات الآيات والأحاديث .

ولكن على رغم أنف هذه البراهين الساطعة من عقلية ونقلية ، ضل أقوام سفهوا أنفسهم ، فأغمضوا عيونهم عن النظر فى كتاب الكون الناطق ، وصموا آذانهم عن

سماع كلام الله وكلام نبيه الصادق ، وزعموا أن النسخ ضرب من البداء أو مستلزم للبداء !
وهكذا اشتبهوا أو شبهوا على الناس الأمر ، وقالوا لولا ظهور مصلحة لله ، ونشوء رأى
جديد له ، ما نسخ أحكامه ، وبدل تعاليمه . ونسوا أو تناسوا أن الله تعالى حين نسخ
بعض أحكامه ببعض ، ما ظهر له أمر كان خافيا عليه ، وما نشأ له رأى جديد كان يفقده
من قبل ، إنما كان سبحانه يعلم الناسخ والمنسوخ أزلا من قبل أن يشرعهما لعباده ، بل
من قبل أن يخلق الخلق ، ويبرأ السماء والأرض . إلا أنه ـ جلت حكمته ـ علم أن الحكم
الأول المنسوخ منوط بحكمة ، أو مصلحة تنتهى فى وقت معلوم ، وعلم بجانب هذا أن
الناسخ يجىء فى هذا الميقات المعلوم منوطا بحكمة وبمصلحة أخرى . ولا ريب أن الحكم
والمصالح تختلف باختلاف الناس ، وتتجدد بتجدد ظروفهم وأحوالهم ، وأن الأحكام
وحكمها ، والعباد ومصالحهم ، والنواسخ والمنسوخات ، كانت كلها معلومة لله من قبل ،
ظاهرة لديه لم يخف شىء منها عليه . والجديد فى النسخ إنما هو إظهاره تعالى ما علم لعباده ،
لا ظهور ذلك له ، على حد التعبير المعروف : (شؤون يبديها ولا يبتديها) . « وما كان
ربك نسيا » .

اجتمعت اليهود والرافضة على هذه الضلالة ، ضلالة استلزام النسخ للبداء ، لكنهم
افترقوا بعد ذلك إلى ناحيتين خطيرتين . فاليهود أنكروا النسخ وأسرفوا فى الإنكار ،
لاستلزامه فى زعمهم البداء وهو محال . وسنناقشهم الحساب فيما بعد إن شاء الله . أما
الرافضة فأثبتوا النسخ ثم أسرفوا فى إثبات هذا البداء اللازم له فى زعمهم ، ونسبوه إلى
الله فى صراحة ووقاحة « سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيراً » . ولقد رأيت كيف
أبطلنا مزاعمهم بأدلة عقلية ونقلية؟ ورأيت كيف فندنا شبهتهم التى زعموها دليلا وماهى
بدليل ؟ إن هى إلا خلط فى أوهام ومشى فى غير سبيل . وشتان شتان بين النسخ القائم على
الحكمة ورعاية المصلحة ، وبين البداء المستلزم لسبق الجهل وطرو العلم ! .

بقى أنهم تمسحوا فى أمرين : (أولهما) قوله سبحانه : « يمحو الله ما يشاء ويثبت

وعنده أم الكتاب ». والجواب أنه لامستند لهم فى الآية الكريم، بل هى ترد عليهم كما ردت على أشباههم ممن عابوا النسخ على النبى ﷺ .

ومعناها أن الله يغير ماشاء من شرائعه وخلقه ، على وفق علمه وإرادته وحكمته ، وعلمه سبحانه لا يتغير ولا يتبدل ، إنما التغير فى المعلوم لا فى العلم. بدليل قوله : «وعنده أم الكتاب » أى وعنده المرجع الثابت الذى لامحو فيه ولا إثبات ، وإنما يقع المحو والإثبات على وفقه ، فيمحو سبحانه شريعة ويثبت مكانها أخرى، ويمحو حكما ويثبت آخر ، ويمحو مرضا ويثبت صحة ، ويمحو فقرا ويثبت غنى ، ويمحو حياة ويثبت موتا. وهكذا تعمل يد الله فى خلقه وتشريعاته تغييراً وتبديلا، وهو الحق وحده لا يعروه تغيير ولا تبديل ، ولا يتطرق إلى علمه محو ولا إثبات .

وخلاصة هذا التوجيه أن النسخ تبديل فى المعلوم لا فى العلم، وتغيير فى المخلوق لا فى الخالق ، وكشف لنا وبيان عن بعض ماسبق به علم الله القديم المحيط بكل شيء .ولهذا ذهب كثير من علمائنا إلى تعريف النسخ بأنه بيان انتهاء الحكم الشرعى الذى تقرر فى أوهامنا استمراره بطريق التراخى . ثم قالوا توجيها لهذا الاختيار: إن فى هذا التعريف دفعا ظاهرا للبداء ، وتقريراً لكون النسخ تبديلا فى حقنا ، بيانا محضا فى حق صاحب الشرع .

(الأمر الثانى) أنهم تشبثوا بآثار نسبوها إلى أئمة طاهرين. منها أن عليا ـ كرم الله وجهه ـ كان يقول: « لولا البداء لحدثتكم بما هو كائن إلى يوم القيامة » ومنها أن جعفر الصادق رضى الله عنه قال : « ما بدا الله تعالى فى شيء كما بدا له فى إسماعيل » ومنها أن موسى بن جعفر : قال « البداء ديننا ودين آبائنا فى الجاهلية » .

وندفع هـــذا بأنها مفتريات وأكاذيب ، كان أول من حاك شباكها الكذاب الثقفى الذى كان ينتحل لنفسه العصمة وعلم الغيب ، فإذا ما افتضح أمـــره وكذبته الأيام قال : (إن الله وعدنى ذلك غير أنه بدا له) . فإذا أوجس فى نفسه خيفة من

أن يؤاخذه الناس وينتقموا منه على هـذا الـكفر الشنيع ، نسب تلك الـكفريات إلى أعلام بيت النبوة وهم منها براء . وهكذا كان اللعين وأشياعه يحتجون بكفر على كفر، ويستدلون بكذب على كذب ، ويعالجون داء بداء : « ومن يضلل الله فما له من هاد » . نسأل الله السلامة بمنه وكرمه آمين .

الفرق بين النسخ والتخصيص

قد عرفنا النسخ بأنه رفع الحـكم الشرعى بدليل شرعى . وقد عرفوا التخصيص بأنه قصر العام على بعض أفراده . وبالنظر فى هذين التعريفين نلاحظ أن هناك تشابها قويا بين المعرفـين . فالنسخ فيه مايشبه تخصيص الحـكم ببعض الأزمان والتخصيص فيه مايشبه رفع الحـكم عن بعض الأفراد . ومن هـذا التشابه وقع بعض العلماء فى الاشتباه ، فمنهم من أنكر وقوع النسخ فى الشريعة ، زاعما أن كل مانسميه نحـن نسخاً فهو تخصيص . ومنهم من أدخل صورا من التخصيص فى باب النسخ،فزاد بسبب ذلك فى عداد المنسوخات من غير موجب .

لهذا نقيم لك فروقا سبعة بين النسخ والتخصيص ، تهديك فى ظلمات هذا الاشتباه، وتعصمك من أن تتورط فيما تورط فيه سواك .

(أولها) أن العام بعد تخصيصه مجاز ، لأن مدلوله وقتئذ بعض أفراده ، مع أن لفظه موضوع للـكل ، والقرينة هى المخصص . وكل ما كان كذلك فهو مجاز . أما النص المنسوخ فما زال كما كان مستعملا فيما وضع له ، غايته أن الناسخ دل على أن إرادة الله تعلقت أزلا باستمرار هذا الحـكم إلى وقت معين ، وإن كان النص المنسوخ متناولا جميع الأزمان . ويظهر ذلك جليا فيما إذا قال الشارع مثلا : افعلوا كذا أبدا ، ثم نسخه بعد زمن قصير . فإنه لا يعقل أن يكون مدلوله ذلك الزمن القصير دون غيره ، بل هو

ما زال كما كان مستعملا فى جميع الأزمان نصا ؛ بدليل قوله : « أبدا » ، غير أن العمل بهذا النص الشامل لجميع الأزمان لفظاً قد أبطله الناسخ ؛ لأن استمرار العمل بالنص مشروط بعدم ورود ناسخ ينسخه . أيا كان ذلك النص وأيا كان ناسخه .

فإن سأل سائل : ما حكمة تأبيد النص لفظا ، بينما هو مؤقت فى علم الله أزلا ؟ أجبناه بأن حكمته ابتلاء الله لعباده : أيخضعون لحكمه مع تأبيده عليهم هذا التأبيد الظاهرى أم لا ؟ فإذا ماز الله الخبيث من الطيب ، والمطمئن إلى حكمه من المتمرد عليه ، جاء النسخ لحكمة أخرى من التخفيف ونحوه .

(ثانيها) أن حكم ماخرج بالتخصيص لم يك مرادا من العامّ أصلا، بخلاف ماخرج بالنسخ ، فإنه كان مرادا من المنسوخ لفظا .

(ثالثها) أن التخصيص لايتأتى أن يأتى على الأمر لمأمور واحد ولا على النهى لمنهىّ واحد ، أما النسخ فيمكن أن يعرض لهذا كما يعرض لغيره ، ومن ذلك نسخ بعض الأحكام الخاصة به ﷺ .

(رابعها) أن النسخ يبطل حجية المنسوخ إذا كان رافعا للحكم بالنسبة إلى جميع أفراد العامّ ، ويبقى على شىء من حجيته إذا كان رافعا للحكم عن بعض أفراد العام دون بعض . أما التخصيص فلا يبطل حجية العام أبدا ، بل العمل به قائم فيما بقى من أفراده بعد تخصيصه .

(خامسها) أن النسخ لايكون إلا بالكتاب والسنة ، بخلاف التخصيص فإنه يكون بهما وبغيرهما كدليل الحس والعقل . هذا قول الله سبحانه : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » قد خصصه قوله ﷺ : « لا قطع إلا فى ربع دينار » . وهذا قوله سبحانه : « تدمر كل شىء بأمر ربها » قد خصصه ماشهد به الحس من سلامة السماء والأرض ،

وعدم تدمير الريح لهما . وهذا قوله تعالى : « إن الله على كل شيء قدير » قد خصصه ما حكم به العقل من استحالة تعلق القدرة الإلهية بالواجب والمستحيل العقليين .

(سادسها) أن النسخ لايكون إلا بدليل متراخ عن المنسوخ أما التخصيص فيكون بالسابق واللاحق والمقارن . وقال قوم : لايكون التخصيص إلا بمقارن ، فلو تأخر عن وقت العمل بالعام كان هذا المخصص ناسخا للعام بالنسبة لما تعارضا فيه . كما إذا قال الشارع : « اقتلوا المشركين » وبعد وقت العمل به قال : « ولا تقتلوا أهل الذمة » . ووجهة نظر هؤلاء أن المقصود بالمخصص بيان المراد بالعام ، فلو تأخر وقت العمل به لزم تأخير البيان عن وقت الحاجة ، وذلك لايجوز ، فلم يبق إلا اعتباره ناسخا .

(سابعها) أن النسخ لا يقع فى الأخبار ، بخلاف التخصيص فإنه يكون فى الأخبار وفى غيرها .

النسخ بين مثبتيه ومنكريه

يذهب أهل الأديان مذاهب ثلاثة فى النسخ :

(أولها) : أنه جائز عقلا وواقع سمعا . وعليه إجماع المسلمين ، من قبل أن يظهر أبو مسلم الأصفهانى ومن شايعه . وعليه أيضا إجماع النصارى ، ولكن من قبل هذا العصر الذى خرقوا فيه إجماعهم ، وركبوا فيه رءوسهم وهو كذلك رأى العيسوية ، وهم طائفة من طوائف اليهود الثلاث .

(ثانيها) أن النسخ ممتنع عقلا وسمعا . وإليه جنح النصارى جميعا فى هذا العصر ، وتشيعوا له تشيعا ظهر فى حملاتهم المتكررة على الإسلام ؛ وفى طعنهم على هذا الدين القويم من هذا الطريق طريق النسخ . وبهذه الفرية أيضا يقول الشمعونية ، وهم طائفة ثانية من اليهود .

(ثالثها) أن النسخ جائز عقلا ممتنع سمعا . وبه تقول العنانية وهى الطائفة الثالثة من طوائف اليهود . ويعزى هذا الرأى إلى أبى مسلم الأصفهانى من المسلمين ، ولكن على اضطراب فى النقل عنه وعلى تأويل يجعل خلافه لجمهرة المسلمين شبيها بالخلاف اللفظى إلا يكنه.

ذلك إجمال لآراء المتدينين فى النسخ ، وسنفصل القول فيها بما نعرضه عليك، ففرغ له بالك ، ووجه إليه انتباهك ..ولنبدأ بتأييد المذهب الحق وعرض أدلته ، ثم لنبين حكمة الله فيه . وبعد ذلك نستعرض المذاهب الأخرى وما استندت إليه على أنها شبهات ندفعها عن عرين الحق ، وأغشية نرفعها عن وجه الصواب .

أدلة ثبوت النسخ عقلا وسمعا

لأجل أن نثبت النسخ فى مواجهة منكريه جميعا ، نقيم أدلة على جوازه العقلى، وأدلة أخرى على وقوعه السمعى .

ا ـ أدلة جواز النسخ عقلا .

أما أدلة جوازه العقلى . فأربعة إجمالا ، ولا يضير بعضها أن يكون دليلا على الجواز والوقوع معا .

(الدليل الأول) أن النسخ لامحظور فيه عقلا ، وكل ما كان كذلك جائز عقلا . أما الكبرى فمسلمة . وأما الصغرى فيختلف دليلها عند أهل السنة عن دليلها عند المعتزلة، تبعا لاختلاف الفرقتين فى أن أحكام الله تعالى يجب أن تتبع المصلحة لعباده أو لا يجب أن تتبعها .

فأهل السنة يقولون : إنه لا يجب على الله تعالى لعباده شىء ، بل هو سبحانه الفاعل المختار والكبير المتعال، وله بناء على اختياره ومشيئته، وكبريائه وعظمته ، أن يأمر عباده بما شاء ، وينهاهم عما شاء وأن يبقى من أحكامه على ما شاء ، وأن ينسخ منها ما شاء

لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه ، ولا ملزم يلزمه برعاية مصالح عباده . ولكن ليس معنى هذا أنه عابث أو مستبد أو ظالم، بل إن أحكامه وأفعاله كلها ـ جل جلاله ـ لا تخلو عن حكمة بالغة ، وعلم واسع، وتنزه عن البغى والظلم : « وما ربُّكَ بِظَلَّامٍ للعبيد » . « ولا يظلِمِ ربكَ » . « إن ربكَ عليمٌ حكيم » . « إن الله بالناس لرءوفٌ رَحِيم » .

والمعتزلة يقولون : إنه تعالى يجب أن يتبع فى أحكامه مصالح عباده، فما كان فيه مصلحة لهم أمرهم به ، وما كان فيه مضرة عليهم نهاهم عنه، وما دار بين المصلحة تارة والمفسدة أخرى، أمرهم به تارة ونهاهم عنه أخرى .

إذا تقرر هذا . فإن صغرى ذلك الدليل نستدل عليها من مذهب أهل السنة هكذا: النسخ تصرف فى التشريع من الفاعل المختار الكبير المتعال، الذى لا يجب عليه رعاية مصالح عباده فى تشريعه ، وإن كان تشريعه لا يخلو من حكمة . وكل ما كان كذلك لا محظور فيه عقلا .

وأما على مذهب أهل الاعتزال فننظم الدليل هكذا : النسخ مبنى على أن الله تعالى يعلم مصلحة عباده فى نوع من أفعالهم وقتاً ما فيأمرهم به فى ذلك الوقت ، ويعلم ضرر عباده فى هذا النوع نفسه من أفعالهم ولكن فى وقت آخر ، فينهاهم عنه فى ذلك الوقت الآخر . وكل ما كان كذلك لا محظور فيه عقلا .

وكيف يكون محظورا عقلا؟ ونحن نشاهد أن المصالح تختلف باختلاف الأشخاص . والأزمان والأحوال فالطبيب يأمر مريضه بتناول الدواء مادام مريضا، ثم ينهاه عنه إذا أبلَّ من مرضه وعاد سليما . والمربية تقدم إلى طفلها أخف الأغذية من لبن ونحوه دون غيره، فإذا ترعرع ودرج حرمت عليه المراضع ثم انتقلت به إلى غذاء غير اللبن ونحوه وهكذا تنتقل به من الخفيف إلى الثقيل ، ومن الثقيل إلى الأثقل ، تبعا لتدرجه فى مدارج القوة والنضج .

والمعلم يتعهد تلاميذه البادئين بأسهل المعلومات ، ثم يتدرج بهم من الأسهل إلى السهل ، ومن السهل إلى الصعب ، ومن الصعب إلى الأصعب، حتى يصل بهم إلى أدق النظريات ، مقتفياً فى ذلك آثار خطاهم إلى السمو الفكرى . والكمال العقلى . .

كذلك الأمم تتقلب كما يتقلب الأفراد فى أطوار شتى . فمن الحكمة فى سياستها وهدايتها أن يصاغ لها من التشريعات ما يناسب حالها فى الطور الذى تكون فيه ، حتى إذا انتقلت منه إلى طور آخر لا يناسبه ذلك التشريع الأول ، حق أن يصاغ لها تشريع آخر يتفق وهذا الطور الجديد . وإلا لاختل ما بين الحكمة والأحكام من الارتباط والإحكام ، ولم يجر تدبير الخلق على ما نشهده من الإبداع ودقة النظام ! .

وإلى هذا الدليل تشير الآية الكريمة : « ما ننسخْ من آيةٍ أو ننسها نأتِ بخيرٍ منها أو مثلِها » . فإنه يفهم منها أن كل آية يذهب بها الله تعالى على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة من إزالة لفظها أو حكمها أو كليهما معا ، إلى بدل أو إلى غير بدل ، فإنه ـ جلت حكمته ـ يأتى عباده بنوع آخر هو خير لهم من الآية الذاهبة أو مثلها . والخيرية قد تكون فى النفع وقد تكون فى الثواب ، وقد تكون فى كليهما . أما المثلية فلا تكون إلا فى الثواب فقط . وذلك لأن المماثلة فى النفع لا تتصور ، لأنه على تقدير ارتفاع الحكم الأول ، فإن المصلحة المنوط بها ذلك الحكم ترتفع ، ولا تبقى إلا مصلحة الآية المأتى بها ، فتكون خيرا من الذاهبة فى نفعها لامحالة . وإذا قدر بقاء الحكم الأول وكان النسخ للتلاوة وحدها ، فالمصلحة الأولى باقية على حالها، لم يجد غيرها حتى يكون خيرا منها أو مثلها .

(الدليل الثانى) ـ وهو دليل إلزامى للمنكرين ـ أن النسخ لو لم يكن جائزا عقلا وواقعا سمعا ، لما جوزوا أن يأمر الشارع عباده بأمر مؤقت ينتهى بانتهاء وقته ، لكنهم يجوزون هذا عقلا ويقولون بوقوعه سمعا ، فليجوزوا هذا ، لأنه لا معنى

للنسخ إلا انتهاء الحكم الأول لميقات معلوم عند الله ، بيد أنه لم يكن معلوما لنا من قبل ، ثم أعلمنا الله إياه بالنسخ . وهذا ليس بفارق مؤثر .

فقول الشارع مثلا أول يوم من رمضان ، « صوموا إلى نهاية هذا الشهر » مساو لأن يقول أول يوم من رمضان : « صوموا » من غير تقييد بغاية ، حتى إذا ما انتهى شهر رمضان قال أول يوم من شوال : « أفطروا » وهذا الأخير نسخ لا ريب فيه . وقد جوز منكروه المثال الأول،فليجوزوا هذا المثال الثانى ؛ لأنه مساويه،والمتساويان يجب أن يتحد حكمهما . وإلا لما كانا متساويين .

(الدليل الثالث) أن النسخ لو لم يكن جائزا عقلا وواقعا سمعا ، لما ثبتت رسالة سيدنا محمد ﷺ إلى الناس كافة ، لكن رسالته العامة للناس ثابتة بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة التى يطول شرحها ، إذن فالشرائع السابقة ليست باقية ، بل هى منسوخة بهذه الشريعة الختامية . وإذن فالنسخ جائز وواقع . أما ملازمة هذا الدليل فنبرهن عليها بأن النسخ لو لم يكن جائزاً وواقعا ، لكانت الشرائع الأولى باقية ولو كانت باقية ما ثبتت رسالته ﷺ إلى الناس كافة .

(الدليل الرابع) ما يأتى من أدلة الوقوع السمعى ، لأن الوقوع يستلزم الجواز وزيادة .

ب ـ أدلة وقوع النسخ سمعا :

الأدلة السمعية على وقوع النسخ نوعان : أحدهما تقوم به الحجة على منكرى النسخ من اليهود والنصارى، من غير توقف على إثبات نبوة الرسول لهم. والآخر تقوم به الحجة على من آمن بنبوته ﷺ كأبى مسلم الأصفهانى من المسلمين ، وكالعيسوية من اليهود ، فإنهم يعترفون برسالته عليه الصلاة والسلام، ولكن يقولون : إلى العرب خاصة. وهؤلاء

نلزمهم بأنهم متى سلموا برسالته وجب أن يصدقوه فى كل ما جاء به ، ومن ذلك عموم دعوته ، والنسخ الوارد فى الكتاب والسنة .

النوع الأول :

أما النوع الأول فآحاده كثيرة ، تفيض بها كتبهم الدينية ، ونحن نجتزئ منها بما يلى ، إلزاما لهم ، وإن كنا لا نؤمن بكل ما آمنوا به .

(أولا) جاء فى السفر الأول من التوراة أن الله تعالى قال لنوح عند خروجه من السفينة: « إنى جعلت كل دابة حية مأكلا لك ولذريتك، وأطلقت ذلك لكم كنبات العشب ، ماخلا الدم فلا تأكلوه » ثم اعترفوا بعد ذلك بأن الله حرم كثيرا من الدواب على أصحاب الشرائع من بعد نوح، ومنهم موسى نفسه، كما جاء فى السفر الثالث من توراتهم .

(ثانيا) جاء فى التوراة أن الله تعالى أمر آدم أن يزوج بناته من بنيه، وورد أنه كان يولد له فى كل بطن من البطون ذكر وأنثى ، فكان يزوج توأمة هذا للآخر ، ويزوج توأمة الآخر لهذا ، وهكذا ، إقامة لاختلاف البطون مقام اختلاف الآباء والأمهات والأنساب ، ثم حرم الله ذلك بإجماع المتدينين من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم .

(ثالثا) أن الله تعالى أمر إبراهيم بذبح ولده ـ عليهما السلام ـ ثم قال الله له : لا تذبحه ، وقد اعترف منكرو النسخ بذلك .

(رابعها) أن عمل الدنيا كان مباحا يوم السبت ، ومنه الاصطياد ، ثم حرم الله الاصطياد على اليهود باعترافهم .

(خامسا) أن الله أمر بنى إسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل ، ثم أمرهم برفع السيف عنهم .

(سادسا) أن الجمع بين الأختين كان مباحا فى شريعة يعقوب ، ثم حرم فى شريعة موسى ، عليهما الصلاة والسلام .

(سابعا) أن الطلاق كان مشروعا فى شرعة موسى ، ثم جاءت شريعة عيسى فحرمته إلا إذا ثبت الزنى على الزوجة .

(ثامنا) أنهم نقلوا عن عيسى فى إنجيل متى أنه قال : « لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة » فهذا يدل على أن رسالة عيسى رسالة محلية خاصة بالإسرائيليين. ثم نقلوا عن عيسى نفسه فى إنجيل مرقس أنه قال : « اذهبوا إلى العالم أجمع ، واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها » فإذا أحسنا النية بالإنجيليين كان لا مناص لنا من القول بنسخ النص الأول بالثانى ، وإلا فإن النصين يتناقضان ويتساقطان ، ويسقط بسقوطهما الإنجيلان ، بل تسقط الأناجيل كلها ، لأنها متماثلة ، وما جاز على أحد الأمثال يجوز على الآخر .

(تاسعا) أن الختان كان فريضة فى دين إبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم . ولكن الحواريين جاءوا بعد رفع عيسى فنهوا عن الختان ، كما ثبت ذلك فى رسائل الحواريين. فإما أن يكون هذا نسخا، وإما أن يكون افتراء وكذبا ، لأنه لم يؤثر عن عيسى كلمة واحدة تدل على نسخ الختان .

(عاشرا) أن أكل لحم الخنزير محرم فى اليهودية ، ومضى عهد عيسى دون أن يعرف عنه ما يدل على إباحته ، ولكن الحواريين جاءوا بعد عروج عيسى أيضا فأباحوا لحم الخنزير على زعم المسيحيين. فإما أن يكون هذ نسخا، وإما أن يكون افتراء وكذبا نحو ماسبق .

النوع الثانى :

ذلك هو النوع الأول من أدلة النسخ السمعية ، أما النوع الثانى فمنه ما يأتى :

(أولا) قوله تعالى : « ماننسخْ من آيةٍ أو نُنْسِها نأتِ بخيرٍ منها أو مثلها » .

(ثانيا) قوله تعالى : « يمحو اللهُ مايشاء ويثبت وعندهُ أم الكتابِ » وقد أسلفنا الكلام على هاتين الآيتين . ونزيدك أن دلالتهما على وقوع النسخ ملحوظ فيهما أنهما نزلتا ردا على طعن الطاعنين على الإسلام ونبي الإسلام بوقوع النسخ في الشريعة المطهرة .

(ثالثا) قوله تعالى « وإذا بدلنا آيةً مكانَ آيةٍ ـ والله أعلم بما ينزل ـ قالوا : إنما أنت مفتر . بل أكثرهم لايعلمونَ » .

ووجه الدلالة فى هذه الآية أن التبديل يتألف من رفع لأصل وإثبات لبدل، وذلك هو النسخ ؛ سواء أكان المرفوع تلاوة أم حكما .

(رابعا) قوله تعالى : فبظلم منَ الذينَ هادوا حرّمنا عليهم طيباتٍ أحلت لهمْ » .

ووجه الدلالة فيها أنها تفيد تحريم ماأحل من قبل وما ذلك إلا نسخ وكلمة « أحلت لهم » يفهم منها أن الحكم الأول كان حكما شرعيا لا براءة أصلية .

(خامسا) أن سلف الأمة أجمعوا على أن النسخ وقع فى الشريعة الإسلامية كما وقع بها .

(سادسا) أن فى القرآن آيات كثيرة نسخت أحكامها .

وهذا دليل فى طيه أدلة متعددة ، لأن كل آية من هذه الآيات المنسوخة ، تعتبر مع ناسخها دليلا كاملا على وقوع النسخ . إذ الوقوع يكفى فى إثباته وجود فرد واحد . وسنتحدث فيما بعد إن شاء الله عن هذه الآيات المنسوخة وما نسخها .

حكمة الله فى النسخ

الآن وقد عرفنا النسخ ، وفرقنا بينه وبين مايلتبس به، وأيدناه بالأدلة، يجدر بنا أن نبين حكمة الله تعالى فيه ، لأن معرفة الحكمة تريح النفس ، وتزيل اللبس ، وتعصم من الوسوسة والدس . خصوصا فى مثل موضوعنا الذى كثر منكروه، وتصيدوا لإنكاره الشبهات من هنا وهناك .

ولأجل تفصيل القول فى الحكمة نذكر أن النسخ وقع بالشريعة الإسلامية ووقع فيها على معنى أن الله نسخ بالإسلام كل دين سبقه، ونسخ بعض أحكام هذا الدين ببعض.

أما حكمته سبحانه فى أنه نسخ به الأديان كلها ، فترجع إلى أن تشريعه أكمل تشريع يفى بحاجات الإنسانية فى مرحلتها التى انتهت إليها ، بعد أن بلغت أشدها واستوت . . وبيان ذلك أن النوع الإنسانى تقلب كما يتقلب الطفل فى أدوار مختلفة . ولكل دور من هذه الأدوار حال تناسبه ، غير الحال التى تناسب دورا غيره . فالبشر أول عهدهم بالوجود ، كانوا كالوليد أول عهده بالوجود ، سذاجة وبساطة، وضعفا وجهالة، ثم أخذوا يتحولون من هذا العهد رويداً رويداً ، ومروا فى هذا التحول أو مرت عليهم أعراض متباينة ، من ضآلة العقل ، وعماية الجهل ، وطيش الشباب ، وغشم القوة . على تفاوت فى ذلك بينهم اقتضى وجود شرائع مختلفة لهم ، تبعا لهذا التفاوت . حتى إذا بلغ العالم أوان نضجه واستوائه ، وربطت مدنيته بين أقطاره وشعوبه، جاء هذا الدين الحنيف ختاماً للأديان ، ومتمما للشرائع ، وجامعاً لعناصر الحيوية ومصالح الإنسانية ومرونة القواعد ، جمعاً وفق بين مطالب الروح والجسد ، وآخى بين العلم والدين ، ونظم علاقة الإنسان بالله وبالعالم كله من أفراد وأسر وجماعات وأمم

وشعوب وحيوان ونبات وجماد . مما جعله بحق ديناً عامًا خالداً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ! .

هذا إجمال له تفاصيله التى ألمعنا إليها فى مناسبات سابقة . وسنعرض لها إن شاء الله فى مناسبات آتية .

وأما حكمة الله فى أنه نسخ بعض أحكام الإسلام ببعض ، فترجع إلى سياسة الأمة وتعهدها بما يرقيها ويمحصها . . وبيان ذلك أن الأمة الإسلامية فى بدايتها حين صدعها الرسول بدعوته ، كانت تعانى فترة انتقال شاق ، بل كان أشق ما يكون عليها فى ترك عقائدها وموروثاتها وعاداتها خصوصا مع ما هو معروف عن العرب الذى شوفهوا بالإسلام ، من التحمس لما يعتقدون أن من مفاخرهم وأمجادهم ، فلو أخذوا بهذا الدين الجديد مرة واحدة ، لأدى ذلك إلى نقيض المقصود ، ومات الإسلام فى مهده ، ولم يجد أنصارا يعتنقونه ويدافعون عنه ، لأن الطفرة من نوع المستحيل الذى لا يطيقه الإنسان . من هنا جاءت الشريعة إلى الناس تمشى على مهل ، متألفة لهم ، متلطفة فى دعوتهم متدرجة بهم إلى الكمال رويداً رويداً ، صاعدة بهم فى مدراج الرقى شيئاً فشيئاً . منتهزة فرصة الألف والمران والأحداث الجادة عليهم ، لتسير بهم من الأسهل إلى السهل ، ومن السهل إلى الصعب ، ومن الصعب إلى الأصعب ، حتى تم الأمر ونجح الإسلام نجاحا لم يعرف مثله فى سرعته وامتزاج النفوس به ، ونهضة البشرية بسببه ! .

تلك الحكمة على هذا الوجه، تتجلى فيما إذا كان الحكم الناسخ أصعب من المنسوخ، كموقف الإسلام فى سموه ونبله من مشكلة الخمر فى عرب الجاهلية بالأمس ، وقد كانت مشكلة معقدة كل التعقيد ، يحتسونها بصورة تكاد تكون إجماعية ، ويأتونها لا على أنها عادة مجردة . بل على أنها أمارة القوة ، ومظهر الفتوة وعنوان الشهامة !. فقل لى

- بربك - هل كان معقولا أن ينجح الإسلام فى فطامهم عنها ، لو لم يتألفهم ويتلطف بهم ، إلى درجة أن يمتن عليهم بها أول الأمر ، كأنه يشاركهم فى شعورهم . وإلى حد أنه أبى أن يحرمها عليهم فى وقت استعدت فيه بعض الأفكار لسمع كلمة تحريمه ، حين سألوه ﷺ : « يسألونَكَ عن الخَمْرِ والميسرِ » ؟ .

أما الحكمة فى نسخ الحكم الأصعب بما هو أسهل منه ، فالتخفيف على الناس ؛ ترفيها عنهم ، وإظهارا لفضل الله عليهم ورحمته بهم ، وفى ذلك إغراء لهم على المبالغة فى شكره وتمجيده ، وتحبيب لهم فيه وفى دينه .

وأما الحكمة فى نسخ الحكم بمساويه فى صعوبته أو سهولته ، فالابتلاء والاختبار ، ليظهر المؤمن فيفوز ، والمنافق فيهلك ليميز الخبيث من الطيب .

يبقى الكلام فى حكمة بقاء التلاوة مع نسخ الحكم ، وفى حكمة نسخ التلاوة مع بقاء الحكم .

أما حكمة بقاء التلاوة مع نسخ الحكم ؛ فتسجيل تلك الظاهرة الحكيمة ، ظاهرة سياسة الإسلام للناس ، حتى يشهدوا أنه هو الدين الحق ؛ وأن نبيه نبي الصدق ، وأن الله هو الحق المبين ، العليم الحكيم ، الرحمن الرحيم . يضاف إلى ذلك ما يكسبونه من الثواب على هذه التلاوة ، ومن الاستمتاع بما حوته تلك الآيات المنسوخة من بلاغة ، ومن قيام معجزات بيانية أو علمية أو سياسية بها .

وأما نسخ التلاوة مع بقاء الحكم ، فحكمته تظهر فى كل آية بما يناسبها . وإنه لتبدو لنا حكمة رائعة فى مثال مشهور من هذا النوع .

ذلك أنه صح فى الرواية عن عمر بن الخطاب وأبى بن كعب أنهما قالا : كان فيما أنزل من القرآن : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة » . أى كان هذا النص آية تتلى ثم نسخت تلاوتها وبقى حكمها معمولا به إلى اليوم . والسر فى ذلك أنها كانت تتلى

أولا لتقرير حكمها ، ردعاً لمن تحدثه نفسه أن يتلطخ بهذا العار الفاحش من شيوخ وشيخات . حتى إذا ما تقرر هذا الحكم فى النفوس ، نسخ الله تلاوته لحكمة أخرى ، هى الإشارة إلى شناعة هذه الفاحشة، وبشاعة صدورها من شيخ وشيخة، حيث سلكها مسلك مالا يليق أن يذكر فضلا عن أن يفعل، وسار بها فى طريق يشبه طريق المستحيل الذى لا يقع كأنه قال : نزهوا الأسماع عن سماعها ، والألسنة عن ذكرها ، فضلا عن الفرار منها ومن التلوث برجسها . « كتب الله لنا الحفظ والعصمة » إنه ولى كل نعمة وتوفيق .

شبهات المنكرين للنسخ ودفعها

نستطيع أن ننوع المنكرين للنسخ أنواعا : فنوع ينكر جوازه عقلا ووقوعه سمعا، وهم نصارى هذا العصر ، وفرقة الشمعونية من اليهود. ونوع ينكره سمعا ويجوزه عقلا، وهم العنانية من اليهود أيضاً . ونوع يجوزه عقلا ويقول بوقوعه سمعا ، بيد أنه ينكر أن الشريعة الإسلامية ناسخة لليهودية ، وهم العيسوية تمام فرق اليهود الثلاث . ونوع يجوزه عقلا وينكره سمعا ، ولكن إنكاره صورى يتأول فيه بما يجعل خلافه لجمهرة المسلمين خلافا لفظيا أو شبيها باللفظى وهو أبو مسلم الأصفهانى ومن تبعه .

فبين أيدينا إذن ــ من انفردوا بإنكار النسخ عقلا ، وهم نصارى هذا العصر وشمعونية اليهود . ومن توفقوا على إنكاره سمعا، وإن اختلفوا فى مدى هذا الإنكار وفى كيفيته ، وهم نصارى هذا العصر ، وعنانية اليهود ، والعيسويون منهم ، وأبو مسلم الأصفهانى وأتباعه من المسلمين .

ولكل من هؤلاء جميعا شبهات حسبوها أدلة وليست أدلة . كما يتبين لك ذلك فى هذا الاستعراض الجامع .

(ا) ـ شبهات المنكرين لجوازه عقلا

لا ريب أن مذهب المنكرين لجواز النسخ عقلا ، هو أخطر المذاهب وأشنعها ، وأبعدها عن الحق وأوغلها فى الباطل . ومجرد إنكاره الجواز العقلى يستلزم إنكار الوقوع الشرعى ، وهل يقع فى الوجود ما أحاله العقل ؟ لهذا نبدأ بتفنيد هذا المذهب ودفع شبهاته .

الشبهة الأولى ودفعها :

يقولون : لو جاز على الله تعالى أن ينسخ حكما من أحكامه ، لكان ذلك إما لحكمة ظهرت له كانت خافية عليه ، وإما لغير حكمة . وكل هذين باطل . أما الأول فلأنه يستلزم تجويز البداء والجهل بالعواقب على علام الغيوب ، وأما الثانى فلأنه يستلزم تجويز العبث على الحكيم العليم اللطيف الخبير . والبداء والعبث مستحيلان عليه سبحانه بالأدلة العقلية والنقلية فما أدى إليهما وهو جواز النسخ محال .

وندفع هذه الشبهة بأن نسخ الله تعالى ما شاء من أحكامه ، مبنى على حكمة كانت معلومة له أولا ، ظاهرة لم تخف عليه ولن تخفى عليه أبدا ، غاية الأمر أن مصالح العباد تتجدد بتجدد الأزمان ، وتختلف باختلاف الأشخاص والأحوال ، وأسراره وحكمه سبحانه لا تتناهى ، ولا يحيط بها سواه . فإذا نسخ حكما بحكم ، لم يخل هذا الحكم الثانى من حكمة جديدة غير حكمة الحكم الأول ، هى مصلحة جديدة للعباد فى الحكم الجديد ، أو هى غير تلك . وسبحان من أحاط بكل شىء علما . وإذن فلا يستلزم نسخ الله لأحكامه بداء ولا عبثا .

ولكن هؤلاء الجاحدين غفلوا أو تغافلوا عن هذا ، حتى جاء الترديد فى شبهتهم ناقصا لم يستوف وجوه الاحتمالات كما ترى . ولو استوفوه لقالوا : النسخ إما أن يكون لحكمة ظهرت لله كانت خافية عليه ، أو لحكمة كانت معلومة له لم تكن خافية عليه ، أو لغير

حكمة . وأكبر الظن أنهم لم يفطنوا إلى هذا ، ولو فطنوا له ما اشتبهوا ولو اشتبهوا بعد فطنتهم له لاخترنا الشق الثانى من هذا الترديد ، ثم أيدناه بتوافر أدلة العقل والنقل عليه كما قررنا .

الشبهة الثانية ودفعها :

يقولون : لو جاز على الله تعالى أن ينسخ حكما بحكم ، للزم على ذلك أحد باطلين : جهله جل وعلا ، وتحصيل الحاصل . وبيان ذلك أن الله تعالى إما أن يكون قد علم الحكم الأول المنسوخ على أنه مؤبد ، وإما أن يكون قد علمه على أنه مؤقت . فإن كان قد علمه على أنه مستمر إلى الأبد ثم نسخه وصيره غير مستمر ، انقلب علمه جهلا والجهل عليه تعالى محال . وإن كان قد علمه على أنه مؤقت بوقت معين ثم نسخه عند ذلك الوقت ، ورد عليه أن المؤقت ينتهى بمجرد انتهاء وقته ، فإنهاؤه بالنسخ تحصيل للحاصل ، وهو باطل .

وندفع هذه الشبهة: بأن الله تعالى قد سبق فى علمه أن الحكم المنسوخ مؤقت لا مؤبد ، ولكنه علم بجانب ذلك أن تأقيته إنما هو بورود الناسخ لا بشىء آخر كالتقييد بغاية فى دليل الحكم الأول ، وإذن فعلمه بانتهائه بالناسخ لا يمنع النسخ بل يوجبه، وورود الناسخ محقق لما فى علمه لا مخالف له . شأنه تعالى فى الأسباب ومسبباتها ، وقد تعلق علمه بها كلها . ولا تنس ماقررناه ثمة من أن النسخ بيان بالنسبة إلى الله ، رفع بالنسبة إلينا .

الشبهة الثالثة ودفعها :

يقولون : لو جاز النسخ للزم أحد باطلين: تحصيل الحاصل ، وما هو فى معناه. وبيان ذلك أن الحكم المنسوخ إما أن يكون دليله قد غياه بغاية ينتهى عندها، أو يكون قد أبده نصا : فإن كان قد غياه بغاية فإنه ينتهى بمجرد وجود هذه الغاية ، وإذن لا سبيل إلى إنهائه بالنسخ ، وإلا لزم تحصيل الحاصل . وإن كان دليل الحكم الأول قد نص على تأبيده ثم جاء الناسخ على رغم هذا التأبيد ، لزم المحال من وجوه ثلاثة :

(أولها) التناقض ، لأن التأبيد يقتضى بقاء الحكم . ولا ريب أن النسخ ينافيه :

(ثانيها) تعذر إفادة التأبيد من الله للناس ، لأن كل نص يمكن أن يفيده تبطل إفادته باحتمال نسخه ، وذلك يفضى إلى القول بعجز الله وعِيِّه عن بيان التأبيد لعباده فيما أبده لهم . تعالى الله عن ذلك .

(ثالثها) استلزام ذلك لجواز نسخ الشريعة الإسلامية مع أنها باقية إلى يوم القيامة عند القائلين بالنسخ .

وندفع هذه الشبهة (أولا) بأن حصر الحكم المنسوخ فى هذين الوجهين اللذين ذكرهما المانع ، غير صحيح ، لأن الحكم المنسوخ يجوز ألّا يكون مؤقتاً ولا مؤبداً ، بل يجىء مطلقا عن التأقيت وعن التأبيد كليهما . وعليه فلا يستلزم طرو النسخ عليه شيئاً من المحالات التى ذكروها وإطلاق هذا الحكم كاف فى صحة نسخه ، لأنه يدل على الاستمرار بحسب الظاهر ، وإن لم يعرض له النص .

(ثانيا) أن ماذكروه من امتناع نسخ الحكم المؤبد غير صحيح أيضا ، وما استندوا إليه منقوض بوجوه ثلاثة :

(أولها) أن استدلالهم بأنه يؤدى إلى التناقض ، مدفوع بأن الخطابات الشرعية مقيدة من أول الأمر بألا يرد ناسخ ، كما أنها مقيدة بأهلية المكلف للتكليف وألا يطرأ عليه جنون أو غفلة أو موت . وإذن فمجىء الناسخ لا يفضى إلى تناقض بينه وبين المنسوخ بحال .

(ثانيها) أن استدلالهم بأنه يؤدى إلى أن يتعذر على الله بيان التأبيد لعباده ، مدفوع بأن التأبيد يفهمه الناس بسهولة من مجرد خطابات الله الشرعية المشتملة على التأبيد ، وهو مايشعر به كل واحد منا ، وذلك لأن الأصل بقاء الحكم الأول وما اتصل به من تأقيت

أو تأبيد ، وطرو الناسخ احتمال مرجوح : واستصحاب الأصل أمر يميل إليه الطبع ، كما يؤيده العقل والشرع .

(ثالثها) أن جواز نسخ الشريعة الإسلامية إن لزمنا معاشر القائلين بالنسخ -فإنه يلزمنا على اعتبار أنه احتمال عقلى لا شرعى، بدليل أننا نتكلم فى الجواز العقلى لا الشرعى. أما نسخ الشريعة الإسلامية بغيرها من الناحية الشرعية فهو من المحالات الظاهرة، لتضافر الأدلة على أن الإسلام دين عام خالد . ولا يضير المحال فى حكم الشرع ، أن يكون من قبيل الجائز فى حكم العقل .

الشبهة الرابعة ودفعها :

يقولون : إن النسخ يستلزم اجتماع الضدين، واجتماعهما محال . و بيان ذلك أن الأمر بالشىء يقتضى أنه حسن وطاعة ومحبوب لله ، والنهى عنه يقتضى أنه قبيح ومعصية ومكروه له تعالى. فلو أمر الله بالشىء ثم نهى عنه، أو نهى عن الشىء ثم أمر به ، لاجتمعت هذه الصفات المتضادة فى الفعل الواحد الذى تعلق به الأمر والنهى.

وندفع هذه الشبهة بأن الحسن والقبح وما اتصل بهما، ليست من صفات الفعل الذاتية حتى تكون ثابتة فيها لا تتغير : بل هى تابعة لتعلق أمر الله ونهيه بالفعل . وعلى هذا يكون الفعل حسنا وطاعة ومحبوبا لله مادام مأمورا به من الله ، ثم يكون هـذا الفعل نفسه قبيحا ومعصية ومكروها له تعالى مادام منهيا عنه منه تعالى. والقائلون بالحسن والقبح العقليين من المعتزلة ، يقرون بأنهما يختلفان باختلاف الأشخاص والأوقات والأحوال. وبهذا التوجيه ينتفى اجتماع الضدين ،لأن الوقت الذى يكون فيه الفعل حسنا ، غير الوقت الذى يكون فيه ذلك الفعل قبيحا، فلم يجتمع الحسن والقبح فى وقت واحد على فعل واحد.

ب شبهات المنكرين للنسخ سمعا

لقد نوعنا هؤلاء فيما سبق إلى أنواع. وقلنا: إن لكل منهم طريقة خاصة فى تكييف دعواه وفى صياغة شبهته . وها هى ذى دعاويهم وشبهاتهم تلقى حتفها بين يديك ، فيما نسوقه إليك .

١ ـ شبهة العنانية والشمعونية :

يقولون: إن التوراة التى أنزلها الله على موسى، لم تزل محفوظة لدينا ، منقولة بالتواتر فيما بيننا ، وقد جاء فيها : « هذه شريعة مؤبدة مادامت السموات والأرض » وجاء فيها أيضا : « الزموا يوم السبت أبدا » . وذلك يفيد امتناع النسخ ، لأن نسخ شىء من أحكام التوراة لاسيما تعظيم يوم السبت ، إبطال لما هو من عنده تعالى .

وندفع هذه الشبهة بوجوه خمسة :

(أولها) أن شبهتهم هذه أقصر من مدعاهم قصوراً بيِّنا، لأن قصارى ماتقتضيه ـ إن سلمت ـ هو امتناع نسخ شريعة موسى عليه السلام بشريعة أخرى : أما تناسخ شرائع سواها ، فلا تدل هـذه الشبهة على امتناعه . بل يبعد أن ينكر اليهود انتساخ شرائع الإسرائيليين قبل اليهودية بشريعة موسى . فكان المنظور أن تجىء دعواهم أقصر مما هو محكى عنهم بحيث تتكافأ ودليلهم الذى زعموه أو أن يجىء دليلهم الذى زعموه أعم من هذا حتى يتكافأ ودعواهم التى ادعوها .

(ثانيها) أنا لا نسلم لهم مازعموه من أن التوراة لم تزل محفوظة فى أيديهم حتى يصح

استدلالهم بها . بل الأدلة متضافرة على أن التوراة الصحيحة لم يعد لها وجود، وأنه أصابها من التغيير والتبديل ما جعلها في خبر كان .

من تلك الأدلة أن نسخة التوراة التي بأيدي السامريين . تزيد في عمر الدنيا نحواً من ألف سنة على ما جاء في نسخة العنانيين . وأن نسخة النصارى تزيد ألفا وثلاثمائة سنة .

ومنها أنه جاء في بعض نسخ التوراة ما يفيد أن نوحا أدرك جميع آبائه إلى آدم. وأنه أدرك من عهد آدم نحوا من مائتي سنة. وجاء في بعض نسخ أخرى ما يفيد أن نوحا أدرك من عمر إبراهيم ثمانيا وخمسين سنة . وكل هذا باطل تاريخيا . .

ومنها أن نسخ التوراة التي بأيديهم تحكي عن الله وعن أنبيائه وملائكته أمورا ينكرها العقل . ويمجها الطبع . ويتأذى بها السمع مما يستحيل معه أن يكون هذا الكتاب صادرا عن نفس بشرية مؤمنة طاهرة فضلا عن أن ينسب إلى ولي، فضلا عن أن ينسب إلى نبي ، فضلا عن أن ينسب إلى الله رب العالمين .

من ذلك أن الله ندم على إرسال الطوفان إلى العالم ، وأنه بكى حتى رمدت عيناه، وأن يعقوب صارعه ! جل الله عن ذلك كله .

ومن ذلك أن لوطا شرب الخمر حتى ثمل وزنى بابنتيه ! .

ومنه أن هارون هو الذي اتخذ العجل لبني إسرائيل ودعاهم إلى عبادته من دون الله .

ومن الأدلة أيضا على فساد دعوى بقاء التوراة وحفظها، ما ثبت بالتواتر عند المؤرخين بل عند اليهود أنفسهم ، من أن بني إسرائيل . وهم حملة التوراة وحفاظها . قد ارتدوا عن الدين مرات كثيرة ، وعبدوا الأصنام ، وقتلوا أنبياءهم شر تقتيل. ولا ريب أن هذه

مطاعن شنيعة جارحة ، لاتبقى لأى واحد منهم أى نصيب من عدالة أو ثقة ، ولا تحمل لهذه النسخ التى زعموا أنها التوراة أقل شىء من القيمة أو الصحة ، ما داموا هم رواتها وحفاظها ، وما دامت هى لم تعرف إلا عن طريقهم و بروايتهم .

(ثالثها) أن هذا التواتر الذى خلعوه على التوراة لا يسلم لهم أيضا لأنها لو كانت متواترة لحجّوا بها أفضل الرسل ﷺ ،ولعارضوا دعواه عموم رسالته بقول التوراة التى يؤمن بها ولا يجحدها ، بل يجهر بأنه جاء مصدقا لها ؛ ويدعو المسلمين أنفسهم إلى الإيمان بها . ولكن ذلك لم يكن . ولو كان لنقل واشتهر . بل الذى نقل واشتهر هو أن كثيرا من أحبار اليهود وعلمائهم كعبد الله بن سلام وأضرابه ،قد ألقوا القياد لرسول الله مؤمنين ودنوا لشريعته مسلمين واعترفوا بأنه الرسول الذى بشرت به التوراة والإنجيل .

(رابعها) أن لفظ التأبيد الذى اعتمدوا عليه فيما نقلوه لا يصلح حجة لهم ، لأنه يستعمل كثيراً عند اليهود معدولا به عن حقيقته . من ذلك ماجاء فى البقرة التى أمروا بذبحها : « هذه سنة لكم أبدا » وما جاء فى القربان : « قربوا كل يوم خروفين قربانا دائما » مع أن هذين الحكمين منسوخان باعتراف اليهود أنفسهم، على رغم التصريح فيهما بما يفيد التأبيد كما ترى .

(خامسها) أن نسخ الحكم المؤبد لفظا جائز على الصحيح ، كما أشرنا إلى ذلك قبلا . فلتكن هاتان العبارتان اللتان اعتمدوا عليهما منسوختين أيضا. وشبهة التناقض تندفع بأن التأبيد مشروط بعدم ورود ناسخ ، فإذا ورد الناسخ انتفى ذلك التأبيد ، وتبين أنه كان مجرد تأبيد لفظى للابتلاء والاختبار فتأمل .

٢ ـ شبهة النصارى :

يقولون : إن المسيح عليه السلام قال : « السماء والأرض تزولان وكلامى لا يزول » . وهذا يدل على امتناع النسخ سمعا .

وندفع هذه الشبهة (أولا) بأنا لا نسلم أن الكتاب الذى بأيديهم هو الإنجيل الذى نزل على عيسى ، إن هو إلا قصة تاريخية وضعها بعض المسيحيين ، يبين فيها حياة المسيح وولادته ونشأته ودعوته . والأماكن التى تنقل فيها ،والآيات التى ظهرت على يديه ، ومواعظه ومناظراته . كما يتحدث فيها عن ذلك الحادث الخيالى حادث الصلب . وعلى رغم أنها قصة فقد عجزوا عن إقامة الدليل على صحتها وعدالة كاتبها وأمانته وضبطه ، كما أعياهم اتصال السند وسلامته من الشذوذ والعلة . بل ثبت علميا تناقض نسخ هذه القصة التى أسموها الإنجيل ، مما يدل على أنها ليست من عند الله ولو كانت من عند الله ما أتاها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . وصدق الله فى قوله عن القرآن : « ولو كانَ منْ عندِ غيرِاللهِ لوجدوا فيهِ اختلافاً كثيراً » .

(ثانيا) أن سياق هذه الكلمة فى إنجيلهم ، يدل على أن مراده بها تأييد تنبؤاته ، وتأكيد أنها ستقع لا محالة ، أما النسخ فلا صلة لها به نفيا ولا إثباتا . وذلك لأن المسيح حدث أصحابه بأمور مستقبلة ، وبعد أن انتهى من حديثه هذا أتى بهذه الجملة التى تشبثوا بها : « السماء والأرض تزولان وكلامى لا يزول » . ولا ريب أن لسياق الكلام تأثيره فى المراد منه . وهكذا شرحها المفسرون منهم للإنجيل وقالوا : إن فهمها على عمومها لا يتفق وتصريح المسيح بأحكام ، ثم تصريحه بما يخالفها . من ذلك أنه قال لأصحابه ـ كما جاء فى إنجيل متى ـ « إلى طريق أمم لا تمضوا، ومدينةللسامريين لا تدخلوا. بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة » وهذا اعتراف بخصوص رسالته لبنى إسرائيل . ثم قال مرة أخرى ـ كما فى إنجيل مرقس ـ :

« اذهبوا إلى العالم أجمع . واكرزوا بالإنجيل للخليقة » . فالقول الثانى ناسخ للأول .

(ثالثا) أن هذه الجملة على تسليم صحتها وصحة رواتها وكتابها الذى جاءت فيه . لا تدل على امتناع النسخ مطلقا . إنما تدل على امتناع نسخ شىء من شريعة المسيح فقط فشبهتهم على ما فيها قاصرة قصورا بينا عن مدعاهم .

٣ ـ شبهة العيسوية :

يقول هؤلاء اليهود أتباع أبى عيسى الأصفهانى : لا سبيل إلى إنكار نبوة محمد ﷺ ، لأن الله تعالى قد أيده بالمعجزات الكثيرة القاهرة ، ولأن التوراة قد بشرت بمجيئه ، ولا سبيل أيضاً إلى القول بعموم رسالته ، لأن ذلك يؤدى إلى انتساخ شريعة إسرائيل بشريعته ، وشريعة إسرائيل مؤبدة ، بدليل ما جاء فى التوراة من مثل: «هذه شريعة مؤبدة عليكم ما دامت السموات والأرض» وإنما هو رسول إلى العرب خاصة . وعلى هذا فالخلاف بينهم وبين من سبقهم ، أن دعواهم مقصورة على منع انتساخ شريعة موسى بشريعة محمد ﷺ . وشبهتهم التى ساقوها متكافئة مع دعواهم هذه ، ويفهم من اقتصارهم على هذا أنهم يجوزون أن تتناسخ الشرائع سمعا ، فيما عدا هذه الصورة .

وندفع شبهتهم هذه بأمرين :

(أولهما) أن دليلهم الذى زعموه ، هو دليل العنانية والشمعونية من قبلهم ، ولقد أشبعناه تزييفا وتوهينا ، بالوجوه الستة التى أسلفناها آنفا . فالدفع هنا هو عين الدفع هناك ، فيما عدا الوجه الأول .

(ثانيهما) أن اعترافهم بأن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول أيده الله بالمعجزات وجاءت البشارة به فى التوراة ، يقضى عليهم لا محالة أن يصدقوه فى كل ما جاء به ، ومن ذلك أن رسالته عامة ، وأنها ناسخة للشرائع قبله ، حتى شريعة موسى نفسه ، الذى قال فيه صلى الله عليه وسلم بخصوصه : « لو كانَ أخى موسى حيا ماوسعه إلا اتباعى » .

أما أن يؤمنوا برسالته ، ثم لا يصدقوه فى عموم دعوته ، فذلك تناقض منهم لأنفسهم، ومكابرة للحجة الظاهرة لهم ،« يجادلونك فى الحق بعد ماتبين ، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون » ا .

٤ ـ شبهة أبى مسلم :

النقل عن أبى مسلم مضطرب ، فمن قائل : إنه يمنع وقوع النسخ سمعا على الإطلاق . ومن قائل : إنه ينكر وقوعه فى شريعة واحدة . ومن قائل : إنه ينكر وقوعه فى القرآن خاصة . ورجحت هذه الرواية الأخيرة بأنها أصح الروايات، وبأن التأويلات المنقولة عنه لم تخرج عن حدود ما نسخ من القرآن . وأبعد الروايات عن الرجل هى الرواية الأولى ، لأنه لا يعقل أن مسلما فضلا عن عالم كأبى مسلم ينكر وقوع النسخ جملة اللهم إلا إذا كانت المسألة ترجع إلى التسمية فقط ، فإنها تهون حينئذ ، على معنى أن ما نسميه نحن نسخا، يسميه هو تخصيصا بالزمان مثلا . وإلى ذلك ذهب بعض المحققين ؛ قال التاج السبكي: إن أبا مسلم لا ينكر وقوع المعنى الذى نسميه نحن نسخا، ولكنه يتحاشى أن يسميه باسمه. ويسميه تخصيصا ا ه .

احتج أبو مسلم بقوله سبحانه « لا يأتيهِ الباطلُ من بينِ يديهِ ولا من خلفهِ تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ » . وشبهته فى الاستدلال أن هذه الآية تفيد أن أحكام القرآن لا تبطل أبدا . والنسخ فيه إبطال لحكم سابق .

وندفع مذهب أبى مسلم وشبهته بأمور أربعة :

(أولها) أنه لو كان معنى الباطل فى الآية هو متروك العمل به مع بقاء قرآنيته ، لكان دليله قاصرا عن مدعاه ، لأن الآية لا تفيد حينئذ إلا امتناع نوع خاص من النسخ

وهو نسخ الحكم دون التلاوة ، فإنه وحده هو الذى يترتب عليه وجود متروك العمل فى القرآن . أما نسخ التلاوة مع الحكم أو مع بقائه ، فلا تدل الآية على امتناعه بهذا التأويل .

(ثانيها) أن معنى الباطل فى الآية ماخالف الحق ، والنسخ حق . ومعنى الآية أن عقائد القرآن موافقة للعقل ، وأحكامه مسايرة للحكمة ، وأخباره مطابقة للواقع ألفاظه محفوظة من التغيير والتبديل ، ولا يمكن أن يتطرق إلى ساحته الخطأ بأى حال ، « إنا نحنُ نزلنا الذكرَ ، وإنا له لحافظونَ » . « وبالحقِّ أنزلناهُ وبالحقِّ نزلَ » .

ولعلك تدرك معى أن تفسير الآية بهذا المعنى ، يجعلها أقرب إلى إثبات النسخ ووقوعه ، منها إلى نفيه وامتناعه ، لأن النسخ ـ كما قررنا ـ تصرف إلهى حكيم ، تقتضيه الحكمة ، وترتبط به المصلحة .

(ثالثها) أن أبا مسلم على فرض أنّ خلافه مع الجمهور لفظى لا يعدو حدود التسمية ، نأخذ عليه أنه أساء الأدب مع الله ، فى تحمسه لرأى قائم على تحاشى لفظ اختاره ـ جلت حكمته ـ ودفع عن معناه بمثل قوله : ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » . وهل بعد اختيار الله اختيار ؟ وهل بعد تعبير القرآن تعبير ؟ « سبحانك لا عِلمَ لنا إلا ما علّمتنا . إنّكَ أنتَ العليمُ الحكيمُ » .

(رابعها) أن هناك فروقا بين النسخ والتخصيص ، وقد فصلناها فيما سبق ، فارجع إليها إن شئت ، حتى تعلم شطط صاحبنا فيما ذهبَ إليه . جنبنا الله الشطط وطريق العوج .

ملاحظة

تشيع لأبى مسلم بعض الباحثين من قدامى ومحدثين ، وحطبوا فى حبله قليلا أو كثيرا . وذاعت شبهات حديثة فاسدة حول تشريع الإسلام للنسخ ، ولكنها لا تخرج عند

الإمعان عن نطاق الشبهات الآنفة التي دحضناها. لهذا نكتفي بما ذكرناه عما لم نذكره، فرارا من التكرار وتجنبا لإثارة الخصام، وحبا في الوصول إلى الحقيقة بسلام.

طرق معرفة النسخ

لا بد في تحقق النسخ - كما علمت - من ورود دليلين عن الشارع، وهما متعارضان تعارضا حقيقيا، لا سبيل إلى تلافيه بإمكان الجمع بينهما على أي وجه من وجوه التأويل. وحينئذ فلا مناص من أن نعتبر أحدهما ناسخا والآخر منسوخا، دفعا للتناقض في كلام الشارع الحكيم. ولكن أي الدليلين يتعين أن يكون ناسخا، وأيهما يتعين أن يكون منسوخا؟ هذا ما لا يجوز الحكم فيه بالهوى والشهوة. بل لا بد من دليل صحيح يقوم على أن أحدهما متأخر عن الآخر. وإذن فيكون السابق هو المنسوخ، واللاحق هو الناسخ. ولنا إلى هذا الدليل مسالك ثلاثة:

(أولها) أن يكون في أحد النصين ما يدل على تعيين المتأخر منهما، نحو قوله تعالى: «أأشفقتم أن تُقدِّموا بين يدَيْ نجواكم صدقاتٍ، فإذ لم تفعلوا وتابَ اللهُ عليكم فأقيموا الصلَاة وآتوا الزكاة وأطيعوا اللهَ ورسولَهُ واللهُ خبيرٌ بما تعملونَ». ونحو قوله: «الآن خففَ الله عنكم وعَلِم أنَّ فيكم ضعفاً، فإن يكن منكم مائةٌ صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكنْ منكم ألفٌ يغلبوا ألفينِ بإذن اللهِ، واللهُ معَ الصَّابرين». ونحو قوله ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها، ولا تقولوا هجرا».

(ثانيها) أن ينعقد إجماع من الأمة في أي عصر من عصورها على تعيين المتقدم من النصين والمتأخر منهما.

(ثالثها) أن يرد من طريق صحيحة عن أحد من الصحابة ما يفيد تعيين أحد النصين المتعارضين للسبق على الآخر أو التراخي عنه. كأن يقول: نزلت هذه الآية بعد تلك الآية،

أو نزلت هذه الآية قبل تلك الآية أو يقول : نزلت هذه عام كذا ، وكان معروفا سبق نزول الآية التى تعارضها أو كان معروفا تأخرها عنها .

أما قول الصحابى : هذا ناسخ وذاك منسوخ ، فلا ينهض دليلا على النسخ ، لجواز أن يكون الصحابى صادرا فى ذلك عن اجتهاد أخطأ فيه فلم يصب فيه عين السابق ولا عين اللاحق خلافا لابن الحصار . . . وكذلك لا يعتمد فى معرفة الناسخ والمنسوخ على المسالك الآتية :

١ ـ اجتهاد المجتهد من غير سند ، لأن اجتهاده ليس بحجة .

٢ ـ قول المفسر هذا ناسخ أو منسوخ من غير دليل ، لأن كلامه ليس بدليل .

٣ ـ ثبوت أحد النصين قبل الآخر فى المصحف ، لأن ترتيب المصحف ليس على ترتيب النزول .

٤ ـ أن يكون أحد الراويين من أحداث الصحابة دون الراوى للنص الآخر ، فلا يحكم بتأخر حديث الصغير عن حديث الكبير . لجواز أن يكون الصغير قد روى المنسوخ عمن تقدمت صحبته ، ولجواز أن يسمع الكبير الناسخ من الرسول ﷺ بعد أن يسمع الصغير منه المنسوخ ، إما إحالة على زمن مضى ، وإما لتأخر تشريع الناسخ والمنسوخ كليهما .

٥ ـ أن يكون أحد الراويين أسلم قبل الآخر فلا يحكم بأن ما رواه سابق الإسلام منسوخ ، وما رواه المتأخر عنه ناسخ ، لجواز أن يكون الواقع عكس ذلك .

٦ ـ أن يكون أحد الراويين قد انقطعت صحبته ، لجواز أن يكون حديث من بقيت صحبته سابقا حديث من انقطعت صحبته .

٧ ـ أن يكون أحد النصين موافقا للبراءة الأصلية دون الآخر ، فربما يتوهم أن الموافق لها هو السابق ، والمتأخر عنها هو اللاحق ، مع أن ذلك غير لازم ، لأنه لا مانع من تقدم ما خالف البراءة الأصلية على ما وافقها. مثال ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « لا وضوء مما مست

النار » فإنه لا يلزم أن يكون سابقا على الخبر الوارد بإيجاب الوضوء مما مست النار، ولا يخلو وقوع هذا من حكمة عظيمة ، هى تخفيف الله عن عباده بعد أن ابتلاهم بالتشديد .

قانون التعارض :

وعلى ذكر التعارض فى هذا الباب، نبين لك أن النصين المتعارضين إما أن يتفقا فى أنهما قطعيان أو ظنيان ، وإما أن يختلفا فيكون أحدهما قطعيا والآخر ظنيا. أما المختلفان فلا نسخ بينهما ، لأن القطعى أقوى من الظنى ، فيؤخذ به، وما كان اليقين ليترك بالظن. وأما المتفقان فإن علم تأخر أحدهما بطريق من تلك الطرق الثلاث المعتمدة ، فهو الناسخ والآخر المنسوخ . وإن لم يدل عليه واحد منها وجب التوقف . وقيل يتخير الناظر بين العمل بهما .

هذا كله إذا لم يمكن الجمع بين النصين بوجه من وجوه التخصيص والتأويل. وإلا وجب الجمع ، لأن إعمال الدليلين أولى من إعمال دليل وإهدار آخر ، ولأن الأصل فى الأحكام بقاؤها وعدم نسخها فلا ينبغى أن يترك استصحاب هذا الأصل إلا بدليل بيِّن.

ما يتناوله النسخ

إن تعريف النسخ بأنه رفع حكم شرعى بدليل شرعى ، يفيد فى وضوح أن النسخ لا يكون إلا فى الأحكام . وذلك موضع اتفاق بين القائلين بالنسخ ، لكن فى خصوص ما كان من فروع العبادات والمعاملات. أما غير هذه الفروع من العقائد وأمهات الأخلاق وأصول العبادات والمعاملات ومدلولات الأخبار المحضة ، فلا نسخ فيها على الرأى السديد الذى عليه جمهور العلماء .

أما العقائد فلأنها حقائق صحيحة ثابتة لا تقبل التغيير والتبديل ، فبدهى ألا يتعلق بها نسخ .

وأما أمهات الأخلاق فلأن حكمة الله فى شرعها ، ومصلحة الناس فى التخلق بها .

أمر ظاهر لا يتأثر بمرور الزمن ، ولا يختلف باختلاف الأشخاص والأمم، حتى يتناولها النسخ بالتبديل والتغيير .

وأما أصول العبادات والمعاملات فلوضوح حاجة الخلق إليهما باستمرار، لتزكية النفوس وتطهيرها ولتنظيم علاقة المخلوق بالخالق والخلق على أساسهما فلا يظهر وجه من وجوه الحكمة فى رفعها بالنسخ .

وأما مدلولات الأخبار المحضة فلأن نسخها يؤدى إلى كذب الشارع فى أحد خبريه الناسخ والمنسوخ . وهو محال عقلا ونقلا . أما عقلا فلأن الكذب نقص، والنقص عليه تعالى محال . وأما نقلا فلمثل قوله سبحانه : « ومن أصدقُ من اللهِ قيلاً » « ومن أصدقُ من اللهِ حديثاً » .

نعم إن نسخ لفظ الخبر دون مدلوله جائز بإجماع من قالوا بالنسخ ولذلك صورتان: إحداهما أن تنزل الآية مخبرة عن شىء ثم تنسخ تلاوتها فقط والأخرى أن يأمرنا الشارع بالتحدث عن شىء ثم ينهانا أن نتحدث به .

وأما الخبر الذى ليس محضا. بأن كان فى معنى الإنشاء ،ودل على أمر أو نهى متصلين بأحكام فرعية عملية ، فلا نزاع فى جواز نسخه والنسخ به ، لأن العبرة بالمعنى لا باللفظ .

مثال الخبر بمعنى الأمر قوله تعالى: « تَزْرَعونَ سبعَ سِنينَ دَأَباً » فإن معناه ازرعوا.

ومثال الخبر بمعنى النهى قوله سبحانه : « الزّانى لاينكحُ إلا زانيةً أو مُشركة ، والزانية لا ينكِحُها إلا زَانٍ أو مشرك » فإن معناه لا تنكحوا مشركة ولا زانية (بفتح التاء) ولا تنكحوهما (بضم التاء) ، لكن على بعض وجوه الاحتمالات دون بعض .

والفرق بين أصول العبادات والمعاملات وبين فروعها ، أن فروعها هى ما تعلق بالهيئات والأشكال والأمكنة والأزمنة والعدد ، أو هى كمياتها وكيفياتها. وأما أصولها فهى ذوات العبادات والمعاملات بقطع النظر عن الكم والكيف .

واعلم أن ماقررناه هنا من قصر النسخ على ما كان من قبيل الأحكام الفرعية العلمية دون سواها ، هو الرأى السائد الذى ترتاح إليه النفس ويؤيده الدليل ، وقد نازع فى ذلك قوم لا وجه لهم ، فلنضرب عن كلامهم صفحا :

« وليس كل خلاف جاء معتبرا إلا خلاف له حظ من النظر »

ويتصل بما ذكرنا أن الأديان الإلهية لاتناسخ بينها فيما بيناه من الأمور التى لا يتناولها النسخ . بل هى متحدة فى العقائد وأمهات الأخلاق وأصول العبادات والمعاملات وفى صدق الأخبار المحضة فيها صدقاً لا يقبل النسخ والنقض .وإن شئت أدلة فهاك مايأتى من القرآن الكريم : -

١ - « شَرعَ لكم منَ الدِّينِ ماوصَّى به نوحاً والذى أوحينا إليكَ وما وصَّينا به إبراهيمَ ومُوسَى وعيسَى أن أقيموا الدِّين ولا تتفرَّقُوا فيهِ » .

٢ - « وما أرسلنا من قبلكَ من رسولٍ إلا نُوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » .

٣ - « يأيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم الصيامُ كما كُتِبَ على الذين من قبلكم » .

٤ - « وأذِّن فى الناسِ بالحج يأتوكَ رِجالاً وعلى كلِّ ضامرٍ يأتينَ من كل فجٍّ عميقٍ » .

٥ - « واتلُ عليهم نبأَ ابنى آدم بالحق إذ قرَّبا قُرْباناً، فتُقُبِّلَ من أحدهما ولم يُتَقَبل من الآخر قال : لأقتلَنَّكَ قال : إنما يتقبلُ اللهُ من المتقين » .

٦ - « وكتبنا عليهم فيها أن النَّفْسَ بالنَّفْسِ ، والعينَ بالعينِ ، والأنفَ بالأنفِ ، والأذُنَ بالأذنِ والسنَّ بالسنِّ ، والجروحَ قصاصٌ » .

٧ - « كل الطعام كان حِلًّا لبنى إسرائيلَ إلا ما حرَّم إسرائيلُ على نفسه من قبل أن تنزل التوراةُ » .

٨ - « إنى أريدُ أن أنكحكَ إحدى ابنتيَّ هاتَيْنِ على أن تأْجُـرَنى ثمانى حِجَجٍ » .

٩ - « فبظلم من الذين هادوا حرَّمنا عليها طيبات أُحلَّت لهم » .

١٠ - « وإذ قال لقمانُ لابنهِ وهو يَعِظُه : يابنىَّ لاتُشْرِكْ باللهِ » إلى آخر ماجاء فى قصة لقمان .

أنواع النسخ فى القرآن

النسخ الواقع فى القرآن، يتنوع إلى أنواع ثلاثة: نسخ التلاوة والحكم معا ، ونسخ الحكم ، دون التلاوة ، ونسخ التلاوة دون الحكم .

(١) أما نسخ الحكم والتلاوة جميعا ، فقد أجمع عليه القائلون بالنسخ من المسلمين ويدل على وقوعه سمعا ما ورد عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « كان فيما أنزل من القرآن : عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نسخن بخمس معلومات . وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن فيما يقرأ من القرآن » . وهو حديث صحيح . وإذا كان موقوفا على عائشة رضى الله عنها فإن له حكم المرفوع ، لأن مثله لا يقال بالرأى ، بل لابد فيه من توقيف . وأنت خبير بأن جملة : عشر رضعات معلومات يحرمن ، ليس لها وجود فى المصحف حتى تتلى ، وليس العمل بما تفيده من الحكم باقيا ، وإذن يثبت وقوع نسخ التلاوة والحكم جميعا. وإذا ثبت وقوعه ثبت جوازه ؛ لأن الوقوع أول دليل على الجواز. وبطل مذهب المانعين لجوازه شرعا ، كأبى مسلم وأضرابه.

(٢) وأما نسخ الحكم دون التلاوة فيدل على وقوعه آيات كثيرة :

منها أن آية تقديم الصدقة أمام مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي قوله تعالى: « يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة » منسوخة بقوله سبحانه : « أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقاتٍ ؟ فإذ لم تفعلوا وتابَ اللهُ عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاةَ وأطيعوا اللهَ ورسولهُ » . على معنى أن حكم الآية الأولى منسوخ بحكم الآية الثانية ، مع أن تلاوة كلتيهما باقية .

ومنها أن قوله سبحانه : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » منسوخ بقوله سبحانه : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » على معنى أن حكم تلك منسوخ بحكم هذه، مع بقاء التلاوة فى كلتيهما كما ترى .

(٣) وأما نسخ التلاوة دون الحكم ، فيدل على وقوعه ما صحت روايته عن عمر ابن الخطاب وأبى بن كعب أنهما قالا : « كان فيما أنزل من القرآن : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها ألبتة » اﻫ . وأنت تعلم أن هذه الآية لم يعد لها وجود بين دفتى المصحف ولا على ألسنة القراء ، مع أن حكمها باق على إحكامه لم ينسخ .

ويدل على وقوعه أيضا ما صح عن أبى بن كعب أنه قال: « كانت سورة الأحزاب توازى سورة البقرة أو أكثر » مع أن هذا القدر الكبير الذى نسخت تلاوته لا يخلو فى الغالب من أحكام اعتقادية لا تقبل النسخ .

ويدل على وقوعه أيضاً الآية الناسخة فى الرضاع؛ وقد سبق ذكرها فى النوع الأول.

ويدل على وقوعه أيضاً ماصح عن أبى موسى الأشعرى أنهم كانوا يقرءون سورة على عهد رسول الله ﷺ فى طول سورة براءة ، وأنها نسيت إلا آية منها ، وهى : « لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثا . ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب. ويتوب الله على من تاب » .

وإذا ثبت وقوع هذين النوعين كما ترى ، ثبت جوازهما ، لأن الوقوع أعظم دليل على الجواز كما هو مقرر . وإذن بطل ما ذهب إليه المانعون له من ناحية الشرع ، كأبى مسلم ومن لف لفه . ويبطل كذلك ما ذهب إليه المانعون له من ناحية العقل ، وهم فريق من المعتزلة شذ عن الجماعة فزعم أن هذين النوعين الأخيرين مستحيلان عقلا .

ويمكنك أن تفحم هؤلاء الشذاذ من المعتزلة بدليل على الجواز العقلى الصرف لهذين النوعين فتقول: إن ما يتعلق بالنصوص القرآنية من التعبد بلفظها ، وجواز الصلاة بها ، وحرمتها على الجنب فى قراءتها ومسها ، شبيه كل الشبه بما يتعلق بها من دلالتها على الوجوب والحرمة ونحوهما، فى أن كلا من هذه المذكورات حكم شرعى يتعلق بالنص الكريم، وقد تقتضى المصلحة نسخ الجميع، وقد تقتضى نسخ بعض هذه المذكورات دون بعض ، وإذن يجوز أن تنسخ الآية تلاوة وحكما ، ويجوز أن تنسخ تلاوة لا حكما، ويجوز أن تنسخ حكماً لا تلاوة . وإذا ثبت هذا بطل ماذهب إليه أولئك الشذاذ من الاستحالة العقلية للنوعين الأخيرين .

شبهات أولئك المانعين ودفعها

وتتميما للفائدة نعرض عليك شبهاتهم ، مفندين لها شبهة شبهة .

الشبهة الأولى ودفعها :

يقولون: إن الآية والحكم المستفاد منها متلازمان تلازم المنطوق والمفهوم، فلا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر .

والجواب أن التلازم بين الآية وحكمها مشروط فيه انتفاء المعارض وهو الناسخ، أما إذا وجد الناسخ فلا تلازم ، والأمر حينئذ للناسخ ، إن شاء رفع الحكم وأبقى على التلاوة، وإن شاء عكس وإن شاء رفعهما معا، على حسب ماتقتضيه الحكمة أو المصلحة. ونظير

ذلك أن التلازم بين منطوق اللفظ ومفهومه مشروط فيه انتفاء المعارض . أما إذا وجد منطوق معارض للمفهوم ؛ فإن المفهوم حينئذ يعطل ، ويبقى العمل بالمنطوق وحده .

الشبهة الثانية ودفعها :

يقولون : إن نسخ الحكم دون التلاوة ، يستلزم تعطيل الكلام الإلهى وتجريده من الفائدة . وهذا عيب لا يرضى به عاقل لأقل نوع من كلامه ، فكيف يرضى به الله لأفضل كلامه ؟ .

والجواب أنا لا نسلم هذا اللزوم . بل الآية بعد نسخ حكمها دون تلاوتها ، تبقى مفيدة للإعجاز ، وتبقى عبادة للناس . وتبقى تذكيرا بعناية الله ورحمته بعباده حيث سن لهم فى كل وقت مايساير الحكمة والمصلحة من الأحكام يضاف إلى ذلك أن الآية بعد نسخ حكمها لا تخلو غالبا من دعوة إلى عقيدة ، أو إرشاد إلى فضيلة ، أو ترغيب فى خير ؛ ومثل ذلك لا ينسخ بنسخ الحكم ، بل تبقى الآية مفيدة له ، لأن النسخ لا يتعلق به كما مر .

الشبهة الثالثة ودفعها :

يقولون : إن بقاء التلاوة بعد نسخ الحكم ، يوقع فى روع المكلف بقاء هذا الحكم ، ذلك تلبيس وتوريط للعبد فى اعتقاد فاسد ومحال على الله أن يشكك أو يورط عبده .

والجواب أن ذلك التلبيس وهذا التوريط ، كان يصح ادعاؤهما واستلزام نسخ الحكم دون التلاوة لهما ، لو لم ينصب الله دليلا على النسخ . أما وقد نصب عليه الدلائل ، فلا عذر لجاهل ولا محل لتوريط ولا تلبيس ، لأن الذى أعلن الحكم الأول بالآية وشرعه ، هو الذى أعلن بالناسخ أنه نسخه ورفعه : «قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين».

اللهم اهدنا بهداك يارب العالمين . فإنه لا هادى إلا أنت . « ومن يضلل الله فما له من هاد » .

الشبهة الرابعة ودفعها :

يقولون : إن الآية دليل على الحكم ، فلو نسخت دونه لأشعر نسخها بارتفاع الحكم . وفى ذلك مافيه من التلبيس على المكلف والتوريط له فى اعتقاد فاسد .

وندفع هذه الشبهة بأن تلك اللوازم الباطلة تحصل لولم ينصب الشارع دليلا على نسخ التلاوة ، وعلى إبقاء الحكم . أما وقد نصب الدليل على نسخ التلاوة وحدها، وعلى إبقاء الحكم وتقرير استمراره كما فى رجم الزناة المحصنين ، فلا تلبيس من الشارع على عبده ولا توريط .

الشبهة الخامسة ودفعها :

يقولون : إن نسخ التلاوة مع بقاء الحكم عبث لا يليق بالشارع الحكيم ؛ لأنه من التصرفات التى لا تعقل لها فائدة .

وندفع هذه الشبهة بجوابين :

(أحدهما) أن نسخ الآية مع بقاء الحكم ليس مجرداً من الحكمة ، ولا خاليا من الفائدة ، حتى يكون عبثا ، بل فيه فائدة أى فائدة . وهى حصر القرآن فى دائرة محدودة تيسر على الأمة حفظه واستظهاره ، وتسهل على سواد الأمة التحقق فيه وعرفانه ، وذلك سور محكم ، وسياج منيع ، يحمى القرآن من أيدى المتلاعبين فيه بالزيادة أو النقص لأن الكلام إذا شاع وذاع وملأ البقاع ، ثم حاول أحد تحريفه ، سرعان مايعرف، وشد

ما يقابل بالإنكار. وبذلك يبقى الأصل سليما من التغيير والتبديل، مصداقاً لقوله سبحانه: « إنا نحنُ نزلنا الذكرَ وإنا له لحافظونَ ».

والخلاصة أن حكمة الله قضت أن تنزل بعض الآيات فى أحكام شرعية عملية، حتى إذا اشتهرت تلك الأحكام، نسخ سبحانه هذه الآيات فى تلاوتها فقط، رجوعاً بالقرآن إلى سيرته من الإجمال، وطرداً لعادته فى عرض فروع الأحكام من الإقلال، تيسيراً لحفظه وضماناً لصونه « واللهُ يعلم وأنتم لا تعلمونَ ».

(ثانيهما) أنه على فرض عدم علمنا بحكمة ولا فائدة فى هذا النوع من النسخ، فإن عدم العلم بالشىء لا يصلح حجة على العلم بعدم ذلك الشىء، وإلا فمتى كان الجهل طريقا من طرق العلم ؟ ثم إن الشأن فى كل ما يصدر عن العليم الحكيم الرحمن الرحيم، أن يصدر لحكمة أو لفائدة، نؤمن بها وإن كنا لا نعلمها على التعيين. وكم فى الإسلام من أمور تعبدية، استأثر الله بعلم حكمتها، أو أطلع عليها بعض خاصته من المقربين منه والمحبوبين لديه، « وفوقَ كلِّ ذى علمٍ عليمٌ ». « ومَا أوتيتُم من العلم إلا قليلًا ».

ولا بدع فى هذا، فرب البيت قد يأمر أطفاله بما لا يدركون فائدته لنقص عقولهم، على حين أنه فى الواقع مفيد، وهم يأتمرون بأمره وإن كانوا لا يدركون فائدته. والرئيس قد يأمر مرءوسيه بما يعجزون عن إدراك سره وحكمته، على حين أن له فى الواقع سرًّا وحكمة وهم ينفذون أمره وإن كانوا لا يفهمون سره وحكمته.

كذلك شأن الله مع خلقه فيما خفى عليهم من أسرار تشريعه، وفيما لم يدركوا من فائدة نسخ التلاوة دون الحكم. « ولله المثل الأعلى، وهو العزيز الحكيم ».

النسخ ببدل وبغير بدل

الحكم الشرعى الذى ينسخه الله ، إما أن يحل ـ سبحانه ـ محله حكما آخر أوْ لا ـ فإذا أحل محله حكما آخر فذلك هو النسخ ببدل . وإذا لم يحل محله حكما آخر فذلك هو النسخ بغير بدل ، وكلاهما جائز عقلا وواقع سمعا على رأى الجمهور .

مثال النسخ ببدل أن الله تعالى نهى المسلمين أول الأمر عن قتال الكفار، ورغبهم فى العفو والصفح ؛ بمثل قوله سبحانه : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسداً من عند أنفسهم من بعدِ ما تبينَ لهم الحق ، فاعفوا واصفحوا حتى يأتى اللهُ بأمرهِ إن اللهَ على كلِّ شيء قدير » .

ثم نسخ الله هذا النهى وأذنهم بالجهاد فقال : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإنَّ اللهَ على نصرهم لقدير * الذين أخرِجُوا من ديارهم بغيرِ حق إلا أنْ يقولوا ربنا الله . ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضهم ببعضٍ لهدِّمتْ صوامعُ وبيعٌ وصلواتٌ ومساجد يذكرُ فيها اسمُ اللهِ كثيراً . ولينصرنَّ الله من ينصره إن الله لقوىٌّ عزيز * الذينَ إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاةَ وآتوُا الزكاةَ وأمروا بالمعروفِ ونهوا عن المنكرِ . ولله عاقبةُ الأمور » .

ثم شدد الله وعزم عليهم فى النفير للقتال، وتوعدهم إن لم ينفروا فقال: « إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيرَكم ولا تضروهُ شيئاً والله على كل شيء قدير * إلا تنصروه فقد نصرهُ الله إذ أخرجْهُ الذينَ كفروا ثانىَ اثنينِ إذْهما فى الغار إذ يقولُ لصاحبهِ لا تحزَنْ إنَّ الله معنا . فأنزلَ اللهُ سكينتهُ عليهِ وأيده بجنودٍ لم تروها وجعلَ كلمةَ الذينَ كفروا السفلى . وكلمةُ اللهِ هى العلياَ . واللهُ عزيزٌ حكيمٌ » .

ومثال النسخ بلا بدل أن الله تعالى أمر بتقديم الصدقة بين يدى مناجاة الرسول فقال: « يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتُمُ الرسول فقدِّموا بين يدَىْ نجواكم صدقة » ثم رفع هذا التكليف عن الناس من غير أن يكلفهم بشىء مكانه، بل تركهم فى حل من ترك الحكم الأول دون أن يوجه حكما آخر. فقال: « أأشفقتم أن تُقَدِّموا بين يَدَىْ نجواكم صدقاتٍ، فإذ لم تفعلوا وتابَ الله عليكم فأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاة وأطيعوا اللهَ ورسوله ».

شبهة ودفعها

ذلك مذهب الجمهور من العلماء، ولكن بعض المعتزلة والظاهرية يقولون: إن النسخ بغير بدل لا يجوز شرعا. وشبهتهم فى هذا أن الله تعالى يقول: « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ». ووجه اشتباههم أن الآية تفيد أنه لا بد أن يؤتى مكان الحكم المنسوخ بحكم آخر هو خير منه أو مثله. ولكنها شبهة مدفوعة بما ذكرنا من النصين السابقين فى تقديم الصدقة بين يدى الرسول ﷺ. واحتجاجهم بآية « ما ننسخ » على الوجه الذى ذكروه احتجاج داحض، لأن الله تعالى إذا نسخ حكم الآية بغير بدل، فهمنا بمقتضى حكمته أو رعايته لمصلحة عباده أن عدم الحكم صار خيرا من ذلك الحكم المنسوخ فى نفعه للناس. وصح أن يقال حينئذ إن الله نسخ حكم الآية السابقة، وأتى بخير منها فى الدلالة على عدم الحكم الذى بات فى وقت النسخ أنفع للناس وخيرا لهم من الحكم المنسوخ. ومعنى آية « ما ننسخ » لا يأبى هذا التأويل، بل يتناوله كما يتناول سواه، والنسخ فيها أعم من نسخ التلاوة والحكم مجتمعين ومنفردين، ببدل وبغير بدل والخيرية والمثلية فيها أعم من الخيرية والمثلية فى الثواب وفى النفع. وقد مر بيان ذلك فيما سبق عند الكلام على أدلة النسخ عقلا.

نسخ الحكم ببدل أخف أو مساو أو أثقل

النسخ إلى بدل يتنوع إلى أنواع ثلاثة :

(أولها) النسخ إلى بدل أخف على نفس المكلف من الحكم السابق كنسخ تحريم الأكل والشرب والجماع بعد النوم فى ليل رمضان بإباحة ذلك ؛ إذ قال سبحانه: «أُحلّ لكم ليلةَ الصيامِ الرَّفثُ إلى نسائكم ، هُنّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنّ. علم الله أنكم كنتم تختانونَ أنفسكم فتابَ عليكمْ وعفا عنكم . فالآن باشروهُنّ ، وابتغوا ما كتبَ الله لكم . وكُلوا واشربوا حتى يتبيّنَ لكمُ الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسود منَ الفَجْرِ » .

(ثانيها) النسخ إلى بدل مساو للحكم الأول فى خفته أو ثقله على نفس المكلف ، كنسخ وجوب استقبال بيت المقدس بوجوب استقبال الكعبة فى قوله سبحانه : « قد نَرى تقلُّب وجهكَ فى السماء فلنولينك قبلةً ترضاها، فول وجْهكَ شَطْرَ المسجدِ الحرام، وحيثما كنتم فولوا وجُوهكم شَطْرَه » .

وهذان النوعان لا خلاف فى جوازهما عقلا ووقوعهما سمعا عند القائلين بالنسخ كافة.

(ثالثها) النسخ إلى بدل أثقل من الحكم المنسوخ . وفى هذا النوع يدب الخلاف: فجمهور العلماء يذهبون إلى جوازه عقلا وسمعا ، كالنوعين السابقين، ويستدلون على هذا بأمثلة كثيرة تثبت الوقوع السمعى ، وهو أدل دليل على الجواز العقلى كما علمت. من تلك الأمثلة أن الله تعالى نسخ إباحة الخمر بتحريمها. ومنها أنه تعالى نسخ ما فرض من مسالمة الكفار المحاربين بما فرض من قتالهم « كُتب عليكم القتال وهو كرهٌ لكم». ومنها أن حد الزنى كان فى فجر الإسلام لا يعدو التعنيف والحبس فى البيوت ، ثم نسخ

ذلك بالجلد والنفى فى حق البكر ، وبالرجم فى حق الثيب . ومنها أن الله تعالى فرض على المسلمين أولا صوم يوم عاشوراء ، ثم نسخه بفرض صوم شهر رمضان كله مع تخيير الصحيح المقيم بين صيامه والفدية ، ثم نسخ سبحانه هذا التخيير بتعيين الصوم على هذا الصحيح المقيم إلزاما .

شبهات المانعين ودفعها

ذلك ما ارتآه الجمهور . ولكن قوما شطوا فمنعوا هذا النوع الثالث عقلا . وآخرون أسرفوا فمنعوه سمعا . وكلهم محجوجون بما ذكرنا من الأدلة . غير أنا لا نكتفى بذلك ، بل نعرض عليك شبهاتهم ، ونفندها بين يديك لئلا تنخدع ولا نسمح لأحد أن ينخدع ! ؟

الشبهة الأولى ودفعها :

يقول المانعون لهذا النوع عقلا: إن تكليف الله لعباده لا بد أن يكون لمصلحة راجعة إلى العباد لا إليه ومحال أن يكون لغير مصلحة، وإلا كان الله سبحانه عابثا . ومحال أن يكون لمصلحة تعود على الله ، لأنه تعالى هو الغنى عن خلقه جميعا . وإذا كان التكاليف راجعا لمصلحة العباد وحدهم ، فلا بد أن يكون على حالة تدعو إلى امتثالهم . وليس فى نقل العباد من الأخف إلى الأشد داعية إلى امتثالهم . بل هو العكس من ذلك: فيه تزهيدلهم فى الطاعة ، وتثبيط لهم عن الواجب . وكل ما كان كذلك يمتنع أن يصدر من الله عقلا.

وندفع هذه الشبهة : (أولا) بأن هذه سفسطات مفضوحة ، ومغالطات مكشوفة ، عمى فيها هؤلاء أو تعاموا عن الحقائق الواقعة فى التشريع ، وهى نقل العباد فعلا من أحكام خفيفة إلى أحكام أشد منها . كما مثلنا آنفا .

(ثانيا) أننا نقلب حجة هؤلاء عليهم ، ونرد كيدهم فى نحرهم ، ونعمل سلاحهم

فى أعناقهم، ونقول لهم : إن مصلحة العباد التى هى مقصود الشارع الحكيم الرحيم، تقضى أن يكون تكليفه إياهم على حالة تدعو إلى امتثالهم ، وذلك بأن يتدرج بهم ، فيمهد ويمهد للتكليف الخفيف بتكليف أخف منه ، ويمهد للتكليف الثقيل بتكليف خفيف ، وللتكليف الأثقل بتكليف ثقيل ، لأن الناس لو بوغتوا من أول الأمر بالثقيل مثلا لعجزوا ونفروا وانعكس المقصود من هدايتهم . ولذلك نشاهد حكماء المربين ، وساسة الأمم القادرين يبتدئون فى تربيتهم وسياستهم بأيسر الأمور ، ثم بعد ذلك يتدرجون ولا يطفرون .

(ثالثا) أن دليلهم هذا منقوض بما لا يسعهم إنكاره ، وهو تكليف الله عباده ابتداء ونقلهم من الإباحة المطلقة أو البراءة الأصلية إلى مشقة التكاليف المتنوعة . فما يكون جوابًا لهم عن هذه يكون جوابا لنا عما منعوه هنا .

(رابعا) أنهم متناقضون، فإن مصلحة العباد التى جعلوها مناط شبهتهم تأبى مفاجأة الناس بالأشد من غير تمهيد بالأخف ، ومذهبهم لا يأبى التكليف من أول الأمر بالأشد دون تمهيد بالأخف ا .

(خامسا) أننا لا نسلم أن مقصود الشارع من التكاليف هو مجرد مصالح الناس ، بل تارة يكون المقصد هو المصلحة ، وتارة يكون المقصد هو الابتلاء والاختبار ، ليميز الله الخبيث من الطيب ، حتى لا يكون لأحد بعد تمايز الناس بابتلائه حجة . وقد أعلن الله هذا المقصد الثانى فى آيات كثيرة، منها قوله سبحانه: « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصَّابرينَ ونبلوَ أخباركم » . ومنها قوله عز اسمه: « ونبلوكم بالشَّر والخيرفتنةً وإلينا تُرْجعون ». ومنها قوله جلت حكمته « الذى خلقَ الموتَ والحياة ليبلُوَكُم أيكم أحسنُ عملا » .

وإذن فنسخ الحكم بأشد قد يكون ابتلاء للعباد ، إن لم يكن مصلحة لهم. وتلك حكمة بالغة تلغى عن الله العبث .

(سادسا) أن الحكم الأشد الناسخ ، قد يكون هو المصلحة للعباد ، دون الحكم الأخف المنسوخ، لأنه على رغم شدته وثقله يشتمل على داعية لامتثاله لا توجد فى الحكم الأول وقت النسخ . من ترغيب أو ترهيب ، أو تجلية لمزايا وفوائد من وراء الحكم الجديد فى الدنيا أو فى الآخرة . تأمل آيتى التحريم النهائى للخمر وما انطوتا عليه من هذه الألوان ، ثم تأمل آيات مشروعية الجهاد وما فيها من ضروب الترغيب والترهيب وتحريك العزائم إلى السخاء بالنفوس والأموال إلى غير ذلك مما تدركه فى الأحكام الناسخة بأقل تبصر وإمعان .

الشبهة الثانية ودفعها :

يقول المانعون لنسخ الأخف بالأثقل سمعا فقط : إن الله تعالى يقول : « ويضعُ عنهم إصرَهم والأغلال التى كانت عليهم » . ومعنى هذا أن الشدائد التى كانت على من قبلنا رفعها الله عنا . ونسخ الأخف بالأشد مخالف لهذا الوعد الصريح ، فهو ممنوع سمعا .

وندفع هذه الشبهة بأن قصارى ما تفيده هذه الآية أن الله تعالى أعفى هذه الأمة المحمدية من أن يكلفها بما يصل فى شدته إلى تلك الأحكام القاسية التى فرضها على الأمم الماضية ، والتى ألزمهم بها إلزاما كأنها أغلال فى أعناقهم . وهذا لا ينفى أن تكون بعض الأحكام فى الشريعة الإسلامية أشد من بعض ، وأن ينسخ الله فيها حكما أخف بحكم أثقل منه ، ولكن لا يصل فى شدته وصرامته إلى مثل أحكام الماضين فى شدتها وصرامتها . فوعد الله بالتخفيف على هذه الأمة حق، ونسخه حكما بما هو أثقل منه حق.

وخلاصة الجواب أن شدة بعض الأحكام الإسلامية إنما هو بالنسبة إلى بعضها الآخر . أما بالنسبة إلى أحكام الشرائع الأخرى فهى أخف منها قطعا .

الشبهة الثالثة ودفعها :

يقول هؤلاء أيضا : إن الله تعالى يقول : « يريدُ الله بكم اليسرَ ولا يريدُ بكم العسرَ » ويقول: «يريد الله أن يخفف عنكم» ولا تيسير ولا تخفيف فى نقلنا من الأخف إلى الأثقل .

وندفع هذه الشبهة : (أولا) بأن قصارى ما يدل عليه هذان النصان الكريمان ، هو أن الأحكام الشرعية كلها ميسرة مخففة فى ذاتها ، لا إرهاق فيها للمكلفين ، وإن كانت فيما بينها متفاوتة ، فبعضها أثقل أو أخف بالنسبة إلى بعض .

(ثانيا) أنه لو كان مفهوم الآيـة هو ما فهموا من التيسير والتخفيف المطلقين ، لانتقض ذلك بأصل التـكليف ، لأن التـكليف إلزام ما فيه كلفه .

(ثالثا) أن النص الأول : « يريدُ اللهُ بكم اليسرَ ولا يريـدُ بكم العسرَ » قد سيق فى معرض خاص ، هو الترخيص للمرضى والمسافرين أن يفطروا ويقضوا عدة من أيام أخر . وعلى هذا يكون معناه يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر، فى ترخيصه للمرضى والمسافرين أن يفطروا رمضان ويقضوا عدة ما أفطروا .. وكذلك النص الثانى، « يريدُ اللهُ أنْ يخففَ عنـكم » قد سيق فى معرض خاص ، هو إباحة الله لعباده ، أن يتزوجوا الفتيات المؤمنات من الإماء ، إذا لم يستطيعوا طَولا أن يتزوجوا الحرائر من المحصنات المؤمنات ، وبشرط أن يخشوا العنت أى يخافوا الوقوع فى الزنى .

وعلى هذا فالتخفيف المذكور فى هذا السياق ، معناه التخفيف بالترخيص لهؤلاء الفقراء الخائفين من العنت ، أن يتزوجوا إماء الله المؤمنات .

الشبهة الرابعة ودفعها :

يقول هؤلاء أيضاً : إن قوله سبحانه « ما ننسخْ من آيةٍ أو ننسها نأت بخيرٍ منها أو مثلها » يفيد أن النسخ لا يكون إلا بالأخف، لأنه الخير ، أو بالمساوى ، لأنه المثل، أما الأثقل فلا .

وندفع هذه الشبهة بأن الخيرية والمثلية فى الآية الكريمة ليس المراد منهما ما فهموا من الخفة عن الحكم الأول أوالمساواة به . بل المراد بها الخيرية والمثلية فى النفع والثواب، على مامر تفصيله . وعلى هذا فما المانع من أن يكون الأثقل الناسخ أكثر فائدة فى الدنيا وأعظم أجرا فى الآخرة من الأخف المنسوخ ؟ أو يكون مساويا له فى الثواب ومماثلا له فى الأجر ؟ .

نسخ الطلب قبل التمكن من امتثاله

علماؤنا اتفقوا على أن نسخ الطلب قبل التمكن من العلم به ممتنع ، كما اتفقوا على أن نسخه بعد تمكن المكلف من امتثاله جائز ، لم يخالف فى ذلك إلا الكرخى فيما روى عنه من امتناع النسخ قبل تحقق الامتثال بالفعل . . أما نسخ الطلب بعد التمكن من العلم وقبل التمكن من الامتثال ، ففيه اختلاف العلماء : ذهب جمهور أهل السنة ومن وافقهم إلى جوازه ، وذهب جمهور المعتزلة ومن وافقهم إلى منعه . مثال ذلك قوله سبحانه : « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقًّا على المتقين » فإن جمهورنا يجوزون نسخ وجوب الوصية المذكور فى هذه الآية بعد التمكن من العلم به وقبل أن يحضر الموت أحد المكلفين . أما جمهور المعتزلة فيقولون باستحالة نسخ هذا التشريع إلا بعد احتضار أحد المكلفين وتمكنه من الوصية . ولا يكتفى الكرخى فيما روى عنه بمجرد تمكن المكلف من الوصية ، بل لا بد عنده من أن يوصى بالفعل ، حتى يجوز النسخ بعده .

أدلة المثبتين لهذا النوع من النسخ :

إن الذين أجازوا هذا النوع من النسخ ، استدلوا له بثلاثة أدلة :

(أحدها) أن نسخ الطلب قبل التمكن من امتثاله لا يترتب على وقوعه محال عقلى . وكل ما كان كذلك فهو جائز عقلا .

(ثانيها) أن النسخ قبل التمكن من الفعل، مانع كسائر الموانع التى تمنع العبد منه، إذ لا فارق بينه وبينها يؤثر . فلو لم يجز هذا النوع من النسخ لم يجز أن يأمر الله عبده بفعل فى مستقبل زمانه ثم يعوقه عنه بمرض أو نوم أو نحوهما ، لكن المشاهد غير ذلك باعتراف المانعين أنفسهم ، فكثيرا ما تحول الحوائل بين المرء وما أمره الله فى مستقبله . فليجز هذا النوع من النسخ أيضا :

(ثالثها) أن هذا النوع من النسخ قد وقع فعلا . والوقوع دليل الجواز وزيادة .

ثم إن لهم على وقوع هذا النوع من النسخ دليلين :

(الدليل الأول) أن الله تعالى حين حدثنا عن إبراهيم وولده إسماعيل صلوات الله وسلامه عليهما . قال : «فبشرناهُ بغلامٍ حليم * فلما بلغ معه السعى قال : يابنىَّ إنى أرى فى المنام أنى أذبحكَ فانظر ماذا ترى ؟ قال : يـٰأبت افعل ماتؤمر ، ستجدنى إنْ شاء اللهُ من الصابرين * فلما أسلما وتله للجبين * وناديناهُ : أن ياإبراهيم * قد صدَّقتَ الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين * إنَّ هذا لهو البلاء المبين * وفديناهُ بذبحٍ عظيمٍ * وتركنا عليهِ فى الآخرين * سلامٌ على إبراهيم * كذلك نجزى المحسنين * إنهُ من عبادنا المؤمنين » فأنت ترى فى هذا العرض الكريم ، لقصة إبراهيم الخليل وولده الذبيح إسماعيل ما يفيد أنه سبحانه قد أمر إبراهيم بذبح ولده ، ثم نسخ ما أمره به قبل أن يتمكن من تنفيذه وفعله .

أما أنه أمره بالذبح فيرشد إليه :

(أولا) قول إبراهيم لولده : « إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟» لأن رؤيا الأنبياء حق من ناحية ، ولأن مفاوضة إبراهيم لولده فى هذا الأمر الجلل ، تدل على أن هذا أمر لابد منه من ناحية أخرى ، وإلا لما فاوضه تلك المفاوضة الخطيرة المزعجة التى هى أول مراحل السعى إلى التنفيذ .

(ثانيا) أن إسماعيل أجاب أباه بإعلان خضوعه وامتثاله لأمر ربه « قال : يأبت افعل ماتؤمر . ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » .

(ثالثا) أن إبراهيم اتخذ سبيله إلى مباشرة الأسباب القريبة للذبح ، حيث أسلم ولده ، وأسلم إسماعيل نفسه « فلما أسلما وتله للجبين » .

(رابعا) أن الله ناداه بأنه قد صدق الرؤيا ، أى فعل فعل من صدقها وحققها . ولو لم يكن هذا أمرا من الله واجب الطاعة ، ما مدحه الله على تصديقه لرؤياه ، وسعيه إلى تحقيق ما أمره مولاه !

(خامسا) أن الله فدى إبراهيم بذبح عظيم . فلو لم يكن ذبح إسماعيل مطلوبا ، لما كان ثمة داع يدعو إلى الفداء .

(سادسا) أن الله امتدح إبراهيم بأنه من المؤمنين ومن المحسنين المستحقين لإكرام الله إياه بالفرج بعد الشدة ، وقرر سبحانه أن هذا هو البلاء المبين ، وكافأه بأنه ترك عليه فى الآخرين « سلام على إبراهيم » . وكل ذلك يدل على أن الله أمره فأطاع ، وابتلاه أشد الابتلاء فاستسلم وانصاع .

وأما أن الله نسخ هذا الأمر قبل تمكن إبراهيم من امتثاله ، فيرشد إليه محاولة إبراهيم للتنفيذ بالخطوات التى خطاها والمحاولات التى حاولها ، وهى مفاوضة ولده حتى يستوثق منه أو يتخذ إجراء آخر ، ثم استسلامهما بالفعل لحادث الذبح ؛ وصرعه فلذة كبده وقرة عينه على جبينه كيما يضع السكين ويذبحه كما أمره رب العالمين . ولكن جاء النداء بالفداء قبل التمكن

من الامتثال وتنفيذ الذبح . وبعيد كل البعد ، بل محال فى مجرى العادة، أن يكون إبراهيم قد وجد فرصة يتمكن فيها من الامتثال قبل ذلك ثم تركها ، حتى يقال: إن النسخ بالفداء حصل بعد التمكن من الذبح فثبت أن أمره بالذبح قد نسخ بالفداء قبل التمكن من الامتثال. ووقوع هذا دليل الجواز ، بل هو أول دليل على الجواز .

(الدليل الثانى) أنه جاء فى السنة المطهرة ، مايفيد أن الله فرض ليلة المعراج على النبي ﷺ وعلى أمته خمسين صلاة ، ثم نسخ الله فى هذه الليلة نفسها خمسا وأربعين منها، بعد مراجعات تسع من النبي ﷺ بين موسى وربه . وواضح أن هذا النسخ فى تلك المرات التسع كان من قبل أن يتمكن النبي وأمته من الامتثال. وهذا الوقوع أول دليل على الجواز كما هو مقرر .

شبهات المنكرين ودفعها

للمنكرين شبهات كثيرة منها ماصاغوه فى صورة أدلة على إنكارهم، ومنها ما وجهوه إلى أدلة المثبتين السابقة فى صورة مناقشة لها وإبطال لدلالتها. وهاهى ذى نضعها بين يديك مشفوعة بما يدحضها .

الشبهة الأولى ودفعها :

يقولون : لو نسخ الطلب قبل التمكن من امتثاله، لكن طلبا مجرداً من الفائدة، ومثل هذا يكون عبثا . والعبث على الله محال .

وندفع هذه الشبهة بأن الطلب فى هذه الصورة لم يتجرد من الفائدة كما يزعمون . بل إن من فوائده وحكمته ابتلاء الله لعباده : أيقبلون أم يرفضون، فإن قبلوه وأذعنوا له وآمنوا به ووطنوا أنفسهم على امتثاله فلهم أجر كبير ، وظهر فضلهم كما ظهر فضل إبراهيم فى ابتلائه بذبح ولده إسماعيل. مع أنه لم يتمكن من تنفيذ ما أمر به . ومن أبى من عباد الله مثل هذا الطلب بان ضلاله وخذلانه واستحق الحرمان والهوان ، عن عدل وإنصاف ، « وما ربكَ بظلامٍ للعبيدِ » .

الشبهة الثانية ودفعها :

يقولون : إن الفعل الذى ينسخ طلبه قبل التمكن من امتثاله . إما أن يكون مطلوبا وقت ورود النسخ أو لا فإن كان مطلوبا وقت ورود النسخ أدى ذلك إلى تواردالنفى والإثبات على شىء واحد ، وهو محال وإن لم يكن الفعل مطلوبا وقت ورود النسخ فلا نسخ ، لأن النسخ لا بد لتحققه من حكم سابق يردعليه ويرفعه . والفرض هنا أنه ورد والحكم مرتفع

وندفع هذه الشبهة (أولا) بأن الفعل لم يكن مطلوبا وقت ورود الناسخ . ولكن هذا لا ينفى حقيقة النسخ كما زعموا بل هو المحقق له ؛ لأن النسخ كالعلة فى ارتفاع الحكم والمعلول مقارن للعلة فى الزمن ، وإن تأخر عنها فى التعقل فالحكم إذن لابد أن يرتفع عند ورود الناسخ بسبب وروده ، وإلا لم يعقل النسخ .

(ثانيا) أن هذه الشبهة تجرى فى كل صورة من صور النسخ ، وحينئذ لا مفر لهم من إحدى اثنتين : أن يمنعوا النسخ مطلقا ، مع أنهم لا يقولون به ، أو يكونوا فى شبهتهم هذه مبطلين .

الشبهة الثالثة ودفعها :

يقولون : إذا قال الشارع : « صوموا غدا » لزم أن يكون صوم الغد حسنا وفيه مصلحة ، فإذا نهى عنه قبل مجىء الغد لزم أن يكون قبيحا فيه مفسدة واجتماع الحسن والقبح فى شىء واحد فى آن واحد محال .

وندفع هذه الشبهة : (أولا) بأنها قامت على أساس باطل ، هو قاعدة الحسن والقبح العقليين . وتقرير بطلان هذه القاعدة معروف عند الأشاعرة من أهل السنة .

(ثانيا) أن نهى الشارع عن الشىء المطلوب قبل التمكن من أدائه ، يتبين منه أن ذلك الشىء قبيح عقلا متى نهى الله عنه . أما طلبه قبل ذلك فلا يدل على حسنه هو ، إنما يدل على حسن ما اتصل به مما استلزمه ذلك الطلب ، وهو إيمان العباد به ، واطمئنان

نفوسهم إليه وعزمهم على تنفيذه . وفى ذلك ما فيه من ترويضهم على الطاعة ، وتعويدهم الامتثال ، وإثابتهم على حسن نياتهم وكأن المأمور به فى هذه الصورة هو المقدمات التى تسبق الفعل لا نفس الفعل ؛ بدليل نسخ الفعل قبل التمكن من امتثاله ، لكنهم أمروا بالفعل نفسه ، لأن عزمهم عليه والإتيان بمقدماته لا يتأتى إلا بالأمر على هذه الصورة فتأمل .

الشبهة الرابعة ودفعها :

يقولون : إن استدلالكم بقصة إبراهيم وولده الذبيح ، استدلال لا يسلم من جملة مؤاخذات .

(أولها) أن رؤيا إبراهيم ماهى إلا رؤيا رآها . فخيل إليه أنه مأمور بالذبح ، والحقيقة أنه لم يؤمر به .

والجواب أن رؤيا الأنبياء وحى حق ، لا باطل فيه ولا تخييل . والوحى يصحبه علم ضرورى فى الموحى إليه بأن ما أوحى إليه حق . والأنبياء لا يتمثل لهم الشيطان ، ولا سلطان له عليهم لا فى اليقظة ولا فى المنام .

ومن ذا الذى يهمل عقله ، ويسفه نفسه ، فيصدق أن شيخا كبيرا فى جلالة إبراهيم خليل الرحمن يتأثر بخيال فاسد ، ويصدر عن وهم كاذب ، فى أن يقدم على أكبر الكبائر وهو قتل ولده ، وذبح وحيده وفلذة كبده ، بعد أن بشره مولاه بأنه غلام حليم ، ورزقه إياه على شيخوخة وهرم ، وحقق فيه ما بشره به فشب الوليد وترعرع ، حتى بلغ مع أبيه السعى فكان إبراهيم يراه وهو يسعى معه ، فيملأ عينه نورا ، وقلبه بهجة وحبورا .

(ثانيا) قالوا : إن إبراهيم على فرض كون رؤياه حقا ، لم يك مأمورا بذبح ولده ، إنما كان مأمورا بالعزم على الذبح فحسب ، امتحانا له بالصبر على هذا العزم . ولا ريب أن إبراهيم بمحاولته التى حاولها وصورها القرآن ، قد عزم وأدى ما وجب عليه ، فلا نسخ

والجواب من وجهين : (أحدهما) أن الامتحان الذى ذكروه ، لا يتحقق إلا بالعزم على ما أوجبه عليه لأن العزم على ما ليس بواجب لا يجب . وإذن فإبراهيم كان قد وجب عليه ذبح ولده ، حتى يكون عزمه على ذلك واجبا يتحقق به معنى الابتلاء والاختبار . (والآخر) أن المأمور به لو كان هو العزم دون الذبح ، لما كان هناك معنى للفداء لأن إبراهيم قد فعل كل ما أمره به ربه ، لم يترك شيئا ولم يخفف الله عنه شيئا . على زعمهم

(ثالثها) قالوا : إن الأمر فى الحقيقة كان بمقدمات الذبح من إضجاع إبراهيم لولده ، وصرعه إياه على جبينه ، وإمراره لسكينه ، وما أمر إبراهيم بالذبح .

والجواب أن إبراهيم قد جاء بهذه المقدمات ، فإذا كانت هى المأمور به دون الذبح فقد أدى إبراهيم كل ما عليه ، فأى معنى للفداء إذن ؟

(رابعها) قالوا : إن إبراهيم على فرض أنه كان مأمورا بالذبح نفسه ، قد بذل وسعه فى الامتثال والتنفيذ . ولكن الله تعالى قلب عنق الذبيح نحاسا أو حديدا حتى لا ينقطع . فسقط التكليف عن إبراهيم لهذا العذر المانع لا لوجود الناسخ .

والجواب من ثلاثة أوجه : (الأول) أن ما ذكروه من انقلاب عنقه حديدا أو نحاسا ، خبر موضوع ورواية هازلة لا أصل لها . (الثانى) أن وجوب الذبح لو سقط لهذا العذر ، لما كان هناك معنى للفداء . (الثالث) أنهم إذا جوزوا أن يأمرنا الله تعالى بالشىء ثم يحول بيننا وبينه بعذر من الأعذار ، فلا معنى لأن ينكروا أن يأمرنا الله بالشىء ثم يحول بيننا وبينه بالناسخ ، لأنه ليس بين الحيلولتين فارق مؤثر .

(خامسها) قالوا : إن إبراهيم قد أدى الواجب وذبح ولده فعلا ، ولكن الجرح قد اندمل ، وعنق الذبيح قد اتصل والتأم ، فلا نسخ .

والجواب (أولا) أن هذه الرواية موضوعة أيضا ، بل هى أدخل فى الكذب وأبعد عن ظاهر آيات القصة من الرواية السابقة . ولو حصل ذلك لحدثنا القرآن به ، لأنه ليس أقل شأنا من أمر الفداء ، أو لحدثنا الرسول ﷺ به على الأقل. ولو كان النقل متواترا؛ لأن مثله مما تتوافر الدواعى على نقله وتواتره .

(ثانيا) أن هذا الواجب إذا كان قد أدى على أتم وجوهه، وذبح إبراهيم ولده بالفعل، ولم يحدث مانع ولم يوجد ناسخ ، فأى معنى للفداء ؟

(سادسها) قالوا : لا نسلم أن وجوب الذبح قد سقط عن إبراهيم بورود الفداء، بل هو باق حتى يذبح الفداء، فلو قصر فى ذبحه لأثم إثم من كلف بذبح ولده ولم يذبحه ، ولو كان وجوب ذبح الولد مرتفعا بورود الفداء ماصح تسمية الفداء فداء ، كما لم يصح تسمية استقبال الكعبة بعد استقبال بيت المقدس فداء، وذلك لأن حقيقة الفداء لا بد فيها من أمرين يقوم أحدهما مقام الآخر فى تلقى المكروه . وعلى هذا لا نسخ .

والجواب ، أن هذا كلام أشبه باللغو ، فإنهم لا يستطيعون أن ينكروا أن إبراهيم لو ذبح ولده بعد نزول الفداء كان آثما . فيكون ذبحه إياه وقتئذ حراما وقد كان قبل نزول الفدا واجبا . وينطبق عليه تمام الانطباق أنه رفع حكم شرعى بدليل شرعى . ولا معنى للنسخ إلا ذلك .

الشبهة الخامسة ودفعها :

يقولون : إن استدلالكم بنسخ فرضية الصلوات الخمسين فى ليلة المعراج، استدلال باطل، لأنه خبر غير ثابت . وجمهور المعتزلة ينكرون المعراج جملة . ومن أثبته منهم نفى خبر فرضية الصلوات الخمسين وماورد عليها من نسخ . وقال : إن ذلك من وضع القصاص. واستدل على أنها زيادة موضوعة بأنها تقتضى نسخ الحكم قبل التمكن من العلم به ، وهو ممنوع بالإجماع . ووجه هذا الاقتضاء أن فرض الخمسين صلاة لم يكن على النبى ﷺ خاصة، بل

كان عليه وعلى أمته معه. وقد نسخ قبل أن تعلم به الأمة. وعلى تسليم صحة هذه الزيادة لا نسلم أن ذلك كان فرضا على العزم والتعيين، بل فوض الله تعالى ذلك إلى اختيار الرسول ومشيئته. فإن اختار الخمسين فرضها، وإن اختار الخمس فرض الخمس.

وندفع هذه الشبهة (أولا) بأن خبر المعراج ثابت من طرق صحيحة متعددة، لا من طريق واحد. وإنكار أهل الأهواء والبدع له، لا يغض من قيمة ثبوته، بل يغض من قيمتهم هم. قال عبد الظاهر البغدادى: وليس إنكار القدرية خبر المعراج إلا كإنكارهم خبر الرؤية والشفاعة وعذاب القبر والحوض والميزان. والخبر الصحيح لا يرد بطعن أهل الأهواء كما لم يرد خبر المسح على الخفين بطعن الروافض والخوارج فيه، وكما لم يرد خبر الرجم بإنكار الخوارج له.

(ثانيا) أن هذه الزيادة ثابتة فى الصحيحين وغيرهما. وعلى فرض خلو بعض الروايات منها، فإن ذلك لا يضيرها، لأن زيادة الثقة مقبولة، وهذه رواية ثقات عدول ضابطين بلغوا شأوا بعيداً من الثقة والعدالة والضبط، حتى روى البخارى ومسلم عنهم فى صحيحيهما، وحسبك برجال البخارى ومسلم فى الصحيحين.

(ثالثا) أن قولهم: هذا نسخ للحكم قبل تمكن الأمة من العلم به، لا يفيدهم شيئا، لأن الرسول ﷺ فرض الله عليه الخمسين صلاة فى كل يوم وليلة كما فرضها على أمته. وقد علم الرسول بذلك طبعا، ونسخ الله هذا الفرض بعد علم الرسول به وقبل تمكنه من امتثاله. وذلك كاف فى إثبات ما نحن بسبيله من نسخ الطلب قبل التمكن من الامتثال.

(رابعا) أن قولهم: إن فرض الخمسين لم يكن فرضا عزما، كلام فاسد لا برهان لهم به، بل نفس الرواية ترد عليهم، وتثبت أن الأمر لم يوكل إلى مشيئة الرسول، إن اختار الخمسين فرضها الله خمسين، وإن اختار الخمس فرضها الله خمسا كما يزعمون. ذلك أن الله قال له فى هذا المعرض: « فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة » وقبل الرسول

ذلك طائعا مختارا، وهبط على اسم الله، حتى إذا لقى موسى سأله موسى: مافعل ربك؟ قال: فرض علىّ وعلى أمتى خمسين صلاة فقال له موسى : ارجع إلى ربك واسأله التخفيف ، وذكر له أنه خبر بنى إسرائيل من قبله فعجزوا وما زال به حتى رجع إلى مقام المناجاة ، وسأل التخفيف من مولاه ، فحط عنه خمسا ، وعاد إلى موسى فراجعه ، وما زال يرجع بين موسى وربه ، وفى كل مرة يحط الله عنه خمسا ، حتى لم يبق إلا خمس من الخمسين . وأشار عليه موسى أيضا أن يرجع ويسأل التخفيف ، فاعتذر بأنه سأل حتى استحيى . فهل بعد ذلك كله يصح فى الأذهان أن يقال أو أن يفهم أن فرض الخمسين لم يكن فرضا عزما ، وأن الله فرض الأمر فى اختيار الخمسين أو الخمس إلى مشيئة رسوله ؟ « إن يقولون إلا كذبا » .

النسخ فى دورانه بين الكتاب والسنة

النسخ فى الشريعة الإسلامية قد يرد به القرآن وقد ترد به السنة. والمنسوخ كذلك قد يرد به القرآن وقد ترد به السنة . فالأقسام أربعة .

١ — نسخ القرآن بالقرآن

(القسم الأول) نسخ القرآن بالقرآن . وقد أجمع القائلون بالنسخ من المسلمين على جوازه ووقوعه . أما جوازه فلأن آيات القرآن متساوية فى العلم بها وفى وجوب العمل بمقتضاها . وأما وقوعه فلما ذكرنا وماسنذكر من الآيات الناسخة والمنسوخة . وهذا القسم يتنوع إلى أنواع ثلاثة : نسخ التلاوة والحكم معا ، ونسخ الحكم دون التلاوة ، ونسخ التلاوة دون الحكم . وقد أشبعنا الكلام عليها فيما سبق .

نسخ القرآن بالسنة

(القسم الثانى) نسخ القرآن بالسنة . وقد اختلف العلماء فى هذا القسم بين مجوز ومانع . ثم اختلف المجوزون بين قائل بالوقوع وقائل بعدمه . وإذن يجرى البحث فى مقامين اثنين . مقام الجواز ومقام الوقوع . .

(ا) مقام الجواز :

القائلون بالجواز هم مالك وأصحاب أبى حنيفة وجمهور المتكلمين من الأشاعرة والمعتزلة . وحجتهم أن نسخ القرآن بالسنة ليس مستحيلا لذاته ولا لغيره . أما الأول فظاهر ، وأما الثانى فلأن السنة وحى من الله كما أن القرآن كذلك ، لقوله تعالى « وما ينطقُ عن الهوى * إن هوَ إلا وحْىٌ يُوحَى » ولا فارق بينهما إلا أن ألفاظ القرآن من ترتيب الله وإنشائه ؛ وألفاظ السنة من ترتيب الرسول وإنشائه ، والقرآن له خصائصه وللسنة خصائصها . وهذه الفوارق لا أثر لها فيما نحن بسبيله ، مادام أن الله هو الذى ينسخ وحيه بوحيه . وحيث لا أثر لها ، فنسخ أحد هذين الوحيين بالآخر ، لا مانع يمنعه عقلا كما أنه لا مانع يمنعه شرعا أيضا ، فتعين جوازه عقلا وشرعا .

هذه حجة المجيزين . أما المانعون ـ وهم الشافعى وأحمد فى إحدى روايتين عنه وأكثر أهل الظاهر ـ فيستدلون على المنع بأدلة خمسة ، وها هى ذى مشفوعة بوجوه نقضها :

(دليلهم الأول) أن الله تعالى يقول لنبيه ﷺ : « وأنزلنا إليكَ الذكر لتبينَ للناسِ ما نُزِّل إليهم » . وهذا يفيد أن وظيفة الرسول منحصرة فى بيان القرآن . والسنة إن نسخت القرآن لم تكن حينئذ بيانا له ، بل تكون رافعة إليه .

وننقض هذا الاستدلال (أولا) بأن الآية لا تدل على انحصار وظيفة السنة فى البيان ؛ لأنها خالية من جميع طرق الحصر . وكل ماتدل عليه الآية هو أن سنة الرسول مبينة للقرآن ، وذلك لا ينفى أن تكون ناسخة له . ونظير هذه الآية قوله سبحانه « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » ، فإنه يفيد أنه ﷺ نذير للعالمين . ولا تنفى عنه أنه بشير أيضا للعالمين .

(ثانيا) أن وظيفة السنة لو انحصرت فى بيان القرآن، ما صح أن تستقل بالتشريع من نحو إيجاب وتحريم ؛ مع أن إجماع الأمة قائم على أنها قد تستقل بذلك كتحريمه ﷺ كل ذى مخلب من الطيور وكل ذى ناب من السباع ، وكحظره أن يورث بقوله « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » .

(ثالثها) أن السنة نفسها نصت على أنها قد تستقل بالتشريع وإفادة الأحكام ، يحدثنا العرباض بن سارية رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فقال : « أيحسب أحدكم متكئا على أريكة يظن أن الله لم يحرم شيئا إلا ما فى هذا القرآن. ألا إنى قد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر . وإن الله لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ولا ضرب نسائهم ولا أكل ثمارهم إلا إذا أعطوكم الذى فرض عليهم » .

(رابعا) أنه على فرض دلالة الآية على الحصر،فالمراد بالبيان فيها التبليغ لا الشرح. ولقد بلغ الرسول كل ما أنزله الله إلى الناس ، وهذا لا ينافى أنه نسخ ما شاء الله نسخه بالسنة .

(خامساً) أنه على فرض دلالة الآية على الحصر ، ودلالة البيان على خصوص الشرح ، فإن المراد بما أنزل إلى الناس ، هو جنسه الصادق ببعضه ، وهذا لا ينافى

أن تكون السنة ناسخة لبعض آخر ، فيكون الرسول مبينا لما ثبت من الأحكام وناسخا لما ارتفع منها.

(دليلهم الثانى) أن القرآن نفسه هو الذى أثبت أن السنة النبوية حجة ، فلو نسخته السنة لعادت على نفسها بالإبطال ؛ لأن النسخ رفع ، وإذا ارتفع الأصل ارتفع الفرع . والدليل على أن القرآن هو الذى أثبت حجية السنة مانقرؤه فيه من مثل قوله سبحانه : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » « وما آتاكم الرسولُ فخذوهُ وما نهاكم عنه فانتهوا » « قُلْ إن كنتم تحبُّون الله فاتبعونِي يُحبِبكم اللهُ ويغفرْ لكم ذنوبكم » .

وننقض هذا الاستدلال (أولا) بأن كلامنا ليس فى جواز نسخ السنة لنصوص القرآن الدالة على حجيتها حتى ترجع على نفسها بالإبطال ، بل هو فى جواز نسخ ماعدا ذلك مما يصح أن يتعلق به النسخ .

(ثانيا) أن ما استدلوا به حجة عليهم لأن وجوب طاعة الرسول واتباعه ، يقضى بوجوب قبول ما جاء به على أنه ناسخ .

(دليلهم الثالث) أن قوله تعالى : « قل نزله روحُ القدسِ من ربكَ بالحقِّ » قد جاء ردا على من أنكروا النسخ وعابوا به الإسلام ونبي الإسلام بدليل قوله سبحانه قبل هذه الآية : « وإذا بدَّلنا آيةً مكانَ آيةٍ والله أعلمُ بما ينزل قالوا إنما أنتَ مُفْتَرٍ بل أكثرهم لا يعلمونَ » . ومعلوم أن روح القدس إنماينزل بالقرآن. وإذن فلا ينسخ القرآن إلا بقرآن .

وننقض هذا الاستدلال بأن الكتاب والسنةَ كلاهما وحى من الله ، وكلاهما نزل به روح القدس ، بدليل قوله سبحانه « وماينطقُ عن الهوى * إن هو إلا وحْيٌ يُوحَى» فالذهاب إلى أن ماينزل به روح القدس ، هو خصوص القرآن ، باطل .

(دليلهم الرابع) أن الله تعالى يقول : « وإذا تُتْلَى عليهم آياتنا بينات قال الذين لايَرجونَ لقاءنا : ائتِ بقرآنٍ غير هذا أو بَدِّلْهُ . قل : ما يكون لى أن أُبدله من تلقاء نفسى » . وهذا يفيد أن السنة لا تنسخ القرآن ، لأنها نابعة من نفس الرسول ﷺ .

وندفع هذا الاستدلال بمثل ما دفعنا به سابقه ، وهو أن السنة ليست نابعة من نفس الرسول على أنها هوى منه وشهوة ؛ بل معانيها موحاة من الله تعالى إليه ، وكل ما استقل به الرسول أنه عبر عنها بألفاظ من عنده، فهي وحي يوحى وليست من تلقاء نفسه على هذا الاعتبار ، وإذن فليس نسخ القرآن بها تبديلا له من تلقاء نفسه ، إنما هو تبديل بوحي .

(دليلهم الخامس) أن آية : « ما ننسخْ من آيةٍ أو ننسها » تدل على امتناع نسخ القرآن بالسنة ، من وجوه ثلاثة:(أولها) أن الله تعالى قال:« نأتِ بخيرٍ منهاأومثلها» والسنة ليست خيراً من القرآن ولا مثله .

(ثانيها) أن قوله : « نأت » يفيد أن الآتى هو الله . والسنة لم يأت بها الله ، إنما الذى أتى بها رسوله .

(ثالثها) أن قوله : « ألم تعلم أنَّ اللهَ على كلِّ شيء قديرٌ * ألم تعلم أن الله لهُملكُ السمواتِ والأرضِ وما لكم من دونِ الله من وليٍّ ولا نصيرٍ » يفيد أن النسخ لا يصدر إلا عمن له الاقتدار الشامل ، والملك الكاملِ ، والسلطان المطلق ، وهو الله وحده .

وندفع الوجه الأول من هذا الاستدلال بأن النسخ فى الآية الكريمة أعم من أن يكون فى الأحكام أو فى التلاوة، والخيرية والمثلية أعم من أن تكونا فى المصلحة أو فى الثواب ، وقد سبق بيان ذلك . وإذَن فقد تكون السنة الناسخة خيراً من القرآن المنسوخ من هذه الناحية ، وإن كان القرآن خيراً من السنة من ناحية امتيازه بخصائصه العليا دائما .

وندفع الوجه الثانى بأن السنة وحى من الله وما الرسول إلا مبلغ ومعبر عنها فقط. فالآتى بها على الحقيقة هو الله وحده .

وندفع الوجه الثالث بأنا نقول بموجبه وهو أن الناسخ فى الحقيقة هو الله وحده ، والسنة إذا نسخته فإنما تنسخه من حيث إنها وحى صادر منه سبحانه .

شبهتان ودفعهما

(١) لقائل أن يقون : إن من السنة ما يكون ثمرة لاجتهاده صلى الله عليه وسلم ، وهذا ليس وحياً أوحى إليه بـه ، بدليل العتاب الذى وجهه القرآن إلى الرسول فى لطف تارة وفى عنف أخـرى . فكيف يستقيم بعد هذا أن نقول : إن السنة وحى من الله ؟ .

والجواب أن مرادنا هنا بالسنة، ما كانت عن وحى جلى أو خفى ،أما السنة الاجتهادية، فليست مرادة هنا ألبتة ، لأن الاجتهاد لا يكون إلا عند عدم النص ، فكيف يعارضه ويرفعه ؟ وقد شرحنا أنواع السنة فى كتابنا (المنهل الحديث فى علوم الحديث) فارجع إليه إن شئت .

(٢) ولقائل أن يقول : إن من السنة ما كان آحاديا . وخبر الواحد مهما صح فإنه لا يفيد القطع ، والقرآن قطعى المـتن ، فكيف ينسخ بالسنة التى لا تفيد القطع ؟ ومتى استطاع الظن أن يرفع اليقين ؟ .

والجواب أن المراد بالسنة هنا السنة المتواترة دون الآحادية. والسنة المتواترة قطعية الثبوت أيضا كالقرآن. فهما متكافئتان من هذه الناحية ، فلا مانع أن ينسخ أحدهما الآخر. أما خبر الواحد فالحق عدم جواز نسخ القرآن به، للمعنى المذكور، وهو أنه ظنى والقرآن قطعى ، والظنى أضعف من القطعى فلا يقوى على رفعه .

والقائلون بجـواز نسخ القرآن بالسنة الآحادية ، اعتمادا على أن القرآن ظنى الدلالة ، حجتهم داحضة ، لأن القرآن إن لم يكن قطعى الدلالة فهـو قطعى

الثبوت ، والسنة الآحاديـــة ظنية الدلالة والثبوت معا فهى أضعف منه فكيف ترفعه ؟ .

(ب) مقام الوقوع :

ماأسلفناه بين يديك كان فى الجواز. أما الوقوع فقد اختلف المجوزون فيه : منهم من أثبته ومنهم من نفاه « ولكل وجهة هو موليها » وهاك وجهة كل من الفريقين ، لتعرف أن الحق مع النافين .

استدل المثبتون على الوقوع بأدلة أربعة :

(الدليل الأول) أن آية الجلد وهى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحدٍ منهما مائةَ جلدة » تشمل المحصنين وغيرهم من الزناة. ثم جاءت السنة فنسخت عمومها بالنسبة إلى المحصنين ، وحكمت بأن جزاءهم الرجم .

وقد ناقش النافون هـذا الدليل بأمرين : (أحدهما) أن الذى ذكروه تخصيص لا نسخ . (والآخر) أن آية « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة » هى المخرجة لصور التخصيص . وإن جاءت السنة موافقة لها . وقد سبق الكلام على آية « الشيخ والشيخة » فى عداد مانسخت تلاوته وبقى حكمه ، فلا تغفل .

(الدليل الثانى) أن قوله تعالى : « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموتُ إن تركَ خيراً الوصيةُ للوالدينِ والأقربينَ بالمعروف حقاً على المتقين » . منسوخ بقوله ﷺ : « لا وصية لوارث » .

وقد ناقشه النافون بأمرين :

(أولها) أن الحديث المذكور خبر آحاد، وقد تقرر أن الحق عدم جواز نسخ القرآن بخبر الآحاد .

(ثانيها) أن الحديث بتمامه يفيد أن الناسخ هو آيات المواريث ، لا هـذا الحديث . وإليك النص الكامل للحديث المذكور : « إن الله أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث » .

ويؤيد ذلك ما أخرجه أبو داود فى صحيحه ، ونصه « عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : « إن تَرَكَ خيراً الوصيةُ للوالدينِ والأقربينَ » وكانت الوصية كذلك حتى نسختها آية المواريث .

(الدليل الثالث) أن قوله سبحانه : «واللاتى يأتينَ الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهنَّ أربعةً منكم . فإن شهدوا فأمسكوهنَّ فى البيوت حتى يتوفاهنَّ الموتُ أو يجعل اللهُ لهنَّ سبيلا » . منسوخ بقوله صلى الله عليه وسلم : « خذوا عنى خذوا عنى . قد جعل الله لهن سبيلا : البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام . والثيب بالثيب جلد مائة والرجم » .

وقد ناقشه النافون (أولا) بأن الناسخ هنا هو آية الجلد وآية الشيخ والشيخة ، وإن جاء الحديث موافقا لهما .

(ثانيا) بأن ذلك تخصيص لا نسخ، لأن الحكم الأول جعل الله له غاية هو الموت أو صدور تشريع جديد فى شأن الزانيات . وقد حققنا أن رفع الحكم ببلوغ غايته المضروبة فى دليله الأول ليس نسخا .

(الدليل الرابع) أن نهيه صلى الله عليه وسلم عن كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطيور ، ناسخ لقوله سبحانه : « قل لَا أجدُ فيما أوحىَ إلىَّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتةً أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزيرٍ ، فإنه رجسٌ ، أو فسقاً أُهلَّ لغير اللهِ بهِ » .

وقد ناقشه النافون بأن الآية الكريمة لم تتعرض لإباحة ما عدا الذى ذكر فيها ،

إنما هو مباح بالبراءة الأصلية والحديث المذكور ما رفع إلا هـذه البراءة الأصلية ، ورفعها لا يسمى نسخا كما سلف بيانه .

من هذا العرض يخلص لنا أن نسخ القرآن بالسنة لا مانع يمنعه عقلا ولا شرعا . غاية الأمر أنه لم يقع لعدم سلامة أدلة الوقوع كما رأيت .

٣ ـ نسخ السنة بالقرآن

هذا هو القسم الثالث . وفيه خلاف العلماء أيضا بين تجويز ومنع على نمط ما مر فى القسم الثانى ، بيد أن صوت المانعين هنا خافت ، وحجتهم داحضة. أما المثبتون فيؤيدهم دليل الجواز كما يسعفهم برهان الوقوع . ولهذا نجد فى صف الإثبات جماهير الفقهاء والمتكلمين ، ولا نرى فى صف النفى سوى الشافعى فى أحد قوليه ومعه شرذمة من أصحابه ، ومع ذلك فنقل هذا عن الشافعى فيه شىء من الاضطراب أو إرادة خلاف الظاهر .

دليل الجواز :

استدل المثبتون على الجواز هنا ، بمثل ما استدلوا على القسم السالف ، فقالوا : إن نسخ السنة بالقرآن ليس مستحيلا لذاته ولا لغيره . أما الأول فظاهر ، وأما الثانى فلأن السنة وحى كما أن القرآن وحى ولا مانع من نسخ وحى بوحى لمكان التكافؤ بينهما من هذه الناحية .

أدلة للوقوع والجواز :

واستدلوا على الوقوع بوقائع كثيرة ، كل واقعة منها دليل على الجواز كما هى دليل على الوقوع ، لما علمت من أن الوقوع يدل على الجواز وزيادة .

(من تلك الوقائع) أن استقبال بيت المقدس فى الصلاة لم يعرف إلا من السنة ، وقد نسخه قوله تعالى : « فول وجهكَ شطرَ المسجدِ الحرامِ . وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

(ومنها) أن الأكل والشرب والمباشرة كان محرما فى ليل رمضان على من صام ثم نسخ هذا التحريم بقوله تعالى : « فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » .

(ومنها) أن النبى ﷺ أبرم مع أهل مكة عام الحديبية صلحا كان من شروطه أن من جاء منهم مسلماً رده عليهم . وقد وفى بعده فى أبى جندل وجماعة من المكيين جاءوا مسلمين . ثم جاءته امرأة فهم أن يردها فأنزل الله : « يأيها الذينَ آمنوا إذا جاءكم المؤمناتُ مهاجراتٍ فامتحنوهنّ اللهُ أعلمُ بإيمانهنّ . فإن علمتموهن مؤمناتٍ فلا ترجعوهنّ إلى الكفارِ لاهنّ حلٌّ لهم ولا هم يحلُّونَ لهنّ » الآية .

شبهة للمانعين ودفعها :

أورد المانعون على هذا الاستدلال المعتمد على تلك الوقائع شبهة قالوا فى تصويرها : يجوز أن يكون النسخ فيما ذكرتم ثابتا بالسنة ثم جاء القرآن موافقا لها ، وبهذا يؤول الأمر إلى نسخ السنة بالسنة . ويجوز أن الحكم المنسوخ كان ثابتا أولا بقرآن نسخت تلاوته ثم جاءت السنة موافقة له ؛ وبهذا يؤول الأمر إلى نسخ قرآن بقرآن .

وندفع هذه الشبهة بأنها قائمة على مجرد احتمالات واهية لا يؤيدها دليل ، ولو فتحنا بابها وجعلنا لها اعتبارا ، لما جاز لفقيه أن يحكم على نص بأنه ناسخ لآخر إلا إذا ثبت ذلك صريحا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن ذلك باطل بإجماع الأمة على خلافه ، واتفاقها على أن الحكم إنما يسند إلى دليله الذى لا يعرف سواه بعد الاستقراء الممكن .

أدلة المانعين ونقضها :

١ ـ قالوا : إن قوله سبحانه وتعالى : « وأنزلنا إليك الذكرَ لتبينَ للناس مانُزِّل إليهم » يفيد أن السنة ليست إلا بيانا للقرآن ، فإذا نسخها القرآن خرجت عن كونها بيانا له .

وننقض هذا بأن الآية ليس فيها طريق من طرق الحصر. وعلى فرض وجود الحصر فالمراد بالبيان فى الآية التبليغ لا الشرح ، ولا ريب أن التبليغ إظهار. وعلى فرض أن الآية حاصرة للسنة فى البيان بمعنى الشرح لا التبليغ ، فبيانها بعد النسخ باق فى الجملة ، وذلك بالنسبة لما لم ينسخ منها، وأنت تعلم أن بقاء الحكم الشرعى مشروط بعدم ورود ناسخ . فتدبر ولاحظ التفصيل الذى ذكرناه هناك فى نقض الدليل لمانعى نسخ القرآن بالسنة ، فإنه يفيدك هنا .

٢ ـ قال المانعون أيضا : إن نسخ السنة بالقرآن يلبس على الناس دينهم ويزعزع ثقتهم بالسنة ، ويوقع فى روعهم أنها غير مرضية لله ، وذلك يفوت مقصود الشارع من وجوب اتباع الرسول وطاعته واقتداء الخلق به فى أقواله وأفعاله . ولا ريب أن هذا باطل ، فما استلزمه وهو نسخ السنة بالقرآن باطل .

وننقض هذا الاستدلال (أولا) بأن مثله يمكن أن يقال فى أى نوع آخر من أنواع النسخ التى تقولون بها . فما يكون جوابا لكم يكون مثله جوابا لنا .

(ثانيا) أن ما ذكروه من استلزام نسخ السنة بالقرآن لهذه الأمور الباطلة ، غير صحيح ، لأن أدلة القرآن متوافرة على أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى . وذلك يمنع لزوم هذه المحاولات الفاسدة ، ويجعل نسخ السنة بالقرآن كنسخ السنة بالسنة والقرآن بالقرآن ، فى نظر أى منصف كان .

٤ ـ نسخ السنة بالسنة

نسح السنة بالسنة يتنوع إلى أنواع أربعة ، نسخ سنة متواترة بمتواترة ، ونسخ سنة آحادية بآحادية ، ونسخ سنة آحادية بسنة متواتراة، ونسخ سنة متواترة بسنة آحادية. أما الثلاثة الأول فجائزة عقلا وشرعا . وأما الرابع وهو نسخ سنة متواترة بآحادية، فاتفق علماؤنا على جوازه عقلا ، ثم اختلفوا فى جوازه شرعا ، فنفاه الجمهور وأثبته أهل الظاهر.

أدلة الجمهور :

استدل الجمهور على مذهبهم بدليلين :

(أولهما) أن للمتواتر قطعى الثبوت وخبر الواحد ظنى : والقطعى لا يرتفع بالظنى، لأنه أقوى منه ، والأقوى لا يرتفع بالأضعف .

(ثانيهما) أن عمر رضى الله عنه رد خبر فاطمة بنت قيس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجعل لها سكنى ، مع أن زوجها طلقها وبت طلاقها وقد أقر الصحابة عمر على رده هذا ، فكان إجماعا . وما ذاك إلا لأنه خبر آحادى لا يفيد إلا الظن، فلا يقوى على معارضة ماهو أقوى منه ، وهو كتاب الله إذا يقول: «أسكنوهُنَّ من حيثُ سكنتم من وُجْدِكم » وسنة رسوله المتواترة فى جعل السكن حقا من حقوق المبتوتة .

ملاحظة :

روت كتب الأصول فى هذا الموضع خبر فاطمة بنت قيس بصيغة مدخولة ، فيها أن عمر قال حين بلغه الخبر: « لا نترك كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لا ندرى أصدقت أم كذبت، حفظت أم نسيت » وعزا بعضهم هذه الرواية المدخولة إلى الإمام مسلم فى صحيحه. والحقيقة أن الرواية بهذا الصورة غير صحيحه ، كما أن عزوها إلى مسلم غير صحيح .

والرواية الصحيحة فى مسلم وغيره ليس فيها كلمة «أصدقت أم كذبت». بل اقتصرت على كلمة «أحفظت أم نسيت». ومثلك ـ حماك الله ـ يعلم أن الشك فى حفظ فاطمة ونسيانها، لا يقدح فى عدالتها وصدقها، فإياك أن تخوض مع الخائضين من المستشرقين وأذنابهم فتطعن فى الصحابة وتجرحهم فى تثبتهم لمثل هذا الخبر المردود.

وإن شئت المزيد من التعليق على هذا الخبر وماشابهه، فاقرأ ما كتبناه تحت عنوان: (دفع شبهات فى هذا المقام) من كتابنا (المنهل الحديث فى علوم الحديث).

أدلة الظاهر

اعتمد أهل الظاهر فى جواز نسخ المتواتر بالآحاد شرعا على شبهات ظنوها أدلة، وما هى بأدلة.

(منها) أن النسخ تخصيص لعموم الأزمان، فيجوز بخبر الواحد وإن كان المنسوخ متواترا، كما أن تخصيص عموم الأشخاص يجوز بخبر الواحد وإن كان العام المخصوص متواترا.

وندفع هذا (أولا) بأن المقصود من النص المنسوخ جميع الأزمان، وليس المقصود منه استمرار الحكم إلى وقت النسخ فقط. وإذن فالنسخ رفع لمقتضى العموم لا تخصيص للعموم. فكيف يقاس النسخ على التخصيص الذى هو بيان محض للمقصود من اللفظ.

(ثانيا) أننا نمنع جواز تخصيص المتواتر بخبر الواحد كما هو رأى الحنفية.

(ومنها) أن أهل قباء كانوا يصلون متجهين إلى بيت المقدس فأتاهم آت يخبرهم بتحويل القبلة إلى الكعبة، فاستجابوا له، وقبلوا خبره، واستداروا وهم فى صلاتهم، وبلغ ذلك رسول الله فأقرهم. وهذا دليل على أن خبر الواحد ينسخ المتواتر.

وندفع هذا بأن خبر الواحد فى هذه الحادثة احتفت به قرائن جعلته يفيد القطع، وكلامنا

فى خبر الواحد الذى لا يفيد القطع؛ وهذه القرائن التى تفيد القطع هنا، نعلمها من أن الحادثة المروية حادثة جزئية حسية ، لا تحتمل الخطأ ولا النسيان، وأنها تتصل بأمر عظيم هو صلاة جمع من المسلمين، وأن الراوى لها صحابى جليل، وأنه لا واسطة بينه وبين الرسول، وأنه واثق من أنه إن كذب فسيفتضح أمره لا محالة ، وسيلاقى من العنت والعقاب ما يحيل العقل عادة معه تسبب هذا الراوى العظيم له. يضاف إلى هذا أن التوجه إلى بيت المقدس كان متوقع الانتساخ ، لما هو معروف من حب العرب وحب الرسول معهم لاستقبال الكعبة التى هى مفخرتهم ومفخرة آبائهم وأجدادهم. فكان عليه الصلاة والسلام يرفع وجهه إلى السماء انتظارا لنزول الوحى بذلك. «قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها . فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

نسخ القياس والنسخ به

ينطوى تحت نسخ القياس والنسخ به صور ثلاث: (أولاها) أن ينسخ القياس حكما دل عليه قياس . ومثلوا لذلك بأن يوجب الشارع إكرام زيد لسخائه ، فنقيس عليه عمراً لوجود علة السخاء فيه. ثم بعد ذلك يوجب الشارع إهانة بكر لكونه سكيرا، فنقيس عليه عمرا المذكور لوجود علة السكر فيه وبذلك ينتسخ وجوب إكرام عمرو بوجوب إهانته، عند ترجيح هذا القياس الثانى على الأول .

(ثانيتها) أن ينسخ القياس حكما دل عليه نص، كأن ينص الشارع على إباحة النبيذ، ثم بعد ذلك يحرم الخمر لإسكاره ، فنقيس النبيذ عليه لوجود علة الإسكار فيه . وبذلك ينتسخ حكم الإباحة الثابت نصا ، بحكم التحريم الثابت قياسا .

(ثالثتها) أن ينسخ النص قياسا ، كأن يحرم الشارع الخمر لكونه مسكرا ، فنحمل عليه النبيذ لإسكاره ، ثم بعد ذلك ينص الشارع على إباحة النبيذ ، فتنسخ حرمة النبيذ الثابتة قياسا ، بإباحته الثابتة نصا .

وقد اختلف علماؤنا. فمنهم من منع نسخ القياس والنسخ به مطلقا. ومنهم من جوزه مطلقا. ومنهم من فصل. والجمهور على جواز نسخه والنسخ به إن كان قطعيا، وعلى منعه إن كان ظنيا. والقطعى ماقطع فيه بنفى الفارق، كقياس صب البول فى الماء الراكد على البول فيه، فيأخذ حكمه وهو الكراهة.

أدلة المانعين مطلقا :

وقد استدل القائلون بمنع نسخ القياس مطلقا؛ بأن نسخه يقتضى ارتفاع حكم الفرع مع بقاء حكم الأصل. وهذا لا يقبله العقل؛ لأن العلة التى رتب عليها الشارع حكم الأصل موجودة فى الفرع، وهى قاضية ببقاء الحكم فى الفرع مادام باقيا فى الأصل.

ونوقش هذا الاستدلال بأمرين: (أحدهما) أن نسخ القياس لا يقتضى ما ذكروه، بل يقتضى ارتفاع حكم الأصل تبعا لارتفاع حكم الفرع على معنى أن نسخ حكم الفرع يدل على أن الشارع قد ألغى العلة التى رتب عليها حكم الأصل وإلغاؤها يقتضى ارتفاع حكمه.

(والآخر) أنه لامانع عقلا من أن ينسخ الشارع الفرع بناء على أنه اعتبر قيدا فى العلة لم يكن معتبرا من قبل. وهذا القيد موجود فى الأصل وليس موجودا فى الفرع.

هذا دليل المانعين لجواز نسخ القياس مطلقا مع مناقشته. أما الدليل على منعهم جواز النسخ به مطلقا، فيتلخص فى أن المنسوخ به إما أن يكون نصا أو إجماعا أو قياسا. لا جائز أن يكون نصا، لأن دلالته أقوى من دلالة القياس. والضعيف لا يرفع ماهو أقوى منه. ولا جائز أن يكون المنسوخ به إجماعا، لأن الإجماع لا يصلح أن يكون ناسخا ولا منسوخا، كما سيأتى تحقيقه. ولا جائز أن يكون قياسا، لأنه يشترط لصحة القياس أن يسلم من المعارض المساوى له والأرجح منه؛ وهذا القياس المتأخر مفروض أنه أرجح من الأول، وإذن يتبين بظهوره بطلان القياس الأول. وإذا تبين بطلانه بطل القول بنسخه، لأن النسخ رفع

لحكم ثابت من قبل . وهذا قد تبين خطؤه وعدم ثبوته .

ونوقش هذا الاستدلال بأن إطلاق القول بأن النص أقوى دلالة من القياس غير مسلم ، فإن هناك من النصوص ما تخفى دلالته حتى لا يفقهها إلا الخواص على حين أن هناك من الأقيسة ما تظهر دلالته لكل باحث منصف .

دليل المجوزين مطلقا :

واستند المجوزون لنسخ القياس والنسخ به مطلقا ، إلى أن القياس دليل شرعى لم يقم دليل عقلى ولا نقلى على امتناع نسخه أو النسخ به .

ونوقش هذا الاستدلال، بأن إطلاقهم هذا يستلزم التسوية بين ظنى القياس وقطعيه، ويستلزم جواز ارتفاع القطعى منه بالظنى ، وكلاهما غير مقبول عقلا ولا نقلا .

دليل الجمهور :

واستدل الجمهور على جواز نسخه والنسخ به إن كان قطعيا ، بأن القياس القطعى لا يستلزم نسخه ولا النسخ به محالا عقليا ولا شرعيا . واستدلوا على عدم جواز نسخه والنسخ به إن كان ظنيا ، بأن جواز ذلك يستلزم المحال . أما بيانه بالنسبة لعدم جواز نسخه ، فهو أن الناسخ له إما أن يكون قطعيا أو ظنيا ، وكلا هذين مبطل للقياس الأول ، والباطل لا ثبوت له حتى ينتسخ . ويستدلون على أن كلا هذين مبطل للقياس الأول بأن اقتضاء القياس للحكم مشروط بألا يظهر له معارض مساو له أو أرجح منه . ولا ريب أن القياس القطعى المتأخر أقوى من الأول ، وأن الظنى أرجح منه حتى يعقل نسخه له ، فبظهور أحدهما يتبين بطلان ذلك القياس الأول وإذن فلا نسخ ودليلهم على عدم جواز النسخ به ، هو أن المنسوخ بالقياس الظنى إما أن يكون قطعيا أو ظنيا . لا جائز أن يكون قطعيا، لأن الظن لا يقوى على رفع اليقين . ولا جائز أن يكون ظنيا، لأن اقتضاء القياس الظنى للحكم، مشروط بألا يظهر له معارض مساو له أو أرجح منه. وفى هذه الصورة قد ظهر له معارض وهو القياس المتأخر عنه الذى لا بد أن يكون

أرجح منه ، حتى يعقل نسخه له . وعلى هذا يكون القياس المتأخر مبينا بطلان اقتضاء القياس المتقدم للحكم ، لا ناسخا له .

نسخ الإجماع والنسخ به

جمهور الأصوليين على أن الإجماع لايجوز أن يكون ناسخا ولا منسوخا. واستدلوا على أنه لايجوز أن يكون ناسخا ؛ بأن المنسوخ به إما أن يكون نصا أو إجماعا أو قياسا. لا جائز أن يكون نصا ، لأن الإجماع لا بد أن يكون له نص يستند إليه ؛ خصوصا إذا انعقد على خلاف النص . وإذن يكون الناسخ هو ذلك النص الذى استند إليه الإجماع لا نفس الإجماع، ولا جائز أن يكون المنسوخ بالإجماع إجماعا؛لأن الإجماع لايكون إلا عن مستند يستند إليه من نص أو قياس ، إذ الإجماع بدون مستند قول على الله بغير علم ، والقول على الله بغير علم ضلالة ، والأمة لا تجتمع على ضلالة. ومستند الإجماع الثانى لا بد أن يكون نصا حدث بعد الإجماع الأول ، لأن ذلك النص لو تحقق قبل الإجماع الأول ما أمكن أن ينعقد الإجماع على خلافه. ولا ريب أن حدوث نص بعد رسول الله ﷺ محال،فما أدى إليه وهو نسخ الإجماع بالإجماع محال. ولا جائز أن يكون المنسوخ بالإجماع قياسا،لأن الإجماع على خلاف القياس يقتضى أحد أمرين: إما خطأ القياس،وإما انتساخه بمستند الإجماع، وعلى كلا التقديرين فلا يكون الإجماع ناسخا،واستدلوا على أنه لا يجوز أن يكون الإجماع منسوخا، بأن الإجماع لا يعتبر حجة إلا بعد رسول الله ﷺ . وإذن فالناسخ له إما أن يكون نصا أو قياسا أو إجماعا . لا جائز أن يكون نصا،لأن الناسخ متأخر عن المنسوخ أو لا يعقل أن يحدث نص بعد رسول الله ﷺ . ولا جائز أن يكون الناسخ للإجماع قياسا لأن نسخ الإجماع بالقياس يقتضى أن يكون الحكم الدال على الأصل حادثا بعد الرسول وهو باطل .ولا جائز أن يكون الناسخ للإجماع إجماعا ، لما سبق . وأما قولهم : هذا الحكم منسوخ إجماعا ، فمعناه أن الإجماع انعقد على أنه نسخ بدليل من الكتاب أو السنة ؛ لا أن الإجماع هو الذى نسخه .

المجوزون ومناقشتهم :

ما تقدم هو مذهب الجمهور : ولكن بعض المعتزلة وآخرون ، جوزوا أن يكون الإجماع ناسخاً لكل حكم صلح النص ناسخاً له. واستدلوا بأدلة : منها أن نصيب المؤلفة قلوبهم من الزكوات ثابت بصريح القرآن ، وقد نسخ بإجماع الصحابة فى زمن الصديق على إسقاطه .

ونوقش هذا بوجوه : « أولها » أن الإجماع المذكور لم يثبت ، بدليل اختلاف الأئمة المجتهدين فى سقوط نصيب هؤلاء .

« ثانيها » أن العلة فى اعتبار المؤلفة قلوبهم من مصارف الزكاة ، هى إعزاز الإسلام بهم . وفى عهد أبى بكر اعتز الإسلام فعلا ، بكثرة أتباعه واتساع رقعته ، فأصبح غير محتاج إلى إعزاز ، وسقط نصيب هؤلاء المؤلفة لسقوط علته .

« ثالثها » أنه على فرض صحة هذا الإجماع ، فإن الإجماع لا بد له من مستند . وإذن فالناسخ هو هذا المستند ، لا الإجماع نفسه .

موقف العلماء من الناسخ والمنسوخ

العلماء فى موقفهم من الناسخ والمنسوخ يختلفون ، بين مقصر ومقتصد وغال فالمقصرون هم الذين حاولوا التخلص من النسخ إطلاقا سالكين به مسلك التأويل بالتخصيص ونحوه ، كأبى مسلم ومن وافقه . وقد بينا الرأى فى هؤلاء سابقا .

والمقتصدون هم الذين يقولون بالنسخ فى حدوده المعقولة ، فلم ينفوه إطلاقا . كم نفاه أبو مسلم وأضرابه ، ولم يتوسعوا فيه جزافا كالغالين ، بل يقفون به موقف الضرورة التى يقتضيها وجود التعارض الحقيقى بين الأدلة ، مع معرفة المتقدم منها والمتأخر .

والغالون هم الذين تزيدوا ، فأدخلوا فى النسخ ماليس منه ، بناء على شبه ساقطة . ومن هؤلاء أبو جعفر النحاس فى كتابه « الناسخ والمنسوخ » وهبة الله بن سلامة ،

وأبو عبد الله محمد بن حزم ، وغيرهم فإنهم ألفوا كتبا فى النسخ أكثروا فيها من ذكر الناسخ والمنسوخ ، اشتباهاً منهم وغلطا . ومنشأ تزيدهم هذا أنهم انخدعوا بكل مانقل عن السلف أنه منسوخ وفاتهم أن السلف لم يكونوا يقصدون بالنسخ هذا المعنى الاصطلاحى بل كانوا يقصدون به ما هو أعم منه ، مما يشمل بيان المجمل وتقييد المطلق ونحوها .

منشأ غلط المتزيدين تفصيلا

ونستطيع أن نرد أسباب هذا الغلط إلى أمور خمسة :

(أولها) ظنهم أن ما شرع لسبب ثم زال سببه ، من المنسوخ . وعلى هذا عدوا الآيات التى وردت فى الحث على الصبر وتحمل أذى الكفار أيام ضعف المسلمين وقلتهم ، منسوخة بآيات القتال ، مع أنها ليست منسوخة . بل هى من الآيات التى دارت أحكامها على أسباب ، فالله أمر المسلمين بالصبر وعدم القتال فى أيام ضعفهم وقلة عددهم ، لعلة الضعف والقلة ثم أمرهم بالجهاد فى أيام قوتهم وكثرتهم ، لعلة القوة والكثرة . وأنت خبير بأن الحكم يدور مع علته وجودا وعدما وأن انتفاء الحكم لانتفاء علته لا يعد نسخا بدليل أن وجوب التحمل عند الضعف والقلة لا يزال قائما إلى اليوم ، وأن وجوب الجهاد والدفاع عند القوة والكثرة لا يزال قائما كذلك إلى اليوم .

(ثانيها) توهمهم أن إبطال الإسلام لما كان عليه أهل الجاهلية ، من قبيل مانسخ الإسلام فيه حكما بحكم ، كإبطال نكاح نساء الآباء ، وكحصر عدد الطلاق فى ثلاث ، وعدد الزواج فى أربع ، بعد أن لم يكونا محصورين ، مع أن هذا ليس نسخا ، لأن النسخ رفع حكم شرعى ، وما ذكروه من هذه الأمثلة ونحوها رفع الإسلام فيه البراءة الأصلية وهى حكم عقلى لا شرعى .

(ثالثها) اشتباه التخصيص عليهم بالنسخ ، كالآيات التى خصصت باستثناء أو غاية مثل قوله سبحانه « والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم فى كل وادٍ يهيمون * وأنهم

يقولونَ مالاَ يفعلونَ * إلاَّ الذين آمنو وعملوا الصالحات وذكروا اللهَ كثيراً وانتصروا من بعد ماظلموا » ومثل قوله « واعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره » .

(رابعها) اشتباه البيان عليهم بالنسخ ، فى مثل قوله سبحانه : « ومن كان غنيًّا فليستَعْفِف. ومن كان فقيراً فليأكل بالمعرف » فإن منهم من توهم أنه ناسخ لقوله سبحانه « إن الذينَ يأكلونَ أموال اليتامى ظلماً، إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلونَ سعيرا » . مع أنه ليس ناسخا له ؛ وإنما هو بيان لما ليس بظلم ، وببيان ما ليس بظلم يعرف الظلم « وبضدها تتميز الأشياء » .

(خامسها) توهم وجود تعارض بين نصين ، على حين أنه لا تعارض فى الواقع . وذلك مثل قوله تعالى : (وأنفقوا ممارزقناكم) وقوله :(وممارزقناهمُ ينفقون. فإن بعضهم توهم أن كلتا الآيتين منسوخة بآية الزكاة . لتوهمه أنها تعاض كلا منهما . على حين أنه لا تعارض ولا تنافى، لأنه يصح حمل الإنفاق فى كلتا الآيتين الأوليين على مايشمل الزكاة وصدقة التطوع ونفقه الأهل والأقارب ونحو ذلك وتكون آية الزكاة معهما من قبيل ذكر فرد من أفراد العام بحكم العام. ومثل هذا لا يقوى على تخصيص العام ، فضلا عن أن ينسخه؛ وذلك لعدم وجود تعارض حقيقى لا بالنسبة إلى كل أفراد العام حتى يكون ناسخا ولا بالنسبة إلى بعضها حتى يكون مخصصا .

الآيات التى اشتهرت بأنها منسوخة

قد عرفت أن المتزيدين أكثروا القول بالآيات المنسوخة غلطا منهم واشتباها . ونزيدك هنا أن بعض فطاحل العلماء تعقب هؤلاء المتزيدين بالنقد كالقاضى أبى بكر بن العربى وكجلال الدين السيوطى الذى حصر مايصلح لدعوى النسخ من آيات القرآن فى اثنتين وعشرين آية ، ثم ذكر أن الأصح فى آيتى الاستئذان والقسمة الإحكام لاالنسخ. وها هى ذى مشفوعة بالتعليق عليها ، مرتبة بترتيب المصحف الشريف :

الآية الأولى

« ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله » قيل إنهامنسوخة بقوله سبحانه: « فولِّ وجهكَ شطرَ المسجدِ الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » لأن الآية الأولى تفيد جواز استقبال غير المسجد الحرام فى الصلاة ، ما دامت الآفاق كلها لله ، وليست له جهة معينة . والثانية تفيد عدم جواز استقبال غيره فيها، مادامت تحتم استقبال المسجد الحرام فى أى مكان نكون فيه .

وقيل إن الآية المذكورة ليست منسوخة ، وإنما هى محكمة ، وهذا ما نرجحه ؛ لأنها نزلت ردا على قول اليهود حين حولت القبلة إلى الكعبة : « ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها » إذن فهى متأخرة فى النزول عن آية التحويل كما قال ابن عباس . وليس بمعقول أن يكون الناسخ سابقا على المنسوخ . ثم إن معناها هكذا إن الآفاق كلها لله ، وليس سبحانه فى مكان خاص منها ، وليس له جهة معينة فيها . وإذن فله أن يأمر عباده باستقبال مايشاء من الجهات فى الصلاة ، وله أن يحولهم من جهة إلى جهة . وهذا المعنى ـ كما ترى ـ لايتعارض وأن يأمر الله عباده وجوبا باستقبال الكعبة دون غيرها، بعد أن أمرهم باستقبال بيت المقدس. وحيث لاتعارض فلا نسخ بل الآيتان محكمتان. ويؤيد إحكام هذه الآية أن جملة « ولله المشرق والمغرب » وردت بنصها فى سياق الآيات النازلة فى التحويل إلى الكعبة ؛ ردا على من طعنوا فيه . اقرأ ـ إن شئت ـ قوله سبحانه « سيقولُ السفهاء منَ الناسِ ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها . قلْ للهِ المشرقُ والمغربُ » . . . وبعضهم يمنع التعارض ويدفع النسخ ، بأن آية « ولله المشرق والمغرب» تفيد جواز التوجه إلى غير الكعبة فى خصوص صلاة النافلة سفرا على الدابة ، ويقول: إن هذا الحكم باق لم ينسخ . أما الآية الثانية فتفيد وجوب استقبال الكعبة فى الفرائض. وبعضهم يحمل الآية الأولى على التوجه فى الدعاء ، والثانية على التوجه فى الصلاة، وإذن

لاتعارض على هذين الاحتمالين وحيث لاتعارض فلا نسخ ، ولـكن هذين الرأيين وإن وافقا الرأى السابق فى إحكام الآية فهما مبنيان على تأويل فى معنى الآية يخالف الظاهر كما هو ظاهر . نعم إن آية (فولِّ وجهكَ شطرَ المسجدِ الحرمِ) ناسخة لما كان واجبا بالسنة من وجوب استقبال بيت المقدس ، على رأى من لا يمنع نسخ السنة بالقرآن .

الآية الثانية

(كتب عليكمُ إذا حضر أحدَكم الموتُ إن تركَ خيراً الوصيةُ للوالدينِ والأقربينَ بالمعروفِ ، حقا على المتقينَ). فإنها تفيد أن الوصية للوالدين والأقربين فرض مكتوب، وحق واجب ، على من حضرهم الموت من المسلمين . وقد اختلف فى نسخ هذه الآية وفى ناسخها. فالجمهور على أنها منسوخة وأن ناسخها آيات المواريث. وقيل إنها منسوخة بالسنة، وهى قوله ﷺ : « لا وصية لوارث ». وقيل منسوخة بإجماع الأمة على عدم وجوب الوصية للوالدين والأقربين . . وقيل إنها محكمة لم تنسخ . ثم اختلف هؤلاء القائلون بالإحكام ، فبعضهم يحملها على من حرم الإرث من الأقربين ، وبعضهم يحملها على من له ظروف تقضى بزيادة العطف عليه ، كالعجزة وكثيرى العيال من الورثة .

ورأيى أن الحق مع الجمهور فى أن الآية منسوخة وأن ناسخها آيات المواريث. أما القول بإحكامها فتكلف ومشى فى غير سبيل، لأن الوالدين ـ وقد جاء ذكرهما فى الآية ـ لا يحرمان من الميراث بحال ، ثم إن أدلة السنة متوافرة على عدم جواز الوصية لوارث ، محافظة على كتلة الوارثين أن تتفتت ، وحماية للرحم من القطيعة التى نرى آثارها السيئة بين من زين الشيطان لمورثهم أن يزرع لهم شجرة الضغينة قبل موته ، بمفاضلته بينهم فى الميراث عن طريق الوصية .

وأما القول بأن الناسخ السنة، فيدفعه أن هذا الحديث آحادى والآحادى ظنى والظنى لا يقوى على نسخ القطعى وهو الآية . وأما القول بأن الناسخ هو الإجماع فيدفعه ما بيناه من عدم جواز نسخ الإجماع والنسخ به ، نعم إن نسخ آية الوصية بآيات المواريث فيه شيء من الخفاء والاحتمال ، ولكن السنة النبوية أزالت الخفاء ورفعت الاحتمال ، حين أفادت أنها ناسخة ، إذ قال ﷺ بعد نزول آية للمواريث « إن الله أعطى كل ذى حق حقه ، فلا وصية لوارث » . . وفى هذا المعنى ينقل عن الشافعى ما خلاصته . . « إن الله تعالى أنزل آية الوصية وأنزل آية المواريث، فاحتمل أن تكون الوصية باقية مع المواريث واحتمل أن تكون المواريث ناسخة للوصية. وقد طلب العلماء ما يرجح أحد الاحتمالين ، فوجدوه فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . « لا وصية لوارث » : وهذا الخبر وإن كان آحاديا لا يقوى على نسخ الآية فإنه لا يضعف عن بيانها وترجيح احتمال النسخ على احتمال عدمه فيها .

هذا ـ ولا يفوتنا أن نشير إلى أن الشعبى والنخعى ذهبا إلى عدم نسخ آية الوصية (مستندين إلى أن حكمها هو الندب لا الوجوب فلا تعارض بينها وبين آية المواريث ، كما لا تعارض بينها وبين حديث : لا وصية لوارث) لأن معناه ، لا وصية واجبة وهو لا ينافى ندب الوصية؛ وحيث لا تعارض فلا نسخ : ولكن هذا الرأى سقيم فيما نفهم ، لأنه خلاف الظاهر المتبادر من لفظ (كتب) المعروف فى معنى ، الفرضية ، ومن لفظ (حقا على المتقين) المعروف فى معنى الإلزام . ومن شواهد السنة الناهية عن الوصية لوارث .

الآية الثالثة

« وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، فمن تطوع خيراً فهو خيرٌ له ، وأن تصوموا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمونَ » فإنها تفيد تخيير من يطيق الصوم بين الصوم

والإفطار مع الفدية : وقد نسخ ذلك بقوله سبحانه : « فمن شهِدَ منكم الشهر فليصمه » المفيد لوجوب الصوم دون تخيير على كل صحيح مقيم من المسلمين .

وقيل إن الآية محكمة لم تنسخ ، لأنها على حذف حرف النفى والتقدير « وعلى الذين لا يطيقونه فدية طعام مسكين » . ويدل على هذا الحذف قراءة « يطوقونه » بتشديد الواو وفتحها ، والمعنى يطيقونه بجهد ومشقة . وإذَن لا تعارض ولا نسخ ، ويرد هذا الرأى (أولا) بأنه مبنى على أن فى الآية حذفا ، ولا ريب أن الحذف خلاف الأصل . أما قراءة « يطوقونه » بالتشديد ، فلا تدل على مشقة تصل بصاحبها إلى جواز الفطر بعد إيجاب الصوم من غير تخيير ، بل تدل على مشقة ما ، ولا شك أن كل صوم فيه مشقة ما خصوصا أول مشروعيته (ثانيا) أن أبا جعفر النحاس روى فى كتابه الناسخ والمنسوخ عن أبى سلمة بن الأكوع أنه قال : لما نزلت هذه الآية : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » كان من شاء منا صام ومن شاء أن يفتدى فعل ، حتى نسختها الآية بعدها .

الآية الرابعة

« يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيامُ كما كتبَ على الذينَ من قبلكم » فإن هذا التشبيه يقتضى موافقة من قبلنا فيما كانوا عليه من تحريم الوطء والأكل بعد النوم ليلة الصوم . وقد نسخ ذلك بقوله سبحانه : « أحلَّ لكم ليلةَ الصيام الرفثُ إلى نسائكم » . كذلك قالوا ، ولكنك تعلم أن التشبيه لا يجب أن يكون من كل وجه ، وإذن فالتشبيه فى الآية الأولى لا يقضى بما ذكروه من وجوب موافقة أهل الكتاب فيما كانوا عليه فى صومهم ، استدلالا بالتشبيه فى قوله « كما كتبَ على الذينَ من قبلكم » وعلى هذا فلا تعارض بين الآيتين ، وحيث انتفى التعارض انتفى النسخ .

الآية الخامسة

« يسألونك عنِ الشهرِ الحرامِ قتالٍ فيهِ . قل: قتالٌ فيهِ كبيرٌ » فإنها تفيد حرمة القتال فى الشهر الحرام . وقد روى ابن جرير عن عطاء بن ميسرة أنها منسوخة بقوله تعالى : « وقاتلوا المشركينَ كافةً كما يقاتلونكم كافةً » . ونقل أبو جعفر النحاس إجماع العلماء ما عدا عطاء على القول بهذا النسخ . ووجه ذلك أن آية « وقاتلوا المشركينَ كافةً » أفادت الإذن بقتال المشركين عموماً . والعموم فى الأشخاص يستلزم العموم فى الأزمان . وأيدوا ذلك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتل هوازن بحنين وثقيفا بالطائف فى شوال وذى القعدة سنة ثمان من الهجرة . ولا ريب أن ذا القعدة شهر حرام ، وقيل إن النسخ لم يقع بهذه الآية ، إنما وقع بقوله سبحانه : « فاقتلوا المشركينَ حيثُ وجدتموهم » فإن عموم الأمكنة يستلزم عموم الأزمنة .

ذلك رأى الجمهور . وهو محجوج فيما نفهم بما ذهب إليه عطاء وغيره ، من أن عموم الأشخاص فى الآية الأولى ، وعموم الأمكنة فى الآية الثانية ، لا يستلزم واحد منهما عموم الأزمنة . وإذَن فلا تعارض ولا نسخ . بل الآية الأولى نبهت على العموم فى الأشخاص ، والثانية نبهت على العموم فى الأمكنة . وكلاهما غير مناف لحرمة القتال فى الشهر الحرام ، لأن عموم الأشخاص وعموم الأمكنة يتحققان فى بعض الأزمان الصادق بما عدا الأشهر الحرم . ويؤيد ذلك أن حرمة القتال فى الشهر الحرام لا تزال باقية ، اللهم إلا إذا كان جزاء لما هو أشد منه ، فإنه يجوز حينئذ لهذا العارض ، كما دل عليه قول الله فى الآية نفسها : « وصدٌّ عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجدِ الحرام ، وإخراجُ أهله منه أكبر عند الله . والفتنة أكبر من القتل » .

الآية السادسة

« والذينَ يُتَوفَّون منكم ويذَرون أزواجاً وصيةً لأزواجهم ، متاعاً إلى الحولِ غيرَ إخراجٍ ، فإن خرَجْنَ فلا جُناحَ عليكم فيما فعلنَ فى أنفسهنَّ من معروفٍ » فإنها منسوخة بقوله سبحانه : « والذينَ يُتَوَفَّوْن منكم ويذرون أزواجاً يتربَّصن بأنفُسِهنَّ أربعةَ أشهرٍ وعشراً. فإذا بلغنَ أجلهنَّ فلا جُناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهنَّ بالمعروف » لأن الآية الأولى أفادت أن من توفى عنها زوجها يوصى لها بنفقة سنة وبسكنى مدة حول مالم تخرج. فإن خرجت فلا شيء لها. وأما الثانية فقد أفادت وجوب انتظارها أربعة أشهر وعشرا . ولازم هذا أنه لايجوز لها أن تخرج فى هذه المدة أو تتزوج .

وقيل إن ذلك تخصيص لا نسخ ؛ فإن المرأة قد تكون عدتها سنة كاملة إذا كانت حاملا ، ويرد هذا بأن الآية الأولى تفيد اعتداد المرأة حولًا كاملا إذا كانت غير حامل أو كانت حاملا ولم يمكث حملها سنة . والآية الثانية قد رفعت هذا جزما . وذلك محقق للنسخ . على أن الاعتداد حولا كاملا فيما إذا كانت المرأة حاملا، ليس لدلالة الآية الأولى عليه ، بل لآية « وأُولاتُ الأحمالِ أجلُهنَّ أن يضَعْنَ حملهنَّ » وهذا لا يتقيد بعام ، بل ربما يزيد أو ينقص .

وقيل: إن الآية الأولى محكمة، ولا منافاة بينها وبين الثانية ،لأن الأولى خاصة فيما إذا كان هناك وصية للزوجة بذلك ولم تخرج ولم تتزوج. أما الثانية ففى بيان العدة والمدة التى يجب عليها أن تمكثها . وهما مقامان مختلفان . . ويرد هذا بأن الآية الأولى تجعل للمتوفى عنها حق الخروج فى أى زمن وحق الزواج ، ولم تحرم عليها شيئا منهما قبل أربعة أشهر وعشر. أما الثانية فقد حرمتهما وأوجبت عليها الانتظار، دون خروج وزواج طوال هذه المدة ، فالحق هو القول بالنسخ ، وعليه جمهور العلماء .

الآية السابعة

« وإنْ تُبدوا مافى أنفسكم أو تُخْفوه يُحاسبكم بهِ اللهُ » فإنها منسوخة بقوله سبحانه « لا يكلِّف اللهُ نفساً إلا وُسْعها » لأن الآيـــة الأولى تفيد أن الله يكلف العباد حتى بالخطرات التى لا يملكون دفعها ، والآية الثانية تفيد أنه لا يكلفهم بها ، لأنه لا يكلف نفساً إلا وسعها. والذى يظهر لنا أن الآية الثانية مخصصة للأولى وليست ناسخة. لأن إفادة الأولى لتكليف الله عباده بما يستطيعون مما أبدوا فى أنفسهم أو أخفوا ، لاتزال هذه الإفادة باقية ، وهذا لا يعارض الآية الثانية حتى يكون ثمة نسخ .

وقال بعضهم : إن الآية محكمة ، لأنها خاصة بكتمان الشهادة وإظهارها . ويرده أنه لادليل على هذا التخصيص .

وقال بعضهم : إنها محكمة مع بقائها على عمومها ، والمعنى أن الله يحاسب المؤمنين والكافرين بما أبدوا وبما أخفوا ، فيغفر للمؤمنين ويعذب الكافرين والمنافقين... ويرده أن هذا العموم لا يسلم بعد ماتقرر من أن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ، سواء أكانت نفسا مؤمنة أم كافرة . لأن لفظ « نفسا » نكرة فى سياق النفى فيعم .

الآية الثامنة

« يأيها الذينَ آمنُوا اتقُوا اللهَ حقَّ تُقاتِه » قال السيوطى : ليس فى آل عمران آية يصح فيها دعوى النسخ إلا هذه الآية . فقد قيل إنها منسوخة بقول الله تعالى : « فاتقُوا اللهَ مااستطعتمْ » . اهـ .

والذى يبدو لنا أنها غير منسوخة ، لأن التعارض الحقيقى بين الآيتين غير مسلم ، فإن تقوى الله حق تقواه المأمور بها فى الآية الأولى ، معناها الإتيان بما يستطيعه المكلفون من هداية الله ، دون ماخرج عن استطاعتهم ، وقد ورد تفسيرها بأن يحفظ الإنسان رأسه وما وعى ،

وبطنه وما حوى ، ويذكر الموت والبلى . ولا ريب أن ذلك مستطاع بتوفيق الله. فإذن لا تعارض بينها وبين قوله « فاتقوا الله ما استطعتم » وحيث لا تعارض فلا نسخ .

الآية التاسعة

« وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً » قيل إنها منسوخة بآيات المواريث . والظاهر أنها محكمة ، لأنها تأمر بإعطاء أولى القربى واليتامى والمساكين الحاضرين لقسمة التركة شيئاً منها. وهذا الحكم باق على وجه الندب مادام المذكورون غير وارثين . ولا تعارض ولا نسخ .

نعم لو كان حكم إعطاء هؤلاء هو الوجوب، ثم رفع بآيات المواريث، وتقرر الندب بدليل آخر بدلا من الحكم الأول ، فلا مفر من القول بالنسخ . ولكن المأثور عن ابن عباس أن الآية محكمة غير أن الناس تهاونوا بالعمل بها . وهذا يجعلنا نرجح أن الأمر فى الآية كان للندب لا للوجوب من أول الأمر ، حتى يتأتى القول بإحكامها ؛ فتأمل .

الآية العاشرة

« والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم » نسخها قول الله : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » وقيل إنها غير منسوخة ، لأنها تدل على توريث مولى الموالاة . وتوريثهم باق غير أن رتبتهم فى الإرث بعد رتبة ذوى الأرحام . وبذلك يقول فقهاء العراق .

الآية الحادية عشرة

واللاتى يأتينَ الفاحشةَ من نسائكم ، فاستشهدوا عليهنّ أربعةً منكم فإن شهدوا فأمسكوهنّ فى البيوتِ حتى يتوفاهنّ الموتُ أو يجعلَ الله لهنّ سبيلاً * واللذانِ يأتيانها منكم فآذوهما ، فإن تابا وأصلحا ، فأعرضوا عنهما » فإنها منسوخة بآية النور ، وهى « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر. وليشهد عذابهما طائفةٌ من المؤمنينَ » وذلك بالنسبة إلى البكر رجلا كان أو امرأة ، أما الثيب من الجنسين فقد نسخ الحكم الأول بالنسبة إليهما ، وأبدل بالرجم الذى دلت عليه تلك الآية المنسوخة التلاوة ، وهى « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة » دلت عليه السنة أيضاً .

وبعضهم يقول بالإحكام وعدم النسخ ، ذاهبا إلى أن الآية الأولى جاءت فيمن أتين مواضع الريب والفسوق ولم يتحقق زناهن . أما الثانية فإنها فيمن تحقق زناهن. ولكن هذا مردود من وجهين : « أحدهما » أنه تأويل يصادم الظاهر بدون دليل ، لأن قوله: « يأتين الفاحشة يتبادر منه مقارفتهن نفس الفاحشة ، لا مجرد غشيان مكانها والأخذ بأسبابها . (والآخر) قوله ﷺ : خذوا عنى ، خذوا عنى ، قد جعل الله لهن سبيلا : البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، بالثيب بالثيب جلد مائة والرجم) .

الآية الثانية عشرة

يأيها الذينَ آمنوا لا تحلوا شعائرَ اللهِ ولا الشهر الحرامَ » قيل إن قوله « ولا الشهر الحرام » منسوخ بمقتضى عموم قوله : « وقاتلوا المشركين كافة » وقد سبق القول فى هذا فالحق عدم النسخ .

الآية الثالثة عشرة

« فإن جاءوكَ فاحكم بينهم أو أعرِض عنهمْ » فإنها منسوخة بقوله: « وأنِ احكُم بينهم بما أنزلَ اللهُ » وقد قيل بعدم النسخ، وأن الآية الثانية متممة للأولى . فالرسول مخير بمقتضى الآية الأولى بين أن يحكم بينهم وأن يعرض عنهم ، وإذا اختار أن يحكم بينهم وجب أن يحكم بما أنزل الله بمقتضى الآية الثانية . وهذا ما نرجحه لأن النسخ لا يصح إلا حيث تعذر الجمع .

الآية الرابعة عشرة

يأيها الذينَ آمنُوا شهادةُ بينكم إذا حضَر أحدَكم الموتُ حينَ الوصية اثنان ذَوَا عَدْلٍ مَنكم أو آخرانِ من غيركُمْ »: فإن قوله « أو آخران من غيركم » منسوخ بقوله: « وأشهدوا ذَوَىْ عدلٍ منكم » وقيل إنه لا نسخ ؛ لأن الآية الأولى خاصة بما إذا نزل الموت بأحد المسافرين وأراد أن يوصى، فإن الوصية تثبت بشهادة اثنين عدلين من المسلمين أو غيرهم توسعة على المسافرين لأن ظرف السفر ظروف دقيقة ، قد يتعسر أو يتعذر وجود عدلين من المسلمين فيها ، فلو لم يبح الشارع إشهاد غير المسلمين لضاق الأمر ، وربما ضاعت الوصية . أما الآية الثانية فهى القاعدة العامة فى غير ظروف السفر .

الآية الخامسة عشرة

« إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا ، بأنهم قوم لا يفقهون » فإنها منسوخة بقوله سبحانه: « الآنَ خفَّفَ اللهُ عنكم وَعلِم أنَّ فيكم ضَعفاً فإن يكن منكم مائةٌ صابرةٌ يغلبوا مائتينِ . وإن يكنْ منكم ألفٌ يغلبوا ألفينِ بإذن اللهِ . واللهُ مع الصَّابرين » ووجه النسخ أن الآية الأولى أفادت وجوب ثبات الواحد للعشرة، وأن الثانية أفادت وجوب ثبات الواحد للاثنين. وهما حكمان متعارضان.

فتكون الثانية ناسخة للأولى . وقيل لاتعارض بين الآيتين ولا نسخ؛ لأن الثانية لم ترفع الحكم الأول ، بداهة أنه لم يقل فيها : لا يقاتل الواحد العشرة إذا قدر على ذلك. بل هى مخففة فحسب ، على معنى أن المجاهد إن قدر على قتال العشرة فله الخيار رخصة من الله له بعد أن اعتز المسلمون . ولكنك ترى أن النسخ على هذا الوجه لامفر منه أيضا ، لأن الآية الأولى عينت على المجاهد أن يثبت لعشرة، والثانية خيرته بين الثبات لعشرة،وعدم الثبات لأكثر من اثنين . ولا ريب أن التخيير يعارض الإلزام على وجه التعيين .

الآية السادسة عشرة

« انفِروا خِفافاً وثِقالًا » فإنها نسخت بآيات العذر ، وهى قوله : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لايجدون ماينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله » وقوله: « وما كانَ المؤمنون لِينفروا كافةً . فلولا نفرَ من كلِّ فرقةٍ منهم طائفةٌ ليتفقهوا فى الدينِ ولِينذِروا قومهم إذا رجَعوا إليهم لعلّهم يَحذَرُون » وقيل إن الآية الأخيرة فى النفر للتعليم والتفقه لا للحرب ، والآيتان قبلها مخصصتان لا ناسختان للآية الأولى ، كأنه قال من أول الأمر : لينفر منكم خِفافاً وثِقالًا كل من احتيج إليه وهو قادر لا عذر له .

الآية السابعة عشرة

الزّانى لاينكحُ إلا زانيةً أو مُشركةً ، والزّانيةُ لاينكحها إلا زان أو مُشركٌ »، فإنها منسوخة بقوله سبحانه: « وأنكِحُوا الأيامى مِنكم والصّالحين مِن عِبادكم وإمائكم لأن الآية خبر بمعنى النهى ، بدليل قراءة « لاينكح » بالجزم ، والقراءات يفسر بعضها بعضا . وقيل بعدم النسخ ، تفسير للآية الأولى بأن الزانى المعروف بالزنى ، لا يستطيع أن ينكح إلا زانية أو مشركة ، لنفور المحصنات المؤمنات من زواجه . وكذلك المرأة المعروفة بالزنى لا يرغب فى نكاحها إلا زان أو مشرك، لنفور المؤمنين الصالحين من زواجها.

والحق أن الآية منسوخة ، لأنها خبر بمعنى النهى كما سبق ، ولأن الأمر بالنسبة للمشرك والمشركة لا يستقيم إلا مع القول بالنسخ .

الآية الثامنة عشرة

« يأيها الذينَ آمنُوا ليستأذنكم الذينَ ملكَتْ أيمانكم والذين لم يبلغوا الحُلُمَ منكم ثلاثَ مراتٍ : من قبلِ صلاةِ الفَجْرِ ، وحينَ تضعُون ثيابكم من الظَّهيرَةِ ، ومِنْ بعدِ صَلاةِ العِشَاء » قيل إن هذه الآية منسوخة . لكن لا دليل على نسخها . فالحق أنها محكمة ، وهى أدب عظيم يلزم الخدم والصغار ، البعد عن مواطن كشف العورات ، حماية للأعراض من الانتهاك ، وحفظا للأنظار أن ترى مالا تليق رؤيته فى أوقات التبذل .

الآية التاسعة عشرة

« لا يحلُّ لكَ النساء مِن بعْدُ ولَا أن تَبَدَّلَ بهنَّ من أزْوَاجٍ » نسخها قول الله: « يأيها النبىُّ إنا أحْلَلْنا لكَ أزواجَكَ اللّاتى آتيتَ أجورهنَّ ، وماملكتْ يمينك مما أفاء الله عليكَ وبنات عَمِّكَ وبنات عمَّاتكَ وبنَاتِ خالِكَ ، وبناتِ خالاتكَ اللَّاتى هاجَرْنَ معكَ وامرأةً مُؤمنةً إن وهبت نفسها للنبىِّ إن أراد النبىُّ أن يستنكحها ، خالصةً لكَ مِن دونِ المؤمنينَ » .

واعلم أن هذا النسخ لا يستقيم إلا على أن هذه الآية متأخرة فى النزول عن الآية الأولى ، وأن الله قد أحل للرسول فى آخر حياته ما كان قد حرَّمه عليه من قبل ، فى قوله : « لا يحلُّ لك النساء من بعد » الخ .

وذلك مروى عن على كرم الله وجهه ، وعن ابن عباس رضى الله عنه ، وعن أم سلمة رضوان الله عليها ، وعن الضحاك رحمه الله ، وعن الصديقة بنت الصديق رضى الله عنهما . أخرج أبو داود فى ناسخه ، والترمذى وصححه ، والنسائى ، والحاكم وصححه أيضاً ،

وابن المنذر وغيرهم ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : « لم يمت رسول ﷺ حتى أحل الله تعالى له أن يتزوج من النساء إلا ذات محرم » الخ .

والسر فى أن الله حرم على الرسول أولا ماعدا أزواجه ، ثم أحل له ما حرمه عليهن ، هو أن التحريم الأول فيه تطييب لقلوب نسائه ، ومكافأة لهن ، على اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة ، بعد أن نزلت آيات التخيير فى القرآن . ثم إن إحلال هذا الذى حرم على رسوله مع عدم زواج الرسول من غيرهن بعد هذا الإحلال ، كما ثبت ذلك ، فيه بيان لفضله ﷺ ومكرمته عليهن ، حيث قصر نفسه ولم يتزوج بغيرهن ، مع إباحة الله له ذلك .

وقد جاءت روايات أخرى فى هذا الموضوع تخالف ماذكرناه ، لكن لم يثبت لدينا صحة شىء منها ولهذا رجحنا مابسطناه . ولا يعكر صفو القول بالنسخ هنا ، مانلاحظه من تأخر الآية المنسوخة عن الناسخة فى المصحف . لأن المدار على ترتيب النزول لا على ترتيب المصحف كما تعلم .

الآية العشرون

« يٰأيها الذين آمنُوا إذا نَاجيتمُ الرَّسول فقدّموا بينَ يدَىْ نجوا كم صدقةً » فإنها نسخت بقوله سبحانه عقب تلك الآية : « أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجوا كم صدقات. فإذ لم تفعلوا وتابَ اللهُ عليكم فأقيموا الصلاةَ وآتوا الزّكاةَ وأطيعُوا اللهَ ورسوله » . قيل لا نسخ ، بحجة أن الآية الثانية بيان للصدقة المأمور بها فى الأولى ، وأنه يصح أن تكون صدقة غير مالية ، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله . وأنت خبير بأن هذا ضرب من التكلف فى التأويل ، يأباه ماهو معروف من معنى الصدقة حتى أصبح لفظها حقيقة عرفية فى البذل المالى وحده . وقيل : إن وجوب تقديم الصدقة إنما زال بزوال سببه ، وهو تمييز المنافق من غيره . وهذا مردود بأن كل حكم منسوخ فإنما نسخه الله لحكمة ، من نحو مصلحة أو سبب كان يرتبط به الحكم الأول ، ثم زالت تلك المصلحة أو ذلك السبب .

الآية الحادية والعشرون

« وإن فاتكم شىء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم، فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثلَ ما أنفقوا » . قيل نسختها آية الغنيمة، وهى قوله سبحانه: « واعلموا أنما غنِمتُم من شىء فأنّ لله خُمُسَهُ وللرسول ولذى القُربى واليتامى والمساكين وابن السبيل »: وبيان ذلك أن الآية الأولى تفيد أن زوجات المسلمين اللاتى ارتددن ولحقن بدار الحرب، يجب أن يدفع إلى أزواجهن مثل مهورهن ، من الغنائم التى يغنمها المسلمون ويعاقبون العدو بأخذها. والآية الثانية تفيد أن الغنائم تخمس أخماسا ثم تصرف كما رسم الشارع. ولكنك بالتأمل تستظهر معنا أنه لا نسخ ، لأن الآيتين لا تتعارضان، بل يمكن الجمع بينهما، بأن يدفع من الغنائم أولا مثل مهور هذه الزوجات المرتدات اللاحقات بدار الحرب، ثم تخمس الغنائم بعد ذلك أخماسا وتصرف فى مصارفها الشرعية .

الآية الثانية والعشرون

« يأيها المُزّمل * قُم الليل إلا قليلا * نِصفه أو انقص منهُ قليلًا * أو زِد عليهِ ورتّلِ القرآن ترتيلًا » فإنها منسوخة بقوله سبحانه فى آخر هذه السورة : « إن ربك يعلم أنك تقومُ أدنى من ثلثَى الليل ونصفه وثلثه وطائفةٌ من الذينَ معك . والله يقدِّر الليل والنهار . علم أن لن تحصوه فتابَ عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن » الخ . . وبيان ذلك أن الآية الأولى أفادت وجوب قيامه ﷺ من الليل نصفه ، أو أنقص منه قليلا ، أو أزيد عليه . أما الثانية فقد أفادت أن الله تاب على النبى وأصحابه فى هذا، بأن رخص لهم فى ترك هذا القيام المقدر ، ورفع عنهم كل تبعة فى ذلك الترك ، كما رفع التبعات عن المذنبين بالتوبة إذا تابوا .

ولا ريب أن هذا الحكم الثانى رافع للحكم الأول ، فتعين النسخ .

وقد قيل فى تفسير هذه الآيات كلام كثير، لا نرى حاجة إلى ذكره، والله يكفينا كثرة القيل والقال،ويتوب علينا من النزاع والخلاف، ويجمع صفوفنا على دينه وحبه ، آمين . وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

المبحث الخامس عشر

فى محكم القرآن ومتشابهه

المعنى اللغوى :

لهذين اللفظين إطلاقات فى اللغة وإطلاقات فى الاصطلاح .فاللغويون يستعملون مادة الإحكام (بكسر الهمز) فى معان متعددة ، لكنها مع تعددها ترجع إلى شىء واحد،هو المنع . فيقولون : أحكم الأمر أى أتقنه ومنعه عن الفساد.ويقولون : أحكمه عن الأمر أى رجعه عنه ومنعه منه. ويقولون: حكم نفسه وحكم الناس أى منع نفسه ومنع الناس عما لا ينبغى ويقولون : أحكم الفرس أى جعل له حكمة (بفتحات ثلاث) والحكمة ما أحاط بحنكى الفرس من لجامه تمنعه من الاضطراب. وقيل : « آتاه الله الحكمة » أى العدل أو العلم أو الحلم أو النبوة أو القرآن ؛ لما فى هذه المذكورات من الحوافظ الأدبية الرادعة عما لا يليق.

وكذلك يستعمل اللغويون مادة التشابه فيما يدل على المشاركة فى المماثلة والمشاكلة ، المؤدية إلى الالتباس غالبا. يقال: تشابها واشتبها، أى أشبه كل منهما الآخر حتى التبسا. ويقال : أمور مشتبهة ومشبهة ــ على وزان معظمة ــ أى مشكلة. والشبهة بالضم : الالتباس والمثل . ويقال شبه عليه الأمر تشبيهاً أى لُبِّس عليه (بضم الأول وتشديد الثانى مع كسره فى الفعلين) . ومنه قول الله سبحانه وصفاً لرزق الجنة « وأتوا به متشابها » . ومنه قوله حكاية عن بنى إسرائيل: « إنَّ البقرَ تشابَهَ علينا » انظر القاموس فى هاتين المادتين.

القرآن محكم ومتشابه :

ولقد جاء فى القرآن الكريم مايدل على أنه كله محكم ، إذ قال سبحانه : « كتاب أحكمت آياته » . وجاء فيه مايدل على أنه كله متشابه ، إذ قال جل ذكره : « الله نزَّل أحسنَ الحديثِ كتاباً متشابهاً » . وجاء فيه مايدل على أن بعضه محكم وبعضه متشابه ، إذ قال عز اسمه : « هـــو الذى أنزل عليكَ الكتابَ ، منهُ آياتٌ محكماتٌ هُنَّ أم الكتابِ ، وأُخر متشابهاتٌ » ولا تعارض بين هذه الإطلاقات الثلاثة ، لأن معنى إحكامه كله أنه منظم رصين ، متقن متين ، لا يتطرق إليه خلل لفظى ولا معنوى ، كأنه بناء مشيد محكم يتحدى الزمن ، ولا ينتابه تصدع ولا وهن . ومعنى كونه كله متشابها أنه يشبه بعضه بعضا فى إحكامه وحسنه وبلوغه حد الإعجاز فى ألفاظه ومعانيه ، حتى إنك لا تستطيع أن تفاضل بين كلماته وآياته فى هذا الحسن والإحكام والإعجاز ، كأنه حلقة مفرغة لا يدرى أين طرفاها .

وأما أن بعضه محكم وبعضه متشابه ، فمعناه أن من القرآن مااتضحت دلالته على مراد الله تعالى منه ، ومنه ماخفيت دلالته على هذا المراد الكريم . فالأول هو المحكم ، والثانى هو المتشابه على خلاف يأتى بين العلماء فى ذلك . بيد أن الذى اتفقوا عليه ولا يمكن أن يختلفوا فيه ، هو أنه لا تنافى بين كون القرآن كله محكما أى متقنا ، وبين كونه كله متشابها أى يشبه بعضه بعضا فى هذا الإتقان والإحكام ، وبين كونه منقسما إلى مااتضحت دلالته على مراد الله وماخفيت دلالته ، بل إن انقسامه هذا الانقسام محقق لما فيه كله من إحكام وتشابه بالمعنى السابق . وسيأتيك نبأ ذلك فى بيان الحكمة من وجود متشابهات خفية إلى جانب واضحات ظاهرة فى القرآن الكريم .

ويمكنك أن ترجع هذه التأويلات إلى الإطلاقات اللغوية السالفة . فالقرآن كله محكم أى متقن ، لأن الله صاغه صياغة تمنع أن يتطرق إليه خلل أو فساد فى اللفظ أو المعنى ، والقرآن متشابه ، لأنه يماثل بعضه بعضا فى هذا الإحكام ، مماثلة مفضية إلى التباس التمييز بين آياته وكلماته فى ذلك ، والقرآن منه محكم أى واضح المعنى المراد وضوحا يمنع الخفاء عنه ، ومنه متشابه فيه وجوه مختلفة من المماثلة مستلزمة لخفاء هذا المعنى المراد .

المعنى الاصطلاحى :

يطلق المحكم فى لسان الشرعيين على مايقابل المنسوخ تارة ، وعلى مايقابل المتشابه تارة أخرى . فيراد به على الاصطلاح الأول ، الحكم الشرعى الذى لم يتطرق إليه نسخ. ويراد به على الثانى ماورد من نصوص الكتاب أو السنة دالا على معناه بوضوح لاخفاء فيه ، على ماسيأتى تفصيله وموضوع بحثنا هناهو هذا الاصطلاح الثانى . أما الأول فقد بيناه فى المبحث السابق، حيث عرفنا النسخ وبسطنا أدلته وأحكامه وماقيل فيه، ومنه يعرف مقابله وهو المحكم، « وبضدها تتميز الأشياء » وعلى هذا الاصطلاح يحمل ماأخرج عبد ابن حميد عن الضحاك قال : المحكمات مالم ينسخ ، والمتشابهات ماقد نسخ .

آراء العلماء فى معنى المحكم والمتشابه

يختلف العلماء فى تحديد معنى المحكم والمتشابه اختلافات كثيرة :

١ ـ منها أن المحكم هو الواضح الدلالة الظاهر الذى لايحتمل النسخ ، أما المتشابه فهو الخفى الذى لايدرك معناه عقلا ولا نقلا، وهو مااستأثر الله تعالى بعلمه، كقيام الساعة والحروف المقطعة فى أوائل السور . وقد عزا الألوسى هذا الرأى إلى السادة الحنفية .

٢ ـ ومنها أن المحكم ماعرف المراد منه إمابالظهور وإما بالتأويل. أما المتشابه فهو مااستأثر تعالى بعلمه ، كقيام الساعة وخروج الدجال والحروف المقطعة فى أوائل السور. وينسب هذا القول إلى أهل السنة على أنه هو المختار عندهم .

٣ ـ ومنها أن المحكم ما لايحتمل إلا وجهاً واحدا من التأويل . أما المتشابه فهو ما احتمل أوجهاً . ويعزى هذا الرأى إلى ابن عباس ، ويجرى عليه أكثر الأصوليين .

٤ ـ ومنها أن المحكم مااستقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان . أما المتشابه فهو الذى لايستقل بنفسه ، بل يحتاج إلى بيان ، فتارة يبين بكذا ، وتارة يبين بكذا ، لحصول الاختلاف فى تأويله، ويحكى هذا القول عن الإمام أحمد رضى الله عنه .

٥ ـ ومنها أن المحكم هو السديد النظم والترتيب ، الذى يفضى إلى إثارة المعنى المستقيم من غير مناف . أما المتشابه فهو الذى لا يحيط العلم بمعناه المطلوب من حيث اللغة، إلا أن تقترن به أمارة أو قرينة . ويندرج المشترك فى المتشابه بهذا المعنى . وهو منسوب إلى إمام الحرمين .

٦ ـ ومنها أن المحكم هو الواضح المعنى الذى لا يتطرق إليه إشكال؛ مأخوذ من الإحكام وهو الإتقان . أما المتشابه فنقيضه . وينتظم المحكم على هذا ما كان نصًّا وما كان ظاهراً . وينتظم المتشابه ما كان من الأسماء المشتركة وما كان من الألفاظ الموهمة للتشبيه فى حقه سبحانه . وقد نسب هذا القول إلى بعض المتأخرين ، ولكنه فى الحقيقة رأى الطيبي ؛ إذ قال فيما حكى السيوطى عنه :

« المراد بالمحكم ما اتضح معناه ، والمتشابه بخلافه ، لأن اللفظ الذى يقبل معنى، إما أن يحتمل غيره أوْ لا . الثانى النص، والأول إما أن تكون دلالته على ذلك الغير أرجح أوْ لا . الأول الظاهر ؛ والثانى إما أن يكون مساويه أوْ لا . الأول هو المجمل ، والثانى المؤول . فالمشترك بين النص والظاهر هو المحكم ، والمشترك بين المجمل والمؤول هو المتشابه .

ويؤيد هذا التقسيم أنه تعالى أوقع المحكم مقابلا بلا لمتشابه. فالواجب أن يفسر المحكم بما يقابله ويعضد ذلك أسلوب الآية ، وهو الجمع مع التقسيم، لأنه تعالى فرق ما جمع فى معنى الكتاب ، بأن قال : « منه آياتٌ محكماتٌ هنّ أم الكتاب ، وأُخَر متشابهاتٌ » وأراد أن يضيف إلى كل منهما ما شاء فقال أولا : « فأما الذين فى قلوبهم زيغ » إلى أن قال : « والراسخون فى العلم يقولون آمنا به » وكان يمكن أن يقال :(وأما الذينَ فى قلوبهم استقامةٌ فيتبعونَ المحكم) لكنه وضع موضع ذلك « والراسخون فى العلم » لإتيان لفظ الرسوخ ، لأنه لا يحصل إلا بعد التثبت العام والاجتهاد البليغ. فإذا استقام القلب على طريق الرشاد ورسخ القدم فى العلم ، أفصح صاحبه النطق بالقول الحق . وكفى بدعاء

الراسخين فى العلم : « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهبْ لنا من لدنكَ رحمةً ، إنك أنتَ الوهاب » شاهدا على أن « الراسخون فى العلم » مقابل لقوله : « والذين فى قلوبهم زيغٌ » . وفيه إشارة إلى أن الوقف تام على قوله « إلا الله » وإلى أن علم بعض المتشابه مختص بالله تعالى ، وأن من حاول معرفته فهو الذى أشار إليه فى الحديث بقوله : (فاحذرهم) اه .

وهو كلام نفيس كما تراه : والحديث الذى نوه به أخرجه الشيخان وغيرهما عن عائشة قالت : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : « هو الذى أنزل الكتابَ » إلى قوله : « أولو الألباب » قالت : قال رسول الله ﷺ (فإذا رأيت الذين يتبعونَ ما تشابه منهُ ، فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم) .

(٧) ومنها أن المحكم ما كانت دلالته راجحة ، وهو النص والظاهر ، أما المتشابه فما كانت دلالته غير راجحة ، وهو المجمل والمؤول والمشكل . ويعزى هذا الرأى إلى الإمام الرازى واختاره كثير من المحققين . وقد بسطه الإمام فقال ما خلاصته .

« اللفظ الذى جعل موضوعا لمعنى ، إما ألا يكون محتملا لغيره ، أو يكون محتملا لغيره . الأول النص ، والثانى إما أن يكون احتماله لأحد المعانى راجحا ولغيره مرجوحا ، وإما أن يكون احتماله لهما بالسوية . واللفظ بالنسبة للمعنى الراجح يسمى ظاهرا ، بالنسبة للمعنى المرجوح يسمى مؤولا ، وبالنسبة للمعنيين المتساويين أو المعانى المتساوية يسمى مشتركا ، وبالنسبة لأحدهما على التعيين يسمى مجملا . وقد يسمى اللفظ مشكلا إذا كان معناه الراجح باطلا ، ومعناه المرجوح حقا .

إذا عرفت هذا فالمحكم ما كان دلالته راجحة ، وهو النص والظاهر ؛ لاشتراكهما فى حصول الترجيح ، إلا أن النص راجح مانع من الغير ، والظاهر راجح غير مانع منه .

أما التشابه فهو ما كانت دلالته غير راجحة ، وهو المجمل والمؤول والمشكل ؛لاشتراكها في أن دلالة كل منها غير راجحة . وأما المشترك فإن أريد منه كل معانيه فهو من قبيل الظاهر ، وإن أريد بعضها على التعيين فهو مجمل .

ثم إن صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجـوح ، لابد فيه من دليل منفصل: وذلك الدليل المنفصل إما أن يكون لفظياً وإما أن يكون عقلياً. والدليل اللفظي لا يكون قطعياً ، لأنه موقوف على نقل اللغات ، ونقل وجـــوه النحو والتصريف ، وموقوف على عدم الاشتراك ، وعدم المجاز ، وعدم الإضمار ، وعدم التخصيص ،وعدم المعارض العقلي والنقلي . وكل ذلك مظنون . والموقوف على المظنون مظنون .

وعلى ذلك فلا يمكن صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى معنى مرجوح بدليل لفظي في المسائل الأصولية الاعتقادية . ولا يجوز صرفه إلا بواسطة قيام الدليل القطعي العقلي على أن المعنى الراجح محال عقلا وإذا عرف المكلف أنه ليس مراد الله تعالى ،فعندذلك لا يحتاج إلى أن يعرف أن ذلك المرجوح ماهو؟ لأن طريقه إلى تعيينه إنما يكون بترجيح مجاز على مجاز ، وبترجيح تأويل على تأويل . وذلك الترجيح لا يـكون إلا بالدلائل اللفظية ، وهي لا تفيد إلا الظن . والتعويل عليها في المسائل القطعية لا يفيد . لذا كان مذهب السلف عدم الخوض في تعيين التأويل في المتشابه ، بعد اعتقاد أن ظاهر اللفظ محال ، لقيام الأدلة العقلية القطعية على ذلك » اهـ .

نظرة في هذه الآراء :

نحن إذا نظرنا في هذه الآراء ، لانجد بينها تناقضاً ولا تعارضا ، بل نلاحظ بينها تشابها وتقاربا . بيد أن رأى الرازى أهداها سبيلا، وأوضحها بيانا ؛ لأن أمر الإحكام والتشابه يرجع فيما نفهم ، إلى وضوح المعنى المراد للشارع من كلامه وإلى عدم وضوحه. وتعريف الرازى جامع مانع من هذه الناحية ، لا يدخل في المحكم ما كان خفياً ، ولا في

المتشابه ما كان جليا ، لأنه استوفى وجوه الظهور والخفاء استيفاء تاما فى بيان تقسيمه الذى بناه على راجح ومرجوح، والذى أعلن لنا منه أن الراجح ما كان واضحا لاخفاء فيه ، وأن المرجوح ما كان خفيا لاجلاء معه .

وقريب منه رأى الطيبى الذى قبله حتى كأنه هو ، غير أنه لم يستوف وجوه الظهور والخفاء استيفاء الرازى . أما رأى إمام الحرمين ففيه شىء من الإبهام .

وكذلك رأى الإمام أحمد لا ندرى ما مراده بالبيان الذى يحتاج إليه المتشابه ،ولا يحتاج إليه المحكم ؟ .

ورأى ابن عباس يخرج الظاهر من المحكم ، ويدخله فى المتشابه ، مع أنه من الواضحات واحتماله لغير معناه الراجح احتمال ضعيف ، لا يقدح فى ظهوره ووضوحه .

والرأى الثانى بعكس الآية ، فيدخل فى المحكم كثيراً من الخفيات ، ويقصر المتشابه على نوع واحد منها . فيكون تعريف المحكم فيه غير مانع ، وتعريف المتشابه غير جامع ، بالنسبة إلى المذهب المختار ، وهو مذهب الرازى .

والرأى الأول المنسوب إلى الأحناف ، يقصر تعريف المحكم على النص،وتعريف المتشابه على ما استأثر الله بعلمه ، ويلزم عليه وجود واسطة لا تدخل فى المحكم ولا فى المتشابه . ويكون تعريفهما غير جامع بالنسبة للمذهب المختار أيضا .

آراء أخرى :

واعلم أن وراء هذه الآراء آراء أخرى :

(١) منها أن المحكم هو الذى يعمل به، أما المتشابه فهو الذى يؤمن به ولا يعمل به

وقد روى السيوطى هذا القول عن عكرمة وقتادة وغيرهما. وفيه أن ذلك قصر للمحكم على ما كان من قبيل الأعمال ، وقصر للمتشابه على ما كان من قبيل العقائد، وإطلاق القول فيهما على هذا الوجه غير سديد فإن أرادوا بالمحكم أنه هو الواضح الذى يؤخذ بمعناه على التعيين ، وبالمتشابه ما كان خفيا يجب الإيمان به دون تعيين لمعناه، نقول: إن أرادوا ذلك فالعبارة قاصرة عن أداء هذا المراد ، والمراد منها لا يدفع الإيراد عليها .

(٢) ومنها أن المحكم ما كان معقول المعنى ، والمتشابه بخلافه ، كأعداد الصلوات ، واختصاص الصيام برمضان دون شعبان ، وفيه أن هذا التفسير قاصر عن الوفاء بكل ما كان واضحاً وكل ما كان خفيا .

(٣) ومنها أن المحكم مالم يتكرر لفظه والمتشابه ما تكرر لفظه، وفيه أن هذا المعنى بالنسبة إلى المتشابه أقرب إلى اللغة منه إلى الاصطلاح الذى عليه الجمهور ، وفيه إهمال لما اعتبر هنا من أمر الخفاء والظهور .

(٤) ومنها أن المحكم ما لم ينسخ ، والمتشابه ما نسخ ، وفيه أن هذا اصطلاح آخر نوهنا به سابقا .

ونظراً إلى أن هذه الآراء أضعف من تلك الآراء التى قدمناها ، وأبعد عنها فى ملحظها ومغزاها ؛ أفردناها بالذكر ، ولم نسلكها مع تلك فى سمط واحد .

وعلى كل حال فالأمر سهل وهين؛ لأنه يرجع إلى الاصطلاح أو ما يشبه الاصطلاح، ولا مشاحة فى الاصطلاح . ولولا أن تفسير آية آل عمران التى مرت فى كلامنا وكلام الطيبى ، لا يتمشى بسهولة على هذه الآراء المرجوحة ، لما أتعبنا أنفسنا فى مناقشتها ونقدها ، وفى اختيار رأى الرازى من بينها .

منشأ التشابه وأقسامه وأمثلته

نعلم مما سبق أن منشأ التشابه إجمالا ، هو خفاء مراد الشارع من كلامه. أما تفصيلا فنذكر أن منه ما يرجع خفاؤه إلى اللفظ، ومنه ما يرجع خفاؤه إلى المعنى، ومنه ما يرجع خفاؤه إلى اللفظ والمعنى معاً .

(فالقسم الأول) وهو ما كان التشابه فيه راجعا إلى خفاء فى اللفظ وحده ، منه مفرد ومركب ، والمفرد قد يكون الخفاء فيه ناشئا من جهة غرابته أو من جهة اشتراكه . والمركب قد يكون الخفاء فيه ناشئا من جهة اختصاره، أو من جهة بسطه ، أو من جهة ترتيبه .

مثال التشابه فى المفرد بسبب غرابته وندرة استعماله ، لفظ الأبّ بتشديد الباء فى قوله سبحانه : « وفاكهةً وأبّا » وهو ما ترعاه البهائم . بدليل قوله بعد ذلك : (متاعاً لكم ولأنعامكم) .

ومثال التشابه فى المفرد بسبب اشتراكه بين معان عدة، لفظ اليمين فى قوله سبحانه: (فراغ عليهم ضربا باليمين) أى فأقبل إبراهيم على أصنام قومه ضاربا لها باليمين من يديه لا بالشمال ، أو ضاربا لها ضربا شديدا بالقوة ؛ لأن اليمين أقوى الجارحتين ، أو ضاربا لها بسبب اليمين التى حلفها ونوه بها القرآن إذ قال « وتالله لأكيدنَّ أصنامكم بعدَ أن تولوا مدبرين » . كل ذلك جائز . ولفظ اليمين مشترك بينها .

ومثال التشابه فى المركب بسبب اختصاره، قوله تعالى : « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء » فإن خفاء المراد فيه، جاء من ناحية إيجازه والأصل : وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى لو تزوجتموهن، فانكحوا من غيرهن ماطاب لكم من النساء. ومعناه أنكم إذا تحرجتم من زواج اليتامى مخافة أن تظلموهن ؛ فأمامكم غيرهن فتزوجوا

منهن ماطاب لكم . وقيل إن القوم كانوا يتحرجون من ولاية اليتامى ولا يتحرجون من الزنى ، فأنزل الله الآية . ومعناه : إن خفتم الجور فى حق اليتامى فخافوا الزنى أيضا ، وتبدلوا به الزواج الذى وسع الله عليكم فيه فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع .

ومثال التشابه يقع فى المركب بسبب بسطه والإطناب فيه ، قوله جلت حكمته : (ليس كمثله شىء) فإن حرف الكاف لو حذف وقيل (ليس مثله شىء) كان أظهر للسامع من هذا التركيب الذى ينحل إلى : (ليس مثل مثله شىء) وفيه من الدقة ما يعلو على كثير من الأفهام .

ومثال التشابه يقع فى المركب لترتيبه ونظمه ، قوله جل ذكره (الحمدُ للهِ الذى أنزل على عبدهِ الكتابَ ولم يجعل له عِوجاً * قَيِّماً) فإن الخفاء هنا جاء من جهة الترتيب بين لفظ (قيما) وما قبله . ولو قيل : أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا لكان أظهر أيضا .

واعلم أن مقدمة هذا القسم فواتح السور المشهورة ، لأن التشابه والخفاء فى المراد منها . جاء من ناحية ألفاظها لا محالة .

(والقسم الثانى) وهو ما كان التشابه فيه راجعا إلى خفاء المعنى وحده ، مثاله كل ماجاء فى القرآن الكريم وصفاً لله تعالى ، أو لأهوال القيامة ، أو لنعيم الجنة وعذاب النار فإن العقل البشرى لا يمكن أن يحيط بحقائق صفات الخالق ، ولا بأهوال القيامة ، ولا بنعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار . وكيف السبيل إلى أن يحصل فى نفوسنا صورة ما لم نحسه ، وما يكن فينا مثله ولا جنسه ؟ .

واعلم أن فى مقدمة هذا القسم المشكلات المعروفة بمتشابهات الصفات . فإن التشابه

والخفاء لم يجىء ناحية غرابة فى اللفظ أو اشتراك فيه بين عدة معان أو إيجاز أو إطناب مثلا . فتعين أن يكون من ناحية المعنى وحده .

(القسم الثالث) وهو ما كان التشابه فيه راجعاً إلى اللفظ والمعنى معا، له أمثلة كثيرة منها قوله عز اسمه : « وليسَ البرُّ بأن تأتوا البيوتَ من ظهورها » فإن من لا يعرف عادة العرب فى الجاهلية ، لا يستطيع أن يفهم هذا النص الكريم على وجهه . ورد أن ناسا من الأنصار كانوا إذا أحرموا لم يدخلَ أحد منهم حائطا ولا داراً ولا فسطاطاً من باب . فإن كان من أهل المدر نقب نقباً فى ظهر بيته ، يدخل ويخرج منه وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء ، فنزل قول الله : « وليس البر بأن تأتوا البيوتَ من ظهورها ولكنّ البرّ من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

فهذا الخفاء الذى فى هذه الآية ، يرجع إلى اللفظ بسبب اختصاره ؛ ولو بسط لقيل : وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها إذا كنتم محرمين بحج أو عمرة. ويرجع الخفاء إلى المعنى أيضا ، لأن هذا النص على فرض بسطه كما رأيت ، لا بد معه من معرفة عادة العرب فى الجاهلية وإلا لتعذر فهمه .

قال الراغب فى المفردات القرآن : المتشابه بالجملة ثلاثة أضرب : متشابه من جهة اللفظ فقط ، ومن جهة المعنى فقط ، ومن جهتهما . (فالأول) ضربان ، أحدهما يرجع إلى الألفاظ المفردة ، إما من جهة الغرابة ، نحو الأبّ ويزفّون ، أو الاشتراك كاليد واليمين. وثانيهما يرجع إلى جملة الكلام المركب ، وذلك ثلاثة أضرب ، ضرب لاختصار الكلام، نحو « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم » . وضرب لبسطه نحو « ليس كمثله شىء » لأنه لو قيل : ليس مثله شىء كان أظهر للسامع، وضرب لنظم الكلام، نحو « أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عِوجاً * قيّمًا » تقديره ، أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا .

(والمتشابه من جهة المعنى) أوصاف الله تعالى وأوصاف القيامة ،فإن تلك الأوصاف لا تتصور لنا ، إذ كان لا يحصل فى نفوسنا صورة مالم نحسه أو ليس من جنسه .

(والمتشابه من جهتهما) خمسة أضرب. الأول: من جهة الكمية كالعموم والخصوص، نحو اقتلوا المشركين ، والثانى : من جهة الكيفية كالوجوب والندب، نحو « فانكحُوا ماطابَ لكم من النساء » والثالث: من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ ، نحو «اتقوا الله حق تقاته» والرابع :من جهة المكان والأمور التى نزلت فيها، نحو « وليس البر بأن تأتوا البيوتَ من ظهورها » « إنما النسىء زيادة فى الكفر » فإن من لا يعرف عادتهم فى الجاهلية يتعذر عليه تفسير هذه الآية ، الخامس : من جهة الشروط التى يصح بها الفعل ويفسد: كشروط الصلاة والنكاح . . . وهذه الجملة إذا تصورت علم أن كل ما ذكره المفسرون فى تفسير المتشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم) اهـ .

وهو كلام جيد ، غير أن فى بعضه شيئا .

أنواع المتشابهات

يمكننا أن ننوع المتشابهات ـ على ضوء ما سبق ـ ثلاثة أنواع :

(النوع الأول) مالا يستطيع البشر جميعا أن يصلوا إليه، كالعلم بذات الله وحقائق صفاته ، وكالعلم بوقت القيامة ونحوه من الغيوب التى استأثر الله تعالى بها «وعندهُ مفاتح الغيبِ لا يعلمها إلا هو » « إن الله عنده علمُ الساعة، وينزّلُ الغيثَ، ويعلمُ ما فى الأرحامِ وما تدرى نفسٌ ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفسٌ بأى أرضٍ تموت ، إن الله عليمٌ خبير » .

(النوع الثانى) ما يستطيع كل إنسان أن يعرفه عن طريق البحث والدرس ، كالمتشابهات التى نشأ التشابه فيها من الإجمال والبسط والترتيب ونحوها مما سبق .

(النوع الثالث) ما يعلمه خواص العلماء دون عامتهم، ولذلك أمثلة كثيرة من المعانى العالية التى تفيض على قلوب أهل الصفاء والاجتهاد عند تدبرهم لكتاب الله .

قال الراغب (المتشابه على ثلاثة أضرب: ضرب لا سبيل إلى الوقوف عليه ، كوقت الساعة وخروج الدابة ونحو ذلك ، وضرب للإنسان سبيل إلى معرفته كالألفاظ الغريبة والأحكام المغلقة . وضرب متردد بين الأمرين يختص به بعض الراسخين فى العلم ويخفى على من دونهم . وهو المشار إليه بقوله صلى الله عليه وسلم لابن عباس: (اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل) .

هل فى ذكر المتشابهات من حكمة

عرفنا أن المتشابهات أنواع ثلاثة، ونزيدك هنا أن لهذه المتشابهات المتنوعة حكمة بل حكما فى ذكر الشارع إياها .

فالنوع الأول ـ وهو ما استأثر الله بعلمه ـ تلوح لنا فيه حكم خمس :

(أولاها) رحمة الله بهذا الإنسان الضعيف الذى لا يطيق معرفة كل شىء . وإذا كان الجبل حين تجلى له ربه جعله دكا وخر موسى صعقا، فكيف لو تجلى سبحانه بذاته وحقائق صفاته للإنسان؟ ومن هذا القبيل أخفى الله على الناس معرفة الساعة رحمة بهم كيلا يتكاسلوا ويقعدوا عن الاستعداد لها ، وكيلا يفتك بهم الخوف والهلع لو أدركوا بالتحديد شدة قربها منهم. ولمثل هذا حجب الله عن العباد معرفة آجالهم ، ليعيشوا فى بحبوحة من أعمارهم، فسبحانه من إله حكيم ، رحمٰن رحيم .

(ثانيتها) الابتلاء والاختبار : أيؤمن البشر بالغيب ثقة بخبر الصادق أم لا؟ فالذين اهتدوا يقولون آمنا وإن لم يعرفوا على التعيين. والذين فى قلوبهم زيغ يكفرون به ، وهو الحق من ربهم ، ويتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة والخروج من الدين جملة .

(ثالثها) ما ذكره الفخر الرازى بقوله : « إن القرآن يشتمل على دعوة الخواص والعوام . وطبائع العوام تنبو فى أكثر الأمور عن إدراك الحقائق فمن سمع من العوام فى أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم ولا متحيز ولا مشار إليه ، ظن أن هذا عدم ونفى محض ؛ فيقع فى التعليل فكان الأصلح أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما تخيلوه وما توهموه ، ويكون ذلك مخلوطا بما يدل على الحق الصريح . فالقسم الأول وهو الذى يخاطبون به فى أول الأمر من باب المتشابه، والقسم الثانى وهو الذى يكشف عن الحق الصريح هو المحكم » اهـ . وهذه الحكمة ظاهرة فى متشابه الصفات .

(رابعتها) إقامة دليل على عجز الإنسان وجهالته، مهماعظم استعداده وغزر علمه، وإقامة شاهد على قدرة الله الخارقة ، وأنه وحده هو الذى أحاط بكل شىء علما ، وأن الخلق جميعا لا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء . وهنالك لا يخضع العبد ويخشع ، ويطامن من كبريائه ويخنع ، ويقول ماقالت الملائكة بالأمس : « سبحانكَ لاعِلمَ لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليمُ الحكيم » .

قال بعض العارفين : (العقل مبتلى باعتقاد أحقية المتشابه ، كابتلاء البدن بأداء العبادة . كالحكيم إذا صنف كتابا أجمل فيه أحيانا ، ليكون موضع خضوع المتعلم لأستاذه . وكالملك يتخذ علامة يمتاز بها من يطلعه على سره . وقيل : لو لم يبتل العقل الذى هو أشرف البدن، لاستمر العالم فى أبهة العلم على التمرد، فبذلك يستأنس إلى التذلل بذل العبودية. والمتشابه هو موضع خضوع العقول لبارئها ، استسلاما واعترافا بقصورها ، ولهذا ختم الآية يريد آية « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ محكماتٌ هنّ أمُّ الكتاب وأُخر متشابهاتٌ » بقوله : « وما يذّكر إلا أولو الألباب » تعريضا للزائغين، ومدحا للراسخين . ويعنى من لم يتذكر ويتعظ ويخالف هواه ، فليس من أولى العقول.

ومن ثم قال الراسخون في العلم : « ربنا لا تُزِغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنتَ الوهاب » فخضعوا لباريهم لاستنزال العلم اللدنى بعد أن استعاذوا به من الزيغ النفسانى) ا هـ .

(خامستها) ما ذكره الفخر الرازى أيضا بقوله : (لو كان - أى القرآن - كله محكما بالكلية ، لما كان مطابقا إلا لمذهب واحد . وكان بصريحه مبطلا لجميع المذاهب المخالفة له . وذلك منفر لأرباب المذاهب الأخرى عن النظر فيه ، أما وجود المتشابه والمحكم فيه فيطمع كل ذى مذهب أن يجد فيه كل مايؤيد مذهبه . فيضطر إلى النظر فيه ، وقد يتخلص المبطل عن باطله ، إذا أمعن فيه النظر ، فيصل إلى الحق) .

يضاف إلى هذه الحكم الخمس ما ذكرناه عند الكلام على فواتح السور ودفع الشبهات عنها بالجزء الأول من هذا الكتاب (ص ٢١٩ - ٢٣٠) بالطبعة الثانية .

(وأما النوع الثانى والثالث من المتشابهات) فتلوح لنا فى ذكره واشتمال القرآن عليه حكم خمس أيضا .

(أولاها) تحقيق إعجاز القرآن ، لأن كل ما استتبع فيه شيئا من الخفاء المؤدى إلى التشابه ، له مدخل عظيم فى بلاغته وبلوغه الطرف الأعلى فى البيان . ولو أخذنا فى شرح هذا لضاق بنا المقام ، وخرجنا جملة من هذا الميدان . إلى ميدان علوم البلاغة وما حوت من خواص وأسرار للإيجاز والإطناب والمساواة ، والتقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والحقيقة والمجاز ، ونحو ذلك .

(ثانيتها) تيسير حفظ القرآن والمحافظة عليه ، لأن كل ما احتواه من تلك الوجوه المستلزمة للخفاء ، دال على معان كثيرة زائدة على ما يستفاد من أصل الكلام ، ولو عبر عن هذه المعانى الثانوية الكثيرة بألفاظ ، لخرج القرآن فى مجلدات واسعة ضخمة، يتعذر معها حفظه والمحافظة عليه . « قل لو كانَ البحرُ مِداداً لكلماتِ ربى لَنَفِدَ البحرُ قبلَ أن تَنفَدَ كلماتُ ربى . ولو جئنا بمثلهِ مَدَداً » .

وكذلك يدرك القارئ لدقة القرآن وعلو أسلوبه روعة ولذة تغريه على قراءته ، وتشجعه على استظهاره وحفظه .

(ثالثتها) ما ذكره الفخر الرازى بقوله : (متى كانت المتشابهات موجودة كان الوصول إلى الحق أصعب وأشق . وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب . قال تعالى « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ») :

(رابعتها) ما ذكره الفخر أيضاً بقوله : (باشتمال القرآن على المحكم والمتشابه ، يضطر الناظر فيه إلى تحصيل علوم كثيرة ، مثل اللغة والنحو وأصول الفقه مما يعينه على النظر والاستدلال . فكان وجود المتشابه سببا فى تحصيل علوم كثيرة) .

(خامستها)ما ذكره أيضاً بقوله : (باشتمال القرآن على المحكم والمتشابه يضطر الناظر فيه إلى الاستعانة بالأدلة العقلية ، فيتخلص من ظلمة التقليد . وفى ذلك تنويه بشأن العقل والتعويل عليه، ولو كان كله محكما لما احتاج إلى الدلائل العقلية، ولظل العقل مهملا) اهـ.

ملاحظة :

يمكن اعتبار بعض هذه الحكم فى النوع الأول، كما يمكن اعتبار بعض حكم النوع الأول هنا ، لكن بشيء من التكليف . ولقد راعينا ما يجب أن تراعيه من أن بعض هذه الحكم لا تتأتى إلا فى أنواع خاصة من المتشابهات ، ولكن المجموع يتحقق فى المجموع ،وذلك كاف فى صحة هذا العرض، فاكتفِ أنت به ولاحظه، وبالله تعالى التوفيق.

متشابه الصفات

عرفنا أن المتشابهات تجمع ألوانا مختلفة. ونزيدك هنا أن من بينها لونين كثر الكلام فيهما (أولهما) فواتح السور، نحو آلم، ق، طس وما أشبهها، وقد أفضنا القول فيها بالمبحث السابع من الجزء الأول من هذا الكتاب. (ثانيهما) الآيات المشكلة الواردة فى شأن الله تعالى، وتسمى آيات الصفات، أو متشابه الصفات. ولابن اللبان فيها تصنيف مفرد، سماه: (رد المتشابهات إلى الآيات المحكمات) مثل قوله سبحانه: « الرحمنُ على العرشِ آستوى » وما أشبهه. وإنما أفرد هذا النوع بالذكر وبالتأليف لأنه كثر فيه القيل والقال، وكان فتنة ارتكس فيها كثير من القدامى والمحدثين.

الرأى الرشيد فى متشابه الصفات

علماؤنا أجزل الله مثوبتهم ـ قد اتفقوا على ثلاثة أمور تتعلق بهذه المتشابهات، ثم اختلفوا فيما وراءها.

(فأول ما اتفقوا عليه) صرفها عن ظواهرها المستحيلة، واعتقاد أن هذه الظواهر غير مرادة للشارع قطعا. كيف وهذه الظواهر باطلة بالأدلة القاطعة. وبما هو معروف عن الشارع نفسه فى محكماته؟

(ثانيه) أنه إذا توقف الدفاع عن الإسلام على التأويل لهذه المتشابهات، وجب تأويلها بما يدفع شبهات المشتبهين، ويرد طعن الطاعنين.

(ثالثه) أن المتشابه إن كان له تأويل واحد يفهم منه فهما قريبا، وجب القول به إجماعا وذلك كقوله سبحانه « وهُوَ معكُم أينما كنتم » فإن الكينونة بالذات مع الخلق مستحيلة قطعا. وليس لها بعد ذلك إلا تأويل واحد، هو الكينونة معهم بالإحاطة علما وسمعا وبصرا وقدرة وإرادة.

وأما اختلاف العلماء فيما وراء ذلك فقد وقع على ثلاثة مذاهب :

(المذهب الأول) مذهب السلف ، ويسمى مذهب المفوضة ، (بكسر الواو وتشديدها) وهو تفويض معانى هذه المتشابهات إلى الله وحده بعد تنزيهه تعالى عن ظواهرها المستحيلة. ويستدلون على مذهبهم هذا بدليلين .

أحدهما عقلى وهو أن تعيين المراد من هذه المتشابهات إنما يجرى على قوانين اللغة واستعمالات العرب ، وهى لا تفيد إلا الظن ، مع أن صفات الله من العقائد التى لا يكفى فيها الظن ، بل لا بد فيها من اليقين ولا سبيل إليه ، فلنتوقف ولنكل التعيين إلى العليم الخبير .

والدليل الثانى نقلى ، يعتمدون فيه على عدة أمور : منها حديث عائشة السابق، وفيه «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه ؛ فأولئك الذين سمى الله ، فاحذرهم » .

ومنها مارواه الطبرانى فى الكبير عن أبى مالك الأشعرى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « لا أخاف على أمتى إلا ثلاث خلال : أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا، وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذه المؤمن يبتغى تأويله « وما يعلمُ تأويلهُ إلا الله » الحديث .

ومنها ما أخرجه ابن مردويه عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا . فما عرفتم منه فاعملوا ، وما تشابه فآمنوا به » .

ومنها ما أخرجه الدارمى « عن سليمان بن يسار أن رجلا يقال له ابن صبيغ[1] قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن ، فأرسل إليه عمر وقد أعد له عراجين النخل ، فقال له :

---

(١) كذلك جاء اسم ابن صبيغ فى كتاب الإتقان للسيوطى ، بلفظ ابن ، وبالغين المعجمة فى صبيغ مع صورة التصغير . =

من أنت؟ فقال: أنا عبدالله بن صبيغ . فأخذ عمر عرجونا فضربه حتى دمى رأسه . وجاء فى رواية أخرى : فضربه حتى ترك ظهره دبرة ، ثم تركه حتى برأ ، ثم عاد ، ثم تركه حتى برأ ، فدعا به ليعود ، فقال : إن كنت تريد قتلى فاقتلنى قتلا جميلا . فأذن له إلى أرضه ، وكتب إلى أبى موسى الأشعرى : ألا يجالسه أحد من المسلمين » اهـ والدبرة بفتحات ثلاث هى قرحة الدابة فى أصل الوضع اللغوى، والمراد هنا أنه صير فى ظهره من الضرب جرحا داميا كأنه قرحة فى دابة، ورضى الله عن عمر، فإن هذا الأثر يدل على أن ابن صبيغ فتح أو حاول أن يفتح باب فتنة بتتبعه متشابهات القرآن يكثر الكلام فيها ويسأل الناس عنها .

ومنها ما ورد من أن الإمام مالكا رضى الله عنه سئل عن الاستواء فى قوله سبحانه: « الرحمن على العرش استوى » فقال: « الاستواء معلوم والكيف مجهول، والسؤال عن هذا بدعة ، وأظنك رجل سوء . أخرجوه عنى » . يريد ـ رحمة الله عليه ـ أن الاستواء معلوم الظاهر بحسب ما تدل عليه الأوضاع اللغوية ، ولكن هذا الظاهر غير مراد قطعا، لأنه يستلزم التشبيه المحال على الله بالدليل القاطع والكيف مجهول أى تعيين مراد الشارع مجهول لنا لا دليل عندنا عليه ، ولا سلطان لنا به ، والسؤال عنه بدعة أى الاستفسار عن تعيين هذا المراد على اعتقاد أنه مما شرعه الله ، بدعة ؛ لأنه طريقة فى الدين مخترعة مخالفة لما أرشدنا إليه الشارع من وجوب تقديم المحكمات وعدم اتباع المتشابهات وما جزاء المبتدع

= ولكنى رأيت شيخ الإسلام المالكى بتونس، وهو السيد محمد الطاهر بن عاشور، يصوب فى بحث له أن اسمه « صبيغ بن شريك أو ابن عسل التميمى » من غير كلمة ابن، وبصاد مهملة مفتوحة ، وباء مكسورة ، وغين معجمة . ثم ذكر بعد هذا التصويب أن كثيرا من الناس يحرفونه فيقولون « ضبيع بضاد معجمة ، وعين مهملة، وبصيغة التصغير ثم قال: ويقولون: أبو صبيغ .

إلا أن يطرد ويبعد عن الناس ، خوف أن يفتنهم ، لأنه رجل سوء . وذلك سر قوله « وأظنك رجل سوء . أخرجوه عنى » اهـ .

قال ابن الصلاح : « على هذه الطريقة مضى صدر الأمة وساداتها وإياها اختار أئمة الفقهاء وقادتها ، وإليها دعا أئمة الحديث وأعلامه . ولا أحد من المتكلمين من أصحابنا يصدف عنها ويأباها » اهـ .

(المذهب الثانى) مذهب الخلف ، ويسمى مذهب المؤولة بتشديد الواو وكسرها وهم فريقان : فريق يؤولها بصفات سمعية غير معلومة على التعيين ثابتة له تعالى زيادة على صفاته المعلومة لنا بالتعيين، وينسب هذا إلى أبى الحسن الأشعرى، وفريق يؤولها بصفات أو بمعان نعلمها على التعيين ، فيحمل اللفظ الذى استحال ظاهره من هذه المتشابهات على معنى يسوغ لغة ، ويليق بالله عقلا وشرعا ، وينسب هذا الرأى إلى ابن برهان وجماعة من المتأخرين . قال السيوطى : وكان إمام الحرمين يذهب إليه ثم رجع عنه فقال فى الرسالة النظامية : « الذى نرتضيه دينا ، وندين الله به عقدا ، اتباع سلف الأمة ، فإنهم درجوا على ترك التعرض لمعانيها » اهـ .

أما حجة أصحاب هذا المذهب فيما ذهبوا إليه فهو أن المطلوب صرف اللفظ عن مقام الإهمال الذى يوجب الحيرة بسبب ترك اللفظ لامفهوم له، ومادام فى الإمكان حمل كلام الشارع على معنى سليم ، فالنظر قاض بوجوبه ، انتفاعا بما ورد من الحكيم العليم ، وتنزيها له عن أن يجرى مجرى العجوز العقيم.

(المذهب الثالث) مذهب المتوسطين. وقد نقل السيوطى هذا المذهب فقال: وتوسط ابن دقيق العيد فقال: « إذا كان التأويل قريبا من لسان العرب لم ينكر ، أو بعيدا توقفنا عنه وآمنا بمعناه على الوجه الذى أريد به مع التنزيه . وما كان معناه من هذه الألفاظ

ظاهرا مفهوما من تخاطب العرب قلنا به من غير توقف ، كما فى قوله تعالى : « ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله » فنحمله على حق الله وما يجب له » ا هـ .

تطبيق وتمثيل :

ولنطبق هذه المذاهب على قوله سبحانه : « الرحمن على العرش استوى » ،فنقول : يتفق الجميع من سلف وخلف على أن ظاهر الاستواء على العرش ، وهو الجلوس عليه مع التمكن والتحيز ، مستحيل لأن الأدلة القاطعة تنزه الله عن أن يشبه خلقه أو يحتاج إلى شىء منه ، سواء أكان مكانا يحل فيه أم غيره . وكذلك اتفق السلف والخلف على أن هذا الظاهر غير مراد لله قطعا ، لأنه تعالى نفى عن نفسه المماثلة لخلقه ،وأثبت لنفسه الغنى عنهم ، فقال : « ليس كمثله شىء » وقال « وهو الغنى الحميد » فلو أراد هذا الظاهر لكان متناقضا .

ثم اختلف السلف والخلف بعد ما تقدم ،فرأى السلفيون أن يفوضوا تعيين معنى الاستواء إلى الله ، هو أعلم بما نسبه إلى نفسه وأعلم بما يليق به ، ولا دليل عندهم على هذا التعيين. ورأى الخلف أن يؤولوا، لأنه يبعد كل البعد أن يخاطب الله عباده بما لا يفهمون ،ومادام ميدان اللغة متسعا للتأويل وجب التأويل . بيد أنهم افترقوا فى هذا التأويل فرقتين ؛ فطائفة الأشاعرة يؤولون من غير تعيين ،ويقولون : إن المراد من الآية إثبات أنه تعالى متصف بصفة سمعية لا نعلمها على التعيين، تسمى صفة الاستواء. وطائفة المتأخرين يعينون فيقولون : إن المراد بالاستواء هنا هو الاستيلاء والقهر ، من غير معاناة ولا تكلف ؛ لأن اللغة تتسع لهذا المعنى ، ومنه قول الشاعر العربى :

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

أى استوى وقهر ، أو دبر وحكم ؛ فكذلك يكون معنى النص الكريم : الرحمن

استولى على عرش العالم، وحكم العالم بقدرته، ودبره بمشيئته. وابن دقيق العيد يقول بهذا التأويل إن رآه قريباً، ويتوقف إن رآه بعيداً.

وقل مثل ذلك فى نحو « ويبقى وجه ربك ـ ولتصنع على عينى ـ يد الله فوق أيديهم ـ والسموات مطويات بيمينه ـ يخافون ربهم من فوقهم ـ وجاء ربك ـ وعنده مفاتحُ الغيبِ ». فالسلف يفوضون فى معانيها تفويضا مطلقا بعد تنزيه الله عن ظواهرها المستحيلة. والأشاعرة يفسرونها بصفات سمعية زائدة على الصفات التى نعلمها، ولكنهم يفوضون الأمر فى تعيين هذه الصفات إلى الله. فهم مؤولون من وجه مفوضون من وجه. والمتأخرون يفسرون الوجه بالذات ولفظ (ولتصنع على عينى) بتربية موسى ملحوظا بعناية الله وجميل رعايته، ولفظ اليد بالقدرة، ولفظ اليمين بالقوة، والفوقية بالعلو المعنوى دون الحسى، والمجىء فى قوله (وجاء ربك) بمجىء أمره والعندية فى قوله (وعنده مفاتحُ الغيب) بالإحاطة والتمكن. أو بمثل ذلك فى الجميع.

إرشاد وتحذير :

لقد أسرف بعض الناس فى هذا العصر، فخاضوا فى متشابه الصفات بغير حق، وأتوا فى حديثهم عنها وتعليقهم عليها بما لم يأذن به الله، ولهم فيها كلمات غامضة تحتمل التشبيه والتنزيه، وتحتمل الكفر والإيمان، حتى باتت هذه الكلمات نفسها من المتشابهات، ومن المؤسف أنهم يواجهون العامة وأشباههم بهذا. ومن المحزن أنهم ينسبون مايقولون إلى سلفنا الصالح، ويخيلون إلى الناس أنهم سلفيون، من ذلك قولهم : إن الله تعالى يشار إليه بالإشارة الحسية؛ وله من الجهات الست : جهة الفوق. ويقولون : إنه استوى على عرشه بذاته استواء حقيقيا؛ بمعنى أنه استقر فوقه استقرارا حقيقيا، غير أنهم يعودون فيقولون : ليس كاستقرارنا وليس على مانعرف، وهكذا يتناولون أمثال هذه الآية. وليس لهم مستند فيما نعلم إلا التشبث بالظواهر. ولقد تجلى لك مذهب السلف والخلف، فلا نطيل بإعادته.

ولقد علمت أن حمل المتشابهات فى الصفات على ظواهرها مع القول بأنها باقية على حقيقتها، ليس رأيا لأحد من المسلمين، وإنما هو رأى لبعض أصحاب الأديان الأخرى كاليهود والنصارى، وأهل النحل الضالة كالمشبهة والمجسمة. أما نحن ـ معاشر المسلمين ـ فالعمدة عندنا فى أمور العقائد هى الأدلة القطعية، التى توافرت على أنه تعالى ليس جسما ولا متحيزا ولا متجزئا ولا متركبا، ولا محتاجا لأحد، ولا إلى مكان ولا إلى زمان، ولا نحو ذلك: ولقد جاء القرآن بهذا فى محكماته إذ يقول: « ليس كمثله شيء » ويقول: « قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحــد » ويقول: « إن تكفروا فإن الله غنى عنكم، ولا يرضى لعباده الكفر. وإن تشكروا يرضه لكم » ويقول « يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله . والله هو الغنى الحميد » وغير هذا كثير فى الكتاب والسنة، فكل ماجاء مخالفا بظاهره لتلك القطعيات والمحكمات، فهو من المتشابهات التى لا يجوز اتباعها، كما تبين لك فيما سلف.

ثم إن هؤلاء المتمسحين فى السلف متناقضون، لأنهم يثبتون تلك المتشابهات على حقائقها، ولا ريب أن حقائقها تستلزم الحدوث وأعراض الحدوث كالجسمية والتجزؤ والحركة والانتقال، لكنهم بعد أن يثبتوا تلك المتشابهات على حقائقها ينفون هذه اللوازم، مع أن القول بثبوت الملزومات ونفى لوازمها تناقض لا يرضاه لنفسه عاقل فضلا عن طالب أو عالم. فقولهم فى مسألة الاستواء الآنفة: إن الاستواء باق على حقيقته يفيد أنه الجلوس المعروف المستلزم للجسمية والتحيز، وقولهم بعد ذلك: ليس هذا الاستواء على ما نعرف، يفيد أنه ليس الجلوس المعروف المستلزم للجسمية والتحيز. فكأنهم يقولون: إنه مستو غير مستو، ومستقر فوق العرش غير مستقر، أو متحيز غير متحيز وجسم غير جسم، أو أن الاستواء على العرش ليس هو الاستواء على العرش. والاستقرار فوقه ليس هو الاستقرار فوقه، إلى غير ذلك من الإسفاف والتهافت! فإن أرادوا بقولهم الاستواء على حقيقته؛ أنه على حقيقته التى يعلمها الله ولا نعلمها نحن، فقد اتفقنا، لكن بقى أن تعبيرهم هذا موهم، لا يجوز أن يصدر

من مؤمن ، خصوصا فى مقام التعليم والإرشاد . وفى موقف النقاش والحجاج،لأن القول بأن اللفظ حقيقة أو مجاز . لا ينظر فيه إلى علم الله وما هو عنده، ولكن ينظر فيه إلى المعنى الذى وضع له اللفظ فى عرف اللغة . والاستواء فى اللغة العربية يدل على ماهو مستحيل على الله فى ظاهره . فلابد إذن من صرفه عن هذا الظاهر . واللفظ إذا صرف عما وضع له واستعمل فى غير ما وضع له خرج عن الحقيقة إلى المجاز لا محالة ما دامت هناك قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى . . . ثم إن كلامهم بهذه الصورة فيه تلبيس على العامة وفتنة لهم . فكيف يواجهونهم به ويحملونهم عليه ؟ وفى ذلك مافيه من الإضلال وتمزيق وحدة الأمة، الأمر الذى نهانا القرآن عنه . والذى جعل عمر يفعل مايفعل بصبغ أو بابن صبيغ ، وجعل مالكا يقول مايقول ويفعل مايفعل بالذى سأله عن الاستواء . وقد مر بك هذا وذاك .

لو أنصف هؤلاء لسكتوا عن الآيات والأخبار المتشابهة ، واكتفوا بتنزيه الله تعالى عما توهمه ظواهرها من الحدوث ولوازمه ؛ ثم فوضوا الأمر فى تعيين معانيها إلى الله وحده وبذلك يكونون سلفيين حقا لكنها شبهات عرضت لهم فى هذا المقام، فشوشت حالهم، وبلبلت أفكارهم فلنعرضها عليك مع ماأشبهها والله يتولى هدانا وهداهم، ويجمعنا جميعا على مايحبه ويرضاه آمين .

دفع الشبهات الواردة فى هذا المقام

الشبهة الأولى ودفعها :

يقولون : إن القول بأن الله لا جهة له ، وأنه ليس فوقا ولا تحتا ولا يمينا ولا شمالا إلى غير ذلك، يستلزم أن الله غير موجود ، أو هو قول بأن الله غير موجود، فإن التجرد من الإنصاف بهذه المتقابلات جملة أمر لا يوسم به إلا المعدوم ومن لم يتشرف بشرف الوجود.

وندفع هذه الشبهة بأمور :

(أولها) أن هذا قياس للغائب على الشاهد ، وقياس الغائب على الشاهد فاسد ذلك أن الله تعالى ليس يشبه خلقه حتى يكون حكمه كحكمهم فى وجوب أن يكون له جهة من الجهات الست مادام موجودا وكيف يقاس المجرد عن المادة بما هو مادى ؟ ثم كيف يستوى الخالق وخلقه فى جريان أحكام الخلق على خالقه ؟ إن المادى هو الذى يجب أن يتصف بشىء من هذه المتقابلات ، وأن تكون له جهة من تلك الجهات . أما غير المادى فترتفع عنه هذه الصفات كلها ، ولا يمكن أن تكون له أية جهة من هذه الجهات جميعها. ونظير ذلك أن الإنسان لا بد أن يكون له أحد الوصفين ، فإما جاهل وإما عالم. أما الحجر فلا يتصف بواحد منها ألبتة ، فلا يقال: إنه جاهل ولا إنه عالم، بل العلم والجهل مرتفعان عنه ، بل هما ممتنعان عليه لا محالة، لأن طبيعته تأبى قابليته لكليهما. وهكذا تنتفى المتقابلات كلها بانتفاء قابلية المحل لها ، أيا كانت هذه المتقابلات، وأيا كان هذا المحل الذى ليس قابلا لها . فيمتنع مثلا أن توصف الدار بأنها سميعة أو صماء ، وأن توصف الأرض بأنها متكلمة أو خرساء ، وأن توصف السماء بأنها متزوجة أو أيم ، وهلم جرا .

(ثانيا) نقول لهؤلاء : أين كان الله قبل أن يخلق العرش والفرش والسماء والأرض؟ وقبل أن يخلق الزمان والمكان وقبل أن تكون هناك جهات ست؟ فإن قالوا : لم يكن له جهة ولا مكان ، نقول : قد اعترفتم بما نقول نحن به ، وهو الآن على ما عليه كان، لا جهة له ولا مكان. وإن زعموا أن العالم قديم بقدم الله ، فقد تداووا من داء بداء، واستجاروا من الرمضاء بالنار، ووجب أن ننتقل بهم إلى إثبات حدوث العالم ، والله هو ولى الهداية والتوفيق .

(ثالثا) نقول لهؤلاء : إذا كنتم تأخذون بظواهر النصوص على حقيقتها، فماذا تفعلون بمثل قوله تعالى : « أأمنتم من فى السماء » مع قوله: « وهو الله فى السموات وفى الأرض » ؟ أتقولون إنه فى السماء حقيقة ، أم فى الأرض حقيقة ، أم فيهما معا حقيقة ؟ وإذا كان فى الأرض وحدها حقيقة فكيف تكون له جهة فوق ؟ وإذا كان فيهما معا حقيقة فلماذا يقال

له جهة فوق ولا يقال له جهة تحت ؟ ولماذا يشار إليه فوق ولا يشار إليه تحت ؟ ثم ألا يعلمون أن الجهات أمور نسبية ، فما هو فوق بالنسبة إلينا ، يكون تحتا بالنسبة إلى غيرنا؟ فأين يذهبون !

(رابعاً) نقول لهؤلاء : ماذا تقولون فى قوله تعالى « يَدُ اللهِ فوقَ أيديهم » بإفراد اليد ، مع قوله : « لما خلقت بيدى » بتثنيتها ، ومع قوله : « والسماء بنيناها بأيدٍ » بجمعها . فإذا كنتم تعلمون النصوص على ظواهرها حقيقة، فأخبرونا : أله يد واحدة بناء على الآية الأولى ؟ أم له يدان اثنتان بناء على الآية الثانية ؛ أما له أيد أكثر من اثنتين بناء على الآية الثالثة ؟ !

(خامساً) نقول لهؤلاء : قد ورد فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول: من يدعونى فأستجيب له ؟ من يسألنى فأعطيه ؟ من يستغفرنى فأغفر له ؟ » رواه البخارى ومسلم وغيرهما . فكيف تأخذون بظاهر هذا الخبر ، مع أن الليل مختلف فى البلاد باختلاف المشارق والمغارب ؟ وإذا كان ينزل لأهل كل أفق نزولا حقيقيا فى ثلث ليلهم الأخير ، فمتى يستوى على عرشه حقيقة كما تقولون ؟ ومتى يكون فى السماء حقيقة كما تقولون ؟ مع أن الأرض لاتخلو من الليل فى وقت من الأوقات، ولا فى ساعة من الساعات كما هو ثابت مسطور، لايمارى فيه إلا جهول مأفون !

(سادسا) نقول لهؤلاء ما قاله حجة الإسلام الغزالى، ونصه: « نقول للمتشبث بظواهر الألفاظ : إن كان نزوله من السماء الدنيا ليسمعنا نداءه فما أسمعنا نداءه فأى فائدة فى نزوله ؟ ولقد كان يمكنه أن ينادينا كذلك وهو على العرش أو على السماء العليا . فلا بد أن يكون ظاهر النزول غير مراد ، وأن المراد به شىء آخر غير ظاهره. وهل هذا إلا مثل من يريد وهو بالمشرق إسماع شخص فى المغرب ، فتقدم إلى المغرب بخطوات معدودة ، وأخذ يناديه وهو يعلم أنه لا يسمع نداءه ؛ فيكون نقله الأقدام عملا باطلا ، وسعيه نحو المغرب عبثا صرفا لا فائدة فيه . وكيف يستقر مثل هذا فى قلب عاقل ؟ » اهـ .

الشبهة الثانية ودفعها :

قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله فى حاشيته على العقائد العضدية: «فإن قلت : إن كلام الله وكلام النبى ﷺ مؤلف من الألفاظ العربية ، ومدلولاتها معلومة لدى أهل اللغة ، فيجب الأخذ بمدلول اللفظ كائنا ما كان .

قلت : حينئذ لا يكون ناجيا إلا طائفة المجسمة الظاهريون القائلون بوجوب الأخذ بجميع النصوص وترك طريق الاستدلال رأسا مع أنه لا يخفى ما فى آراء هذه الطائفة من الضلال والإضلال، مع سلوكهم طريقا ليس بفيد اليقين بوجه، فإن للتخاطبات مناسبات ترد بمطابقتها فلا سبيل إلا الاستدلال العقلى وتأويل ما يفيد بظاهره نقصا إلى ما يفيد الكمال . وإذا صح التأويل للبرهان فى شىء صح فى بقية الأشياء ، حيث لا فرق بين برهان وبرهان ، ولا لفظ ولفظ .

وقال فى قوله تعالى : « ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات » إن الوحى من الله للنبى صلى الله عليه وسلم تنزيلا وإنزالا ونزولا، لبيان علو مرتبة الربوبية لا أن هناك نزولا حسيا من مكان مرتفع إلى مكان منخفض. ومن الغريب أنهم يقولون فى الرد على هذا : إن علو الله على خلقه، حقيقة أثبتها لنفسه فى كتابه ، لا حاجة لتأويله بعلو مرتبة الربوبية ! وليت شعرى إذا لم نؤوله بعلو مرتبة الربوبية ، فماذا نريد منه؟ وهل بقي بعد ذلك شىء غير العلو الحسى الذى يستلزم الجهة والتحيز ؟ ولا يمكن نفى ذلك اللازم عنه متى أردنا العلو الحسى، فإن نفى التحيز عن العلو الحسى غير معقول، ولا معنى للاستلزام إلا هذا . أماهم فينفون اللوازم . ولا أدرى كيف ننفى اللوازم مع فرضها لوازم ؟ هذا خلف . ولكن القول ليسوا أهل منطق. والمتتبع لكلامهم يجد فيه العبارات الصريحة فى إثبات الجهة لله تعالى. وقد كفر العراقى وغيره مثبت الجهة لله تعالى، وهو واضح،لأن معتقد الجهة لا يمكنه

إلا أن يعتقد التحيز والجسمية ولا يتأتى غير هذا ، فإن سمعت منهم سوى ذلك فهو قول متناقض ، وكلامهم لا معنى له » ا ﻫ .

الشبهة الثالثة ودفعها :

نقل السيوطى عن بعضهم أنه قال : « إن قيل : ما الحكمة فى إنزال المتشابه ممن أراد لعباده البيان والهدى . (قلنا) إن كان (أى المتشابه) مما يمكن علمه فله فوائد : منها الحث للعلماء على النظر الموجب للعلم بغوامضه والبحث عن دقائقه ، فإن استدعاء الهمم لمعرفة ذلك من أعظم القرب . ومنها ظهور التفاضل وتفاوت الدرجات ، إذ لو كان كله محكما لا يحتاج إلى تأويل ونظر لاستوت منازل الخلق ، ولم يظهر فضل العالم على غيره . وإن كان (أى المتشابه) مما لا يمكن علمه (أى بأن استأثر الله به) فله فوائد : منها ابتلاء العباد بالوقوف عنده والتوقف فيه والتفويض والتسليم ، والتعبد بالاشتغال به من جهة التلاوة كالمنسوخ وإن لم يجز العمل بما فيه ، وإقامة الحجة عليهم لأنه لما نزل بلسانهم ولغتهم ؛ وعجزوا عن الوقوف على معناه مع بلاغتهم وأفهامهم دل على أنه نزل من عند الله ؛ وأنه هو الذى أعجزهم عن الوقوف » ا ﻫ .

ونسترعى نظرك هنا إلى ما أسلفناه فى الحكم الماضية ، ثم إلى ما ذكره ابن اللبان فى مقدمة كتابه : (رد الآيات المتشابهات إلى الآيات المحكمات) إذ قال ما خلاصته : « ليس فى الوجود فاعل إلا الله ، وأفعال العباد منسوبة الوجود إليه تعالى بلا شريك ولا معين فهى فى الحقيقة فعله ، وله بها عليهم الحجة « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .

ومن المعلوم أن أفعال العباد لابد فيها من توسط الجوارح مع أنها منسوبة إليه تعالى وبذلك يعلم أن لصفاته تعالى فى تجلياتها مظهرين : مظهر عبادى منسوب لعباده ، وهو الصور والجوارح الجثمانية . ومظهر حقيقى منسوب إليه ، وقد أجرى عليه أسماء المظاهر العبادية

المنسوبة لعباده، على سبيل التقريب لأفهامهم والتأنيس لقلوبهم. ولقد نبه في كتابه تعالى على القسمين وأنه منزه عن الجوارح في الحالين فنبه على الأول بقوله: « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم » فهذا يفيد أن كل ما يظهر على أيدى العباد فهو منسوب إليه تعالى. ونبه على الثانى بقوله فيما أخبر عنه نبيه ﷺ في صحيح مسلم: « ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه: فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها». وقد حقق الله ذلك لنبيه بقوله: « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » وبقوله: « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » وبهذا يفهم ما جاء من الجوارح منسوبا إليه تعالى، فلا يفهم من نسبتها إليه تشبيه ولا تجسيم. ولكن الغرض من ذلك التقريب للأفهام، والتأنيس للقلوب. والواجب سلوكه إنما هو رد المتشابه إلى المحكم على القواعد اللغوية، وعلى مواضعات العرب وعلى ما كان يفهمه الصحابة والتابعون من الكتاب والسنة » اهـ ما أردنا نقله.

الشبهة الرابعة ودفعها:

نقل السيوطى أيضا عن الإمام فخر الدين الرازى أنه قال: « من الملحدة من طعن في القرآن لأجل اشتماله على المتشابهات وقال: إنكم تقولون إن تكاليف الخلق مرتبطة بهذا القرآن إلى قيام الساعة، ثم إنا نراه بحيث يتمسك به صاحب كل مذهب على مذهبه، فالجبرى متمسك بآيات الجبر، كقوله تعالى « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً »، والقدرى يقول: هذا مذهب الكفار بدليل أنه تعالى حكى عنهم ذلك في معرض الذم في قوله: « وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه، وفى آذاننا وقر » وفى موضع آخر « وقالوا قلوبنا غلف » ومنكر الرؤية متمسك بقوله تعالى « لا تدركه الأبصار »[1] ومثبت الجهة متمسك بقوله تعالى: « يخافون ربهم من فوقهم » « الرحمن

(١) يظهر أن هنا سقطا، لعله هكذا: ومثبت الرؤية متمسك بقوله تعالى: « وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة ».

على العرش استوى »، والثانى متمسك بقوله تعالى: (ليس كمثله شىء) ثم يسمى كل واحد الآيات الموافقة لمذهبه محكمة ، والآيات المخالفة متشابهة ، وإنما آل فى ترجيح بعضها على بعض إلى ترجيحات خفية ووجوه ضعيفة . فكيف يليق بالحكيم أن يجعل الكتاب الذى هو المرجوع إليه فى كل الدين إلى يوم القيامة هكذا ؟ .

والجواب أن العلماء ذكروا لوقوع المتشابه فيه فوائد : منها أنه يوجب مزيد المشقة فى الوصول إلى المراد ، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب إلى آخر ما نقلناه عنه فيما سبق من بيان حكم الله وأسراره فى ذكر المتشابهات فاجعلها على بال منك فى رفع هذه الشبهة، وأضف إليها ما نقلناه آنفا عن ابن الابان ، وما بسطناه فى دفع الشبهات السالفة . وارجع إلى ما كتبناه فى مثل هذا المقام بالمبحث السابع من هذا الكتاب .

الشبهة الخامسة ودفعها .

قال السيوطى فى كتابه الإتقان : أورد بعضهم سؤالا وهو أنه هل للمحكم مزية على المتشابه أو لا ؟ فإن قلتم بالثانى فهو خلاف الإجماع وإلا فقد نقضتم أصلكم فى أن جميع كلامه سبحانه سواء ، وإنه منزل بالحكمة .

وأجاب أبو عبدالله النكرباذى بأن المحكم كالمتشابه من وجه ويخالفه من وجه فيتفقان فى أن الاستدلال بهما لا يمكن إلا بعد معرفة حكمة الواضع وأنه لا يختار القبيح، ويختلفان فى أن المحكم بوضع اللغة لا يحتمل إلا الوجه الواحد فمن سمعه أمكنه أن يستدل به فى الحال، والمتشابه يحتاج إلى فكرة ونظر ليحمله على الوجه المطابق ولأن المحكم أصل والعلم بالأصل أسبق . ولأن المحكم يعلم مفصلا والمتشابه لا يعلم إلا مجملا اهـ .

أقول : ويمكن دفع هذه الشبهة بوجه أقرب ، وهو أن المحكم له مزية على المتشابه، لأنه بنص القرآن هو أم الكتاب على ماسلف بيانه والاعتراض بأن هذا ينقض الأصل المجمع عليه وهو أن جميع كلامه سبحانه سواء وأنه منزل بالحكمة: الاعتراض بهذا ساقط من أساسه لأن المساواة بين كلام الله إنما هى فى خصائص القرآن العامة ، ككونه منزلا على النبى ﷺ بالحق وبالحكمة و كونه متعبداً بتلاوته ومتحدى بأقصر سورة منه، ومكتوبا فى المصاحف ومنقولا بالتواتر ومحرما حمله ومسه على الجنب ونحو ذلك . والمساواة فى هذه الخصائص لاتنافى ذلك الامتياز الذى امتازت به المحكمات. وكيف يتصور التنافى على حين أن كلا من المحكم والمتشابه له حكمه وله مزاياه ؟ فمزية المحكم أنه أم الكتاب إليه ترد المتشابهات ، ومزية المتشابه أنه محك الاختبار والابتلاء، ومجال التسابق والاجتهاد، إلى غير ذلك من الفوائد التى عرفتها . ثم كيف يتصور هذا التنافى والقرآن كله مختلف باختلاف موضاعاته وأحواله، فمنه عقائد وأحكام ، وأوامر ونواه ، وعبادات وقصص وتنبؤات ، ووعد ووعيد، وناسخ ومنسوخ، وهلم مما يستنفد ذكره وقتا طويلا. ولا ريب أن كل نوع من هذه الأنواع له مزيته أو خاصته التى غاير بها الآخر ، وإن اشترك الجميع بعد ذلك فى أنها كلها أجزاء للقرآن ، متساوية فى القرآنية وخصائصها العامة. وخلاصة هذا الجواب أن امتياز المحكم على المتشابه فى أمور ، ومساواته إياه فى أمور أخرى، فلا تناقض ولا تعارض ، كما أن كل عضو من أعضاء جسم الإنسان له مزيته وخاصته التى صار بها عضوا، والكل بعد ذلك يساوى الآخر فى أنه جزء للإنسان فى خصائصه العامة من حس وحياة .

الشبهة السادسة ودفعها :

يقولون : إن الناظر فى موقف السلف والخلف من المتشابه، يجزم بأنهم جميعا مؤولون؛ لأنهم اشتركوا فى صرف ألفاظ المتشابهات عن ظواهرها. وصرفها عن ظواهرها تأويل لها

لامحالة. وإذا كانوا جميعا مؤولين فقد وقعوا جميعا فيما نهى الله عنه، وهو اتباع المتشابهات بالتأويل، إذ وصف سبحانه هؤلاء بأن فى قلوبهم زيغا، فقال فى الآية السابقة: «فأما الذينَ فى قُلوبِهِم زَيغٌ فيتَّبِعونَ ماتَشابه منهُ ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويلِه» .

وندفع هذه الشبهة (أولا) بأن القول بكون السلف والخلف مجمعين على تأويل المتشابه، قول له وجه من الصحة، لكن بحسب المعنى اللغوى أو مايقرب من المعنى اللغوى. أما بحسب الاصطلاح السائد فلا؛ لأن السلف وإن وافقوا الخلف فى التأويل، فقد خالفوهم فى تعيين المعنى المراد باللفظ بعد صرفه عن ظاهره، وذهبوا إلى التفويض المحض بالنسبة إلى هذا التعيين. أما الخلف فركبوا متن التأويل إلى هذا التعيين كما سبق تفصيله.

(ثانيا) أن القول بأن السلف والخلف جميعا وقعوا بتصرفهم السابق فيما نهى الله عنه، قول خاطىء، واستدلالهم عليه بالآية المذكورة استدلال فاسد، لأن النهى فيها إنما هو عن التأويل الآثم الناشىء عن الزيغ واتباع الهوى بقرينة قوله سبحانه (وأما الذينَ فى قُلوبِهِم زَيْغٌ) أى ميل عن الاستقامة والحجة، إلى الهوى والشهوة. أما التأويل القائم على تحكيم البراهين القاطعة واتباع الهداية الراشدة، فليس من هذا القبيل الذى حظره الله وحرمه. وكيف ينهانا عنه وقد أمرنا به ضمنا بإيجاب رد المتشابهات إلى المحكمات، إذ جعل هذه المحكمات هى أم الكتاب، على ماسبق بيانه؟ ثم كيف يكون مثل هذا التأويل الراشد محرما وقد دعا به الرسول ﷺ لابن عباس فقال فى الحديث المشهور: (اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل)؟.

ويتلخص من هذا أن الله أرشدنا فى الآية إلى نوع من التأويل وهو مايكون برد المتشابهات إلى المحكمات. ثم نهانا عن نوع آخر منه. وهو ما كان ناشئا عن الهوى والشهوة، لا على البرهان والحجة، قصدا إلى الضلال والفتنة. وهما لونان مختلفان، وضربان بعيدان، بينهما برزخ لايبغيان.

وإذن فمن لم يصرف لفظ المتشابه عن ظاهره الموهم للتشبيه أو المحال فقد ضل، كالظاهرية والمشبهة. ومن فسر لفظ المتشابه تفسيرا بعيدا عن الحجة والبرهان قائما على الزيغ والبهتان فقد ضل أيضا كالباطنية والإسماعيلية، وكل هؤلاء يقال فيهم إنهم متبعون للمتشابه ابتغاء الفتنة. أما من يؤول المتشابه أى يصرفه عن ظاهره بالحجة القاطعة، لا طلبا للفتنة، ولكن منعاً لها، وتثبيتا للناس على المعروف من دينهم، وردا لهم إلى محكمات الكتاب القائمة وأعلامه الواضحة، فأولئك هم الهادون المهديون حقا. وعلى ذلك درج سلف الأمة وخلفها وأئمتها وعلماؤها. روى عن البخارى عن سعيد بن جبير أن رجلا قال لابن عباس: «إنى أجد فى القرآن أشياء تختلف علىّ. قال: ماهو؟. قال: «فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون» وقال: «وأقبلَ بعضُهم على بعض يتساءلون» وقال «ولا يكتمون الله حديثا» وقال «قالوا والله ربنا ما كنا مشركين» قال ابن عباس: «فلا أنساب بينهم فى النفخة الأولى ولا يتساءلون، ثم فى النفخة الثانية أقبل بعضهم على بعض يتساءلون. فأما قوله «والله ربنا ما كنا مشركين» فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، فيقول المشركون: تعالوا نقول ما كنا مشركين، فيختم الله على أفواههم فتنطق جوارحهم بأعمالهم، فعند ذلك لا يكتمون الله حديثا» إلى آخر الحديث. نسأل الله أن يسلمنا، وأن يهدينا سواء الصراط، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم، آمين.

المبحث السادس عشر

فى أسلوب القرآن الكريم

الأسلوب فى اللغة:

يطلق الأسلوب فى لغة العرب إطلاقات مختلفة: فيقال للطريق بين الأشجار، وللفن، وللوجه، وللمذهب، وللشموخ بالأنف، ولعنق الأسد. ويقال لطريقة المتكلم فى كلامه

أيضا ، وأنسب هذه المعانى بالاصطلاح الآنى هو المعنى الأخير ، أو هو الفن أو المذهب لكن مع التقييد .

الأسلوب فى الاصطلاح :

تواضع المتأدبون وعلماء العربية ، على أن الأسلوب هو الطريقة الكلامية التى يسلكها المتكلم فى تأليف كلامه واختيار ألفاظه ، أو هو المذهب الكلامى الذى انفرد به المتكلم فى تأدية معانيه ومقاصده من كلامه . أو هو طابع الكلام أو فنه الذى انفرد به المتكلم كذلك .

معنى أسلوب القرآن :

وعلى هذا فأسلوب القرآن الكريم هو طريقته التى انفرد بها فى تأليف كلامه واختيار ألفاظه ، ولا غرابة أن يكون للقرآن الكريم أسلوب خاص به ، فإن لكل كلام إلهى أو بشرى أسلوبه الخاص به . وأساليب المتكلمين وطرائقهم فى عرض كلامهم من شعر أو نثر ، تتعدد بتعدد أشخاصهم ، بل تتعدد فى الشخص الواحد بتعدد الموضوعات التى يتناولها ، والفنون التى يعالجها .

الأسلوب غير المفردات والتراكيب :

ونلفت نظرك إلى أن الأسلوب غير المفردات والتراكيب التى يتألف منها الكلام وإنما هو الطريقة التى انتهجها المؤلف فى اختيار المفردات والتراكيب لكلامه .

وهذا هو السر فى أن الأساليب مختلفة باختلاف المتكلمين من ناثرين وناظمين ، مع أن المفردات التى يستخدمها الجميع واحدة ، والتراكيب فى جملتها واحدة ، وقواعد صوغ المفردات وتكوين الجمل واحدة ، وهذا هو السر أيضا فى أن القرآن لم يخرج عن معهود العرب فى لغتهم العربية ، من حيث ذوات المفردات والجمل وقوانينها العامة ، بل جاء كتابا عربيا جاريا على مألوف العرب من هذه الناحية ، فمن حروفهم تألفت كلماته ، ومن كلماتهم

تألفت تراكيبه، وعلى قواعدهم العامة فى صياغة هذه المفردات وتكوين التراكيب جاء تأليفه، ولكن المعجز والمدهش والمثير لأعجب العجب، أنه مع دخوله على العرب من هذا الباب الذى عهدوه، ومع مجيئه بهذه المفردات والتراكيب التى توافروا على معرفتها، وتنافسوا فى حلبتها، وبلغوا الشأو الأعلى فيها، نقول: إن القرآن مع ذلك كله وبرغم ذلك كله، قد أعجزهم بأسلوبه الفذ، ومذهبه الكلامى المعجز! ولو دخل عليهم من غير هذا الباب الذى يعرفونه، لأمكن أن يلتمس لهم عذر أو شبه عذر، وأن يسلم لهم طعن أو شبه طعن «ولو جعلناهُ قرآناً أعجمياً لقالوا: لولا فصّلت آياته، أأعجمى وعربى؟» ولهذا المعنى وصف الله كتابه بالعروبة فى غير آية. فقال جل ذكره فى سورة يوسف «إنا أنزلناهُ قرآناً عربياً لعلكم تعقلون» وقال فى سورة الزخرف: «إنا جعلناهُ قرآناً عربياً لعلكم تعقلون» وقال فى سورة الزمر: «قرآناً عربياً غير ذى عِوَج لعلهم يتقون».

مثال لهذا الفارق:

وبما أن الأمر قد اشتبه على بعض الناس حتى ضلوا فيه أو كادوا نمثل للفرق بين الأسلوب وبين المفردات والتركيب بمثالين حسيين أحدهما صناعة الحياطة، والآخر صناعة الصيدلة أو تحضير العقاقير والأدوية: فالخياطون يختلفون فيما بينهم اختلافاً بعيداً ما بين خامل ونابه فى صنعته، وضعيف وبارع فى حرفته. وهذا الاختلاف لم يجىء من ناحية مواد الثياب المخيطة، ولا من ناحية الآلات والأدوات والطرق العامة التى تستخدم فى الخياطة. إنما جاء الاختلاف من جهة الطريقة الخاصة التى اتبعت فى اختيار هذه المواد وتأليفها واستخدام قواعد هذه الصناعة فى شكلها وهندستها. وكذلك الصيادلة يختلفون فيما بينهم نباهة وخمولا وبراعة وقصوراً. لا من حيث مواد الأدوية وعناصرها، ولا من حيث القواعد الفنية العامة فى تركيبها، بل من حيث حسن اختيار هذه المواد، ودقة تطبيق هذه القواعد فى تحضير العقاقير والأدوية، حتى لقد نشاهد أن مزاج الجيد منها وأثره ونفعه، يختلف بوضوح عن مزاج الردىء منها وأثره وضرره. وقل مثل هذا فى كل ما حولك من صناعات يختلف فيها الصانعون ومصنوعاتهم جودة ورداءة مع اتحاد مواد الصناعة الأولى وقواعدها العامة فى الجميع.

كذلكم البيان اللغوى فى أية لغة ، ما هو إلا صناعة، موادها وقواعدها واحدة فى المفردات والتراكيب، ولكن البيان يختلف بعد ذلك باختلاف الطرائق والأساليب ،وإن شئت فقل: يختلف باختلاف الأذواق والمواهب التى انتقت هذه المفردات اللغوية، واصطفت تلك الجمل التركيبية . حتى إنك لترى أهل اللغة الواحدة، يؤدون الغرض الواحد بوجوه مختلفة من المفرادات، ومذاهب شتى من التراكيب، يتفاوت حظها من الجودة والرداءة، ومن الحسن والدمامة، ومن القبول والرد، بمقدار ما بينهم من اختلاف فى طرائق اختيارهم لما اختاروه من مواد اللغة إفراداً وتركيباً، ولما لاحظوه من المناسبات مع هذا الاختيار، فإذا سلم ذوق المتكلم وسمت حاسته البيانية، حسن اختياره، وسما كلامه ، سمواً قد يأخذ عليك حسك ويملك قبلك ولبك وإذا فسد ذوق المتكلم وانحطت حاسته البيانية، ساء اختياره، ونزل كلامه ، نزولا قد تتقزز منه نفسك ، ويتأذى به سمعك ، وربما فررت منه وأنت تتمثل بقول الشاعر :

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئب إذ عوى   وصوّت إنسانٌ فكدت أطير

بيان ذلك فى اللغة العربية :

بيان ذلك فى لغتنا المحبوبة العربية ، أن مفرداتها منها متآلف فى حروفه ومتنافر ، وواضح منتأنس ، وخفى غريب، ورقيق خفيف على الأسماع، وثقيل كريه تمجه الأسماع، وموافق لقياس اللغة ومخالف له . ثم من هذه المفردات عام وخاص، ومطلق ومقيد ،ومجمل ومبين، ومعرف ومنكر، وظاهر ومضمر، وحقيقة ومجاز. وكذلك التراكيب العربية، منها ما هو حقيقة ومجاز، ومنها متآلف الكلمات ومتنافرها ، وواضح المعانى ومعقدها . وموافق للقياس اللغوى والخارج عليه، ومنها الاسمية والفعلية، والخبرية والإنشائية، وفيها النفى والإثبات ، والإيجاز والإطناب ، والتقديم والتأخير، والفصل والوصل ، إلى غير ذلك مما هو مفصل فى علوم اللغة وكتبها .

ثم إن ما يؤيده معهود اللغة من المتنوعات المذكورة وما أشبهها، هو المسلك العام الذى ينفذ منه المتكلمون إلى أغراضهم ومقاصدهم. ولكن ليس شيء من هذه المتنوعات بالذى يحسن استعماله إطلاقا، ولا شيء منها بالذى يسوء استعماله إطلاقا، أى فى كافة الأحوال وجميع المقامات. بل لكل مقام مقال، فما يجمل فى موطن قد يقبح فى موطن آخر، وما يجب فى مقام قد يمتنع فى مقام آخر، ولولا هذا لكان الوصول إلى الطرف الأعلى من البلاغة هينا ولأصبح كلام الناس لونا واحدا وطعما واحدا. ولكن الأمر يرجع إلى حسن الاختيار من هذه المتنوعات بحسب ما يناسب الأحوال والمقامات، فخطاب الأذكياء غير خطاب الأغبياء. وموضوع العقائد التى يتحمس لها الناس غير موضوع القصص. وميدان الجدل الصاخب غير مجلس التعليم الهادى، ولغة الوعد والتبشير غير لغة الوعيد والإنذار إلى غير ذلك مما يجعل اختيار المناسبات عسيرا ضرورة أن الإحاطة بجميع أحوال المخاطبين قد تكون متعسرة أو متعذرة ومما يجعل اللفظ الواحد فى موضع من المواضع كأنه نجمة وضاءة لامعة، وفى موضع آخر كأنه نكتة سوداء مظلمة.

ولعلمائنا - أكرمهم الله - أذواق مختلفة فى استنباط الفروق الدقيقة بين استعمال حرف أو كلمة، مكان حرف أو كلمة. ومن السابقين فى حلبة هذا الاستنباط الخطيب الإسكافى المتوفى سنة ٤١٢ هـ فى كتابه (درة التنزيل وغرة التأويل) وهاك مثالا منه يفيدنا فيما نحن فيه، إذ يتحدث عن سر التعبير بالفاء فى لفظ (كلوا) من قوله سبحانه فى سورة البقرة: «وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم» وعن سر التعبير بالواو لا بالفاء فى لفظ «كلوا» أيضا، لكن من قوله سبحانه فى سورة الأعراف: «وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم» مع أن القصة واحدة، ومدخول الحرف واحد؟ قال رحمه الله:

«الأصل أن كل فعل عطف عليه ما تعلق به تعلق الجواب بالابتداء، وكان الأول مع الثانى بمعنى الشرط والجزاء، فالأصل فيه عطف الثانى على الأول بالفاء، ومنه «وإذ قلنا

ادخُلوا هذه القريةَ فكُلُوا » فإن وجود الأكل متعلق بالدخول والدخول موصل إلى الأكل فالأكل وجوده معلق بوجوده بخلاف « وإذ قيلَ لهم اسكنوا هذهِ القريةَ وكلُوا » لأن السكنى مقام مع طول لبث ، والأكل لا يختص وجوده بوجوده ، لأن من يدخل بستاناً قد يأكل منه مجتازاً . فلما لم يتعلق الثانى بالأول تعلق الجواب بالابتداء ، وجب العطف بالواو دون الفاء » اهـ .

تفاوت القوى والقدر :ـ

ولا ريب أن القوى والقدر تتفاوت تفاوتاً بعيداً فيما نعرف من الأحوال ومناسباتها ، وأن ميدان الاختيار فسيح ملىء بشتى الألوان والصور للمفردات ومركباتها . فماذا عسى أن تبلغ قدرة الإنسان فى استعراض كل هذه الألوان والصور ، وفى إقامة ميزان دقيق بينها ، تمهيداً لحسن الاختيار ، على ضوء تلك الأحوال المقتضية لما ينبغى أن يكون منها ! هنا ينفسح المجال ثم ينفسح ، فما يهتدى إليه متكلم قد يغفل عنه متكلم ، وما يتيقظ له كاتب قد يغفل عنه كاتب ، وما يدركه شاعر قد يفوت شاعراً آخر ، بل ما يدركه الإنسان الواحد فى موضع قد يخطئه فى موضع سواه ، وهكذا .

وليس من غرضنا هنا أن نستقصى الأحوال والمناسبات ، ولا أن نضرب الأمثال والشواهد لكل حال وما يناسبها ، فلذلك محله من علوم اللغة وكتبها كما قلنا . ولكن الذى نريد أن نضع يدك عليه فى هذا المقام ، هو أن أسلوب أى كلام بليغ ، معناه صورته الفنية أو طابعه الخاص ، أو مزاجه الشخصى الذى تهيأ له برعاية صاحبه لجملة الأحوال ومناسباتها فى هذا الكلام . وأنه على حسب ما تحتوى أساليب الكلام من الأحوال والمناسبات ، يتفاوت هذا الكلام فى درجات البلاغة علواً ونزولاً ، وفى حظه عند السامعين رداً وقبولاً . وأنه لم يظفر الوجود بكلام إلهى ولا بشرى بلغ الطرف الأعلى فى البلاغة ؛ ووصل إلى قمة الإعجاز من هذه الناحية ، غير القرآن الكريم ؛ لأن منشىء هذا الكتاب هو وحده الذى تعلقت إرادته بأن تكون معجزة نبى الإسلام من هذا الطراز لحكمة شرحناها وقد نعرض لها فيما يأتى ولأنه سبحانه هو الذى انتهت إليه الإحاطة بجميع أحوال الخلق وحده

ولأنه عز سلطانه هو القادر وحده . على تضمين كلامه كل المناسبات التي اقتضتها تلك الأحوال الكثيرة التي لم يحط ولن يحيط بها سواه ! . ومن الذي يستطيع أن يحيط بكل أحوال الخلق وفيها الخفي الذي لا يعلمه من يعلم السر وأخفى ؟ ثم من ذا الذي يستطيع أن يحيط بكل أحوال الخلق؛ وهم أجيال متعددة، منهم من لم يخلقوا وقت نزول القرآن، ومنهم من لم يعرفوا لنا إلى الآن ؟ بعد بضعة عشر قرنا من نزول هذا القرآن. وأنت خبير بأن القرآن هو كتاب الساعة الذي يخاطب الأجيال كافة ؛ حتى يرث الله الأرض ومن عليها . فلا غرو أن يضمنه منزله كل ما تحتاج إليه الأمم على اختلاف أجيالها من المناسبات الملائمة لأحوالهم ، وليس ذلك في قدرة أحد إلا العليم بأسرار الخلق وخفيات السموات والأرض « قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض » « تنزيلًا ممن خلق الأرضَ والسموات العُلَى * الرحمنُ على العرشِ استوَى * له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحتَ الثَّرى * » .

ومن شواهد ما نذكر، أننا نلاحظ في كثير من ألفاظ القرآن أنها اختيرت اختيارا يتجلى فيه وجه الإعجاز من هذا الاختيار ، وذلك في الألفاظ التي تمر بهـــا على القرون والأجيال ، منذ نزل القرآن إلى اليوم فإذا بعض الأجيال يفهم منها ما يناسب تفكيره، ويلائم ذوقه ، ويوائم معارفه، وإذا أجيال أخرى تفهم من هذه الألفاظ عينها غير ما فهمته تلك الأجيال ، ولو استبدلت هذه الألفاظ بغيرها لم يصلح القرآن لخطاب الناس كافة ، وكان ذلك قدحا في أنه كتاب الدين العام الخالد، ودستور البشرية في كل عصر ومصر. فسبحان من أنزل هذا القرآن مشبعا لحاجات الجميع، وافيا تجارب الجميع، ملائما لأذواق الجميع ، متفقا ومعارف الجميع ، مما يدل دلالة واضحة ، على أنه كلام الله وحده، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهيدا .

ولعل لنا عودة لمثل هذا الكلام في فرصة أخرى . فلنمسك القلم عن الجولان في هذا الميدان . ولنرجع عودا على بـــدء إلى أسلوب القرآن ولنذكر شيئا من خصائص

أسلوب القرآن ومزاياه التى انفرد بها . وكانت هى السر فى إعجازه اللغوى أو البلاغى أو الأسلوبى .

خصائص أسلوب القرآن :

إن الخصائص التى امتاز بها أسلوب القرآن . والمزايا التى توافرت فيه حتى جعلت له طابعا معجزا فى لغته وبلاغته ، أفاض العلماء فيها بين مقل ومكثر ، ولكنهم بعد أن طال بهم المطاف ، وبعد أن دميت أقدامهم ، وحفيت أقلامهم ، لم يزيدوا على أن قدموا إلينا قُلًّا من كثر وقطرة من بحر ، معترفين بأنهم عجزوا عن الوفاء ، وأن ماخفى عليهم فلم يذكروه أكثر مما ظهر لهم فذكروه ، وأنهم لم يزيدوا على أن قربوا لنا البعيد بضرب من التمثيل رجاء الإيضاح والتبيين . أما الاستقصاء والإحاطة بمزايا الأسلوب القرآنى وخصائصه على وجه الاستيعاب فأمر استأثر به منزله الذى عنده علم الكتاب .

وإذن فلنذكر نحن بدورنا شيئا من خصائص أسلوب القرآن ، على وجه التمثيل والتقريب أيضا .. ومالا يدرك كله لا يترك أقله .

الخاصة الأولى :

مسحة القرآن اللفظية . فإنها مسحة خلابة عجيبة ، تتجلى فى نظامه الصوتى ، وجماله اللغوى .

١ ـ ونريد بنظام القرآن الصوتى ، اتساق القرآن وائتلافه فى حركاته وسكناته ، ومداته وغناته ، واتصالاته وسكتاته ، اتساقا عجيبا ، وائتلافا رائعا ، يسترعى الأسماع ويستهوى النفوس ، بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أى كلام آخر من منظوم ومنثور . وبيان ذلك أن من ألقى سمعه إلى مجموعة القرآن الصوتية ، وهى مرسلة على وجه السذاجة

فى الهواء ؛ مجردة من هيكل الحروف والكلمات ، كأن يكون السامع بعيدا عن القارئ المجود ، بحيث لا تبلغ إلى سمعه الحروف والكلمات متميزا بعضها عن بعض ، بل يبلغه مجرد الأصوات الساذجة المؤلفة من المدات والغنات، والحركات والسكنات، والاتصالات والسكتات ، نقول : إن من ألقى سمعه إلى هذه المجموعة الصوتية الساذجة يشعر من نفسه ولو كان أعجميا لا يعرف العربية ، بأنه أمام لحن غريب وتوقيع عجيب ، يفوق فى حسنه وجماله كل ماعرف من توقيع الموسيقى وترنيم الشعر ،لأن الموسيقى تتشابه أجراسها وتتقارب أنغامها فلا يفتأ السمع أن يملها، والطبع أن يمجها ، ولأن الشعر تتحد فيه الأوزان وتتشابه القوافى فى القصيدة الواحدة غالبا وإن طالت ، على نمط يورث سامعه السأم والملل ، بينما سامع لحن القرآن لا يسأم ولا يمل ، لأنه يتنقل فيه دائما بين ألحان متنوعة، وأنغام متجددة، على أوضاع مختلفة يهز كل وضع منها أوتار القلوب ، وأعصاب الأفئدة .

وهذا الجمال الصوتى أو النظام التوقيعى ، هو أول شىء أحسته الآذان العربية أيام نزول القرآن ، ولم تكن عهدت مثله فيما عرفت من منثور الكلام، سواء أكان مرسلا أم مسجوعا ، حتى خيل إلى هؤلاء العرب أن القرآن شعر؛ لأنهم أدركوا فى إيقاعه وترجيعه لذة ، وأخذتهم من لذة هذا الإيقاع والترجيع هزة ، لم يعرفوا شيئا قريبا منها إلا فى الشعر، ولكن سرعان ماعادوا على أنفسهم بالتخطئة فيما ظنوا ، حتى قال قائلهم ـ وهو الوليد ابن المغيرة ـ : « وماهو بالشعر » معللا ذلك بأنه ليس على أعاريض[1] الشعر فى رجزه[2] ولا فى قصيده . بيد أنه تورط فى خطأ أفحش من هذا الخطأ ، حين زعم فى ظلام العناد

---

(١) جمع عروض على غير قياس كأنهم جمعوا عريضا . وهو ميزان الشعر أو الجزء الذى فى آخر النصف الأول من البيت ؟ مختار .

(٢) الرجز ضرب من الشعر وزنه مستفعلن ست مرات . وزعم الخليل أنه ليس بشعر وإنما هو أنصاف أبيات أو أثلاث ؟ قاموس .

والحيرة أنه سحر ، لأنه أخذ من النثر جلاله وروعته ، ومن النظم جماله ومتعته ووقف منهما في نقطة وسط خارقة لحدود العادة البشرية ، بين إطلاق النثر وإرساله وتقييد الشعر وأوزانه . ولو أنصف هؤلاء لعلموا أنه كلام منثور لكنه معجز ليس كمثله كلام ، لأنه صادر من متكلم قادر ليس كمثله شيء . وما هو بالشعر ولا بالسحر ، لأن الشعر معروف لهم بتقفيته ووزنه وقانونه ورسمه ، والقرآن ليس منه ؛ ولأن السحر محاولات خبيثة لا تصدر إلا من نفس خبيثة ، ولقد علمت قريش أكثر من غيرهم طهارة النفس المحمدية وسموها ونبلها ، إذ كانوا أعلم الناس به وأعرفهم بحسن سيرته وسلوكه ، وقد نشأ فيهم وشب وشاب بينهم . هذا إلى أن القرآن كله ، ما هو إلا دعوة طيبة لأهداف طيبة ، لا محل فيها إلى خبث ورجس ، بل هي تحارب السحر وخبثه ورجسه ، وتسمه بأنه كفر ، إذ قال : « ولكنَّ الشياطينَ كفروا يعلِّمونَ الناسَ السحرَ . وما أُنزِلَ على الملكينِ ببابلَ هارُوتَ ومارُوتَ وما يعلِّمانِ من أحدٍ حتى يقولا : إنما نحنُ فتنة فلا تكفر » .

ثم إن السحر معروف المقدمات والوسائل ، فليس بمعجز ، ولا يمكنه ولن يمكنه أن يأتي في يوم من الأيام بمثل هذا الذي جاء به القرآن .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قرأ عليه القرآن كأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال له : ياعم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه ، فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله (بكسر القاف وفتح الباء) . قال الوليد : لقد علمت قريش أني من أكثرها مالا ، قال : فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له وكاره . قال : وماذا أقول ؟ فوالله مافيكم من رجل أعلم مني بالشعر لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن . والله مايشبه الذي يقوله شيئا من هذا . ووالله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمنير أعلاه ، مشرق أسفله وإنه ليعلو ولا يعلى ، وإنه ليحطم ماتحته ! قال أبو جهل للوليد : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه فقال الوليد : دعني أفكر . فلما فكر قال : هذا سحر يأثره عن غيره . وفي ذلك نزل

قوله تعالى «ذرنى ومَن خلقتُ وَحيدا * وجَعلتُ له ُ مالًا ممدودًا وبنين شهودًا * ومهّدتُ له تمهيدًا * ثم يطمعُ أن أزيد * كلاّ إنه كان لآياتنا عنيدا * سأرهقُهُ صَعُودا * إنه فكّر وقدّر * فقتل كيفَ قدّر * ثم قُتل كيف قدّر * ثم نظَرَ * ثم عَبَس وبَسَر * ثم أدْبَرَ واستكبر * فقالَ إن هذا إلا سحرٌ يؤثر * إنْ هذا إلا قولُ البشر *» رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط البخارى . فانظر إلى الرجل حين أرسل نفسه على سجيتها العربية، وبديهتها الفطرية كيف أنصف فى حكمه، حين تجرد ساعة من عناده، وكفره، وقال: والله ما يشبه الذى يقوله شيئا من هذا إلى أن قال : وإنه ليحطم ما تحته. ثم انظر إلى الرجل حين غلبت عليه شقوته، وعاوده عناده وتعصبه، كيف قاوم فطرته وأكره نفسه على مخالفة شعوره ووجدانه وقال ما قال بعد أن حار وذهب كل مذهب فى ضلاله وحيرته، على نحو ما يصور القرآن تلك الحيرة والمقاومة والاستكراه بقوله: «إنه فكّر وقدّر» الخ. نسأل الله الحماية والهداية بمنه وكرمه . آمين .

٢ ـ ونريد بجمال القرآن اللغوى تلك الظاهرة العجيبة التى امتاز بها القرآن فى رصف حروفه وترتيب كلماته، ترتيبا دونه كل ترتيب ونظام تعاطاه الناس فى كلامهم. وبيان ذلك أنك إذا استمعت إلى حروف القرآن خارجة من مخارجها الصحيحة، تشعر بلذة جديدة فى رصف هذه الحروف بعضها بجانب بعض فى الكلمات والآيات هذا ينقر وذاك يصفر. وهذا يخفى وذاك يظهر، وهذا يهمس وذاك يجهر، إلى غير ذلك مما هو مقرر فى باب مخارج الحروف وصفاتها فى علم التجويد. ومن هنا يتجلى لك جمال لغة القرآن حين خرج إلى الناس فى هذه المجموعة المختلفة المؤتلفة، الجامعة بين اللين والشدة، والخشونة والرقة، والجهر والخفية، على وجه دقيق محكم، وضع كلا من الحروف وصفاتها المتقابلة فى موضعه بميزان حتى تألف من المجموع قالب لفظى مدهش، وقشرة سطحية أخاذة امتزجت فيها جزالة البداوة فى غير خشونة، برقة الحضارة من غير ميوعة، وتلاقت عندها أذواق القبائل العربية على اختلافها بكل يسر وسهولة . ولقد وصل هذا الجمال اللغوى إلى قمة الإعجاز، بحيث

لو داخل فى القرآن شىء من كلام الناس لاعتل مذاقه فى أفواه قارئيه ، واختل نظامه فى آذان سامعيه .

ومن عجيب أمر هذا الجمال اللغوى ، وذاك النظام الصوتى، أنهما كانا دليل إعجاز من ناحية، كانا سورا منيعا لحفظ القرآن من ناحية أخرى . وذلك أن من شأن الجمال اللغوى والنظام الصوتى، أن يسترعى الأسماع، ويثير الانتباه ويحرك داعية الإقبال فى كل إنسان، إلى هذا القرآن الكريم . وبذلك يبقى أبد الدهر سائداً على ألسنة الخلق وفى آذانهم ، ويعرف بذاته ومزاياه بينهم، فلا يجرؤ أحد على تغييره وتبديله مصداقا لقوله سبحانه : «إنا نحنُ نزَّلنا الذكرَ وإنَّا له لحافظونَ » .

الخاصة الثانية :

إرضاؤه العامة والخاصة. ومعنى هذا أن القرآن الكريم إذا قرأته على العامة أو قرئ عليهم ، أحسوا جلاله، وذاقوا حلاوته ، وفهموا منه على قدر استعدادهم ما يرضى عقولهم وعواطفهم. وكذلك الخاصة إذا قرءوه أو قرئ عليهم ؛ أحسوا جلاله وذاقوا حلاوته، وفهموا منه أكثر مما يفهم العامة، ورأوا أنهم بين يدى كلام ليس كمثله كلام لا فى إشراق ديباجته ولا فى امتلائه وثروته، ولا كذلك كلام البشر، فإنه إن أرضى الخاصة والأذكياء، لجنوحه إلى التجوز والإغراب والإشارة لم يرض العامة لأنهم لا يفهمونه وإن أرضى العامة لجنوحه إلى التصريح والحقائق العارية المكشوفة، لم يرض الخاصة لنزوله إلى مستوى ليس فيه متاع لأذواقهم ومشاربهم وعقولهم .

الخاصة الثالثة :

إرضاؤه العقل والعاطفة . ومعنى هذا أن أسلوب القرآن يخاطب العقل والقلب معا،

ويجمع الحق والجمال معا . انظر إليه مثلا وهو فى معمعان الاستدلال العقلى على البعث والإعادة فى مواجهة منكريهما، كيف يسوق استدلاله سوقا يهز القلوب هزا، ويمتع العاطفة إمتاعا، بما جاء فى طى هذه الأدلة المسكتة المقنعة، إذ قال الله سبحانه فى سورة فصلت « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيي الموتى . إنهُ على كل شيءٍ قديرٌ » . وإذا قال فى سورة ق: « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كلّ زوجٍ بهيج * تبصرةً وذكرى لكلّ عبدٍ منيبٍ * ونزّلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جناتٍ وحبّ الحصيد * والنخلَ باسقاتٍ لها طلعٌ نضيدٌ * رزقًا للعبادِ وأحيينا به بلدةً ميتاً كذلكَ الخروج » . تأمل فى الأسلوب البارع ، الذى أقنع العقل وأمتع العاطفة فى آن واحد ، حتى فى الجملة التى هى بمثابة النتيجة من مقدمات الدليل ، إذ قال فى الآية الأولى: إن الذى أحياها لمحيي الموتى وفى الآيات الأخيرة « كذلك الخروج » ياللجمال الساحر، وياللإعجاز الباهر الذى يستقبل عقل الإنسان وقلبه معا بأنصع الأدلة وأمتع المعروضات ، فى هذه الكلمات المعدودات ! .

ثم انظر إلى القرآن وهو يسوق قصة يوسف مثلا، كيف يأتى فى خلالها بالعظات البالغة، ويطلع من خلالها بالبراهين الساطعة، على وجوب الاعتصام بالعفاف والشرف والأمانة، إذ قال فى فصل من فصول تلك الرواية الرائعة « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسهِ ، وغلّقتِ الأبوابَ ، وقالت هَيْتَ لك . قال معاذَ الله إنه ربى أحسنَ مَثْواىَ ، إنه لا يفلح الظالمون » . فتأمل فى هذه الآية كيف قوبلت دواعى الغواية الثلاث ، بدواعى العفاف الثلاث، مقابلة صورت من القصص الممتع جدا لا عنيفا بين جند الرحمن وجند الشيطان، ووضعتهما أمام العقل المنصف فى كفتى ميزان! وهكذا تجد القرآن كله مزيجا حلوا سائغا، يخفف على النفوس أن تجرع الأدلة العقلية، ويرفه عن العقول باللفتات العاطفية ، ويوجه العقول والعواطف معا جنبا إلى جنب لهداية الإنسان وخير الإنسان ! .

وهل تسعد بمثل هذا فى كلام البشر؟ لا ، ثم لا . بل كلامهم إن وفى بحق العقل بخس العاطفة حقها ، وإن وفى بحق العاطفة بخس العقل حقه ، وبمقدار ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر ، حتى لقد بات العرف العام يقسم الأساليب البشرية إلى نوعين لا ثالث لهما : أسلوب علمى وأسلوب أدبى : فطلاب العلم لا يرضيهم أسلوب الأدب ، وطلاب الأدب لا يرضيهم أسلوب العلم . وهكذا تجد كلام العلماء والمحققين فيه من الجفاء والعرى ، ما لا يهز القلوب ويحرك النفوس ، وتجد فى كلام الأدباء والشعراء من الهزال والعقم العلمى ما لا يغذى الأفكار ويقنع العقول ؛ ذلك لأن القوى العاقلة والقوى الشاعرة فى بنى الإنسان غير متكافئة . وعلى فرض تكافئها فى شخص فإنهما لا تعملان دفعة واحدة بل على سبيل البدل والمناوبة . فكلام الشخص إما وليد فكرة ، وإما وليد عاطفة ، وإما ثوب مرقع يتألف من جمل نظرية تكون ثمرة للتفكير ومن جمل عاطفية تكون ثمرة للشعور . أما أن تأتى كل جملة من جمله جامعة للغايتين معا ، فدون ذلك صعود السماء . وكيف يتسنى ذلك للإنسان ، وهو لم يوهب القوتين متكافئتين ، ولو تكافأتا لديه فإنه لا يستطيع أن يوجههما اتجاها واحدا فى آن واحد متقارنتين « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » أما القرآن فإنه انفرد بهذه الميزة بين أنواع الكلام ، لأنه تنزيل من القادر الذى لا يشغله شأن عن شأن ، والذى جمع بين الروح والجسد فى قران ، « فتبارك الله رب العالمين » .

الخاصة الرابعة :

جودة سبك القرآن وإحكام سرده[1] . ومنى هذا أن القرآن بلغ من ترابط أجزائه وتماسك كلماته وجمله وآياته وسوره ، مبلغا لا يدانيه فيه أى كلام آخر ، مع طول نفسه ،

---

(١) يقال درع مسرّدة ومسرودة أى منسوجة متداخلة حلقها بعضها فى بعض فالمراد هنا أن القرآن مترابط الأجزاء متناسب تناسبا قويا .

وتنوع مقاصده وافتنانه وتلوينه فى الموضوع الواحد. وآية ذلك أنك إذا تأملت فى القرآن الكريم؛ وجدت منه جسما كاملا تربط الأعصاب والجلود والأغشية بين أجزائه ولمحت فيه روحا عاما يبعث الحياة والحس على تشابك وتساند بين أعضائه. فإذا هو وحدة متماسكة متآلفة، على حين أنه كثرة متنوعة متخالفة. فبين كلمات الجملة الواحدة من التآخى والتناسق، ماجعلها رائعة التجانس والتجاذب وبين جمل السورة الواحدة من التشابك والترابط، ما جعلها وحدة صغيرة متآخذة الأجزاء متعانقة الآيات. وبين سور القرآن من التناسب ماجعله كتابا سوىّ الخلق حسن السمت، « قرآنًا عربيًّا غيرَ ذِى عوجٍ ». فكأنما هو سبيكة واحدة تأخذ بالأبصار وتلعب بالعقول والأفكار، على حين أنها مؤلفة من حلقات، لكل حلقه منها وحدة مستقلة فى نفسها ذات أجزاء، ولكل جزء وضع خاص من الحلقة، ولكل حلقة وضع خاص من السبيكة، لكن على وجه من جودة السبك وإحكام السرد، جعل من هذه الأجزاء المنتشرة المتفرقة، وحدة بديعة متآلفة، تريك كمال الانسجام بين كل جزء وجزء، ثم بين كل حلقة وحلقة ثم بين أوائل السبيكة وأواخرها وأواسطها.

يعرف هذا الإحكام والترابط فى القرآن، كل من ألقى باله إلى التناسب الشائع فيه، من غير تفكك ولا تخاذل، ولا انحلال ولا تنافر بينما الموضوعات مختلفة متنوعة، فمن تشريع إلى قصص إلى جدل إلى وصف إلى غير ذلك. وكتب التفسير طافحة ببيان المناسبات، فنحيلك عليها، ونكتفى بمثل واحد نضربه مع الاختصار والاقتصار.

هذه سورة الفاتحة، تأمل كيف تترابط وتتناسق فى حسن تخلص من معنى إلى معنى ومن مقصد إلى مقصد: لقد افتتحت متوجة « باسم الله » كما يتوج القاضى كل حكم من أحكامه باسم جلالة الملك، لإعلان الجهة التى يستمد منها نفوذه فى صدور أحكامه، ثم انتقل الكلام فيها سريعا إلى الاستدلال على أن الاستعانة إنما هى به تعالى وحده، وذلك بإضافة الاسم إلى لفظ الجلالة الذى هو اسم الذات الجامع لصفات الكمال، وبوصف لفظ الجلالة بأنه

« الرحمن الرحيم » . ثم انتقل الكلام إلى إعلان أنه تعالى مستحق للمحامد كلها، مادام أنه المستعان وحده بالدليل . ثم انتقل الكلام إلى تدعيم هذا الاستحقاق بأدلة ثلاثة جرت على اسم الجلالة مجرى الأوصاف فى مقام حمده. « الحمد للهِ ربِّ العالمينَ * الرحمن الرحيم * مالكِ يومِ الدّين * » . ثم انتقل الكلام إلى إعلان وحدانيته ، فى ألوهيته وربوبيته « إيّاكَ نعبدُ وإيّاكَ نستعينُ » ما دام أنه هو المعين وحده، ومستحق المحامد كلها وحده . ثم انتقل الكلام فى براعة إلى بيان المطمح الأعلى للإنسان، وأن هذا المطمح الأعلى هو الهداية إلى الصراط المستقيم، وأنه لا سبيل إلى الوصول إلى هذا المطمح عن طريق أحد إلا عن طريق الله وحده، بقرينة ما سبق من أدلة التوحيد والتمجيد قبله. « اهدِنا الصراطَ المستقيم » ثم انتقل الكلام من حيث لا تشعر أو من حيث تشعر ، إلى تقسيم الخلق بالنسبة إلى هذه الهداية ثلاثة أقسام ، تنبيهاً وإغراء على المقصود، وتحذيراً وتنفيراً من الوقوع فى نقيض هذا المقصود « صِراطَ الذين أنعمتَ عليهم غيرِ المغضوبِ عليهمْ ولا الضالين » . وإذا الناس أمام عينيك بين منعم عليه بمعرفة الحق واتباعه ، ومغضوب عليه بمخالفة الحق مع العلم به ، وضال رضى أن يعيش عيشة الأنعام ؛ فى متاهة الجهالة والحيرة والضلال ، لا يكلف نفسه عناء البحث عن الحق ليتشرف بمعرفته ويسعد باتباعه . ثم تنظر فى سورة البقرة ، فإذا هى وما بعدها ترتبط بالفاتحة ارتباط المفصل بالمجمل. فالهداية إلى الصراط المستقيم صراط من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، تشرحها سورة البقرة وما وليها من سور القرآن . حيث جاءتنا بتفاصيل هـــذه الهداية ، فى بيانٍ كامل ، وعرض شامل .

أما بعد ، فقد يظن بعض الجهلة ، أن هذه الوحدة الفنية البيانية فى القرآن، أمر تافه هين ، لا يسمو إلى حد التنويه به ، فضلا عن أن ينظم فى عداد ما هو مناط للإعجاز . ولأجل الرد على هؤلاء، نطلب منهم أن ينظروا نظرة فاحصة فى كلام البلغاء وحملة الأقلام فإن لم يكن عندهم نظر ولا ذوق، فليستمعوا إلى حكم نقدة البيان وصيارفته عليهم، بأنهم

كثيراً ما يخطئون فى تنظيم أغراضهم إذا قالوا بل يأتون بها شتيتاً مفككاً غير متماسك ولا متجاذب، مما يعاب الشعراء من أجله بسوء التخلص حين ينتقلون من غرض إلى غرض فى القصيدة الواحدة ومما يضطر الكتاب والعلماء والمؤلفين إلى تلافى هذا النقص ، بما يستخدمون فى تنقلاتهم بين أغراضهم ، من أسماء الإشارة وأدوات التنبيه والحديث عن النفس وكثرة التقسيم والترقيم والتبويب والعنونة ولفظ أما بعد نحو : هذا، وإن، ألا، وإن قلنا كذا ونقول كذا ، ينقسم الكتاب إلى مباحث . المبحث الأول فى كذا الخ، ينقسم هذا المبحث إلى نقاط أولها كذا الخ . ملاحظة . تنبيه . فذلكة . أما بعد الخ .

هذا فى كلام البشر . أما كلام ملك القوى والقدر . فإنه على تنوع أغراضه . وطول نفسه فى سوره وآياته . ينتقل من مقصد إلى مقصد وينقلك أنت معه بين هذه المقاصد . غير مستعين بوسائل العجز المذكورة . بل بطريقة سحرية قد تشعر بها وقد لا تشعر . وحسبك أن تنظر فى المثال الآنف الذى قدمناه لك فى سورة الفاتحة ، وحبذا أن تنظر فى أطول سور القرآن وهى سورة البقرة فإنك ستطرب وتعجب . وسيذهب بك الطرب والعجب إلى حد الذوق البالغ لهذا اللون من الإعجاز القاهر . وأدلك على كتاب النبأ العظيم فقد أجاد فى بيان هذا اللون وأبدع . وأشبع العقول والقلوب وأمتع بما عرض من التناسب والترابط بين آحاد هذه السورة !

الخاصة الخامسة :

براعته فى تصريف القول ، وثروته فى أفانين الكلام ، ومعنى هذا أنه يورد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة ، بمقدرة فائقة خارقة ، تنقطع فى حلبتها أنفاس الموهوبين من الفصحاء والبلغاء . ولسنا هنا بسبيل الاستيعاب والاستقراء ، ولكنها أمثلة تهديك ، ونماذج تكفيك .

ا ـ منها تعبيره عن طلب الفعل من المخاطبين بالوجوه الآتية :

١ ـ الإتيان بصريح مادة الأمر ، نحو قوله سبحانه : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » .

٢ ـ والإخبار بأن الفعل مكتوب على المكلفين ، نحو « كتب عليكم الصيام » .

٣ ـ والإخبار بكونه على الناس نحو « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » .

٤ ـ والإخبار عن المكلف بالفعل المطلوب منه ، نحو « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » أى مطلوب منهن أن يتربصن .

٥ ـ والإخبار عن المبتدأ بمعنى يطلب تحقيقه من غيره، نحو « ومن دخله كان آمنا » أى مطلوب من المخاطبين تأمين من دخل الحرم .

٦ ـ وطلب الفعل بصيغة فعل الأمر، نحو « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » أو بلام الأمر نحو « ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » .

٧ ـ والإخبار عن الفعل بأنه خير : « ويسألونكَ عنِ اليتامَى : قل إصلاح لهمْ خـــيرٌ » .

٨ ـ ووصف الفعل وصفا عنوانيا بأنه بر ، نحو « ولكن البر من اتقى » .

٩ ـ ووصف الفعل بالفرضية ، نحو « قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم » أى من بذل المهور والنفقة .

١٠ ـ وترتيب الوعد والثواب على الفعل ، نحو « مَنْ ذا الذى يقرضُ اللهَ قرضاً حسناً ، فيضاعفه له وله أجرٌ كريمٌ » .

١١ ـ وترتيب الفعل على شرط قبله نحو « فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى » .

١٢ ـ وإيقاع الفعل منفيا معطوفا عقب استفهام نحو : « أفمن يخلقُ كمن لا يخلقُ . أفلَا تذكرون » أى تذكروا .

١٣ ـ وإيقاع الفعل عقب ترج ، نحو « ولعلكم تشكرون » .

١٤ ـ وترتيب وصف شنيع على ترك الفعل ، نحو « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .

ب ـ ومنها تعبيره عن النهى بالوسائل الآتية :

١ ـ الإتيان فى جانب الفعل بمادة النهى ، نحو « إنما ينهاكم اللهُ عن الذينَ قاتلوكم فى الدين وأخرجُوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم » .

٢ ـ الإتيان فى جانبه بمادة التحريم ، نحو « إنما حرم ربى الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغيرِ الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمونَ » .

٣ ـ ونفى الحل عنه ، نحو « لا يحلُّ لكم أن ترثُوا النساء كرها » .

٤ ـ والنهى عنه بلفظ لا ، نحو « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن » .

٥ ـ ووصفه بأنه ليس برا ، نحو « وليسَ البرُّ بأن تأتُوا البيوت من ظُهورها » .

٦ ـ ووصفه بأنه شر ، نحو « ولا تحسبن الذين يبخلونَ بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شرٌّ لهم » .

٧ ـ وذكر الفعل مقرونا بالوعيد ، نحو « والذينَ يكنزون الذهبَ والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشِّرهم بعذاب أليم » الخ .

٨ ـ وذكر الفعل منسوباً إليه الإثم ، نحو « فمن بدَّله بعد ما سمعه فإنما إثمهُ على الذينَ يُبدِّلونَه » .

٩ ـ ١٥ ونظم الأمر فى سلك ما هو بالغ الإثم والحرمة ، والإخبار عن الفعل بأنه رجس ، ووصفه بأنه من عمل الشيطان، والأمر باجتنابه ورجاء الفلاح فى تركه،وترتيب مضار مؤذية على فعله ، والأمر بالانتهاء عنه فى صورة الاستفهام . ونمثل لهذه الطرق كلها ، بتحريم الخمر والميسر فى قوله سبحانه : « يأيها الذين آمنوا إنمَا الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رجسٌ من عملِ الشيطانِ ، فاجتنبوهُ لعلكم تفلِحونَ * إنما يريدُ الشيطانُ أن يُوقعَ بينكم العداوةَ والبغضاءَ فى الخمرِ والميسرِ ويصدَّكم عن ذكرِ الله وعن الصلاةِ : فهلْ أنتم منتهونَ ؟ » .

ج ـ ومنها تعبيره عن إباحة الفعل بالطرق الآتية :

١ ـ التصريح فى جانبه بمادة الحل ، نحو « أُحلّت لكم بهيمة الأنعام » .

٢ ـ والأمر به مع قرينة صارفة عن الطلب ، نحو « وكلوا واشربوا » .

٣ ـ ونفى الإثم عن الفعل ، نحو « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » .

٤ ـ ونفى الحرج عنه ، نحو « ليسَ على الأعمى حرجٌ ولا على الأعرج حرجٌ ولا على المريض حرجٌ » أى فى ترك القتال . أو فى الأكل من البيوت[1] .

٥ ـ ونفى الجناح عنه فى غير ماادعى فيه الحرمة ، نحو «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناحٌ فيما طعموا ، إذا مااتقوا وآمنوا وعملوا الصالحاتِ » الخ[2] . أما ما ادعى

(١) تجد هذا النص الكريم فى سورة الفتح عقب توعد من يتخلف عن القتال فى قوله سبحانه «قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم» الخ. ثم تجد هذا النص الكريم أيضا فى سورة النور نازلًا بسبب وهو أن المسلمين كانوا إذا خرجوا إلى الغزو ووضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والمريض والأعرج وعند أقاربهم ويأذنونهم أن يأكلوا من بيوتهم فكانوا يتحرجون ويقولون . . نخشى ألا تكون نفوسهم بذلك طيبة .

(٢) نزلت فيمن تعاطى شيئاً من الخمر والميسر قبل التحريم . فقرر لهم أن ذلك كان مباحا لهم .

فيه الحرمة فإن نفى الجناح عنه يصدق بوجوبه ، نحو « فمن حجّ البيتَ أو اعتمرَ فلا جناح عليهِ أن يطّوف بهما » .

٦ ـ وإنكار تحريمه فى صورة استفهام ، نحو « قل منْ حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ » .

٧ ـ والامتنان بالشىء ووصفه بأنه رزقٍ حسن، نحو « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذونَ منه سكراً ورزقاً حسناً » .

وهكذا تجد القرآن يفتنّ فى أداء المعنى الواحد بألفاظ وطرق متعددة ، بين إنشاء وإخبار ، وإظهار وإضمار ، وتكلم وغيبة وخطاب ومضى وحضور واستقبال ، واسمية وفعلية ، واستفهام وامتنان ، ووصف ، ووعد ووعيد إلى غير ذلك. ومن عجب أنه فى تحويله الكلام من نمط إلى نمط . كثيرا ما تجده سريعا لا يجارى فى سرعته . ثم هو على هذه السرعة الخارقة لا يمشى مكبا على وجهه ، مضطربا أو متعثرا ، بل هو محتفظ دائما بمكانته العليا من البلاغة ، « يمشى سويًّا على صراط مستقيم » .

ولقد خلع هذا التصرف والافتنان ، لباسا فضفاضا من الجدّة والروعة على القرآن ، ومسحه بطابع من الحلاوة والطلاوة ، حتى لا يمل قارئه ، ولا يسأم سامعه ، مهما كثرت القراءة والسماع . بل ينتقل كل منهما من لون إلى لون ؛ كما ينتقل الطائر فى روضة غناء من فنن إلى فنن ؛ ومن زهر إلى زهر .

واعلم أن تصريف القول فى القرآن على هذا النحو ؛ كان فنا من فنون إعجازه الأسلوبى كما ترى ، وكان فى الوقت نفسه منة يمنها الله على الناس ؛ ليستفيدوا عن طريقها كثرة النظر فى القرآن والإقبال عليه قراءة وسماعا ؛ وتدبرا وعملا ، وأنه لا عذر معها لمن أهمل هذه النعمة وسفه نفسه . اقرأ إن شئت قوله سبحانه : فى سورة الإسراء : « ولقد صرّفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ؛ فأبى أكثر الناس إلا كفوراً »

وقوله سبحانه فى سورة الـكهف : « ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناسِ من كل مثلٍ ، وكان الإنسانُ أكثرَ شىء جدلا » وقوله سبحانه فى سورة الرعد : « كذلك يضربُ اللهُ الأمثالَ » .

الخاصة السادسة :

جمع القرآن بين الإجمال والبيان . مع أنهما غايتان متقابلتان لا يجتمعان فى كلام واحد للناس ! بل كلامهم إما مجمل وإما مبين[1] . لأن الـكلمة إما واضحة المعنى لا تحتاج إلى بيان . وإما خفية المعنى تحتاج إلى بيان ، ولـكن القرآن وحده هو الذى انخرقت له العادة ، فتسمع الجملة منه وإذا هى بينة مجملة فى آن واحد ، أما أنها بينة أو مبيَّنة (بتشديد الياء وفتحها) فلأنها واضحة المغزى وضوحا يريح النفس من عناء التنقيب والبحث لأول وهلة ، فإذا أمنعت النظر فيها لاحت منها معان جديدة كلها صحيح أو محتمل لأن يكون صحيحا ، وكلما أمنعت فيها النظر زادتك من المعارف والأسرار ، بقدر ما تصيب أنت من النظر وما تحمل من الاستعداد على حد قول القائل .

« يزيدُك وجهُهُ حُسنا إذا مازدته نظرا »

ولهذا السر وسع كتاب الله جميع أصحاب المذهب الحضر من أبناء البشر ، ووجد أصحاب هذه المذاهب المختلفة والمشارب المتباينة ، شفاء أنفسهم وعقولهم فيه ، وأخذت الأجيال المتعاقبة من مدده الفياض ما جعلهم يجتمعون عليه ويدينون به . ولا كذلك البشر

---

(١) المجمل ما له دلالة غير واضحة ، فخرج المهمل والمبين . والمبين ما لا خفاء فيه لا ماوقع إليه السياق . مثال الأول لفظ القرء ولفظ مختار ، وقوله تعالى : « إلا ما يتلى عليكم » لأن الأول متردد بين الحيض والطهر ، والثانى بين الفاعل والمفعول والثالث مجهول معناه قبل نزول آية (حرمت عليـكم الميتة) . والمبين نحو : والسارق والسارقة فاقطعوا — و — حرمت عليـكم أمهاتـكم .

فى كلامهم ، فإنهم إذا قصدوا إلى توضيح أغراضهم ، ضاقت ألفاظهم ولم تتسع لاستنباط وتأويل . وإذا قصدوا إلى إجمالها ، لم يتضح ما أرادوه ، وربما التحق عندئذ بالألغاز وما لا يفيد .

والأمر فى هذه الخاصة ظاهر غنى بظهوره عن التمثيل . وحسبك أن ترجع إلى كتب التفسير ، ففيها من ذلك الشىء الكثير « ولا ينبئك مثل خبير » .

الخاصة السابعة :

قصد القرآن فى اللفظ مع وفائه بالمعنى . ومعنى هذا أنك فى كل من جمل القرآن ، تجد بيانا قاصدا مقدرا على حاجة النفوس البشرية من الهداية الإلهية ، دون أن يزيد اللفظ على المعنى ، أو يقصر عن الوفاء بحاجات الخلق من هداية الخالق . ومع هذا القصد اللفظى البرىء من الإسراف والتقتير ، تجده قد جلى لك المعنى فى صورة كاملة ، لا تنقص شيئا يعتبر عنصرا أصليا فيها أو حلية مكملة لها ، كما أنها لا تزيد شيئا يعتبر دخيلا فيها وغريبا عنها . بل هو كما قال الله : (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) .

ولا يمكن أن تظفر فى غير القرآن ، بمثل هذا الذى تظفر به فى القرآن ، بل كل منطيق بليغ مهما تفوق فى البلاغة والبيان ، تجده بين هاتين الغايتين ، كالزوج بين ضرتين : بمقدار ما يرضى إحداها يغضب الأخرى . فإن ألقى البليغ باله إلى القصد فى اللفظ وتخليصه مما عسى أن يكون من الفضول فيه ، حمله ذلك فى الغالب على أن يغض من شأن المعنى ، فتجىء صورته ناقصة خفية ، ربما يصل اللفظ معها إلى حد الإلغاز والتعمية . وإذا ألقى البليغ باله إلى الوفاء بالمعنى وتجلية صورته كاملة ، حمله ذلك على أن يخرج عن حد القصد فى اللفظ ، راكبا متن الإسهاب والإكثار ، حرصا على ألا يفوته شىء من المعنى الذى يقصده ولكن يندر حينئذ أن يسلم هذا اللفظ من داء التخمة فى إسرافه وفضوله ، تلك التخمة التى تذهب ببهائه ورونقه ، وتجعل السامع يتعثر فى ذيوله ، لا يكاد يميز بين زوائد المعنى وأصوله .

وإذا افترضنا أن بليغا كتب له التوفيق بين هاتين الغايتين ـ وهما القصد فى اللفظ مع الوفاء بالمعنى ـ فى جملة أو جملتين من كلامه ، فإن الكلال والإعياء لابد لاحقا به فى بقية هذا الكلام ، وندر أن يصادفه هذا التوفيق مرة ثانية، إلا فى الفينة بعد الفينة، كما تصادف الإنسان قطعة من الذهب أو الماس فى الحين بعد الحين ،وهو يبحث فى التراب أو ينقب بين الصخور .

وإن كنت فى شك فسائل أئمة البيان وصيارفته : هل ظفرتم بقطعة من النثر ، أو بقصيدة من الشعر ، كانت كلها أو أكثرها جامعا بين وفاء المعنى وقصد اللفظ ؟ . هاهم أولاء يعلنون حكمهم صريحا بأن أبرع الشعراء لم يكتب له التبريز والإجادة ، والجمع بين المعنى الناصع واللفظ الجامع إلا فى أبيات معدودة من قصائد محدودة. أما سائر شعرهم بعد، فبين متوسط وردىء. وهاهم أولاء يعلنون حكمهم هذا نفسه أو أقل منه ،على الناثرين من الخطباء والكتاب .

وإن أردت أن تلمس بيدك هذه الخاصة، فافتح المصحف الشريف مرة ، واعمد إلى جملة من كتاب الله، وأحصها عددا، ثم خذ بعدد تلك الكلمات من أى كلام آخر، وقارن بين الجملتين ، ووازن بين الكلامين ، وانظر أيهما أملأ بالمعانى مع القصد فى الألفاظ؟ ثم انظر أى كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها بما هو خير منها فى ذلك الكلام الإلهى؟ وكم كلمة يجب أن تسقطها أو تبدلها فى ذلك الكلام البشرى ؟ إنك إذا حاولت هذه المحاولة، فستنتهى إلى هذه الحقيقة التى أعلنها ابن عطية فيما يحكى السيوطى عنه وهو يتحدث عن القرآن الكريم إذ يقول : «لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد» اهـ. وذلك بخلاف كلام الناس مهما سما وعلا، حتى كلام رسول الله ﷺ الذى أوتى جوامع الكلم، وأشرقت نفسه بنور النبوة والوحى، وصيغ على أكمل ما خلق الله ، فإنه مع تحليقه فى سماء البيان ، وسموه على كلام كل إنسان، لا يزال هناك بون بعيد بينه وبين القرآن . وسبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ! .

تعليق وتمثيل :

يحلو لى أن أسوق إليك هنا كلمة قيمة، فيها تعليق وتمثيل لما نحن بصدده، وهى لصديقنا العلامة الجليل الشيخ محمد عبدالله دراز فى كتابه (النبأ العظيم) الذى اقتبسنا منه فيما يتصل بإعجاز القرآن كثيرا .

« قلنا : إن القرآن الكريم يستثمر دائما برفق أقل ما يمكن من اللفظ ، فى توليد أكثر ما يمكن من المعانى . أجل : تلك ظاهرة بارزة فيه كله ، يستوى فيها مواضع إجماله التى يسميها الناس مقام الإيجاز ، ومواضع تفصيله التى يسمونها مقام الإطناب . ولذلك نسميه إيجازاً كله ، لأننا نراه فى كلا المقامين لا يجاوز سبيل القصد ، ولا يميل إلى الإسراف ميلا ما . ونرى أن مراميه فى كلا المقامين لا يمكن تأديتها كاملة العناصر والحلى بأقل من ألفاظه ولا بما يساويها ، فليس فيه كلمة إلا هى مفتاح لفائدة جليلة ، وليس فيه حرف إلا جاء لمعنى .

دع عنك قول الذى يقول فى بعض الكلمات القرآنية : إنها « مقحمة » وفى بعض حروفه إنها « زائدة » زيادة معنوية . ودع عنك قول الذى يستخف كلمة التأكيد فيرمى بها فى كل موطن يظن فيه الزيادة لا يبالى أن تكون تلك الزيادة فيها معنى المزيد عليه فتصلح لتأكيده أو لا تكون ، ولا يبالى أن يكون بالموضع حاجة إلى هذا التأكيد أو لا حاجة له به . أجل : دع عنك هذا وذاك؛ فإن الحكم فى القرآن بهذا الضرب من الزيادة أو شبهها ، إنما هو ضرب من الجهل ــ مستورا أو مكشوفا ــ بدقة الميزان الذى وضع عليه أسلوب القرآن . وخذ نفسك أنت بالغوص فى طلب أسراره البيانية على ضوء هذا المصباح، فإن عمى عليك وجه الحكمة فى كلمة منه أو حرف، فإياك أن تعجل كما يعجل هؤلاء الظانون، ولكن قل قولا سديداً هو أدنى إلى الأمانة والإنصاف قل: « الله أعلم بأسرار كلامه، ولا علم لنا إلا بتعليمه » ثم إياك أن تركن إلى راحة اليأس فتقعد عن استجلاء تلك الأسرار

قائلا : « أين أنا من فلان وفلان » كلا ، فرب صغير مفضول قد فطن إلى ما لم يفطن له الكبير الفاضل ، ألا ترى إلى قصة عمر فى الأحجية المشهورة[1] فجد فى الطلب (وقلْ ربِّ زِدنى علماً) فعسى الله أن يفتح لك بابا من الفهم تكشف به شيئا مما عمى على غيرك ـ والله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلماتِ إلى النُّور .

ولنضرب لك مثلا قوله تعالى : « لَيْسَ كمثله شىء » .

أكثر أهل العلم قد ترادفت كلمتهم على زيادة الكاف بل على وجوب زيادتها فى هذه الجملة ، فراراً من المحال العقلى الذى يفضى إليه بقاؤها على معناها الأصلى من التشبيه؛ إذ رأوا أنها حينئذ تكون نافية التشبيه عن مثل الله ، فتكون تسليما بثبوت المثل له سبحانه : أو على الأقل محتملة لثبوته وانتفائه ، لأن السالبة كما يقول علماء المنطق تصدق بعدم الموضوع ، أو لأن النفى ـ كما يقول علماء النحو ـ قد يوجه[2] إلى المقيد وقيده جميعا . تقول: ليس لفلان ولد يعاونه ، إذا لم يكن له ولد قط، أو كان له ولد لا يعاونه. وتقول (ليس محمد أخاً لعلى) إذا كان أخاً لغير علىّ أو لم يكن أخاً لأحد . وقليل منهم من ذهب إلى أنه لا بأس ببقائها على أصلها، إذ رأى أنها لا تؤدى إلى ذلك المحال لا نصا

---

(١) قرأ النبى ﷺ قوله تعالى: « ألم تر كيف ضربَ اللهُ مثلًا كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ الآية ٢٤ من سورة إبراهيم «١٤» وقال: « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنها لمثل المسلم . فحدثونى ما هى ؟ » فخفى على القوم علمها ، وجعلوا يذكرون أنواعا من شجر البادية . وفهم ابن عمر أنها النخلة، وكان عاشر عشرة هو أحدثهم سنا، وفيهم أبو بكر وعمر . فقال ﷺ : « هى النخلة » الحديث رواه الشيخان . وفى القرآن : « ففهمناها سليمان » الآية ٧٩ من سورة الأنبياء «٢١» .

(٢) لعل تمام الكلام : أو لأن النفى ـ كما يقول علماء النحو ـ قد يوجَّه إلى القيد وحده وقد يوجه إلى المقيد وقيده جميعا الخ .

ولا احتمالا ، لأن نفى مثل المثل يتبعه فى العقل نفى للمثل أيضاً . وذلك أنه لو كان هناك مثل لله . لكان لهذا المثل مثل قطعا وهو الإله الحق نفسه ، فإن كل متماثلين يعد كلاهما مثلا لصاحبه ، وإذاً لا يتم انتفاء مثل المثل إلا بانتفاء المثل ، وهو المطلوب .

وقصارى هذا التوجيه ـ لو تأملته ـ أنه مصحح لا مرجح ، أى أنه ينفى الضرر عن هذا الحرف ، ولكنه لا يثبت فائدته ، ولا يبين مسيس الحاجة إليه . ألست ترى أن مؤدى الكلام معه كمؤداه بدونه سواء ، وأنه إن كان قد ازداد به شيئاً فإنما ازداد شيئاً من التكلف والدوران وضربا من التعمية والتعقيد . وهل سبيله إلا سبيل الذى أراد أن يقول هذا أخو فلان . فقال: هذا ابن أخت خالة فلان ؟ فمآله إذاً إلى القول بالزيادة التى يسترونها باسم التأكيد . ذلك الاسم الذى لا نعرف له مسمى هاهنا ، فإن تأكيد المماثلة ليس مقصوداً ألبتة ، وتأكيد النفى بحرف يدل على التشبيه هو من الإحالة بمكان .

ولو رجعت إلى نفسك قليلا لرأيت هذا الحرف فى موقعه محتفظا بقوة دلالته ، قائماً بقسط جليل من المعنى المقصود فى جملته ، وأنه لو سقط منها لسقطت معه دعامة المعنى أو لتهدم ركن من أركانه . ونحن نبين لك هذا من طريقين أحدهما أدق مسلكا من الآخر :

﴿ الطريق الأول ﴾ وهو أدنى الطريقين إلى فهم الجمهور : أنه لو قيل (ليس مثله شىء) لكان ذلك نفياً للمثل المكافىء ، وهو المثل التام المماثلة فحسب ؛ إذ أن هذا المعنى هو الذى ينساق إليه الفهم من لفظ المثل عند إطلاقه . وإذاً لدب إلى النفس دبيب الوساوس والأوهام ، أن لعل هنالك رتبة لا تضارع رتبة الألوهية ولكنها تليها ، وأن عسى أن تكون هذه المنزلة للملائكة والأنبياء ، أو للكواكب وقوى الطبيعة ، أو للجن والأوثان والكهان ، فيكون لهم بالإله الحق شبه ما فى قدرته أو علمه ، وشرك ما فى خلقه أو أمره فكان وضع هذا الحرف فى الكلام إقصاء للعالم كله عن المماثلة وعما يشبه المماثلة وما يدنو منها ، كأنه قيل : ليس هناك شىء يشبه أن يكون مثلا لله ، فضلا عن أن يكون مثلا له على الحقيقة ، وهذا باب من التنبيه بالأدنى على الأعلى على حد قوله تعالى (فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرْهما) نهياً عن يسير الأذى صريحاً ، وعما فوق اليسير بطريق الأحرى .

﴿ الطريق الثانى ﴾ وهو أدق مسلكا : أن المقصود الأول من هذه الجملة - وهو نفى الشبيه - وإن كان يكفى لأدائه أن يقال (ليس كالله شىء) أو (ليس مثله شىء) لكن هذا القدر ليس هو كل ما ترمى إليه الآية الكريمة . بل إنها كما تريد أن تعطيك هذا الحكم ، تريد فى الوقت نفسه أن تلفتك إلى وجه حجته وطريق برهانه العقلى .

ألا ترى أنك إذا أردت أن تنفى عن امرئ نقيصة فى خلقه فقلت : « فلان لا يكذب ولا يبخل » أخرجت كلامك عنه مخرج الدعوى المجردة عن دليلها - فإذا زدت فيه كلمة فقلت (مثل فلان لا يكذب ولا يبخل) لم تكن بذلك مشيراً إلى شخص آخر يماثله مبرأ من تلك النقائص ، بل كان هذا تبرئة له هو ببرهان كلى ، وهو أن من يكون على مثل صفاته وشيمه الكريمة لا يكون كذلك ؛ لوجود التنافى بين طبيعة هذه الصفات وبين ذلك النقص الموهوم .

على هذا المنهج البليغ وضعت الآية الكريمة الحكيمة قائلة : (مثله تعالى لا يكون له مثل) تعنى أن من كانت له تلك الصفات الحسنى وذلك المثل الأعلى ، لا يمكن أن يكون له شبيه ، ولا يتسع الوجود لاثنين من جنسه ؛ فلا جرم جىء فيها بلفظين كل واحد منهما يؤدى معنى المماثلة ليقوم أحدهما ركناً فى الدعوى. والآخر دعامة لها وبرهانا. فالتشبيه المدلول عليه (بالكاف) لما تصوب إليه النفى تأدى به أصل التوحيد المطلوب، ولفظ (المثل) المصرح به فى مقام لفظ الجلالة أو ضميره نبه على برهان ذلك المطلوب .

واعلم أن البرهان الذى ترشد إليه الآية على هذا الوجه برهان طريف فى إثبات وحدة الصانع : لا نعلم أحداً من علماء الكلام حام حوله فكل براهينهم فى الوحدانية قائمة على إبطال التعدد بإبطال لوازمه وآثاره العملية ، حسب ما أرشد إليه قوله تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) .

أما آية الشورى المذكورة فإنها ناظرة إلى معنى وراء ينقض فرض التعدد من

أساسه : ويقرر استحالته الذاتية فى نفسه بقطع النظر عن تلك الآثار ، فكأننا بهـا تقول لنا : ـ

إن حقيقة الإله ليست من تلك الحقائق التى تقبل التعدد والاشتراك والتماثل فى مفهومها ، كلا ، فإن الذى يقبل ذلك إنما هو الكمال الإضافى الناقص. أما الكمال التام المطلق الذى هو قوام معنى الإلهية فإن حقيقته تأبى على العقل أن يقبل فيها المشابهة والاثنينية ؛ لأنك مهما حققت معنى الإلهية حققت تقدما على كل شىء وإنشاء لكل شىء (فاطر السموات والأرض) ، وحققت سلطانا على كل شىء ، وعلوا فوق كل شىء ، (له مقاليد السموات والأرض) . فلو ذهبت تفترض اثنين يشتركان فى هذه الصفات لتناقضت ، إذ تجعل كل واحد منهما سابقا مسبوقا ومنشئًا منشأ ، ومستعليا ، مستعلى عليه أو لأحلت الكمال المطلق إلى كمال مقيد فيهما ، إذ تجعل كل واحد منهما بالإضافة إلى صاحبه ليس سابقا ولا مستعليا ، فأنى يكون كل منهما إلٰها ، وللإله المثل الأعلى ؟ !

أرأيت كم أفدنا من هذه (الكاف) وجوها من المعانى كلها شاف كاف . فاحفظ هذا المثال ، وتعرف به دقة الميزان الذى وضع عليه النظام الحكيم حرفا حرفا » اهـ .
وهو كلام جد نفيس ، فاحرص عليه .

الشبهات الواردة على أسلوب القرآن

تنمر أعداء الله على القرآن ، وألقوا فى طريق الإيمان به حبالا وعصيا من التخييلات والأوهام . من ذلك شبهات لفقوها ووجهوها إلى أسلوبه . وهى مع التوائها وخبثها تراها مفضوحة منقوضة فى هذا الكتاب ، (بالجزء الأول ، من ص ٧٢ ـ ٧٤ ومن صفحة ١٩٩ ـ ٢٣٢ بالطبعة الثانية) فارجع إلى ذلك هناك ، والله يتولى بتوفيقه هدانا وهداك وهو حسبنا ونعم الوكيل .

المبحث السابع عشر

فى إعجاز القرآن وما يتعلق به

إعجاز القرآن مركب إضافى ، معناه بحسب أصل اللغة : إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به . فهو من إضافة المصدر لفاعله ،والمفعول وما تعلق بالفعل محذوف للعلم به . والتقدير : إعجاز القرآن خلق الله عن الإتيان بما تحداهم به. ولكن التعجيز المذكور ليس مقصودا لذاته ، بل المقصود لازمه وهو إظهار أن هذا الكتاب حق،وأن الرسول الذى جاء به رسول صدق . وكذلك الشأن فى كل معجزات الأنبياء ، ليس المقصود بها تعجيز الخلق لذات التعجيز ، ولكن للازمه وهو دلالتها على أنهم صادقون فيما يبلغون عن الله . فينتقل الناس من الشعور بعجزهم إزاء المعجزات ، إلى شعورهم وإيمانهم بأنها صادرة عن الإله القادر ، لحكمة عالية ، وهى إرشادهم إلى تصديق من جاء بها ليسعدوا باتباعه فى الدنيا والآخرة .

ولقد تناولنا فى المبحث الثالث من هذا الكتاب ، الكلام على المعجزة ماهى؟ وعلى الفرق بينها وبين السحر وغيره ، وعلى وجه دلالتها على تأييد الحق وتصديق الرسل، مع ضرب الأمثال ونقض الشبهات. فارجع إلى ذلك هناك (ص ٥٦ ـ ٨٤ من الجزء الأول) .

وقبل أن نخوض فى موضوعنا هذا ، ننبهك إلى أننا سنختص سيدنا محمداً ﷺ بالذكر فى نفى نسبة القرآن إليه، وذلك للتنصيص من أول الأمر على ما يشبه محل النزاع أو موضع الاشتباه عند كثير من أشباه الناس. ولأنه إذا كانت طبيعة القرآن تأبى أن ينسب إلى أفضل الخلق على أنه من تأليفه ، فأحر بها أن تأبى نسبته إلى غيره بالطريق الأولى.

ومتى سلم الدليل على أن القرآن كلام الله وحده، سلمت نبوة نبى الإسلام، وسلم كل ما جاء به القرآن ؛ وسلم الإسلام كله بل سلمت الأديان الصحيحة والكتب الإلهية كلها؛

لأنه لم يبق على وجه الأرض شاهد مقبول الشهادةِ إلا هذا الكتاب الذى أنزله الله مقرراً لنبوة الأنبياء السابقين وأديانهم ، ومصححاً لأغلاط اللاغطين فيها والمحرفين لها: «وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه» .

« الله أكــــبر ؛ إن دينَ محمــــد ، وكتابَه أهدى وأقـــومُ قيلا
لاتذكروا الكُتبَ السوالفَ عنده ، طلع الصــباحُ فأطفئْ القِنديلا »

وجوه إعجاز القرآن

الناظر فى هذا الكتاب الكريم بإنصاف، تتراءى له وجوه كثيرة مختلفة من الإعجاز، كما تتراءى للناظر إلى قطعة من الماس ألوان عجيبة متعددة بتعدد ما فيها من زوايا وأضلاع، ومختلفة باختلاف ما يكون عليه الناظر وما تكون عليه قطعة الماس من الأوضاع. وسنبدأ بما نراه سليما من المطاعن ، ثم نقفى بما لا يسلم فى نظرنا من طعن .

الوجه الأول : لغته وأسلوبه

أما الوجه الأول فلغته وأسلوبه ، على نحو ما فصلناه فى المبحث السابق . وبيان ذلك أن القرآن جاء بهذا الأسلوب الرائع الخلاب ، الذى اشتمل على تلك الخصائص العليا التى تحدثنا عنها والتى لم تجتمع بل لم توجد خاصة واحدة منها فى كلام على نحو ما وجدت فى القرآن وكل ما كان من هذا القبيل فهو لاشك معجز ، خصوصا أن النبى ﷺ تحدى به فأعجز أساطين الفصحاء ، وأعيا مقاويل البلغاء ؛ وأخرس ألسنة فحول البيان من أهل صناعة اللسان. وذلك فى عصر كانت القوى فيه قد توافرت على الإجادة والتبريز فى هذا الميدان، وفى أمة كانت مواهبها محشودة للتفوق فى هذه الناحية ! . وإذا كان أهل الصناعة هؤلاء قد عجزوا عن معارضة القرآن ، فغيرهم أشد عجزاً وأفحش عيا .

وها قد مرت على اللغة العربية من عهد نزول القرآن إلى عصرنا هذا، أدوار مختلفة

بين علو ونزول ، واتساع وانقباض ، وحركة وجمود ، وحضارة وبداوة ، والقرآن فى كل هذه الأدوار واقف فى علياته ، يطل على الجميع من سمائه ، وهو يشع نوراً وهداية، ويفيض عذوبة وجلالة ، ويسيل رقة وجزالة ويرف جدة وطلاوة . ولا يزل كما كان غضًّا طريًّا يحمل راية الإعجاز ويتحدى أمم العالم فى يقين وثقة قائلا فى صراحة الحق وقوته ، وسلطان الإعجاز وصولته : « قل لئنِ اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآن لا يأتونَ بمثلهِ ، ولو كانَ بعضهمْ لبعض ظهيراً » .

القدر المعجز من القرآن

ومن عجيب أمر هذا القرآن وأمر هؤلاء العرب، أنه طاولهم فى المعارضة، وتنازل لهم عن التحدى بجميع القرآن إلى التحدى بعشر سور مثله ، ثم إلى التحدى بسورة واحدة من مثله ، وهم على رغم هذه المطاولة، ينتقلون من عجز إلى عجز، ومن هزيمة إلى هزيمة ، وهو فى كل مرة من مرات هذا التحدى وهذه المطاولة ، ينتقل من فوز إلى فوز ، ويخرج من نصر إلى نصر .

تصور أنه قال لهم فى سورة الطور أول ما تحداهم: « أم يقولونَ تقوله؟ بل لا يؤمنونَ * فليأتوا بحديث مثلهِ إن كانوُ صادقينَ * » . فلما انقطعوا مد لهم فى الحبل وقال فى سورة هود: «أم يقولون افتراه؟ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم يستجيبُوا لكم فاعلموا أنما أُنزلَ بعلم الله وأن لا إله إلا هُوَ. فهل أنتم مسلمون ؟ » . فلما عجزوا هذه المرة أيضاً، طاولهم مرة أخرى، وأرخى لهم الحبل إلى آخره ، وقال فى سورة البقرة : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإنْ لم تفعلوا ولَنْ تفعلوا فاتقوا النار التى وَقودُها الناس والحجارةُ أُعدَّت للكافرينَ * » فكان عجزهم بعد ذلك أشنع وأبشع ، وسجل الله عليهم الهزيمة أبد الدهر، فلم يفعلوا ولن يفعلوا. ودحضت

حجتهم وافتضح أمرهم ، وظهر أمر الله وهم كارهون .

بهذا يتبين لك أن القدر المعجز من القرآن هو ما يقدر بأقصر سورة منه ، وأن القائلين بأن المعجز هو كل القرآن لا بعضه وهم المعتزلة والقائلين بأن المعجز كل مايصدق عليه أنه قرآن ولو كان أقل من سورة، كل أولئك بمنأى عن الصواب، وهم محجوجون بما بين يديك من الآيات .

معارضة القرآن

وهل أتاك نبأ الخصم إذ هموا أن يعارضوا القرآن؟ فكان ما أتوا به باسم المعارضة، لا يخرج عن أن يكون محاولات مضحكه مخجلة : أخجلتهم أمام الجماهير وأضحكت الجماهير منهم .فباءوا بغضب من الله وسخط من الناس. وكان مصرعهم هذا كسباً جديدا للحق، وبرهاناً ماديًا على أن القرآن كلام الله القادر وحده، لا يستطيع معارضته إنسان ولا جان. ومن ارتاب فأمامه الميدان .

يذكر التاريخ أن مسيلمة الكذاب ؛ زعم أنه أوحى إليه بكلام كالقرآن . ثم طلع على الناس بهذا الهذر : « إنا أعطيناك الجماهر * فصل لربك وجاهر » وبهذا السخف: « والطاحنات طحنا ، والعاجنات عجنا ، والخابزات خبزاً » . وأنت خبير بأن مثل ذلك الإسفاف ليس من المعارضة فى قليل ولا كثير، وأين محاكاة الببغاء من فصاحة الإنسان؟ وأين هذه الكلمات السوقية الركيكة ، من ألفاظ القرآن الرفيعة ومعانيه العالية؟ وهل المعارضة إلا الإتيان بمثل الأصل فى لغته وأسلوبه ومعانيه أو بأرقى منه فى ذلك ؟

يقول حجة الأدب العربى، فقيدنا الرافعى عليه سحائب الرحمة: إن مسيلمة لم يرد أن يعرض للقرآن من ناحية الصناعة البيانية؛ إذ كانت هذه الناحية أوضح من أن يلتبس أمرها عليه ، أو أن يستطيع تلبيسها على أحد من العرب، وإنما أراد أن يتخذ سبيله إلى استهواء قومه من ناحية أخرى ظنها أهون عليه وأقرب تأثيراً فى نفوسهم. ذلك أنه رأى معرب تعظم

الكهان فى الجاهلية ، وكانت عامة أساليب الكهان من هذا السجع القلق الذى يزعمون أنه من كلام الجن ، كقولهم : « ياجليح . أمر نجيح . رجل فصيح : يقول لا إله إلا الله » ـ البخارى فى المناقب : إسلام عمر فكذلك جعل يطبع مثل هـذه الأسجاع فى محاكاة القرآن، ليوهمهم أنه يوحى إليه كما يوحى إلى محمد ، كأنما النبوة والكهانة ضرب واحد . على أنه لم يفلح فى هذه الحيلة أيضا، فقد كان كثيرون من أشياعه يعرفونه بالكذب والحماقة ويقولون : إنه لم يكن فى تعاطيه الكهانة حاذقاً ولا فى دعوى النبوة صادقا وإنما كان اتباعهم إياه كما قال قائلهم : « كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر » .

ويروى التاريخ أن أبا العلاء المعرى وأبا الطيب المتنبي وابن المقفع، حدثتهم نفوسهم مرة أن يعارضوا القرآن، فما كادوا يبدءون هذه المحاولة حتى انتهوا منها بتكسير أقلامهم وتمزيق صحفهم ؛ لأنهم لمسوا بأنفسهم وعورة الطريق واستحالة المحاولة . وأكبر ظنى وظن الكاتبين من قبلى، أنهم كانوا يعتقدون من أعماق قلوبهم بلاغة القرآن وإعجازه من أول الأمر، وإنما أرادوا أن يضموا دليلا جديداً إلى ما لديهم من أدلة ذاقوها بحاستهم البيانية ، من باب « ولكن ليطمئن قلبي » . وياليت شعرى، إن لم يتذوق أمثال هؤلاء بلاغة القرآن وإعجازه فمن غيرهم ؟ !

وتحدثنا الأيام القريبة أن زعماء البهائية ، والقاديانية وضعوا كتباً يزعمون أنهم يعارضون بها القرآن ، ثم خافوا وخجلوا أن يظهروها للناس ، فأخفوها ولكن على أمل أن تتغير الظروف ويأتى على الناس زمان تروج فيه أمثال هذه السفاسف ، إذا ما استحر فيهم الجهل باللغة العربية وآدابها ، والدين الإسلامى وكتابه . ألا خيبهم الله وخيب ما يأملون .

فى القرآن آلاف المعجزات

علمنا من قبل أن القرآن يزيد على مائتى آية وستة آلاف آية . وعلمنا اليوم أن حبل التحدى قد طال حتى صار بسورة، وأن السورة تصدق بسورة الكوثر وهى ثلاث آيات

قصار، وأن مقدارها من آية أو آيات طويلة له حكم السورة، وأن لأسلوب التنزيل سبع خواص لا توجد واحدة منها على كمالها فى أى كلام آخر، كما بسطنا القول فى ذلك بالمبحث الآنف . . فيخلص لنا فى ضوء هذه الحقائق أن القرآن مشتمل على آلاف من المعجزات لا معجزة واحدة كما يبدو لبعض السذج والسطحيين؟. وإذا أضفنا إلى هذا ما يحمل القرآن من وجوه الإعجاز التالية، تراءت لنا معجزات متنوعات شتى تجل عن الإحصاء والتعداد وسبحان من يجعل من الواحد كثرة ومن الفرد أمة! « أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم. إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » . «لو أنزلنا هذا القرآنَ على جبلٍ لرأيتهُ خاشعاً متَصَدِّعا من خشيةِ اللهِ ». «ولو أنَّ قرآنا سُيِّرَتْ بهِ الجبالُ أو قُطِّعت بهِ الأرضُ أو كُلِّمَ به الموتى » أى لكان هذا القرآن ! .

معجزات القرآن خالدة

وهنا نلفت النظر إلى أن القرآن بما اشتمل عليه من هذه المعجزات الكثيرة، قد كتب له الخلود فلم يذهب بذهاب الأيام، ولم يمت بموت الرسول عليه الصلاة والسلام . بل هو قائم فى فم الدنيا يحاج كل مكذب ، ويتحدى كل منكر ويدعو أمم العالم جمعاء إلى ما فيه من هداية الإسلام وسعادة بنى الإنسان . ومن هذا يظهر الفرق جليًّا بين معجزات نبى الإسلام ﷺ ومعجزات إخوانه الأنبياء عليهم أزكى الصلاة وأتم السلام. فمعجزات محمد فى القرآن وحده آلاف مؤلفة ، وهى متمتعة بالبقاء إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم حتى يرث الله الأرض ومن عليها . أما معجزات سائر الرسل فمحدودة العدد ، قصيرة الأمد، ذهبت بذهاب زمانهم ، وماتت بموتهم ، ومن يطلبها الآن ، لا يجدها إلا فى خبر كان ، ولا يسلم له شاهد بها إلا هذا القرآن؟. وتلك نعمة يمنها القرآن على سائر الكتب والرسل وما صح من الأديان كافة . قال تعالى : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحقِّ مصدقاً لما بينَ يديهِ من الكتابِ ومهيمناً عليه ». وقال عز اسمه: «آمنَ الرسولُ بما أُنزلَ إليه من ربهِ والمؤمنونَ كلٌّ آمنَ باللهِ وملائكتهِ وكُتبهِ ورُسله . لا نفرِّق بينَ أحدٍ من رُسله » .

حكمة بالغة فى هذا الاختيار

وهنا نقف هنيهة ، لنعلم أن حكمة الله البالغة قضت أن تكون معجزة الإسلام باقية بجانبه تؤيده وتعززه إلى قيام الساعة ، حتى لا يكون لأحد عذر فى ترك هذا الدين الأخير، الذى هو خاتمة الأديان والشرائع . لذلك اختار سبحانه أن تكون معجزة الإسلام شيئا يصلح للبقاء ، فكانت دون سواها كلاما يتلى فى أذن الدهر ، وحديثا يقرأ على سمع الزمان. وكان من أسرار الإعجاز فيه بلوغه من الفصاحة والبيان مبلغا يعجز الخلق أجمعين. وكان من عدله تعالى ورحمته ، أن اللغة التى صيغت بها هذه المعجزة ، هى اللغة العربية دون غيرها من اللغات ؛ لأن اللغة العربية حين مبعث الرسول ﷺ ، كانت قد بلغت لدى الشعب العربى أوج عظمتها من الاعتناء بها ، والاعتداد بالنابغين فيها ، والاعتزاز بالجيد منها. وكان هذا الشعب العربى قد استكملت له حينذاك ملكة فى النقد والمفاضلة ، تؤهله بسهولة ويسر ، للحكم على جيد الكلام وزيفه ، ووضع كل كلام فى درجته من العلو أو النزول وترجع براعتهم فى هذه الناحية إلى أنهم كانوا قد وقفوا عليها حياتهم ، والتمسوا من ورائها عظمتهم . وعلقوا عليها آمالهم .

ولا يغيبن عنك أن هذا الشعب العربى كان مطبوعا أيامئذ على الصراحة فى الرأى ، لا يعرف النفاق ولا الذبذبة . وكانوا فوق ذلك شجعانا يأنفون الذل ويعافون الضيم ، مهما كلفتهم سجاياهم هذه من بذل مال وسفك دم . فلما نزل القرآن لم يسع هذا الشعب الحر الصريح الأبى المتمهر فى لغته ، إلا أن يلقى السلاح من يده ، ويخضع لسلطان هذا التنزيل وبلاغته . ويدين له ويؤمن به ، عن إدراك ووجدان ، بعد أن ذاق حلاوته ولمس إعجازه وحكم بملكته العربية الناقدة وصراحته المعروفة السافرة ، وشجاعته النادرة الفائقة ، أن هذا الذكر الحكيم ، لا يمكن أن يكون كلام مخلوق من البشر ولا غير البشر ، إنما هو تنزيل من حكيم حميد .

بهذه الشهادة يتبجح العالم كله

شهادة هذا شأنها، وهذا شأن من شهد بها، جديرة أن ينبجح بها العالم حين يتلقاها بالقبول ، كما يتلقى بالقبول شهادة لجان التحكيم فى هذا العصر ، ثقة منه بأنهم فنيون يحسنون المقارنة والموازنة ، واطمئنانا إلى أنهم عادلون لا يعرفون المحاباة والمداهنة . بل شهادة أولئك العرب أزكى وأطهر، وأحكم وأقوم ؛ لأنها صدرت عن أعداء القرآن حين نزوله ، بعد محاولات ، ومصاولات ، مخضتهم مخضا عنيفا ، وأفحمتهم إفحاماً مريراً . « والفضل ما شهدت به الأعداء » .

أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوى

ومما يفيد فى هذا المقام ويدفع التلبيس ، أن تعرف بعدما بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوى الشريف . ولا أدل على ذلك من أن بين يدى التاريخ إلى يوم الناس هذا آلافا مؤلفة من كتب السنة ، تملأ دور الكتب فى الشرق والغرب، وتنادى كل من له إلمام وذوق فى البيان العربى : أن هلم لتحس بحاستك البيانية ، المدى البعيد بين أسلوبى القرآن والحديث ، ولتؤمن عن وجدان بأن أسلوب التنزيل أعلى وأجل من أسلوب الأحاديث النبوية ، علوًّا خارقا للعادة ، خارجا عن محيط الطاقة البشرية ، وإن بلغ كلام الرسول ﷺ فى جودته وروعته وجلالته ، ماجعله خير بيان لخير إنسان .

غير أن هذه الفوارق - كما قلنا - فوارق فنية لا يدركها إلا الذين أوتوا حظًّا عظيما من معرفة اللسان العربى والذوق العربى . ولقد نزل القرآن أول مانزل ، على أمة العرب وهم مطبوعون على اللغة الفصحى، منقطعون لإحيائها وترقيتها. وكانوا يتفاضلون بينهم بالتفوق فى علو البيان وفصاحة اللسان ، حتى بلغ من تقديسهم لهذا أنهم كانوا يقيمون المعارض العامة للتفاخر والتفاضل بفصيح المنظوم وبليغ المنثور ، وحتى إن القبيلة كان يرفعها بيت

واحد من الشعر يكون رائعاً فى مدحها ، ويضمها بيت يكون لاذعا فى ذمها . ولقد كان هؤلاء العرب يعرفون نبى الإسلام ويعرفون مقدرته الكلامية من قبل أن يوحى إليه ، فلم يخطر ببال منصف منهم أن يقول : إن هذا القرآن كلام محمد ، وذلك لما يرى من المفارقات الواضحة بين لغة القرآن ولغة الرسول عليه الصلاة والسلام .

يضاف إلى هذا أنه لم يعرف فى نشأته بينهم بالخطابة ولا بالكتابة ولا بالشعر ،ولم يؤثر أنه شاركهم فى معارضهم وأسواقهم العامة التى كانوا يقيمونها للتسابق فى البيان. بل كان مقبلا على شأنه . زاهدا فى الظهور ميالا إلى العزلة. وكل مااشتهر به قبل النبوة أنه كان صادقاً لم يجربوا عليه كذبا ، أميناً ماخان أبداً ، ميمون النقيبة عالى الأخلاق علواً ممتازاً ! . فهل يعقل أن رجلا سلخ عهد شبابه وكهولته على هذا النمط ، يجىء فى سن الشيخوخة فينافس العالم كله ويتحداه بشىء من لدنه ، وهو الذى مانافس أحداً قبل ذلك ولاتحداه ، بل كان من خلقه الحياء والتواضع وعدم الاستطالة على خلق الله ؟ .ثم هل يتصور أن هــــذا الإنسان الكامل يتورع عن الكذب على الناس فى صباه وشبابه وكهولته ، ثم يجىء فى سن الشيخوخة فيكذب أفظع الكذب على الله ؟ « ومن أظلم ممن افترَى على اللهِ كذباً أو قالَ أوحى إلىّ ولم يوحَ إليه شىءٌ ومنْ قال سأنزل مثلَ ما أنزلَ الله ؟ » .

ألا إن وجود القرآن كلاما متلوًّا لم ينقص كلة ولا حرفا، لرحمة واسعة من الله بعباده لم تتسن لأى كتاب فى أمة ، غير هذا الكتاب الذى ينهل الظامئون من بحره الروى فى كل عصر ، ويأوى المنصفون إلى هديه الربانى فى كل مصر ، ويكتسب بمـــا فيه من سمـــات الألوهية أتباعا فى كل أفق ، مصداقاً لقوله سبحانه : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهـــم أنه الحق » ولقوله صلى الله عليه وسلم « ما من نبى من الأنبياء إلا أعطى من الآيات مامثله آمن عليه البشر ، وإنمـــا

كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله تعالى إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»
رواه الشيخان .

الوجه الثانى طريقة تأليفه

وبيان ذلك أن القرآن لم ينزل جملة واحدة، وإنما نزل مفرقا منجما على أكثر من عشرين عاما ، على حسب الوقائع والدواعى المتجددة ، كما تقدم بيانه فى المبحث الثالث من هذا الكتاب ، وكان الرسول ﷺ كلما نزل عليه نجم من تلك النجوم قال : ضعوه فى مكان كذا من سورة كذا. وهو بشر لا يدرى (طبعاً) ماستجىء به الأيام ،ولا يعلم ماسيكون فى مستقبل الزمان ، ولا يدرك ماسيحدث من الدواعى والأحداث ، فضلا عما سينزل فيها . ثم مضى العمر الطويل والرسول على هذا العهد ، وإذا القرآن كله بعد ذلك يكمل ويتم ، وينتظم ويتآخى ويأتلف وينسجم ، ولا يؤخذ عليه شىء من التخاذل والتفاوت، بل كان من ضروب إعجازه مافيه من انسجام ووحدة وترابط ،حتى إن الناظر فيه دون أن يعلم بتنجيم نزوله ، لا يخطر على باله أنه نزل منجما، وحتى إنك مهما أمعنت النظر وبحثت، لا تستطيع أن تجد فرقا بين السور التى نزلت جملة والسور التى نزلت منجمة، من حيث إحكام الربط فى كل منهما. فسورة البقرة مثلا وقد نزلت بضعة وثمانين نجما فى تسع سنين [1]. لا تجد فرقا بينها وبين سورة الأنعام التى نزلت دفعة واحدة كما يقول الجمهور [2] من حيث

---

(١) وجه نزولها فى تسع سنين أنها جمعت بين ما نزل فى مبادئ السنة الثانية للهجرة، كآيات تحويل القبلة وآيات تشريع صوم رمضان وبين آخر القرآن نزولا على الإطلاق، وهو آية « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله » التى ورد أنها نزلت قبل وفاته ﷺ بتسع ليال فقط .

(٢) رواه الطبرانى موقوفا على ابن عباس ورواه أبى بن كعب مرفوعا بسند ضعيف.

نظام المبنى ودقة المعنى وتمـــام الوحدة الفنية وإذا قرأت سورة الضحى وسورة اقرأ وسورة الماعون، لا تشعر بفارق بينها وبين كثير من السور القصار مثلها من حيث الإحكام والوحدة والانسجام كذلك، على حين أن تلك السور الثلاث نزلت كل واحدة منها مفرقة على نجمين ! فقل لى بربك : هل يجوز فى عقل عاقل أن يكون هذا القرآن كلام محمد أو غير محمد، مع ما علمت من هذا الانفصال الزمانى البعيد بين أول ما نزل وآخره، ومع ما علمت من ارتباط كل نجم بحادثة من أحداث الزمن ووقائعه ، ومع ما علمت من أن ترتيب هذه النجوم فى القرآن ليس على ترتيب هذا النزول الخاضع للحدثان، بدليل أن أول ما نزل من القرآن إطلاقا ـ وهو صدر سورة اقرأ ـ مدون بالمصحف فى أواخره، وبدليل أن آخر ما نزل منه إطلاقا ـ وهو آية « واتقوا يوماً ترجعونَ فيه إلى اللهِ » ـ مدون بالمصحف فى أوائله ؟؟

إن كنت فى شك من أن هذا الكتاب المحكم الرصين قد جاء فى طريقة تأليفه معجزة ، فاجمع أهل الدنيا يظاهر بعضهم بعضا، واطلب إليهم أن يؤلفوا لك كتابا فى حجم سورة البقرة لا فى حجم سور القرآن كله ، لكن على شرط أن تكون طريقة تأليفه هى الطريقة التى خضعت لها سورة البقرة ، من الارتباط بأحداث الزمن ووقائعه، ومن وضع هذه النجوم مبعثرة غير مرتبة فى الكتاب بترتيب الأحداث والوقائع ثم من تمام هذا الكتاب أخيراً على وحدة فنية تربط بين بداياته ونهاياته وأوساطه وسائر أجزائه ؟ فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا ؛ فاطلب إليهم أن يعمدوا مثلا إلى حديث النبى ﷺ ،وهو ما هو فى روعته وبلاغته وطهره وسموه ، وقد قاله الرسول ﷺ فى أوقات مختلفة ، واسألهم بعد ذلك هل فى مكنتهم أن ينظموا من هذا السرد الشتيت الماثل أمامهم، كتاباً واحداً يصقله الاسترسال والوحدة كالقرآن، من غير أن ينقصوا منه أو يتزيدوا عليه أو يتصرفوا فيه؟؟ ذلك ما لن يكون ولا يمكن أن يكون، ومن حاوله من الخلق فإنما يحاول العبث العابث، وسيخرج إلى

الناس من هذه المحاولة بثوب مرقع، وكلام مشوش ، ينقصه الترابط والانسجام،وتعوزه الوحدة والاسترسال ، وتمجه الأسماع والأفهام !

إذن فالقرآن الكريم تنطق طريقة تأليفه ، بأنه لا يمكن أن يكون صادراً إلا ممن له السلطان الكامل على الفلك ودورته، والعلم المحيط بالزمن وحوادثه، والبقاء السرمدى حتى يبلغ مراده وينفذ مشيئته . ذلكم الله وحده الذى يدبر الأمر من السماء إلى الأرض والذى يعلم الغيب فى السموات وفى الأرض،والذى لا يذوق الموت ولا تأخذه سنة ولا نوم لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه . « والله غالبٌ على أمرهِ ولكنَّ أكثر النــاسِ لا يعلمونَ » .

الوجه الثالث علومه ومعارفه

وبيان ذلك أن القرآن قد اشتمل على علوم ومعارف فى هداية الخلق إلى الحق . بلغت من نبالة القصد ، ونصاعة الحجة وحسن الأثر وعموم النفع ، مبلغاً يستحيل على محمد ـ وهو رجل أمى نشأ بين الأميين ـ أن يأتى بها من عند نفسه. بل يستحيل على أهل الأرض جميعاً من علماء وأدباء وفلاسفة ومشترعين وأخلاقيين ، أن يأتوا من تلقاء أنفسهم بمثلها.

هذا هو التنزيل الحكيم ،تقرؤه فإذا بحر العلوم والمعارف متلاطم زاخر ،وإذا روح الإصلاح فيه قوى قاهر . ثم إذا هو يجمع الكمال من أطرافه.فبينما تراه يصلح ما أفسده الفلاسفة بفلسفتهم ، إذ تراه يهدم ما تردى فيه الوثنيون بشركهم . وبينا تراه يصحح ما حرفه أهل الأديان فى دياناتهم،إذ تراه يقدم للإنسانية مزيجاً صالحاً من عقيدة راشدة ترفع همة العبد، وعبادة قويمة تطهر نفس الإنسان،وأخلاق عالية تؤهل المرء لأن يكون خليفة الله فى الأرض،وأحكام شخصية ومدنية واجتماعية تكفل حماية المجتمع من الفوضى والفساد ، وتضمن له حياة الطمأنينة والنظام والسلام والسعادة ..ديناً قيما يساوق الفطرة، ويوائم الطبيعة، ويشبع حاجات القلب والعقل، ويوفق بين مطالب الروح والجسد، ويؤلف بين مصالح الدين والدنيا ، ويجمع بين عز الآخرة والأولى ! كل ذلك فى قصد واعتدال ،

وببراهين واضحة مقنعة تبهر العقل وتملك اللب . والكلام على هذه التفاصيل يستنفد مجلداً بل مجلدات ، فلنجتزىء هنا بأمثلة وإشارات ، ولنختَرها فى موضوع العقائد التى هى واحدة فى جميع أديان الله بحسب أصلها قبل التعريف . ولنتعرض فى هذه الأمثلة إلى شىء من المقارنة بين تعاليم الإسلام وتعاليم اليهود والنصارى على عهد نزوله، ثم إلى شىء من رد القرآن عليهم وتصحيحه لأغلاطهم وفضحه لأباطيلهم ، ومقصدنا من هذا قطع ألسنة خراصة ، زعم أصحابها أن تعاليم القرآن استمدها محمد من بعض أهل الكتاب فى عصره ثم نسبها إلى ربه ، ليستمد من هذه النسبة قدسيتها « كبرت كلمة تخرج من أفواههم. إن يقولون إلا كذباً » .

ا ـ أمثلة من عقيدة الإيمان بالله :

١ ـ جاء القرآن بالعقيدة فى الله بيضاء نقية ، نزهه فيها عن جميع النقائص ، ونص على استحالة الولد وكل ما يشعر بمشابهة الخالق بالمخلوق ، ووصف الله بالكمال المطلق ، ونص على وحدانيته فى ربوبيته ووحدانيته فى ألوهيته، بمعنى أنه أحد فى تدبير خلقه وأحد فى استحاقة العبادة دون غيره ، ألم تر أنه يقول: «ليس كَمِثْلِهِ شىءٌ وهو السميعُ البصيرُ» ويقول « وقل الحمدُ للهِ الذى لم يتخذ ولداً ، ولم يكنْ لهُ شريكٌ فى الملكِ ،ولم يكن له ولىٌّ من الذلِّ وكبره تكبيراً » ويقول: « قل أغيرَ الله أتخذ وليًّا فاطرِ السمواتِ والأرضِ وهُوَ يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ » . ويقول : « قل من بيدهِ ملكوتُ كل شىء وهو يجيرُ ولا يجارُ عليهِ ؟ إن كنتم تعلمونَ » . ويقول : « فلا تدعُ مع الله أحداً » ويقول: «ولا تدع من دُونِ الله ما لا ينفعُكَ ولا يضرُكَ ، فإن فعلتَ فإنك إذَنْ من الظالمينَ * وإن يمسَسْكَ الله بضرٍّ فلا كاشفَ له إلا هُو ، وإن يُرِدْكَ بخيرٍ فلا رادَّ لفضلهِ، يصيبُ به من يشاءُ من عبادهِ وهوَ الغفورُ الرحيم » ويقول : « إن الله يغفرُ الذنوبَ جميعاً إنهُ هو الغفورُ الرحيمُ » ويقول « ومن يغفرُ الذنوبَ إلَّا الله ؟ » ويقول «قل لا أقولُ لكم عندِى خزائنُ اللهِ ولا أعلم الغيب ولا أقولُ لكم إنى مَلَكٌ» . ويقول : «والذين تدعونَ من دونه ما يملكونَ من قطمير *

إن تدعوهم لا يسمعُوا دُعاءكم ، ولو سَمِعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامةِ يكفرون بشركِكم ، ولا ينبئك مثل خبير * يأيها الناسُ أنتم الفقراء إلى اللهِ ، والله هو الغنيُّ الحميدُ » ويقول : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونهِ ، فلا يملكون كشْفَ الضرعنكم ولا تحويلا * أولئكَ الذين يدْعونَ يبتغونَ إلى ربهمُ الوسيلة أيهم أقربُ ، ويرجون رحمتهُ ويخافون عذابهُ ؛ إن عذابَ ربك كان محذورا » إلى غير ذلك وهو جد كثير .

٢ ـ وضل اليهود بعد موسى فعبدوا بعلا ، وزعموا فى عهد من عهودهم مازعمت النصارى من أن لله ابنا ، وشبهوا الله تعالى بالإنسان فنعتوه بأنه تعب من خلق السموات والأرض فاستراح يوم السبت وركبوا رءوسهم فقالوا إنه سبحانه ظهر فى شكل إنسان وصارع إسرائيل فلم يقدر على التفلت منه حتى باركه فأطلقه . إلى غير ذلك من أغلاطهم وفضائحهم .

٣ ـ وضل النصارى بعد عيسى ، فذهبوا إلى عقيدة معقدة من التثليث وصارت كنائسهم من عهد قسطنطين كهيا كل الوثنية الأولى وخلعوا على رجال كهونتهم ما هو حق الله وحده من التشريع والتحليل والتحريم ، حتى تعزى بهم وثنيو العرب ورأوا أنهم أمثل من هؤلاء المسيحيين فى الوثنية ، « ولما ضُرِبَ ابنُ مريمَ مثلًا إذا قومك منهُ يصدُّون * وقالوا : أآلهتنا خير أم هو ؟ ثم احتجوا على شركهم بأنهم ما سمعوا دعوة التوحيد الذى جاء به الإسلام فى الملة الآخرة ، « وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، إن هذا لشىء يراد * ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة » أى النصرانية .

٤ ـ فانظر مدى البون الشاسع بين الحق الذى جاء به القرآن فى هذا الباب ، وبين الباطل الذى جاء به هؤلاء ! وهؤلاء ! على أن كتاب الله لم يكتف بذلك ، بل رد على المبطلين ببراهينه الساطعة وأدلته القاطعة . استمع إليه وهو يقول : « قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » . ويقول :

« يأهلَ الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق . إنما المسيح عيسى بنُ مريم رسول الله وكلمتهُ ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه ، فآمنوا بالله ورُسله ولا تقولوا ثلاثةٌ ، انتهوا خيراً لكم إنما الله إلهٌ واحدٌ . سبحانه أن يكونَ له ولد ؛ له ما فى السموات وما فى الأرضِ . وكفى بالله وكيلًا * لن يستنكفَ المسيحُ أن يكونَ عبداً لله ولا الملائكةُ المقربونَ . ومن يستنكفْ عن عبادتهِ ويستكبرْ فسيحشرُهم إليهِ جميعاً » ويقول : « ما المسيحُ ابنُ مريم إلا رسولٌ قد خلتْ من قبلهِ الرسلُ وأمهُ صدِّيقةٌ ، كانا يأكلان الطعام . انظر كيف نبين لهم الآياتِ ثم انظرْ أنى يؤفكونَ * قل أتعبدونَ من دون الله ما لا يملكُ لكم ضرًّا ولا نفعاً والله هو السميعُ العليمُ * قل يأهلَ الكتاب لا تغلوا فى دينكم غيرَ الحق ، ولا تتبعوا أهواءَ قومٍ قد ضلوا من قبلُ وأضلوا كثيراً وضلُّوا عن سواء السبيل » . ويقول : « بديعُ السمواتِ والأرضِ أنى يكونُ له ولدٌ ولم تكنْ له صاحبةٌ وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم » ويقول فى نفى التعب الذى افتراه اليهود على اللهِ : « ولقدْ خلقنا السمواتِ والأرض وما بينهما فى ستة أيامٍ ، وما مسَّنا من لُغوب » . ويقول نعياً عليهم فى عبادة بعل : « أتدعونَ بعلًا وتذرونَ أحسنَ الخالقين * اللهَ ربكم وربَّ آبائكم الأوَّلين * » ويقول نعياً عليهم فى فرية أخرى : « وقالت اليهودُ يدُ الله مغلولةٌ . غُلَّتْ أيديهم ولعنوا بما قالوا . بل يداهُ مبسوطتانِ يُنفقُ كيف يشاء » ويقول فى نفى البنوة التى زعموها لله هم والنصارى « وقالت اليهودُ عزيرٌ ابنُ اللهِ ، وقالتِ النصارى المسيحُ ابنُ اللهِ . ذلك قولهم بأفواههم ، يُضاهِئُونَ قولَ الذين كفروا من قبلُ . قاتلهم اللهُ أنى يؤفكونَ * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون اللهِ والمسيحَ ابنَ مريمَ . وما أُمروا إلا ليعبدُوا إلهاً واحداً لا إلهَ إلا هوَ سبحانهُ عما يشركون * يريدونَ أن يُطفِئُوا نورَ الله بأفواهِهم . ويأبى اللهُ إلَّا أن يتم نورَهُ ولو كرهَ الكافرون * » .

ب ـ أمثلة من عقيدة البعث والجزاء :

١ ـ جاء القرآن بعقيدة البعث بعد الموت واضحة شاملة للروح والجسد ، عادلة لا ظلم

فيها ولا محاباة، مقسطة لا شفاعة هنالك بالمعنى الفاسد ولا فداء ، عامة لا فضل لجنس ولا لطائفة ولا لشخص إلا بالتقوى. اقرأ إن شئت قوله سبحانه: « والله أنبتكم من الأرضِ نباتاً * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً » وقوله : « أيحسبُ الإنسانُ أن يُترك سُدى؟ ألم يك نطفةً من منى يُمنى * ثم كان علقةً فخلق فسوّى * فجعل منهُ الزَّوجين الذكرَ والأنثى * أليسَ ذلكُ بقادرٍ على أن يحيي الموتى ؟ ! » وقوله: « ونضعُ الموازينَ القسط ليومِ القيامةِ فلا تُظلمُ نفس شيئاً . وإن كانَ مثقال حبةٍ من خردَلٍ أتينا بهاَ . وكفى بنا حاسبينَ » وقوله : « فمن يعملْ مثقالَ ذرةٍ خيراً يره * ومن يعمل مثقالَ ذرةٍ شراً يره * » . وقوله : « واتقوا يوماً لا تجزى نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ولا يقبلُ منها عدلٌ ولا تنفعها شفاعةٌ ولا هم ينصرون * » وقوله: « فإذا نُفِخ في الصور فلا أنسابَ بينهمْ يومئذ ولا يتساءلون » .

٢ ـ وضل اليهود فزعموا أنهم الشعب المختار من بين شعوب الأرض ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس، وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة هى مدة عبادتهم العجل أربعين يوما .

٣ـ وضل النصارى فزعموا أيضاً أنهم أبناء الله وأحباؤه وذهبوا مذهب الهنود فى كرشنة أنه قتل وصلب ليخلص الإنسان ويفديه من الخطيئة ، فهو المخلص الفادى الذى يخلص الناس من عقوبة الخطايا ويفديهم بنفسه ، وهو الأقنوم الثانى من الثالوث الإلهى الذى هو عين الأول والثالث وكل منهما عين الآخر. كذلك قال الهنود فى كرشنة، ثم جاء مخرّفة النصارى فتابعوهم على هذا الخيال الفاسد، الذى تأباه العقول والطباع، ولا يتفق وعدل الله وحكمته فى الجزاء والمسؤولية . ولم يستطع الخابطون فى الضلال أن يروجوه فى ضحاياهم إلا بترويضهم عليه من عهد الصغر ، وتنشئتهم على سماعه واعتقاده من غير بحث ولا نظر ، بل قالوا :« اعتقد وأنت أعمى » .

٤ ـ وضل نساك النصارى فتابعوا الهنود أيضاً ، فى احتقار اللذات المادية ، وفى

تربية النفوس على الحرمان وتعذيب الجسد ، وزادوا الطين بلة فقالوا : إن البعث روحانى مجرد عن إعادة الجسم ،مخدوعين بتلك النظرية الفلسفية الخاطئة وهى احتقار اللذات المادية وذمهم إياها بأنهاحيوانية. وغاب عنهم أنها لا تكون نقصا إلا إذا سخر الإنسان عقله وقواه لها ، وأسرف فيها إسرافا يشغله عن اللذات العقلية والروحية القائمة على العلم النافع والعمل الصالح . أما إذا اعتدل فيها ووفق بين المطالب الروحية والجسمية ، فتلك مفخرة للإنسان وميزة لنوع الإنسان،بها صار عالما عجيبا جمع بين روحانية الملائكة وجثمانية الحيوان والنبات ، وقد خلقه الله فى الدنيا مظهراً من مظاهر إبداعه واقتداره ، فكيف ينقص ملكوت الآخرة هذا المظهر العجيب ، على حين أن الآخرة هى دار العجائب والغرائب ، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؟!» وإن الآخرة لهىَ الحيوانُ لو كانوا يعلمونَ » .

٥ ـ وكذلك ضل متطرفة اليهود فعكسوا الأمر ، وأفرطوا فى حب المادة حتى أحلوا لأنفسهم جمعها من أى طريق، وبالغوا فى استنزاف دماء العالم بالربا وأكل أموال الناس بالباطل وظنوا أن لا جناح عليهم إذا رزءوا أى عنصر غريب عنهم «ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل » .

٦ ـ ولكن القرآن قد جاء يرد هؤلاء وهؤلاء إلى جادة الاعتدال ،ووقف موقفاً وسطا يرجع إليه المغالى وينتهى إليه المقصر ، فأعلن عقيدته فى وضوح على نحو ماذكرنا. وتناول أخطاءهم المذكورة بالإصلاح والتقويم فقال فى معرض الرد على أنهم الشعب المختار : «قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين* ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم. والله عليم بالظالمين*» وقال فى هذا المعرض أيضا : « يأيها الناسُ إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارَفوا. إن أكرمكم عندَ الله أتقاكمْ. إنَّ اللهَ عليمٌ خبيرٌ » وقال أيضا : « ليس بأمانيِّكم ولَا أمانىِّ أهل الكتاب . من يعمل سوءاً يجزَ به ولا يجدْ له من دون اللهِ وليًّا ولا نصيراً * ومن يعمل من الصالحاتِ

من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ ، فأولئكَ يدخلونَ الجنة ولا يُظلمونَ نقيرا * » . وقال في معرض الرد على فرية أنهم أبناء الله وأحباؤه : « وقالت اليهودُ والنصارى نحنُ أبناءُ الله وأحباؤه قل : فلِمَ يعذبكم بذنوبكم . بل أنتم بشرٌ ممن خلق . يغفر لمن يشاء ويعذبُ من يشاء ، ولله ملكُ السمواتِ والأرضِ وما بينهما وإليه المصير * » وقال في تفنيد ما زعموه من أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة : « وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده ؟ أم تقولون على الله ما لا تعلمون ؟ * بلى من كسبَ سيئةً وأحاطتْ به خطيئتـه فأولئك أصحابُ النارِ هم فيهـا خالدون * والذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ أولئكَ أصحابُ الجنة هم فيها خالدون * » . وقال في تكذيب مازعموا من قتل عيسى وصلبه : « وماقتلوهُ وماصلبوهُ ولـكن شُبِّه لهم . وإن الذينَ اختلفوا فيه لفي شكٍّ منه ما لهم به من علم إلا اتباعَ الظن . وماقتلوهُ يقيناً * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حـكيماً * وإن من أهل الـكتاب إلا ليؤمننَّ به قبل موته . ويوم القيامة يكونُ عليهم شهيداً * » . وقال في دحض عقيدة الفداء : « ولا تزرُ وازرةٌ وزر أخرى . وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى . إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة . ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه . وإلى الله المصير * » .

وقال : « من عملَ صالحاً فلنفسه ، ومن أساءَ فعليهاَ . ومار بك بظلام للعبيد » ونزلت سورة المسد تسجل العذاب على عم من أعمام أفضل الخلق محمد ﷺ . وذكر القرآن ماذكر في ابن نوح ولم يطب القرآن نفسا بضلالة « اعتقد وأنت أعمى » بل حث على النظر والتفكر وحاكم العقائد والتعاليم الإسلامية إلى العقول السليمة ، ونعى على المقلدين تقليدا أعمى . والأمر في هذا أظهر من أن تساق له أمثلة .

وعالج القرآن شبهة احتقار اللذات المادية بالمعنى الذى أرادوه ، فقال : « قل من حرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ » وقال : « يأيها الذين آمنوا لاتحرِّموا طيبات ما أحل الله لـكم ، ولا تعتدوا إن اللهَ لايحبُّ المعتدينَ * وكلوا مما رَزقـكم اللهُ حلالًا طيبا واتقوا اللهَ الذى أنتم به مؤمنونَ * » وذم الرهبانية ومبتدعيها فقال :

«ورهبانية ابتدعوها، ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها».
وعاب على اليهود خيانتهم وظلمهم للشعوب فقال: «ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤدِّه إليك إلا ما دمت عليه قائماً. ذلك بأنهم قالوا ليسَ علينا فى الأميين سبيلٌ. ويقولون على اللهِ الكذب وهم يعلمون * بلى من أوفى بعهدهِ واتقى فإن الله يحب المتقينَ * إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلق لهم فى الآخرة، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يومَ القيامةِ، ولا يزكيهم، ولهمْ عذابٌ أليم *». وقال: «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا». وقال: «ولا تأكلُوا أموالكم بينكم بالباطلِ وتُدلوا بهاَ إلى الحكام لتأكلُوا فريقا من أموالِ الناس بالإثمِ وأنتمْ تعلمون»..
إلى غير ذلك من آيات كثيرة فى هذه المواضيع.

والذى نريد أن تفطن له هنا، هو أن هداية القرآن كما رأيت هداية تامة عامة صححت معارف الفلاسفة المكبين على البحث والنظر كما صححت معارف الأميين ومن لا ينتمى إلى العلم بسبب. وصححت أغلاط أهل الكتاب من يهــود ونصارى، كما صححت أغلاط مؤلهة الحجر وعبدة الوثن. وإذن فليس يصح فى الأذهان شىء إذا قيل إن هذه الهدايات القرآنية ليست وحيا من الله، وإنما هى نابعة من نفس محمد الأمى الناشىء فى الأميين. وليس يصح فى الأذهان شىء إذا قيل إنه ﷺ قد استقى هذه الهدايات من بعض أهل الكتاب الذين لقيهم فى الجزيرة العربية، ولو صح هذا لكانوا هم أولى منه بدعوى الرسالة والنبوة. وكيف يصح هذا والقرآن هو الذى علمهم ما جهلوا من حقائق دينهم؟ وهل فاقد الشىء يعطيه؟. وحسبك ما قدمناه لك من تلك الأمثلة التى تتصل بأساس الأديان وصميم العقائد، والتى تريك بالمنظار المكبر أن القرآن جالس على كرسى الأستاذية العليا للعالم كله يعلم اليهود والنصارى وغير اليهود والنصارى، لا على مقعد التلمذة الدنيا يتلقف من هؤلاء وهؤلاء.

فإن لم يكفك ما سمعت، فدونك القرآن تصفحه وتجول فى آفاقه وناهيك مثل قوله: « يأهل الكتابِ قد جاءكم رسولُنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتابِ ويعفوا عن كثيرٍ . قد جاءكم من اللهِ نورٌ وكتابٌ مبين * يهدى به الله من اتَّبع رضوانهُ سُبلَ السلام . ويخرجهم من الظلماتِ إلى النورِ بإذنه ، ويهديهم إلى صراطٍ مُّستقيم » ومثل قوله : « يأهل الكتاب قد جاءكم رسولُنا يبينُ لكم على فترةٍ من الرسل أنْ تقولوا ما جاءنَا من بشيرٍ ولا نذيرٍ . فقد جاءكم بشيرٌ ونذيرٌ والله على كل شيء قديرٌ » .

وإن شئت أكثر من هذا فتأمل كيف أعلن الحق فى صراحة أن بيانه لأهل الكتاب ما اختلفوا فيه هو من مقاصده الأولى ، إذ قال فى سورة النحل : «وما أنزلنا عليكَ الكتابَ إلا لتبينَ لهمُ الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمةً لقوم يؤمنونَ » هكذا قدم أنه بيان لما اختلف فيه الكتابيون ، قبل أن يقول : وهدى ورحمة لقوم يؤمنون!

وكذلك قال فى سورة النحل : « إن هذا القرآن يقصُّ على بنى إسرائيلَ أكثر الذى هم فيه يختلفون * وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين * إن ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيزُ العليمُ * فتوكل على الله إنك على الحق المبين » .

لقد لفت القرآن نفسه أنظار الناس إلى هذه الناحية من الإعجاز وأقام الدليل على أنه كلام الله ولا يمكن أن يكون كلام محمد ، إذ قال جلت حكمته فى سورة العنكبوت : « وكذلك أنزلنا إليكَ الكتابَ ، فالذين آتيناهم الكتابَ يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمنُ به . وما يجحدُ بآياتنا إلا الكافرُونَ * وما كنت تتلوا من قبله من كتابٍ ولا تخطه بيمينكَ ، إذن لارتاب المبطلونَ * بل هو آيات بيناتٌ فى صدورِ الذين أُوتوا العلم . وما يجحدُ بآياتنا إلا الظالمون* »وإذ قال سبحانه مرة أخرى فى سورة الشورى. وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتابُ ولا الإيمانُ . ولكن جعلناهُ نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا . وإنك لتهدى إلى صراطٍ مستقيمٍ* صراطِ اللهِ الذى له ما فى السمواتِ وما فى الأرضِ . ألا إلى اللهِ تصيرُ الأمور » .

ويرحم الله البوصيرى فى قوله :

« كفاك بالعلم فى الأُمّىِّ مُعجزةً   فى الجاهلية والتأديبِ فى اليُتُم »

صلى الله عليه وسلم ، ومجد وعظم ، وشرف وكرم ، ورزقنا كمال الإيمان به وكمال اتّباعه ، آمين .

الوجه الرابع وفاؤه بحاجات البشر

ومعنى هذا أن القرآن الكريم جاء بهدايات تامة كاملة، تفى بحاجات البشر فى كل عصر ومصر، وفاء لا تظفر به فى أى تشريع ولا فى أى دين آخر. ويتجلى لك هذا إذا استعرضت المقاصد النبيلة التى رمى إليها القرآن فى هدايته، والتى نعرض عليك من تفاصيلها ما يأتى:

أولا : إصلاح العقائد عن طريق إرشاد الخلق إلى حقائق المبدأ والمعاد وما بينهما تحت عنوان الإيمان بالله تعالى وملائكته ورسله واليوم الآخر .

ثانيا : إصلاح العبادات عن طريق إرشاد الخلق إلى ما يزكى النفوس ويغذى الأرواح ويقوم الإرادة ويفيد الفرد والمجموع منها .

ثالثا : إصلاح الأخلاق عن طريق إرشاد الخلق إلى فضائلهم وتنفيرهم من رذائلها، فى قصد واعتدال وعند حد وسط لا إفراط فيه ولا تفريط .

رابعا : إصلاح الاجتماع عن طريق إرشاد الخلق إلى توحيد صفوفهم ومحو العصبيات وإزالة الفوارق التى تباعد بينهم. وذلك بإشعارهم أنهم جنس واحد من نفس واحدة ومن عائلة واحدة أبوهم آدم وأمهم حواء ، وأنه لا فضل لشعب على شعب ولا لأحد على أحد إلا بالتقوى . وأنهم متساوون أمام الله ودينه وتشريعه ، متكافئون فى الأفضلية وفى الحقوق والتبعات من غير استثناءات ولا امتيازات . وأن الإسلام عقد إخاء بينهم أقوى من إخاء النسب والعصب . وأن لسانهم العام هو لسان هذا الدين ولسان كتابه: (لغة العرب) وأنهم أمة واحدة يؤلف بينها المبدأ ولا تفرقها الحدود الإقليمية ولا الفواصل

السياسية والوضعية ؛ « وإن هذه أمتكم أمةً واحدةً ، وأنا ربكم فاتقون » .

خامسا : إصلاح السياسة أو الحكم الدولى ، عن طريق تقرير العدل المطلق والمساواة بين الناس ، ومراعاة الفضائل فى الأحكام والمعاملات من الحق والعدل والوفاء بالعهود والرحمة والمواساة والمحبة ، واجتناب الرذائل من الظلم والغدر ونقض العهود والكذب والخيانة والغش وأكل أموال الناس بالباطل كالرشوة والربا والتجارة بالدين والخرافات .

سادسا : الإصلاح المالى عن طريق الدعوة إلى الاقتصاد وحماية المال من التلف والضياع ، ووجوب إنفاقه فى وجوه البر وأداء الحقوق الخاصة والعامة والسعى المشروع .

سابعاً : الإصلاح النسائى عن طريق حماية المرأة واحترامها وإعطائها جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية .

ثامنا : الإصلاح الحربى عن طريق تهذيب الحرب ووضعها على قواعد سليمة لخير الإنسانية فى مبدئها وغايتها ، ووجوب التزام الرحمة فيها والوفاء بمعاهداتها ، وإيثار السلم عليها ، والاكتفاء بالجزية عند النصر والظفر فيها .

تاسعا : محاربة الاسترقاق فى المستقبل وتحرير الرقيق الموجود بطرق شتى ، منها الترغيب العظيم فى تحرير الرقاب ، وجعله كفارة للقتل وللظهار ، ولإفساد الصيام بطريقة فاحشة ، ولليمين الحانثة ، ولإيذاء المملوك باللطم أو الضرب .

عاشراً : تحرير العقول والأفكار ، ومنع الإكراه والاضطهاد وللسيطرة الدينية القائمة على الاستبداد والغطرسة . « فذكر إنما أنتَ مذكر * لست عليهم بمسيطر » .

دليل على هذا الوجه من الإعجاز :

والدليل على هذا الوجه من إعجاز القرآن ، أن غير المسلمين كانوا ولا يزالون حائرين يبحثون عن النور ، وينقبون عما يفى بحاجتهم فى كثير من نواحى حياتهم ، حتى اضطروا تحت ضغط هذه الحاجة وبعد طول المطاف وقسوة التجارب ، أن يرجعوا إلى هداية القرآن من حيث يشعرون أو لا يشعرون وإليك شواهد على ذلك :

١ ـ أمريكا حرمت الخمر أخيراً ، ولكنها فشلت ولم تنجح لأنها لم توفق إلى الطريقة الحكيمة التى اتبعها الإسلام فى تحريم الخمر .

٢ ـ أمريكا أباحت الطلاق ، وإن كانت قد أسرفت فيه إلى درجة ضارة .

٣ ـ أسبانيا أصدرت حكومتها قانوناً بمنع البغاء الرسمى فى بلادها ، وبمنع النساء من البروز على الشواطىء فى ثياب الاستحمام .

٤ ـ مصلحو أوروبا يرفعون أصواتهم بضرورة الرجوع إلى مبدأ تعدد الزوجات، حتى بعض نسائهم طالبن بهذا .

٥ ـ اليهود يطالبون أيضاً بتعدد الزوجات وقد تزعم هذه الحركة يهودى اسمه مورشه ليكفر مان ، وبرهن على أن ذلك من أحكام الدين اليهودى . وطلب إلى اليهود إلغاء قرار الحاخام غرشون الذى تعدى حدود الدين اليهودى بإبطاله الزواج بأكثر من واحدة وأصبح له أتباع كثيرون .

٦ ـ زعيم فرنسا نادى غداة هزيمتها فى الحرب القائمة الآن يقول : إن سبب انهيار دولتهم هو انغماسهم فى الشهوات الجنسية ، وإسرافهم فى المفاسد والمفاتن .

الوجه الخامس

موقف القرآن من العلوم الكونية

ومعنى هذا أن القرآن روعيت فيه بالنسبة إلى العلوم الكونية اعتبارات خمسة ، لا يصدر مثلها عن مخلوق ، فضلا عن رجل أمى نشأ فى الأميين ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

(أولها) أنه لم يجعل تلك العلوم الكونية من موضوعه، وذلك لأنها خاضعة لقانون النشوء والارتقاء ، وفى تفاصيلها من الدقة والخفاء ما يعلو على أفهام العامة. ثم إن أمرها بعد

ذلك هين بإزاء مايقصده القرآن من إنقاذ الإنسانية العاثرة ، وهداية الثقلين إلى سعادة الدنيا والآخرة . فالقرآن ـ كما أسلفنا فى المبحث الأول ـ كتاب هداية وإعجاز، وعلى هذا فلا يليق أن نتجاوز به حدود الهداية والإعجاز. حتى إذا ذكر فيه شىء من الكونيات، فإنما ذلك للهداية ودلالة الخلق على الخالق . ولا يقصد القرآن مطلقا من ذكر هذه الكونيات أن يشرح حقيقة علمية فى الهيئة والفلك أو الطبيعة والكيمياء ، ولا أن يحل مسألة حسابية أو معادلة جبرية أو نظرية هندسية ، ولا أن يزيد فى علم الطب بابا ولا فى علم التشريح فصلا، ولا أن يتحدث عن علم الحيوان أو النبات أو طبقات الأرض إلى غير ذلك .

ولكن بعض الباحثين طاب لهم أن يتوسعوا فى علوم القرآن ومعارفه ، فنظموا فى سلكها مابدا لهم من علوم الكون ، وهم فى ذلك مخطئون ومسرفون ، وإن كانت نيتهم حسنة وشعورهم نبيلا ، ولكن النية والشعور مهما حسنا لايسوغان أن يحكى الإنسان غير الواقع ، ويحمل كتاب الله على ماليس من وظيفته ، خصوصا بعد أن أعلن الكتاب نفسه هذه الوظيفة وحددها مرات كثيرة . منها قوله سبحانه : « ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقينَ » ومنها قوله جلت حكمته : « قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين * يهدى به الله من اتبع رضوانهُ سبلَ السلام ويخرجهم من الظلماتِ إلى النور بإذنه ويهديهمْ إلى صراطٍ مستقيم » .

ومما يجب التفطن له أن عظمة القرآن لا تتوقف على أن ننتحل له وظيفة جديدة ، ولا أن نحمله مهمة ماأنزل الله بها من سلطان ؛ فإن وظيفته فى هداية العالم أسمى وظيفة فى الوجود، ومهمته فى إنقاذ الإنسانية أعلى مهمة فى الحياة! وما العلوم الكونية بإزاء الهدايات القرآنية؟ أليس العالم الآن يشقى بهذه العلوم ويحترب وينتحر؟ ثم أليست العلوم الكونية هى التى ترمى الناس فى هذه الأيام بالمنايا وتقذفهم بالحمم ، وتظهر لهم على أشكال مخيفة مزعجة، من مدافع رشاشة ، ودبابات فتاكة، وطائرات أزازة، وقنابل مهلكة ، وغازات

محرقة ، ومدمرات فى البر والبحر وفى الهواء والماء ؟ . وما أشبه هذه العلوم للإنسان بعد تجرده من هدى الله ووحى السماء ، بالأنياب والمخالب للوحوش الضارية والسباع الوالغة فى أديم الغبراء !! .

(ثانيها) أن القرآن دعا إلى هـذه العلوم فى جملة ما دعا إليه من البحث والنظر ، والانتفاع بما فى الـكون من نعم وعبر . قال سبحانه : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » . وقال جل شأنه : « وسخر لـكم مافى السمواتِ وما فى الأرض جميعا منه ، إن فى ذلك لآياتٍ لقوم يتفـكرون » .

(ثالثها) أن القرآن حين عرض لهذه الـكونيات أشعرنا أنها مربوبة له تعالى ومقهورة لمراده ، ونفى عنها ماعلق بأذهان كثير من الضالين الذين توهموها آلهة وهى مألوهة ، وزعموها ذات تأثير وسلطان بينما هى خاضعة لقدرة الله وسلطانه « إن الله يمسكُ السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » . وكذلك أشعرنا القرآن أنها هالـكة « كلُّ شىء هالكٌ إلا وجهه » « وما قدرُوا الله حق قدْره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطوياتٌ بيمينه ِ » « يوم تُبدَّل الأرضُ غير الأرض والسموات » .

(رابعها) أن القرآن حين يعرض لآية كونية فى معرض من معارض الهداية، يتحدث عنها حديث المحيط بعلوم الـكون، الخبير بأسرار السموات والأرض ؛ الذى لا تخفى عليه خافية فى البر والبحر ، ولا فى النجوم والـكواكب ، ولا فى السحاب والمـاء ، ولا فى الإنسان والحيوان والنبات والجماد . وذلك هو الذى بهر بعض المشتغلين بالعلوم الـكونية؛ وأوقع من أوقع منهم فى الإسراف واعتبار هذه العلوم من علوم القرآن .

(خامسها) أن الأسلوب الذى اختاره القرآن فى التعبير عن آيات الله الـكونية ، أسلوب بارع جمع بين البيان والإجمال فى سمط واحد ، بحيث يمر النظم القرآنى الـكريم

على سامعيه فى كل جبل وقبيل ، فإذا هو واضح فيما سبق له من دلالة الإنسان وهدايته إلى الله ، ثم إذا هو مجمل التفاصيل ، يختلف الخلق فى معرفة تفاريعه ودقائقه ، باختلاف مالديهم من مواهب ووسائل وعلوم وفنون .

ولنضرب لذلك مثلا : تلك الآية الحكيمة وهى قوله عز اسمه : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » . فإنها مرت على بنى الإنسان منذ نزلت إلى الآن ، ففهموا منها جميعا أن الله تعالى يدل على قدرته وإبداعه وكماله بأنه خلق من الأشياء متنوعات مختلفة الأشكال والخصائص . لكنهم اختلفوا بعد ذلك. فالأوائل يؤثر عنهم أن الزوجين فى الآية الكريمة ، هما الأمران المتقابلان تقابلا ما . لا بخصوص الذكورة والأنوثة ؛ روى عن الحسن أنه فسر الزوجين بالليل والنهار والسماء والأرض، والشمس والقمر ، والبر والبحر، والحياة والموت ، وهكذا عدد أشياء وقال: كل اثنين منها زوج، الله تعالى فرد لا مثيل له . . أما المتأخرون ففهموا أن الزوجين فى الآية ، هما الأمران المتقابلان بالذكورة والأنوثة ، ويقولون : إنه ما من شىء فى الوجود إلا منه الذكر والأنثى ، سواء فى ذلك الإنسان والحيوان والجماد وغيرها مما لا نعلم، ويستدلون على ذلك بقوله سبحانه : « سبحانه الذى خلقَ الأزواج كلها مما تنبتُ الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون » . ويقولون : إن أحدث نظرية فى أصول الأكوان تقرر أن أصول جميع الكائنات تتكون من زجين اثنين ، وبلسان العلم الحديث (الكترون وبروتون) .

ولا أحب أن نتوسع فى هذا، فبين أيدينا أمثلة كثيرة ومؤلفات جمة، تموج وتضطرب باستنباط علوم الكون من القرآن ، أو بتفسير القرآن وشرحه بعلوم الكون. وأحدثها فيما أعلم كتاب تحت الطبع الآن ألفه شاب فاضل مثقف وسماه (بين القرآن والعلم) وضمنه شتيتا من الأبحاث المختلفة فى الاجتماع وعلم النفس وعلم الوراثة والزراعة والتغذية وفيما وراء الطبيعة ، مما لا يتسع المقام لذكره، ومما لا نرى حاجة إليه ، خصوصا بعد أن تبين لنا أن العلوم الكونية خاضعة لطبيعة الجزر والمد ، أن أبحاثا كثيرة منها لا تزال قلقة حائرة بين

إثبات ونفى. فما قاله علماء الهيئة بالأمس ينقضه علماء الهيئة اليوم. وما قرره علماء الطبيعة فى الماضى يقرر غيره علماء الطبيعة فى الحاضر. وما أثبته المؤرخون قديماً ينفيه المؤرخون حديثاً وما أنكره الماديون وأسرفوا فى إنكاره باسم العلم، أصبحوا يثبتونه ويسرفون فى إثباته باسم العلم أيضا، إلى غير ذلك مما زعزع ثقتنا بما يسمونه العلم، ومما جعلنا لا نطمئن إلى كل ماقرروه باسم هذا العلم، حتى لقد ظهر فى عالم المطبوعات كتاب خطير من مصدر على محترم عندهم، له خطورته وجلالته وشأنه، فصدع هذا الكتاب بناء علمهم وزلزل أركان الثقة به، بعد أن نقض بالدليل والبرهان كثيراً من المقررات والمسلمات التى يزعمونها يقينية. ثم انتهى بقارئه إلى أن هـــذا الكون غامض متغلغل فى الغموض والخفاء، ومن هنا سمى تأليفه (الكون الغامض). وهذا المؤلف هو السير جيمس جينز.

فهل يليق ـ بعد ذلك كله ـ أن نبقى مخدوعين مغرورين بعلمهم الذى اصطلحوا عليه وتحاكموا إليه، وقد سجنوه وسجنوا أنفسهم معه فى سجن ضيق هو دائرة المادة، تلك الدائرة المسجونة هى أيضاً فى حدود ماتفهم عقولهم وتصل تجاربهم، وقد تكون عقولهم خاطئة وتجاربهم فاشلة ؟ ؟ ! ثم هل يليق بعد ذلك كله أن نحاكم القرآن إلى هذه العلوم المادية القلقة الحائرة بينما القرآن هو تلك الحقائق الإلهية العلوية القارة الثابتة، المتنزلة من أفق الحق الأعلى الذى يعلم السر وأخفى ؟ !

ألا إن القرآن لا يفر من وجه العلم. ولكنه يهفو إلى العلم ويدعو إليه ويقيم بناءه عليه، فأثبتوا العلم أولا ووفروا له الثقة وحققوه، ثم اطلبوه فى القرآن فإنكم لا شك يومئذ واجدوه. وليس من الحكمة ولا الإنصاف فى شىء أن نحاكم المعارف العليا إلى المعارف الدنيا، ولا أن نحبس القرآن فى هذا القفص الضيق الذى انحبست فيه طائفة مخدوعة من البشر، بل الواجب أن نتحرر من أغلال هذه المادة المظلمة، وأن نطير فى سموات القرآن حيث نستشرف المعارف النورانية المطلقة، والحقائق الإلهية المشرقة، وأن نوجه اهتمامنا دائما إلى استجلاء عظات هذا التنزيل وهداياته الفائقة، وألا نقطع برأى فى تفاصيل

مايعرض له القرآن من الكونيات إلا إن كان لنا عليه دليل وبرهان لاشك فيه ولا نكران ، وإلا وجب أن نتوقف عن هذه التفاصيل ، ونكل علمها إلى العالم الخبير ، قائلين ماقالت الملائكة حين أظهر الله لهم على لسان آدم مالم يكونوا يحتسبون : «سبحانكَ لاعلمَ لنا إلا ماعلّمتنا . إنكَ أنتَ العليمُ الحكيمُ » .

كلمة فى الموضوع :

والآن يروقنى أن أنقل لك مقتطفات قيمة للعلامة المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش فى هذا الموضوع لكن بتصرف قليل :

١ ـ ليست مهمة القرآن كسائر الكتب السماوية البحث فى الشئون الكونية والمسائل العلمية والفنية ، على النحو المألوف فى الكتب الخاصة الموضوعة فيها .

٢ ـ لما جاء القرآن الكريم كان فى جزيرة العرب من العقائد الفاسدة والعلم الخاطىء بالكونيات أضعاف ما كان منها لدى بنى إسرائيل عند ما أخرجهم موسى ﷺ من مصر ، فكان من الحكمة الإلهية أن يتنزل على محمد ﷺ فى سبيل تصحيح تلك العقائد والمعلومات أضعاف ماتنزل على موسى فى سفر التكوين . والحكمة البالغة فى ذلك أن الدعوة إلى توحيد الخالق وتقرير الحق من العقائد وقبول مايلى ذلك من الشرائع والأخلاق، ما كانت لتجد سبيلها إلى قلوب عرفت للأجرام العلوية فى ألوهيتها وتزاوجها وما كان من أثرها فى تكوين هذه الكائنات ونظامها ، ماقررته العقلية القديمة فى بلاد مصر والإغريق، وما بثته فى جزيرة العرب وماحولها أساطير الأشوريين والبابليين والكلدانيين. إذن كان لزاماً أن يسترعى القرآن انتباه الناس إلى وجه الخطأ فى عقائدهم ، وأن يشككهم فى الباطل الذى اتبعوه ، لأنهم وجدوا عليه آباءهم ، وأن يطلقهم بذلك من الحجر الذى أشقاهم وألحقهم بالأنعام من الحيوان .

٣ ـ كانت إذن مهمة القرآن الحكيم التى أرادها لتمهيد السبيل إلى التعريف بالخالق جل شأنه ، أن يعين العقول بضرب الأمثال ، لِمَ تفكر؟ وفيم تفكر؟ وكيف تفكر؟ فهو فى جهاده هذا كان يخطط أرض العلم لتقيم العقول البشرية عليها صروحه الشامخة المتينة، ويرسم الخطوط الأساسية للصور كى يملأها الرسام بما يلزم لها من الألوان والظلال ومعالم الجمال .

٤ ـ لم يقف القرآن الكريم عند هذا الحد فيما ضرب لنا من الأمثال ، فى بيان بعض غوامض الحقائق الكونية ، بل جاء فى ذلك بحقائق أمر الأميين وغير المحصلين بالتسليم بها والتفويض فيها ، كما أمر العقول الناضجة المقتدرة بطلابها والوقوف على دقائقها والعلم بوجوه الصواب فيها . ثم نصح الفريقين أن يعترفا بعجز عقولهم وألا يقطعا بشىء فيما لا تبلغه أبحاثهم وسعيهم ، بل يتهمون أنفسهم بالعجز والقصور ؛ ويسألون أهل الذكر فيما لا يعلمون ، أو يكلون أمر ما لا يدركون إلى من يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

٥ ـ أن المسيحيين حينما ثاروا فى وجه العلم ونظام الحكم ثوراتهم التجديدية فى أوربة ، لم يكونوا ليشبهوا فى شىء من مواقفهم تلك أحداً من الشعوب الإسلامية ،فإنما كان مبعث حركتهم العنيفة ومصدر ثورتهم الدموية ، أن رجال الكنيسة باسم الدين حجروا على العقول والوجدان ، وقرروا للكنيسة فلسفة حرموا على الناس حتى استيضاح ما غمض عليهم منها . ثم قرروا تكفير من يقول بغيرها ، ولو اعتمد فى رأيه على الحس والمعاينة . حتى لقد كان منهم ميلانشتون وكيرمونينى اللذان رفضا أن ينظرا إلى السماء بالآلة المقربة (تلسكوب) وقد روى عن غاليلو أن من تلاميذ المذهب الارسطاطالى من كانوا ينكرون وجود أجسام علوية مرئية بالفعل، وأنهم كانوا يعتبرون فلسفة أرسطو كتلة واحدة لاتقبل التفكيك، إذا نقض منها حجر انهار سائر بنيانها على أثره . فكان ذلك سبب مغالاتهم فى التمسك بها والحرص عليها مجتمعة » .

ثم قال فى تعدد الأرضين :

« لم يذكر القدماء شيئاً فى أمر تعدد الأرضين سوى ما نقله ابن سينا عن قدماء حكماء الفرس من أن هنالك أراضى كثيرة غير أرضنا . وما زال الرأى السائد بين سائر الحكماء والفلاسفة ، يقول بعدم تعددها ، حتى جاء غاليلو المتوفى سنة ١٦٤٢ بمناظيره المكبرة والمقربة وكذلك من جاءوا بعده ، فأثبتوا بمشاهداتهم العينية الصادقة أن السيارات جميعها أراض كأرضنا ، وقد يكون بها ما بأرضنا من الجبال والوهاد والماء والهواء والخلائق والعمران ولم يعتمدوا فى هذا التجويز إلا على الحدس والظن ، فإن مناظيرهم لم تثبت لهم ذلك بعد.

أما القرآن فقد صرح بتعدد الأرضين فى آية « اللهُ الذى خلقَ سبعَ سمواتٍ ومِنَ الأرضِ مثلَهُنَّ » ففى تفسير أبى السعود (من مفسرى القرن التاسع للهجرة) أن الجمهور على أنها سبع أرضين بعضها فوق بعض ، وفى تفسير النيسابورى أنها سبع أرضين ما بين كل واحدة منها إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام[1] ، وفى كل أرض منها خلق - إلى أن قال - وهم يشاهدون السماء من جانب أرضهم ويشهدون الضياء منها . ومن أصرح الآيات فى أن السيارات أراض مأهولة آية الشورى : « ومن آياته خلقُ السموات والأرض وما بثَّ فيهما منْ دابة » إذ المراد بالسموات هنا السيارات على ما يأتى لنا من التأويل . ومن الآيات

(١) مسألة تقدير المسافات التى بين السيارات مثلا بمسيرة خمسمائة عام يفسرها الشهرستانى بالدابة تسير فرسخاً إسلامياً فى كل ساعة على ماهو المعروف ومصطلح عليه فى سائر الكتب الإسلامية ، مما يبلغ مجموعه نحو ١٦ ميلا تقريبا . وهو قريب جداً من تقديرات المتأخرين للمسافات الفاصلة بين السيارات كما يقول ذلك الأستاذ الشهرستانى فى كتابه المسمى (الهيئة والإسلام) ص ٩٠ ج أول .

(ومما يجدر ذكره أن الشهرستانى هذا ليس هو صاحب الملل والنحل بل هو أحد مجتهدى الشيعة المعاصرين لنا . واسمه هبة الله) .

البينة فى هذا الموضوع قوله تعالى: « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدتِ السموات والأرض ومن فيهنّ ، بل أتيناهم بذكرهم فهمْ عن ذكرهم معرضون » :

ومن قصرت عقولهم استبعدوا وجود الحيوان فى الأجرام السماوية . ولكن نفى الزمخشرى والبيضاوى وغيرهما استبعاد أن يخلق الله فيها صنوفا من الحيوان يمشون فيها مشى الإنسان على الأرض ؛ فالله خالق كما قالوا : « ما نعلم وما لا نعلم » اهـ ما أردنا نقله.

الوجه السادس

سياسته فى الإصلاح

ومعنى هذا أن القرآن انتهج طريقاً عجيباً فى إصلاحه ، وسلك سياسة حكيمة وصل بها من مكان قريب إلى ما أراد من هداية الخلق ، فتذرع بجميع الوسائل المؤدية إلى نجاح هذا الإصلاح الوافى بكل ما يحتاج إليه البشر . مما يدل بوضوح على أن القرآن فى سياسته هذه لا يمكن أن يصدر عن نفس محمد ولا غير محمد .

وبيان ذلك من وجوه :

(أولها) مجىء هــذا الكتاب منجما ، ومخالفته بذلك سائر كتب الله الإلهية ، بعداً بالناس عن الطفرة ، وتيسيراً لتلقيهم إياه وقبولهم ما جاء به ، على نحو ما بينا فى أسرار التنجيم بالمبحث الثالث من هذا الكتاب .

(ثانيها) مجىء هذا الكتاب بذلك الأسلوب الشائق الرائع الحبيب إلى نفوسهم ، ليكون لهم من هذا الأسلوب دافع إلى الإقبال عليه والاستئناس بما جاء من تعاليمه وإن كانت مخالفة لما مردوا عليه من قبل .

(ثالثها) مجىء هذا الكتاب على غير المعهود فى تأليف القوانين والعلوم والفنون والآداب،من بناء تقسيمها وتبويبها على الموضوعات بحيث يختص كل باب من الكتاب بموضوع معين ، ويختص كل فصل من فصول هذا الباب بمسألة أو مسائل وهكذا .

فأنت تجد فى الغالب كل سورة من سور القرآن جامعة لمزيج من مقاصد وموضوعات ، يشعر الناظر فيها بمتعة ولذة ؛ كلما تنقل بين هذه المقاصد فى السورة الواحدة، كما يشعر الآكل باللذة والمتعة كلما وجد ألوانا شتى من الأطعمة على المائدة الواحدة . وإذن فى هذا النمط الذى اختاره القرآن فائدتان : دفع السأم والملل عن الناظر فى هذا الكتاب ، وانقياد النفوس إلى هداياته بلباقة من حيث لا تحس بغضاضة . يضاف إلى هذا ما نلمحه من الوحدة الفنية فى السورة أو القطعة الواحـــدة ، ومن وفاء القرآن بجميع الاصطلاحات البشرية، على رغم هذا الانتشار القاضى فى العادة بعدم الانسجام وبفوات شىء أوأشياء من مقاصد التأليف وأغراض المؤلفين. حتى ليبدو ذلك وجهاً جديداً من وجوه الإعجاز، يؤمن به عن خبرة وإحساس كل من ابتلى بتأليف أو مزاولة آثار المؤلفين ! .

(رابعها) تكرار ما يستحق التكرار من الأمور المهمة، حتى يجد سبيله إلى النفوس النافرة والطباع العصية ، فتسلس له القيادة وتلقى إليه السلم ، مثال ذلك تقرير القرآن لعقيدة التوحيد واستئصاله لشأفة الشرك ، بوساطة الحديث عنهما مراراً وتكراراً: تارة يصرح وأخرى يلوح . وتارة يوجز وأخرى يطنب. وتارة يذكر العقيدة مرسلة وأخرى يذكرها مدللة . وتارة يشفعها بدليل واحد وأخرى بجملة أدلة. وتارة يضرب لها الأمثال وأخرى يسوق فيها القصص . وتارة يقرنها بالوعد وأخرى بالوعيد . وهلم .

(خامسها) مخـــاطبة العقول والأفكار ، ودعوته إلى إعمال النظر وطلب الدليل والبرهان، ونعيه على من أهملوا العقول واستمرءوا التقليد الأعمى ، وركنوا إلى الجمود. اقرأ قوله سبحانه : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا. أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولا يهتدون ». وقوله: « إن شرَّ الدوابِّ عندَ اللهِ الصمُّ البكمُ الذين لا يعقلون » وقوله: « لهم قلوبٌ لا يفقهونَ بهَا، ولهم أعينٌ لا يبصرونَ بهَا، ولهم آذنٌ لا يسمعونَ بها . أولئك كالأنعامِ بل همْ أضل . أولئك هم الغافلونَ » .

وهكذا كثيراً ما نسمع فى القرآن أمثال قوله سبحانه « أفــلا يسمعون ـ قليلا ما تذكَّرون ـ أنى يؤفكون ـ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ـ أفلا ينظرونَ إلى الإبل كيفَ خلقت، وإلى السماء كيف رُفعت، وإلى الجبالِ كيف نُصبتْ، وإلى الأرضِ كيف سُطِحَتْ » « قل انظروا ماذا فى السمواتِ والأرض » إلى غير ذلك ممـا يرفع كرامة الإنسان، ويحاكم أهم الأمور حتى العقيدة فى الله تعالى إلى العقول، ليصل المرء من وراء ذلك إلى اقتناع الضمير واطمئنان القلب وبرد اليقين وحرارة الإيمان!.

(سادسها) استغلاله الغرائز النفسية استغلالا صالحا بعد أن يهذبها بالدليل ويصقلها بالبرهان. هذه غريزة التقليد والمحاكاة فى الإنسان مثلا قد نأى بها القرآن عن احتذاء الأمثلة السيئة من الجهلة والفسقة، وذهب بها إلى مقام أمين من وجوب اتباع الأمثلة الطيبة والتأسى بمن أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين « وحسن أولئك رفيقاً ». « لقد كان لكم فى رسولِ الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكرَ الله كثيراً »، « قل إن كنتم تحبونَ الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم »، « أولئكَ الذين هدى الله فبهداهم اقتَدِه ».

وهذه غريزة حب البقاء والعلو فى الإنسان، قد نأى بهــا القرآن أيضاً عن الظلم والبغى، وذهب بها إلى حيث الدفاع عن النفس والعرض والدين والوطن، وقاد بها عباد الله إلى الحق والخير، إذ وعدهم حياة ثانية فيها الخلود والبقاء، وفيها الملك الواسع والاستعلاء العادل « وإذا رأيت ثَمَّ رأيتَ نعيماً ومُلكاً كبيراً ».

وهكذا دخل القرآن على الناس من هذا الباب فقادهم من غرائزهم حتى ناط أوامره بمصالحهم، ونواهيه بمفاسدهم، وجعل ذلك قاعدة عامة قال فيها : « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ». « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإنْ أسأتم فلها ».

وإن أردت تفصيلا وتمثيلا فانظر إلى تلك المقارنة الرائعة بين المؤمن والمشرك إذ يقول سبحانه : « ضرب الله مثلًا رجلًا فيه شركاء متشاكسون ورجلًا سلما لرجل.

هل يستويان مثلًا ؟ الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون » . فأنت ترى فى هـــذه الآية الـكريمة أن المشرك مع معبوديه، مثله مثل عبد اشترك فيه شركاء متنازعون مختلفون، كل واحد منهم يدعى أنه عبده ، فهم يتجاذبونه ويتعاورونه فى أعمال شتى ، وهـــو متحير متعب مجهود لا يدرى أيهم يرضى بخدمته ؟ وعلى أيهـــم يعتمد فى حاجاته ؟ ولا يدرى ممن يطلب رزقه وممن يلتمس رفقه ؟ . فهمه شَعاع ، وقلبه أوزاع . أما المؤمن فمثله مثل عبد له سيد واحد ، فهمه واحد وقلبه مجتمع وضميره مستريح وعمله مريح . « أأرباب متفرقونَ خيرٌ أم الله الواحدُ القهّار ؟ » !

وإن أردت مثالا ثانيا فاستمع إلى القرآن وهو يقول فى فريضة الصلاة: «إن الإنسانَ خُلق هلوعا * إذا مسَّه الشر جزوعا * وإذا مسه الخيرُ منوعاً . إلا المصلِّينَ » الخ . وقوله : « ألا بِذكر اللهِ تطمئنُّ القلوب » .

وإن أردت أمثلة أخرى فاقرأ قوله سبحانه فى فرض الزكاة : « خُذْ منْ أموالهمْ صدقةً تطهرهم وتزكِّيهمْ بهاَ » وفى فرض الصيام : « كتب عليـكم الصيام كما كتب على الذين من قبلـكم لعلـكم تتقون » . وفى فرض الحج : « وأذن فى الناسِ بالحجِّ يأتوكَ رجالًا وعلى كل ضامرٍ يأتينَ منْ كل فج عميق . ليشهدوا منافعَ لهم » الخ . وفى عموم الإيمان والعمل الصالح : « منْ عملَ صالحاً منْ ذكرٍ أو أنثى وهوَ مؤمنٌ فلنحيينهُّ حياةً طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

(سابعها) ترتيبه الأوامر والنواهى ترتيبا يسع جميع الناس، على تفاوت استعدادهم ومواهبهم . فالأوامر الدينية درجات: هذا إيمان، وهذا إسلام، وهذا ركن، وهذا فرض وهذا واجب، وهذا مندوب مؤكد، وهذا مندوب غير مؤكد. والمناهى كذلك درجات: هذا نفاق ، وهذا شرك ، وهذا كفر ، وهذه كبيرة وهذه صغيرة، وهذا مكروه تحريما، وهذا مكروه تنزيها . . وما وراء هذه الأوامر والنواهى فمباحات ، لـكل أن يأخذ وأن يدع منها ما شاء .

ولاريب أن وضع التشريع على هذا الوجه، فيه متسع للجميع. وفيه إغراء للنفوس الضعيفة أن تتشرف باعتناق الإسلام ولو فى أدنى درجة من درجاته. حتى إذا أنست به وذاقت حلاوته، تدرجت فى مدارج الرقى، فمن إيمان إلى إسلام إلى أداء ركن إلى أداء فرض إلى أداء واجب إلى أداء مندوب مؤكد إلى أداء مندوب غير مؤكد. ومن ترك نفاق إلى ترك شرك وكفر إلى ترك كبيرة إلى ترك صغيرة إلى ترك مكروه تحريما إلى ترك مكروه تنزيها إلى ترك ما لا بأس به حذراً مما به بأس. ومن مجرد أداء للنوافل إلى زيادة فيها وإكثار منها، حتى يصل العبد إلى ذلك المقام الذى جاء فيه عن الله تعالى: « ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به؛ ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذ بى لأعيذنه » رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه.

على ضوء هذه السياسة الشرعية الحكيمة التى نزل بها القرآن، كان ﷺ يتدرج بالأقوام رويداً رويداً، كما كان يتساهل معهم تأليفاً لقلوبهم واستمالة لهم إلى اعتناق الدين على أى وجه. ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد بسنده عن نصر بن عاصم الليثى عن رجل منهم أنه أتى النبى ﷺ فأسلم على أن يصلى صلاتين (لا خمساً) فقبل منه وجاء فى رواية أخرى: على ألا يصلى إلا صلاة فقبل. وعن وهب قال: سألت جابراً عن شأن ثقيف إذ بايعت فقال: اشترطت على النبى ﷺ أن لا صدقة عليها ولا جهاد، وأنه سمع النبى ﷺ يقول بعد ذلك « سيتصدقون ويجاهدون » رواه أبو داود. وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال لرجل: « أسلم » قال أجدنى كارها قال: « أسلم وإن كنت كارها » رواه أحمد. قال الشوكانى فى نيل الأوطار بعد أن سرد هذه الأحاديث: « فيها دليل على أنه يجوز مبايعة الكافر وقبول الإسلام منه وإن شرط شرطاً باطلا ».

والمراقب لنزول القرآن وسير التشريع الإسلامى، يرى من مظاهر هذه السياسة

البارعة المعجزة شيئاً كثيراً ، وحسبك أن يبتدئ الأمر بتقرير عقيدة التوحيد ، وألا تفرض الصلوات الخمس إلا بعـــد عشر سنوات تقريباً من البعثة ، ثم سائر العبادات بعضها تلو بعض . أما المعاملات فلم يستبحر الأمر فيها إلا بعد الهجرة . وقل مثل ذلك فى المنهيات . ولعلك لم تنس التدرج الإلهى الحكيم فى تحريم الخمر .

(ثامنها) مجىء القرآن بمطالب الروح والجسد جميعاً ، بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر . وفى ذلك آيات كثيرة تقدم التنويه بها فى مناسبات أخرى ، من أجلها كان المسلمون أمة وسطاً بين من تغلب عليهم المادية والحظوظ الجسدية كاليهود ، ومن تغلب عليهم النواحى الروحية وتعذيب الجسد وإذلال النفس كالهندوس والنصارى فى تعاليمهم ، وإن خالفتها الكثرة الغامرة منهم .

(تاسعها) مجىء القرآن بمطالب الدنيا والآخرة جميعا ، عن طريق التزام تعاليمه وهداياته التى أجملنا مقاصدها فيما سبق ، لا عن طريق الاعتقادات الخاطئة والأمانى الكاذبة والتواكل وترك العمل . والآيات فى هذا المعنى أظهر من أن تذكر .

(عاشرها) مجىء القرآن بالتيسير ورفع الحرج عن الناس : « ما جعل عليكم فى الدين من حرج » ـ « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم » ـ « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » . « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . « فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفورٌ رحيمٌ » .
« من كفرَ باللهِ من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبُهُ مطمئنٌّ بالإيمان » وهذا باب واسع وضع منه علماؤنا قواعد عامة كقولهم : المشقة تجلب التيسير ، والضرورات تبيح المحظورات . ثم فرعوا عليها فروعا وسعت ولا تزال تسع الناس أجمعين . والحمد لله رب العالمين .

الوجه السابع أنباء الغيب فيه

ومعنى هذا أن القرآن قد اشتمل على أخبار كثيرة من الغيوب التى لا علم لمحمد ﷺ بها ، ولا سبيل لمثله أن يعلمها مما يدل دلالة بينة على أن هـــذا القرآن المشتمل على تلك الغيوب ، لا يعقل أن يكون نابعا من نفس محمد ولا غير محمد من الخلق . بل هو كلام علام الغيوب وقيوم الوجود، الذى يملك زمام العالم « وعندهُ مفاتحُ الغيبِ لا يعلمها إلا هو ويعلمُ ما فى البرِّ والبحرِ » .

من ذلك قصص عن الماضى البعيد المتغلغل فى أحشاء القدم . وقصص عن الحاضر الذى لا سبيل لمحمد إلى رؤيته ومعرفته فضلا عن التحدث به . وقصص عـــن المستقبل الغامض الذى انقطعت دونه الأسباب،وقصرت عن إدراكه الفراسة والألمعية والذكاء.. وسر الإعجاز فى ذلك كله أنه وقع كما حدث وما تخلف. وجاء على النحو الذى أخبر به فى إجمال ما أجمل وتفصيل ما فصل. وأنه إن أخبر عن غيب الماضى صدقه ما شهد به التاريخ. وإن أخبر عن غيب الحاضر صدقه ما جاء به الأنبياء. وما يجدّ فى العالم من تجارب وعلوم. وإن أخبر عن غيب المستقبل صدقه ما تلده الليالى وما تجىء به الأيام .

غيب الماضى :

أما غيوب الماضى فى القرآن فكثيرة ، تتمثل فى تلك القصص الرائعة التى يفيض بها التنزيل ، ولم يكن لعلم محمد بها من سبيل .

منها قصة نوح التى قال الله فيها: « تلك من أنباء الغيبِ نوحيها إليك . ما كنتَ تعلمها أنتَ ولا قومكَ من قبل هذا .

ومنها قصة موسى التى يقول الله فيها : « وما كنتَ بجانبِ الغربى إذ قضينا

إلى موسى الأمر . وما كنتَ من الشاهدينَ * ولكنا أنشأنا قرونا فتطاولَ عليهمُ العمرُ . وما كنتَ ثاوياً فى أهل مدينَ تتلوا عليهم آياتنا ، ولكنا كنا مرسلين * وما كنتَ بجانبِ الطور إذ نادينا ولكنْ رحمة من ربك ؛ لتنذرَ قوماً ما أتاهم من نذيرٍ من قبلكَ لعلهم يتذكرون * » .

ومنها قصة مريم وفيها يقول الله : « ذلكَ من أنباء الغيبِ نوحيهِ إليك . وما كنتَ لديهم إذ يُلقون أقلامهم أيهم يكفلُ مريم . وما كنتَ لديهم إذ يختصمونَ * » .

غيب الحاضر :

أما غيب الحاضر فنزيد به ما يتصل بالله تعالى والملائكة والجن والجنة والنار ونحو ذلك ، مما لم يكن للرسول صلى الله عليه وسلم سبيل إلى رؤيته ولا العلم به ، فضلا عن أن يتحدث عنه على هذا الوجه الواضح ، الذى أيده ما جاء به الأنبياء وكتبهم عليهم الصلاة والسلام . وأمثلة هذا الضرب كثيرة فى القرآن ، لا تحتاج إلى عرض ولا بيان .

ومنه أيضا ما فضح الله به المنافقين فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم مما كان قائما بهم وخفى أمره عليه كقوله : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبهِ وهو ألد الخصام * وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرثَ والنسلَ والله لا يحبُّ الفساد * وكقوله فى مسجد الضرار الذى بناه المنافقون : « والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقا بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبونَ » .

وسورة التوبة فيها من هذا الضرب شىء كثير .

ومن غيب الحاضر أو الماضى ما جاء فى طى القرآن من حقائق ومنافع ومبادئ لم يكشف عنها إلا العلم الحديث . وسيأتى التمثيل له .

غيب المستقبل :

وأما غيب المستقبل ، فنمثل له بأمثلة عشرة :

﴿ المثال الأول ﴾ إخبار القرآن عن الروم بأنهم سينتصرون فى بضع سنين من إعلان هذا النبأ الذى يقول الله فيه : « غُلبت الروم * فى أدنى الأرض . وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضعِ سنين . للهِ الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ . ويومئذٍ يفرحُ المؤمنونَ . بنصرِ الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيمُ * وعد الله ، لا يخلف الله وعده ، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمونَ » .

وبيان ذلك أن دولة الرومان وهى مسيحية كانت قد انهزمت أمام دولة الفرس وهى وثنية ، فى حروب طاحنة بينهما سنة ٦١٤م فاغتم المسلمون بسبب أنها هزيمة لدولة متدينة أمام دولة وثنية ، وفرح المشركون وقالوا للمسلمين فى شماتة العدو : إن الروم يشهدون أنهم أهل كتاب وقد غلبهم المجوس ، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذى أنزل عليكم ، فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم. فنزلت الآيات الكريمة يبشر الله فيها المسلمين بأن هزيمة الروم هذه سيعقبها انتصار فى بضع سنين ، أى فى مدة تتراوح بين ثلاث سنوات وتسع . ولم يك مظنونا وقت هذه البشارة أن الروم تنتصر على الفرس فى مثل هذه المدة الوجيزة . بل كانت المقدمات والأسباب تأبى ذلك عليها ؛ لأن الحروب الطاحنة أنهكتها حتى غزيت فى عقر دارها ، كما يدل عليه النص الكريم : « فى أدنى الأرض ». ولأن دولة الفرس كانت قوية منيعة وزادها الظفر الأخير قوة ومنعة . حتى إنه بسبب استحالة أن ينتصر الروم عادة أو تقوم لهم قائمة ، راهن بعض المشركين أبا بكر على تحقق هذه النبوءة . ولكن الله تعالى أنجز وعده وتحققت نبوءة القرآن سنة ٦٢٢ م الموافقة للسنة الثانية من الهجرة المحمدية .

ومما هو جدير بالذكر أن هذه الآية نفسها حملت نبوءة أخرى ، وهى البشارة بأن المسلمين سيفرحون بنصر عزيز فى هذه الوقت الذى ينتصر فيه الروم ؛ « ويومئذ يفرحُ المؤمنون

بنصرِ الله » ! ولقد صدق الله وعده فى هذه كما صدقه فى تلك. وكان ظفر المسلمين فى غزوة بدر الكبرى واقعا فى الظرف الذى ظفر فيه الرومان . وهكذا تحققت النبوءتان فى وقت واحد ، مع تقطع الأسباب فى انتصار الروم كما علمت ، ومع تقطع الأسباب أيضاً فى انتصار المسلمين على المشركين على عهد هذه البشارة ؛ لأنهم كانوا أيامئذ فى مكة فى صدر الإسلام والمسلمون فى قلة وذلة ، يضطهدهم المشركون ولا يرقبون فيهم إلًّا ولا ذمة . ولكن على رغم هذا الاستبعاد أو هذه الاستحالة العادية ، نزلت الآيات كما ترى تؤكد البشارتين وتسوقهما فى موكب من التأكيدات البالغة التى تنأى بهما عن التكهنات والتخرصات . وإن كنت فى شك فأعد على سمعك هذه الكلمات : « بنصر الله ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرَّحيم * وعد الله ، لا يخلفُ اللهُ وعدَهُ ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

ثم ألست ترى معى أن هذه العبارة الكريمة : « فى بضع سنينَ » قد حاطت هاتين النبوءتين بسياج من الدقة والحكمة ، لا يترك شبهة لمشتبه ولا فرصة لمعاند ؛ لأن البضع كما علمت من ثلاث إلى تسع . والناس يختلفون فى حساب الأشهر والسنين : فمنهم من يؤقت بالشمس ومنهم من يؤقت بالقمر . ثم إن منهم من يجبر الكسر ويكمله إذا عد وحسب ، ومنهم من يلغيه . يضاف إلى ذلك أن زمن الانتصار قد يطول حبله، فتبتدئ بشائره فى عام ولا تنتهى مواقعه الفاصلة إلا بعد عام أو أكثر. ونظر الحاسبين يختلف تبعا لذلك فى تعيين وقت الانتصار : فمنهم من يضيفه إلى وقت تلك البشائر ومنهم من يضيفه إلى يوم الفصل ، ومنهم من يضيفه إلى ما بينهما . لذلك كله جاء التعبير بقوله جلت حكمته : « سيغلبون فى بضع سنين » من الدقة البيانية والاحتراس البارع بحيث لا يدع مجالا لطاعن ولا حاسب . وظهر أمر الله وصدق وعده على كل اعتبار من الاعتبارات وفى كل اصطلاح من الاصطلاحات . « ومن أصدقُ من اللهِ قيلًا » ؟ ! .

﴿ المثال الثانى ﴾ إنباء القرآن بأن الله عاصم رسوله وحافظه من الناس، لا يصلون إليه بقتل ، ولا يتمكنون من اغتيال حياته الشريفة بحال ، وذلك فى قوله عز وجل : « واللهُ

يعصمك من الناس ». ولقد تحققت نبوءة القرآن هذه، ولم يتمكن أحد من أعداء الإسلام أن يقتله عليه الصلاة والسلام، مع كثرة عددهم ووفرة استعدادهم ومع أنهم كانوا يتربصون به الدوائر ويتحينون الفرص للإيقاع به والقضاء عليه وعلى دعوته؟ وهو أضعف منهم استعداداً وأقل جنوداً. فمن الذى يملك هذا الوعد وتنفيذه إذن إلا الله الذى يغلب ولا يغلب، والذى لا يقف شىء فى سبيل تنفيذ مراده «وهوَ القاهرُ فوقَ عبادِهِ»؟. وإن لم تصدقنى فسل التاريخ والمؤرخين، كم من الملوك والأمراء والفراعين ضرجت الأرض بدمائهم، وهم بين جنودهم وخدمهم وحشمهم !؟

فهل يمكن بعد هذا أن يكون القرآن الذى احتوى ذلك الضمان من كلام محمد وهو من قد علمت ضعفه وقوة أعدائه يومئذ؟ حتى لقد كان يتخذ الحراس قبل نزول هذه الآية، فلما نزلت إذا ثقته واعتداده بها أعظم من ثقته واعتداده بمن كانوا يحرسونه. وسرعان ما صرف حراسه وسرحهم عند نزول الآية قائلا: « أيها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله » كما رواه الطبرانى عن أبى سعيد الخدرى. وكذلك روى مسلم فى صحيحه عن جابر قال: « كنا إذا أتينا فى سفرنا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فلما كنا بذات الرقاع نزل نبى الله تحت شجرة وعلق سيفه فيها. فجاء رجل من المشركين فأخذ السيف فاخترطه وقال للنبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم: أتخافنى؟ قال: لا، قال من يمنعك منى؟ قال: « الله يمنعنى منك. ضع السيف » فوضعه. ومما يجدر التنبيه له أن هذا الأمن كان فى الغزوة التى شرعت فيها صلاة الخوف!

ومن شواهد حماية الله لرسوله وإنجازه له هذا الوعد، ما ورد عن علىّ رضى الله عنه قال كنا إذا احمر البأس وحمى الوطيس اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد منا أقرب إلى العدو منه.

ومن أبلغ الشواهد على ذلك أيضا ما ثبت من أنه ﷺ فى يوم حنين حين أعجبت المسلمين كثرتهم وأدبهم الله بالهزيمة حتى ولوا مدبرين، أنزل سبحانه سكينته على رسوله،

حتى لقد جعل يركض بغلته إلى جهة العدو ، والعباس بن عبد المطلب آخذ بلجامها يكفها إرادة ألا تسرع. فأقبل المشركون إلى رسول الله ﷺ . فلما غشوه لم يفر ولم ينكص، بل نزل عن بغلته كأنما يمكنهم من نفسه وجعل يقول: « أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب» كأنما يتحداهم ويدلهم على مكانه : فوالله ما نالوا منه نيلا ، بل أيده الله بجنده ، وكيف أيديهم عنه بيده » رواه الشيخان .

﴿ المثال الثالث ﴾ ما جاء في معرض التحدي بالقرآن، من قوله سبحانه: « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ». وقوله: « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » فإن ما تراه في هاتين الآيتين من القطع بانتفاء قدرة المخاطبين وجميع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، قد تناول أطواء المستقبل (والمستقبل غيب) لا يملكه محمد ولا مخلوق غيره، ومع ذلك فقد تحققت نبوءة القرآن ولا تزال متحققة، حيث انقرضت طبقة المخاطبين به دون أن يستطيعوا معارضة أقصر سورة منه ، ومضت بعدهم أجيال وأجيال من عرب وأعجام ، وكلهم قد باءوا بالعجز ولم يستطيعوا المعارضة إلى اليوم ، مع وجود أعداء للإسلام في هذه العصور المتأخرة ، أكثر وأقدر وأحرص على هدم بناء هذا الدين من أولئك الأعداء الأولين .

لاحظ مع هذا ما يثيره مثل هذا التحدي الطويل العريض الجريء ، من الحمية الأدبية التي تبعث روح المنافسة على أشدها في نفوس من يتحداهم . ثم لاحظ أن المتأخرين من الناقدين لا يعييهم في العادة أن يستدركوا على السابقين، إما نقصاً يعالجونه بالكمال ، أو كمالا يعالجونه بما هو أكمل منه. وإذا فرضنا أن واحداً قد عجز عن هذا فمن البعيد أن تعجز عنه جماعة . وإذا عجزت جماعة فمن البعيد أن تعجز أمة. وإذا عجزت أمة فمن البعيد أن يعجز جيل . وإذا عجز جيل فمن البعيد أن تعجز أجيال ، فكيف يصدر إذن مثل هذا التحدي عن رجل يعرف ما يقول، فضلا عن رجل عظيم، فضلا عن رسول كريم، فضلا عن محمد أفضل المرسلين ؟ ! . وهل يمكن أن يفسر هذا التحدي الجريء الطويل العريض

إلا بأنه استمداد من وحى السماء ، واستناد إلى من يملك السمع والأبصار ، وحديث عمن بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه ؟ !

﴿ المثال الرابع ﴾ ماجاء من التنبؤ بمستقبل الإسلام ونجاحه نجاحا باهراً ، فقد أخبر القرآن والمسلمون فى مكة قليل مستضعفون فى الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس – بأن الإسلام سيظهر ويبقى ، وأن كتابه سيكتب له الحفظ والخلود منفرداً بهذه الميزة عن سائر كتب الله . اقرأ إن شئت قوله تعالى فى سورة الرعد « كذلك يضربُ اللهُ الحقَ والباطل فأما الزَّبدُ فيذهب جُفاءً . وأما ماينفعُ الناسَ فيمكثُ فى الأرض » . وفى سورة إبراهيم « ضربَ اللهُ مثلا كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ أصلها ثابتٌ وفرعها فى السماء تُؤتى أكلها كلَّ حين بإذن ربها » وفى سورة الحجر : « إنا نحنُ نزّلنا الذكر وإنا لهُ لحافظونَ .

أجل فى هذه السور الثلاث المكية ، قطع القرآن هذه العهود المؤكدة بتلك اللغة الواثقة ، والإسلام يؤمئذ فى مكة مدفوع مضطهد ، والمسلمون قليل مستضعفون فى الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس ، وليس هناك من بواسم الآمال مايلقى ضوءاً على نجاح هذا الدين الوليد ، ولئن التمست هذه الآمال فى نفس الداعى من طبيعة دعوته ، فما كانت لتصل إلى هذا الحد من اليقين والتأكيد . ولئن وصلت إلى هذا الحد مادام صاحبها حيًّا يتعهدها بنفسه ويغذيها بنشاطه ، فليس لديه من العوامل مايجعله يثق بهذا النجاح بعد موته ، مع ماهو معروف بأن المستقبل ملىء بشتيت المفاجآت ، والليالى من الزمان حبالى مثقلات ، والتاريخ لايزال يقص علينا وعلى الناس نبأ من قتل من الأنبياء ، وما ضاع أوحرف من كتب الله ووحى السماء وما حبط من دعوات الحق ونهض من دعوات الباطل ... كل ذلك قد كان ومحمد ﷺ لم يكن فى يوم من الأيام بالرجل الأخرق الذى يسير مع الأوهام ، أو يطير مع الخيال ، أو يطلب المجد عن طريق الأحلام المكذوبة والآمال المعسولة . بل كان معروفا منذ نشأته ، بتواضعه ورجاحة عقله واتزانه ودقته ، حتى لقد كان يتثبت فى كلامه ويتحرى إلى أن لقب واشتهر بأنه الصادق الأمين ، وجاء القرآن نفسه يشهد بأنه ﷺ كان قبل نبوته

لا يطمع فى نبوة ولا يأمل فى وحى ؛ « وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك » . وكذلك لم يكن بعد نبوته بالذى يضمن بقاء هذا الوحى وحفظه ؛ « ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليكَ ثم لا تجدُ لك به علينا وكيلًا * إلا رحمةً من ربك إنّ فضله كان عليك كبيرا * » .

فلا مناص إذن من أن تكون تلك البشارات المؤكدة والعهود الموثقة ، صادرة من أفق غير أفقه ، آتية من مالك قاهر لا راد لحكمه معبرة عن مراد من يملك العالم ويحكمه فى ماضيه وحاضره ومستقبله !

ومما يؤيد صدق هذه التنبؤات ، أن الإسلام لقى من ضروب العنت مراراً وتكراراً ، فى أزمان متطاولة وعهود مختلفة ، ما كان بعضه كافياً فى محوه وزواله ، ولكنه على رغم أنف هذه الأعاصير العاتية بقى ثابتاً يسامى الجبال ، شامخاً يطاول السماء . وكذلك اتى كتابه العزيز ولا يزال يلقى من الهمز واللمز والطعن والسباب والمحاولات القاتلة، مالا يتصوره إنسان فى أى زمان، ومالم يلق كتاب قبله من الكيد والتضليل والبهتان، ومع ذلك كله فالقرآن هو القرآن، لا يزال جالسا على عرشه فى سمائه، يمد العالم كله بحرارته وضيائه ، ولم تنل منه هذه المحاولات إلا كما ينال نباح الكلاب من عاليات السحاب .

﴿ المثال الخامس ﴾ تنبؤ القرآن بأن المستقبل السعيد ينتظر المسلمين فى وقت لم تكن عوامل هذا المستقبل السعيد مواتية، ثم إذا تأويل هذا النبأ يأتى على نحو ما أخبر القرآن، فى أقصر مايكون من الزمان! أجل، إننا لنقرأ فى سورة الصافات المكية : « وإن جندنا لهمُ الغالبون » وفى سورة غافر المكية أيضا « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياةِ الدنيا ويوم يقومُ الأشهاد » وكذلك نقرأ فى سورة النور المدنية « وعدَ الله الذين آمنوا منكم وعَمِلوا الصالحات ليَسْتخلفنَّهم فى الأرضِ كما استخلفَ الذينَ من قبلهم . وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، وليبدلنَّهم من بعد خوفهم أمناً » على حين أن سجلات التاريخ لا تزال تحفظ بين طياتها ما يشيب الوليد من ألوان الاضطهاد والأذى الذى أصاب الرسول وأتباعه

فى مكة والمدينة ، على عهد نزول هذه الوعود المؤكدة الكريمة . حتى لقد كان أكبر أمانى المسلمين بعد هجرتهم وتنفسهم الصعداء قليلا ، أن يسلم لهم دينهم ويعيشوا آمنين فى مهاجرهم كما يدل على ذلك ما صححه الحاكم عن أبى بن كعب قال : « لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة. وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه ، فقالوا: « أترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله ؟ » فنزلت الآية. وكذلك روى ابن أبى حاتم عن البراء قال: « نزلت هذه الآية ونحن فى خوف شديد (أى قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ») الخ . . هكذا كان حال الصحابة أيام أن وعدهم الله ما وعد ، وما أعجل تحقق هذا الوعد الإلهى رغم هذه الحال المنافية فى العادة لما وعد ، فدالت الدولة لهم ، واستخلفهم فى أقطار الأرض ، وأورثهم ملك كسرى وقيصر ، ومكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، وأبدلهم من بعد خوفهم أمناً. يالها نبوءة تأبى عادة أن يتحدث بها إلا من يملك تحقيقها ، ومن يخرق – إن شاء – عادات الكون ونواميسه من أجلها . « إن تنصروا اللهَ ينصركم ويثبت أقدامكم » . « ولينصرن الله من ينصرُه . إن الله لقوىٌّ عزيز ».

﴿ المثال السادس ﴾ تنبؤ القرآن بأن الرسول وأصحابه وقد كانوا بالمدينة، سيدخلون مكة آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين ، إذ قال سبحانه : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ؛ لتدخلنَّ المسجدَ الحرام إن شاءَ الله آمنينَ محلقين رءوسكم ومقصِّرين لا تخافون » ثم وقع هذا التنبؤ كما أخبر ، مع أن ظروفه لم تكن تسمح به فى مجرى العادة فدل ذلك على أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون كلام محمد ولا مخلوق سواه ، بل هو كلام القادر على أن يبلغ مراده ويخرق العادة .

ولزيادة البيان نذكر أن الرسول ﷺ رأى فى نومه كأنه هو وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين، فقص رؤياه على أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم داخلوها من عامهم . ثم خرجوا محرمين يسوقون الهدى إلى مكة لا يقصدون حرباً ، وإنما يقصدون عمرة ونسكا . ولكنهم ما كادوا يبلغون الحديبية حتى صدتهم قريش وأبت

عليهم ما أرادوا . وكادت تكون حرب لولا أن الرسول رضى بصلح بينه وبينهم وإن كان قاسيا ، إيثاراً منه للمسالمة وحبا للسلام العام . ثم قفل راجعا على أن يؤدى نسكه فى العام القابل نزولا على مواد هذا الصلح القاسى . وعز ذلك على أصحابه ، واتخذ المنافقون منه حطبا لنفاقهم ومادة لدسهم ولمزهم ، فقال عبد الله بن أبى رأسهم : والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام . ولكن على رغم هذا وعلى رغم ما هو معروف من غدر قريش ونكثهم العهود وتقطيعهم الأرحام ، نزلت الآية الكريمة تحمل هذا الوعد بل تلك الوعود الثلاثة المؤكدة ، وهى دخول مكة وأداء النسك والأمن على أنفسهم من قريش حتى يتحللوا ويقفلوا راجعين إلى المدينة وقد أنجز الله وعده فتم الأمر على أكمله فى العام الذى بعد عام الحديبية . « ويأبى الله إلا أن يتمَّ نورهُ ولو كرهَ الكافرونَ » ! .

﴿ المثال السابع ﴾ تنبؤ الكفار بهزيمة جموع الأعداء فى وقت لا مجال فيه لفكرة الحروب ، فضلا عن التقاء الجمعين وانتصار المسلمين وانهزام المشركين وذلك قوله سبحانه فى سورة القمر المكية : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » وأنت خبير بأن الجهاد لم يشرع إلا فى السنة الثانية للهجرة . فأين ما يتنبأ به القرآن إذن ؟ إنه لا بد أن يكون كلاما تنزل ممن يعلم الغيب فى السموات والأرض . أما محمد الرجل الأمى فأنى له ذلك إن لم يكن تلقاه من لدن حكيم عليم ؟ . روى ابن أبى حاتم وابن مردويه أن عمر رضى الله عنه جعل يقول حين نزلت هذه الآية : أى جمع هذا ؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقولها .

﴿ المثال الثامن ﴾ تنبؤ القرآن فى مكة بهذا المستقبل الأسود الذى ينتظر كفار قريش ، ثم وقوع ذلك كما تنبأ . اقرأ قوله سبحانه : « فارتقبْ يومَ تأتى السماءُ بدخانٍ مبين * يغشى الناسَ هذا عذابٌ أليم * ربنا اكشفْ عنا العذابَ ؛ إنا مؤمنونَ * أنَّى لهمُ الذكر وقد جاءهم رسولٌ مبينٌ * ثم تولوا عنه وقالوا معلَّم مجنونٌ * إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدونَ * يومَ نبطشُ البطشةَ الكبرى إنا منتقمونَ * » : وسبب نزول هذه

الآيات أن أهل مكة لما تمردوا على رسول الله ﷺ واستعصوا ، دعا عليهم بسنين كسنى يوسف ، أى بالجوع والقحط الشديدين، عسى أن يتوبوا ويؤمنوا بالله ورسوله . فأجابه الله بهذه الآيات . وفيها عند التأمل خمسة تنبؤات :

(أولها) الإخبار بما يغشاهم من القحط وشدة الجوع ، حتى ينظر الرجل إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان .

(ثانيها) الإخبار بأنهم سيضرعون إلى الله حين تحل بهم هذه الأزمة : « هـذا عذابٌ أليم ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون » .

(ثالثها) الإخبار بأن الله سيكشف عنهم ذلك العذاب قليلا .

(رابعها) الإخبار بأنهم سيعودون إلى كفرهم وعتوهم .

(خامسها) الإخبار بأن الله سينتقم منهم يوم البطشة الكبرى وهو يوم بدر .

ولقد حقق الله ذلك كله ما انخرم منه ولا نبوءة واحـدة ، فأصيبوا بالقحط حتى أكلوا العظام ، وجعل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من شدة جوعه وجهده ثم قالوا متضرعين ذلك الذى حكاه الله عنهم : « هذا عذاب أليمٌ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون » . ثم كشف الله عنهم هذا العذاب قليلا ، ثم عادوا إلى كفرهم وعتوهم . ثم انتقم الله منهم يوم بدر فبطش بهم البطشة الكبرى حيث قتل منهم سبعون وأسر سبعون وأديل للمسلمين منهم ! .

أرأيت ذلك كله ؟ وهل يمكن أن يصدر مثله من مخلوق ؟ كلا بل هـو الله العزيز الحكيم .

(المثال التاسع) تنبؤ القرآن بهذا المستقبل المظلم الأسود، المضروب على اليهود بوجه مؤكد مؤبد، ثم تحقق هذا النبأ كاملا عاما يتناول القرون والأجيال من عهد نزول القرآن

لم ينخرم مرة من المرات فى يوم واحد من الأيام . اقرأ ما نزل فى شأنهم من قوله سبحانه فى سورة آل عمران : « لن يضروكم إلا أذى . وإن يقاتلوكم يُوَلُّوكم الأدبارَ . ثم لا ينصرون * ضُربتْ عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل منَ الله وحبل منَ الناس . وباءوا بغضبٍ منَ الله . وضرِبت عليهم المسكنة » . ثم انظر كم تنبؤًا فى هذا النظم الكريم ، وضعه الله كأنه الأغلال فى عنق هذا الشعب الماكر اللئيم ؟ ألست ترى فيه أنهم لا يستطيعون أن ينالوا من المسلمين بالحرب والقتل والأسر ؟ إنما ضررهم أذى بالغدر وبسوء الاستغلال والمكر . وعلى فرض أنهم يقاتلون المسلمين ، فسيلوذون حينئذ بالفرار ، ويولون الأدبار ، ولا سبيل لهم فى المستقبل إلى الانتصار ثم إن الذلة قد ضربت عليهم كما يضرب الحجر على السفهاء لا يستطيعون الفكاك إلا إن دخلوا فى عهد من الله أو عهد من الناس ثم إن المسكنة وهى خوف الفقر قد ضربت عليهم كذلك ، فهم أشد الشعوب خوفا من الفقر ، ولذلك كانوا أشدها طمعاً وشرهاً فى جمع الدنيا ، لا يعرفون القناعة وإن غرقوا فى المال إلى أم رءوسهم ، ولا يتورعون عن الجرى وراء الدنايا بأحط الوسائل ، وإن كانوا يملكون الآن ما يقرب من نصف ثروة العالم ! .

ثم اقرأ فى شأن هذه الطائفة قول الله تعالى فى سورة الأعراف : « وإذ تأذن ربك ليبعثنَّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوءَ العذابِ » . وخبرنى ألست تقرأ فى هذا النص الكريم ، صكا مسجلا بعبودية هؤلاء وذلتهم إلى الأبد ؟ ثم ألست ترى أن تداول القرون والأحقاب من لدن نزول القرآن إلى اليوم لم يزد هذا التنبؤ إلا تصديقا وتحقيقا ، ما خرمه مرة وإنما أشبعه إعجازا وتأييداً ؟ . إن كنت فى شك فسل التاريخ قديمه وحديثه ، أو فاستمع إلى صوت المآسى الماثلة القريبة ، ثم قل : صدق الله . ما القرآن إلا كلامه ، وما محمد إلا عبده ورسوله ! .

وإليك مثالا آخر فى شأن هؤلاء أبدع فى الإعجاز وأروع .

(المثال العاشر) تحدى القرآن لأعداء الله اليهود فى شىء يظهر أنه سهل بسيط ، وأنه

كان فى متناول قدرتهم وفى دائرة استطاعتهم ، ومع ذلك انصرفوا عنه وعجزوا . فدل هذا التحدى مع الانصراف والعجز، على أن القرآن كلام من يستطيع تصريف القلوب وتحريك الألسنة ، وهو الله وحده . أما محمد صلوات الله وسلامه عليه فمحال أن يقامر بنفسه وبدعوته ويتحدى بهذا الأمر الظاهرة سهولته،وهو بشر لا يعلم الغيب ولا يستطيع أن يقلب القلوب ولا أن يعقد الألسنة .

وبيان ذلك أن اليهود زعموا أنهم هم الشعب المختار من بين شعوب الخلق،وادّعوا أن الدار الآخرة وقف عليهم وخالصة لهم من دون الناس، فخاطب الله رسوله فى سورة البقرة يرد عليهم ويتحداهم بقوله : « قل : إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصةً من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * » ثم قال: « وَلن يتمنوه أبداً بما قدمتْ أيديهم . والله عليم بالظالمين » ، فأنت ترى هذا النظم الكريم يبطل مزاعم اليهود بطلب يبدو لكل ناظر أنه هين ، وهو أن يتمنوا الموت لو كانوا صادقين فى ادعائهم أن نعيم الآخرة وقف عليهم . ولقد كان بمقدور اليهود فى العادة أن يقولوا ولو بألسنتهم : نحن نتمنى الموت ، كى تنهض حجتهم على محمد ويكتوه . لكنهم صرفوا فلم يقولوا، ولم يستطع أحد أن يقول إنى أتمنى الموت . وعلى ذلك قامت الحجة عليهم ، وبان كذبهم فى كبريائهم وغرورهم . وبلغ من أمر القرآن معهم أنه نفى عنهم هذا التمنى نفيا يشمل آباد المستقبل فقال : « ولن يتمنوه أبداً » .

وها قد مضى على نزول القرآن قريب من أربعة عشر قرناً،وما تمنى أحد منهم الموت لو كانوا صادقين . بل أعلن القرآن فى السورة نفسها مبلغ حرصهم على الحياة وأملهم فيها فقال : « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة . ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة . وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر . والله بصير بما يعملون » . فكان ذلك علماً جديداً من أعلام النبوة ، لأنه تنويه بغيب حاضر،لم يكن يعلمه محمد ولا قومه.

خبرنى ـ بربك ـ هل يتصور عاقل أن محمداً وهو فى موقف الخصومة الشديدة من اليهود ، تطوع له نفسه أن يتحداهم هذا التحدى من عنده فى لغة الواثق الذى لا يتردد، والآمن الذى لا يخاف المستقبل؟ وهل كان يأمن أن يرد عليه واحد منهم فيقول : إنى أتمنى الموت؟ وهنا تكون القاضية، فتنقطع ـ لاقدر الله ـ حجة الرسول، ويظهر عجزه، وتفشل دعوته ، أمام قوم هم من أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، ومن أحرصهم على إفحام الرسول وتعجيزه .

فصدور هذا التحدى من رجل عظيم كمحمد ، ثم استخذاء هؤلاء وانصرافهم عن الرد عليه وعن إسكاته وهو فى مقدور أقل رجل منهم، ثم تسجيل هذا الاستخذاء عليهم فى الحال بقوله : « ولتجدنهم أحرص الناسِ على حياة » وفى الاستقبال بقوله : « ولن يتمنوه أبداً »: كل أولئك أدلة ساطعة على أن القرآن كلام علام الغيوب، قاهر الألسنة ومقلب القلوب . وهى أيضاً براهين قاطعة على أن محمداً لايمكن أن يكون مصدر هذا الكتاب ولا منبع هذا الفيض، بل قصاراه أنه مهبط هذا التنزيل، وأنه يتلقاه من لدن حكيم عليم .

(المثال الحادى عشر) وهو من عجائب هذا الباب، أن القرآن عرض لتعيين بعض أحداث جزئية ، تقع فى المستقبل لشخص معين ، ثم تحقق الأمر كما أخبر . هذا هو الوليد ابن المغيرة المخزومى يقول الله فيه : « سنسمه على الخرطوم » أى سنجعل له علامة على أنفه يعرف بها وقد كان ، ففى غزوة بدر الكبرى خطم ذلك الرجل بالسيف أى ضرب به أنفه ، وبقى أثر هذه الضربة سمة فيه وعلامة له ! ولعلك لم تنس أن الوليد هو الذى نزل فيه « ذرنى ومن خلقت وحيدا » وما بعدها من الآيات التى ذكرناها قبلا . وهو أيضاً الذى نزلت فيه هنا هذه الآيات من سورة القلم : « ولا تطع كلَّ حلَّاف مهين * همّازٍ مشاء بنميم * مناع للخير معتد أثيم * عُتُلٍ بعدَ ذلكَ زنيم * أن كانَ ذا مال وبنين * إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطيرُ الأولينَ * سَنسمُه على الخرطوم * ». نعوذ به تعالى من الكفر والعناد وسوء الأخلاق ، ونسأله الإيمان الكامل والعمل الصالح والخلق الفاضل، آمين .

على هامش الوجه السابع

فى هذا الوجه من الإعجاز على ما شرحنـــا ومثلنا ، معجزات كثيرة لا معجزة واحدة ، لأن كل نبأ من أنباء الغيب معجزة . فانظر ما عدة تلك الأنباء ، يتبين لك عدد تلك المعجزات .

وإنه ليروعك هذا الإعجاز إذا لاحظت أن هذه الكثرة الغامرة لم تتخلف منها قط نبوءة واحدة ، بل وقعت كما أنبأ على الحال الذى أنبأ . ولو تخلفت واحدة لقامت الدنيا وقعدت ، وطبل أعداؤه ورقصوا فرحاً بالعثور على سقطة لهذا الذى جاءهم من فوقهم ، وتحداهم بما ليس فى طوقهم . وسفه معبوداتهم ومعبودات آبائهم . ولو كان ذلك لنقل وتواتر ما دامت هذه الدواعى متوافرة على نقله وتواتره كما ترى .

ويزيد فى أمر هذا الإعجاز أن المتحدث بهذه الأنباء الغيبية أمى نشأ فى الأميين ، وأن من هذه الأنباء ما كان تحديا وإجابة لسؤال العلماء من أهل الكتاب ، كما سألوه ﷺ عن أصحاب الكهف وذى القرنين وعن الروح ونحوها، وأجابهم عما سألوا وهم يعلمون أنه غيب بالنسبة إليه ، ليست لديه وسيلة عادية للعلم به . ولم يؤثر عنهم أنهم كذبوه فى شيء مما أخبر تكذيبا يستندون فيه إلى دليل ، بل هـــو الذى كان يكذبهم فيما حرفوه ، ويرشدهم إلى حقيقة ما بدلوه ، ويتحداهم بما فى أيديهم إذا جادلوه . وإليك شاهداً على ذلك :

قالت اليهود مرة للنبى ﷺ : إنك تدعى أنك على ملة إبراهيم وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها. فقال عليه السلام : كان ذلك حلالا لإبراهيم فنحن نحله. فقالت اليهود: إنها لم تزل محرمة فى ملة إبراهيم ونوح عليهما السلام . فنزل تكذيبا لهم، وتحديا بالتوراة التى عندهم : « كل الطعامِ كان حلًّا لبنى إسرائيلَ إلا ما حرَّم إسرائيلُ على نفسهِ من قبل أن تنزل التوراة : قل فأتوا بالتوراةِ فاتلوها إن كنتم صادقين . فمن افترى على الله

الكذبَ من بعدِ ذلك فأولئك همُ الظالمون * قل صدق الله. فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً. وما كانَ من المشركين * » .

يضاف إلى ما ذكرنا أن النبي ﷺ كان يخفى عليه وجه الصواب فى بعض ما يعنيه من الشؤون ويهمه من الأمور فكان يتوقف تارة كما توقف فى حديث الإفك مدة حتى نزل الوحى ببراءة عائشة زوجه وبنت صديقه . وكان يجتهد ويخطىء تارة أخرى ، كما حدث فى أسرى بدر على ما سيأتى . فلو كانت هذه الأنباء الغيبية نابعة من نفسه ولم تكن من ربه ، لكان الأحرى به أن يعرف وجه الصواب فى أمثال تلك الشؤون والمهام ، مع أن أسباب العلم فيها أقرب إلى اليسر والسهولة من تلك الغيبيات التى تقطعت أسبابها العادية جملة ومع أن الرسول قد آلمه ما أصابه من جراء عدم علمه بأمثال تلك الشؤون والمهام. وإلى ذلك يشير القرآن فى قوله : « قل لا أملكُ لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاءَ الله . ولو كنتُ أعلم الغيب لاستكثرتُ من الخيرِ وما مسَّنِيَ السوء إن أنا إلا نذيرٌ وبشيرٌ لقوم يؤمنونَ » .

معجزات يكشف عنها العلم الحديث

ويتصل بما ذكرنا من أنباء الغيب ، نوع طريف لم يكشف عنه إلا العلم فى العصر الحديث . وكان قبل ذلك مخبوءاً فى ضمير الزمن ، خفيًّا على المعاصرين لنزول القرآن ، حتى صاغ أعداء الله من هذا الخفاء شبهة . ولفقوا منه تهمة ، وما علموا أن جهلهم لا يصح أن يكون حجة « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » . وإليك أمثلة ثلاثة من هذا النوع :

١ - معجزة يكشف عنها التاريخ الحديث :

قال العلامة صاحب مجلة الفتح الغراء : فى سورة التوبة نقرأ هذه الآية الكريمة :

« وقالت اليهودُ عزيرٌ ابن الله . وقالت النصارى المسيحُ ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم يُضاهِئون قولَ الذين كفروا من قبلُ قاتلهم الله ، أنى يؤفكون » ؟ فصدر هذه الآية وهو جملة « وقالت اليهودُ عزيرٌ ابن الله » يتضمن من وقائع التاريخ وحقائق العلم، أمراً لم يكن أحد يعرفه على وجه الأرض فى عصر نزول القرآن .

ذلك أن اسم عزير ،لم يكن معروفا عند بنى إسرائيل إلا بعد دخولهم مصر واختلاطهم بأهلها واتصالهم بعقائدها ووثنيتها. واسم عزير هو (أوزيرس) كما ينطق به الإفرنج أو (عوزر) كما ينطق به قدماء المصريين، وقدماء المصريين منذ تركوا عقيدة التوحيد وانتحلوا عبادة الشمس ، كانوا يعتقدون فى عوزر أو أوزيرس أنه ابن الله . وكذلك بنو إسرائيل فى دور من أدوار حلولهم فى مصر القديمة، استحسنوا هذه العقيدة عقيدة أن أوزيرس ابن الله. وصار اسم أوزيرس أو عوزر (عزير) من الأسماء المقدسة التى طرأت عليهم من ديانة قدماء المصريين. وصاروا يسمون أولادهم بهذا الاسم الذى قدسوه كفرا و ضلالا. فعاب الله عليهم ذلك فى القرآن الحكيم ، ودلهم على هذه الوقائع من تاريخهم الذى نسيه البشر جميعاً .

إن اليهود لا يستطيعون أن يدعوا فى وقت من الأوقات أن اسم عزير كان معروفا عندهم قبل اختلاطهم بقدماء المصريين وهذا الاسم فى لغتهم من مادة (عوزر) وهى تدل على الألوهية، ومعناه الإله المعين. وكانت بالمعنى نفسه عند قدماء المصريين فى اسم عوزر أو أوزيرس الذى كان عندهم فى الدهر الأول بمعنى الإله الواحد، ثم صاروا يعتقدون أنه ابن الله عقب عبادتهم للشمس. واليهود أخذوا منهم هذا الاسم فى الطور الثانى عندما كانوا يعتقدون أن أوزيرس ابن الله .

فهذا سر من أسرار القرآن ، لم يكتشف إلا بعد ظهور حقيقة ما كان عليه قدماء المصريين فى العصر الحديث. وما كان شىء من ذلك معروفا فى الدنيا عند نزول القرآن ! حتى إن أعداء الإسلام كانوا يصوغون من جهلهم بهذه الحقيقة التاريخية شبهة يلطخون بها وجه الإسلام ويطعنون بها فى القرآن، فقال اليهود منهم : إن القرآن يقولنا ما لم نقل

في كتبنا ولا في عقائدنا. وأتى دعاة النصرانية منهم بما شاء لهم أدبهم من السب والطعن والزراية بالقرآن ودين الإسلام ونبي الإسلام ! . » اهـ بتصرف طفيف .

٢ ـ معجزة يكشف عنها الطب الحديث

كتب العلامة المرحوم الدكتور عبد العزيز إسماعيل (باشا) في مجلة الأزهر الغراء يقول في مقال له تحت عنوان : (الطب وصيام شهر رمضان) : « من الناس من يتوهم أن في صيام رمضان ـ وهو من أركان الإسلام ـ مضرة تلحق بالصائم، لما يصيب الجهاز الهضمي خاصة وغيره عامة؛ ولما يكون من بعض الصائمين من انفعال وغضب. وهذا خطأ؛ لأن ماذهبوا إليه ليس من الصيام في شيء، ولكنه من ترك الاعتدال في طعام الإفطار والسحور ، ولأنهم لم يراعوا ما يتناسب مع خلو المعدة النهار كله في وقت الإفطار، لأن السحور يجب أن يقتصر على بضع لقيمات لأنه لاضرر من الجوع في حد ذاته .

وبما أن الصيام يستعمل طبيا في حالات كثيرة ، ووقاية في حالات أكثر . وأن كثيرا من الأوامر الدينية لم تظهر حكمتها وستظهر مع تقدم العلوم ، رأيت من الواجب على أن أكتب عما ظهر طبيا للآن من فوائد هذه الأوامر. وإيضاح آيات قرآنية لأبين معناها الذى لا يظهر إلا لمن بحث عنها في نور الطب الحديث . وسأبدأ بالصيام .

الصيام :

للصيام فوائد في ثلاث جهات: (أولاها) وأهمها الجهة الروحية وهذه أتركها لعلماء الدين والمتصوفة منهم.(ثانيها) الجهة الأخلاقية وهذه أتركها لعلماء الأخلاق. ومن السهل البرهنة على أن الصيام يعود الإنسان النظام والقناعة ، وطاعة الرؤساء ، والصبر وكبح شهوات النفس ، وحب الخير والصدقة ، وغير ذلك من الفضائل.(وثالثها) وأقلها أهمية الجهة المادية أو الصحية ، وهي محل بحثنا .

لقد ظهر أن الصيام يفيد فى حالات كثيرة ، وهو العلاج الوحيد فى أحوال أخرى. وهو أهم علاج إن لم يكن العلاج الوحيد للوقاية من أمراض شتى .

فالعلاج يستعمل فى :

١ ـ اضطرابات الأمعاء المزمنة المصحوبة بتخمر فى المواد الزلالية والنشوية . وهنا ينجح الصيام وخصوصا عدم شرب الماء بين الأكلتين وأن تكون بين الأكلة والأخرى مدة طويلة كما فى صيام رمضان ويمكن أخذ الغذاء المناسب حسب حالة التخمر . وهذه الطريقة هى أنجع طريقة لتطهير الأمعاء .

٢ ـ زيادة الوزن الناشئ من كثرة الغذاء وقلة الحركة. فالصيام أنجع من كل علاج مع الاعتدال وقت الإفطار فى الطعام ، والاكتفاء بالماء فى السحور .

٣ ـ زيادة الضغط الذاتى . وهو آخذ فى الانتشار بازدياد الترف والانفعالات النفسية ففى هذه الحالة يكون شهر رمضان نعمة وبركة . خصوصا إذا كان وزن الشخص أكثر من الوزن الطبيعى لمثله .

٤ ـ البول السكرى . وهو منتشر انتشار الضغط . ويكون فى مدته الأولى وقبل ظهوره مصحوبا غالبا بزيادة الوزن فهنا يكون الصيام علاجا نافعا ، إذ أن السكر يهبط مع قلة السمن ويهبط السكر فى العادة بعد الأكل بخمس ساعات إلى أقل من الحد الطبيعى فى حالات البول السكرى الخفيف . وبعد عشر ساعات إلى أقل من الحد الطبيعى بكثير. ولا يزال الصيام مع بعض ملاحظات فى الغذاء أهم علاج لهـذا المرض حتى بعد ظهور الأنسولين ، خصوصا إذا كان الشخص يزيد على الوزن الطبيعى ولم يكن هناك علاج لهذا المرض قبل الأنسولين غير الصيام .

٥ ـ التهاب الكلى الحاد والزمن المصحوب بارتشاح وتورم .

٦ ـ أمراض القلب المصحوبة بتورم .

٧ ـ التهاب المفاصل المزمنة خصوصاً إذا كانت مصحوبة بسمن، كما يحصل عند السيدات غالبا بعد سن الأربعين، وقد شوهدت حالات تتمشى فى شهر رمضان بالصيام فقط أكثر مما تتمشى مع علاج سنوات بالكهرباء والحقن والأدوية وكل الطب الحديث .

ورب سائل يقول: ولكن الصيام فى كل هذه الحالات يحتاج إلى إرشاد طبيب فى كل مرض على حدته ، والصيام الذى كتب على المسلمين إنما كتب على الأصحاء . . . وهذا صحيح، ولكن فائدة الصيام للأصحاء هى الوقاية من هذه الأمراض ، وخصوصاً الأمراض التى مر ذكرها تحت رقم ١ ر ٢ ر ٣ ر ٧

وهذه الأمراض كلها تبتدئ فى الإنسان تدريجاً، بحيث لا يمكن الجزم بأول المرض فلا الشخص ولا طبيبه يمكنهما أن يعرفا أول المرض ، لأن الطب لم يتقدم بعد إلى الحد الذى يعرف فيه أسباب هذه الأمراض كلها ولكن من المؤكد طبياً أن الوقاية من كل هذه الأمراض هى فى الصيام : بل إن الوقاية فعالة جداً قبل ظهور أعـراض المرض بوضوح . وقد ظهر بإحصاءات لا تقبل الشك أن زيادة السمن يصحبها استعداد للبول السكرى ، وزيادة الضغط الذاتى للدم ، والتهاب المفاصل المزمن ، وغير ذلك . ومع قلة الوزن الاستعداد لهذه الأمراض بالنسبة نفسها . وهذا هو السر فى أن شركات التأمين لا تقبل تأمينا على الأشخاص الذين يزيد وزنهم إلا بشروط تثقل كلما زاد الوزن . والصيام مدة شهر كل سنة هو خير وقاية من كل هذه الأمراض .

وهذه الأمراض تنتشر بزيادة الحضارة والترف. فقد انتشرت فى أوربة أكثر من الأول وفى مصر يكاد يكون البول السكرى وزيادة ضغط الدم مقتصرين على الطبقات الوسطى والعليا وهو قليل جداً فى الفقراء .

ويغلب على الظن أن ذلك هو السر فى الصيام فى الإسلام أشد منه فى الأديان

السابقة ، لأن الإسلام ـ وهو آخر الشرائع السماوية ـ جاء فى زمن نحتاج فيه إلى الوقاية من أمراض تزداد كلما ازداد الترف » اهـ رحمة الله عليه .

٣ ـ معجزة يكشف عنها علم الاجتماع

كتب العلامة مدير مجلة الأزهر الغراء تحت عنوان : (معجزات القرآن العلمية ـ القرآن يضع أصول علم الاجتماع قبل العلم بأكثر من ألف سنة) مقالا ضافيا نقتطف منه ما يلى :

« لما جاء الإسلام وشرع أهله فى إحياء موات العلم ونقل كتبه القيمة إلى لغتهم ، نظروا فى كل شىء مستهدين بالأصول الأولية للقرآن الكريم ، كقوله تعالى : « إنا كل شىء خلقناه بقدر » وقوله : « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه . وما ننزله إلا بقدر معلوم » فأدركوا على وجه عام أن لكل شىء فى هذا الوجود نظاما يجرى عليه كما فعل بعض المؤرخين ، وخاصة ابن خلدون . ولكن المعارف التى كانت قد جمعت عن الأمم ، لم تكن تكفى لتكوين علم خاص بها . وتلت هذا الدور نهضة أوربا . فادخر الله هذا السبق للفيلسوف الفرنسى الكبير (أوجست كومت ١٧٩٨ ـ ١٨٥٣) واضع أصول الفلسفة الوضعية فإنه أول من جعل للاجتماع علما ووضعه فى رأس جميع العلوم البشرية لشرف موضوعه من ناحية ، ولأنه لا يتسنى إلا لمن يأخذ من كل علم بطرف ، لتشعب بحوثه ، واستنادها على جملة المعارف البشرية .

فعلم الاجتماع البشرى أحدث العلوم وضعاً ، ولكنه أشرفها موضوعا ، إذ يعرفنا على أى الأصول تقوم الجماعات ، وبأيها تحفظ وجودها وترتقى ، وما هى عوامل التأليف التى تقوى وجودها ؟ وعوامل التحليل التى تفصم عرا ألفتها ؟ . وهذه كلها معارف عالية ضرورية للمجتمع ضرورة علمى قوانين الصحة والطب لآحاده .

ثم ذكر من قواعد علم الاجتماع : أن الإنسان لا يستطيع أن يؤثر فى المجتمع لمجرد رأى

يبدو له فى إصلاحه. ولكن ذلك لا يكون إلا إذا فهم الكافة سداد هذا الرأى وعملوا به. عند ذلك يوجد فى المجتمع ميل جديد للتحول عن الجهة التى يراد تحويله منها، إلى الوجهة التى يريده على أن يكون عليها. وهذا كله مصداق لقوله تعالى: « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » فمعنى الآية أن الأمة التى تريد أن يحول الله عنها حالا لا ترضاه لمجتمعها، يجب عليها أن تغير من نفسيتها أولا. فإن فعلت حول الله عنها ما تكره، ووجه إليها من نعمه ما تحب. وهذا وحده معجزة علمية للقرآن كان يجب أن يعقد لها فصل خاص، وأن يشاد بذكرها أعظم إشادة! فكشف هذا السر يجعلنا ندرك سر تنبيه القرآن على وجوب الدعوة إلى المعروف والنهى عن المنكر - وبعد أن ساق أدلة عن الكتاب والسنة على ذلك قال:

القرآن أثبت أن للاجتماع نواميس ثابتة قبل أن يتخيلها أعلم علماء الأرض تخيلا وقد رأيت أن تعيين تلك النواميس والتحسس عما خفى منها هو الشغل الشاغل اليوم لفلاسفة الاجتماع. فقال: « سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً ». وقال تعالى « فهل ينظرون إلا سنة الأولين، فلن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا ». « سنة الله التى قد خلت من قبل. ولن تجد لسنة الله تبديلا ».

ولم يكتف الكتاب بهذا وحده. ولكنه قرر أيضا أن الجماعات كالآحاد، لها آجال لا تستطيع أن تتعداها. وهو ما هدى إليه علم الاجتماع بعد أن وجد أن وجوه الشبه بين الفرد والمجتمع واحدة، فقال تعالى: « ولكل أمة أجل، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ». وقد تكرر مثلها فى سور كثيرة من القرآن الكريم.

فالذى يتأمل فى سبق القرآن الكريم العالم كله أكثر من عشرة قرون فى وضع أصول العلم الاجتماعى، ويكون من غير أهل هذا الدين، يدهش كل الدهش، ولا يكاد يصدق عينيه. وسندأب نحن من جهتنا على تجلية الأصول العلمية مستخرجين إياها من

الكتاب الكريم ، ليتحقق العالم أنه على مايقوله مؤحيه سبحانه وتعالى : « ما فرّطنا في الكتابِ من شيء » .

وبذلك يتضح سر نهضة المسلمين التى حصلت لهم زعامة العلم والحكمة فى العالم فى سنين معدودة ، فإنهم لو كانوا بدءوا حاتهم العلمية على النحو الذى تبدؤها به كل أمة ، ما استطاعوا أن يبزوا الأمم التى تقدمتهم فى هذا السبيل بقرون كثيرة . ولكنهم لبدئهم إياها مستنيرين بهذه الأصول القرآنية العالية ، بلغوا منها أوجاً فى مدى قصير لم تبلغه أمة فى آماد طويلة . وعلى المسلمين اليوم أن يدركوا هذا الأمر الجلل ، وأن يجعلوا كتابهم نبراسا لهم فى اقتباسهم العلم عن الأمم الغربية ، ليبلغوا منه ما بلغه أسلافهم فى عهدهم الأول ، ويزيدوا عليه ماهدى إليه البشر فى العصور الأخيرة » ا هـ .

الوجه الثامن آيات العتاب

ومعنى هذا أن القرآن سجل فى كثير من آياته بعض أخطاء فى الرأى على الرسول ﷺ ؛ ووجه إليه بسببها عتابا نشعر بلطفه تارة وبعنفه أخرى . ولا ريب أن العقل المنصف يحكم جازما بأن هذا القرآن كلام الله وحده ، ولو كان كلام محمد ماسجل على نفسه هذه الأخطاء وهذا العتاب ، يتلوهما الناس بل ويتقربون إلى الله بتلاوتهما حتى يوم المآب .

الخطأ فى الاجتهاد ليس معصية :

وننبهك فى هذه المناسبة إلى أن هذا الخطأ ليس معصية ، حتى يقدح ذلك فى عصمة الرسول ﷺ ، إنما هو خطأ فحسب ، بل هو من نوع الخطأ الذى يستحق صاحبه أجرا ، لأنه صادر عن اجتهاد منه . والاجتهاد الصالح ـ وهو بذل الجهد فى الاطلاع والبحث والموازنة والاستنتاج ـ مجهود شاق يبذله صاحبه لغرض شريف ، فليس من الإنصاف حرمانه من المكافأة متى كان أهلا للاجتهاد وإن أخطأ ، لأن الإنسان ليس فى وسعه أن يكون معصوما

من الخطأ . بل المجتهد يخطىء بعد أن يبذل وسعه فى طلب الصواب وهو يتمنى ألا يخطىء بل وهو يخشى أشد الخشية أن يخطىء ، والله تعالى يقول : « لا يكلفُ اللهُ نفساً إلا وُسعها » وعلى هذا قررت شريعتنا السمحة أن المجتهد له أجر إن أخطأ وأجران إذا أصاب . روى الجماعة كلهم حديث « إذا حكم الحاكم فى شىء فاجتهد ثم أصاب فله أجران . وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر واحد » بل كان النبى ﷺ يعطى أمراء الجيوش والسرايا حق الحكم بما يرون فيه المصلحة ، ويقول للواحد منهم : « وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك على أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك ؛ فإنك لا تدرى أتصيب فيهم حكم الله أم لا » رواه أحمد ومسلم والترمذى وابن ماجه .

ولا ريب أن الرسول ﷺ كان فى موضع الإمامة الكبرى للخلق فكان من حكمة الله أن يجتهد ليقلده الخلق فى الاجتهاد ، وأن يخطئ فى بعض الأمور لئلا يصرفهم خوف الخطأ فى الاجتهاد عن الاجتهاد ، مادام أفضل الخلق على الإطلاق قد أخطأ ومع خطئه لم يمتنع عن الاجتهاد ، بل عاش طوال حياته يجتهد فى كل ما لم ينزل عليه فيه وحى حتى يتقرر فى الناس مبدأ الانتفاع بمواهب العقول وثمار القرائح ، ويتحرر الفكر البشرى من رق الجمود والركود . . ثم كان من حكمة الله أيضا أن يقف رسوله على وجه الصواب فيما أعوزه فيه الصواب ليعلم الناس أنه ليس كأحدهم ، ولا أن اجتهاده كاجتهادهم بل اجتهاده حجة دونهم ، لأنه ﷺ مؤيد من لدن ربه ، يتولاه مولاه دائما حتى لا يقره على خطأ فى الأمور الاجتهادية . وهنا يزداد الذين آمنوا إيمانا به ، وثقة بكل ما صدر عنه . ثم يقتدون به فى وجوب الخضوع للحق إذا ظهر ، كما كان الرسول يخضع له ويعلنه ويعلن خطأه فيما أخطأ فيه لا تأخذه العزة بالإثم ، ولا تلويه العظمة عن حق، بل هنا سر العظمة وسر النهضة وسر تربية الأمة بالقدوة . « لقدْ كانَ لكم فى رسولِ الله أُسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكرَ الله كثيراً » .

إنما العار الجارح لكرامة البشر ، أن يجمد الإنسان فلا يجتهد وهو أهل للاجتهاد ، أو يجمد المجتهد على رأيه وإن كان عظيما بعد أن يستعلن له خطؤه، مع أن الرجوع إلى الحق فضيلة ، والرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل . والكمال المطلق لله وحده . وفى الحديث : « كل بنى آدم خطاء . وخير الخطائين التوابون » .

يضاف إلى ماذكرنا من الحكم والأسرار فى أخطاء الرسول الاجتهادية، أمر آخر له قيمته وخطره ، وهو إقامة أدلة مادية ناطقة على بشرية الرسول وعبوديته ، وأنه ـ وهو أفضل خلق الله ـ لم يخرج عن أن يكون عبداً من عبيد الله ، يصيبه من أعراض العبودية مايصيب العباد، ومن ذلك خطؤه فى الاجتهاد، وبذلك لا يضل المسلمون فى إطرائه ، ولا يغلون فى إجلاله ، كما ضل النصارى فى ابن مريم. ولقد نبه الرسول ﷺ إلى ذلك فقال : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله » رواه البخارى وقال : « إنما أنا بشرٌ مثلكم . وإن الظن يخطىء ويصيب . ولكن ما قلت لكم قال الله فلن أكذب على الله » رواه أحمد وابن ماجه . وقال ﷺ « إنما أنا بشر . وإنكم تختصمون إلى فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأحسب أنه صادق فأقضى له على نحو ما أسمع . فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها » رواه مالك والشيخان وأصحاب السنن .

وخلاصة القول أن فى هذا المقام أمورا ثلاثة :

(أولها) أن خطأ الرسول ﷺ لم يكن من جنس الأخطاء المعروفة التى يتردى فيها كثير من ذوى النفوس الوضيعة، كمخالفة أمر من الأوامر الإلهية الصريحة ، أو ارتكاب فعل من الأفعال القبيحة . إنما كان خطؤه عليه الصلاة والسلام فى أمور ليس لديه فيها نص صريح ، فأعمل نظره وأجال فكره وبذل وسعه ولكن على رغم ذلك كله أخطأ .

(ثانيها) أن الله تعالى لم يقر رسوله على خطأ أبدا، لأنه لو أقره عليه لكان إقراراً ضمنيا بمساواة الخطأ للصواب والحق للباطل مادامت الأمة مأمورة من الله باتباع الرسول فيما يقول ويفعل. ولكان فى ذلك تلبيس على الناس وتضليل لهم عن الحق الذى فرض الله عليهم اتباعه . ولكان ذلك مدعاة إلى التشكك فيما يصدر عن الرسول ، ضرورة أنه على هذا الفرض قد يجتهد ويخطىء ولا يرشده الله إلى وجه الصواب فيما أخطأ. وهذه اللوازم كلها باطلة لا محالة ، فبطل ملزومها وثبت أن الحكيم العليم لا يمكن أن يقر القدوة العظمى على خطأ أبدا ، بل أن يبين له وجه الصواب . وقد يكون مع هـــذا البيان لون من ألوان العتاب لطيفا أو عنيفا ، توجيها له وتكميلا ، لا عقوبة وتنكيلا .

(ثالثها) أن الرسول كان يرجع إلى الصواب الذى أرشده إليه مولاه دون أن يبدى غضاضة ، ودون أن يكتم شيئا مما أوحى إليه من تسجيل الأخطاء عليه ، وتوجيه العتاب إليه ، وفى ذلك ـ لا ريب ـ أنصع دليل على عصمته وأمانته ، وعلى صدقه فى كل مايبلغ عن ربه ، وعلى أن القرآن ليس من تأليفه ووضعه ، ولكنه تنزيل العزيز الرحيم .

آيات العتاب نوعان :

أما بعد فإن العتاب الموجه للرسول فى القرآن على نوعين نوع لطيف لين ونوع عنيف خشن . ولنمثل لها بأمثلة ثلاثة :

(المثال الأول) قوله تعالى فى سورة التوبة : « عفَا اللهُ عنك . لم أذنت لهُمْ حتى يتبينَ لكَ الذينَ صدقوا وتعلم الكاذبين » وذلك أنه عليه السلام كان قد أذن لبعض المنافقين فى التخلف عن غزوة تبوك حين جاءوا يستأذنون ويعتذرون ، فقبل منهم تلك الأعذار . أخذا بظواهرهم، ودفعا لأن يقال إنه لا يقبل العذر من أصحاب الأعذار، ولكن الله تعالى عاتبه كما ترى ، وأمره بكمال التثبت والتحرى، وألا ينخدع بتلك الظواهر، فإن من ورائها أسفل المقاصد « والله أعلمُ بما يبيتون » ولعله لم يخف عليك لطف هذا العتاب بتصدير العفو فيه خطابا للرسول من رب الأرباب ! .

(المثال الثانى) قوله تعالى : « ما كانَ لنبى أن يكون له أسرَى حتى يُثْخِنَ فى الأرض تريدونَ عرضَ الدنيا واللهُ يريدُ الآخرة والله عزيزٌ حكيمٌ * لولا كتاب من الله سبقَ لمسَّكم فيما أخذتم عذابٌ عظيمٌ * فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا . واتقوا الله إن الله غفورٌ رحيمٌ * » وذلك أنه وقع فى أسر المسلمين يوم بدر سبعون من أشراف قريش. فاستشار الرسول أصحابه فيهم . فمنهم من اشتد وأبى عليهم إلا السيف. ومنهم من رق لحالهم وأشار بقبول الفداء منهم . وكان ﷺ مطبوعا على الرحمة ، ماخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثما ، فرجح بمقتضى طبعه الكريم ورحمته الواسعة رأى من أشار بقبول الفداء عسى أن يسلموا أو يخرج الله من أصلابهم من يعبده ويمجده ، ولينتفع المسلمون بمال الفدية فى شؤونهم الخاصة والعامة . ولكن ما لبث حتى نزلت الآيات الكريمة المذكورة . وفيها تسجيل لخطأ ذلك الاجتهاد المحمدى . فلو كان القرآن كلامه صلى الله عليه وسلم ما سجل على نفسه ذلك الخطأ ! .

أمر آخر : فى هذه الآيات ظاهرة عجيبة ، هى الجمع بين متقابلات لا تجتمع فى نفس بشر على هذا الوجه ، فصدرها استنكار للفعل « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثْخن فى الأرض » . وعقب هذا الاستنكار عتاب قاس مر وتخويف من العذاب « تريدون عرضَ الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيزٌ حكيمٌ * لولا كتاب من الله سَبَقَ لمسكم فيما أخذتم عذابٌ عظيم » وفى أثر هذا الاستنكار والعتاب والتخويف إذن بالأكل ، ووصف له بالطيب والحل ، وبشارة بالمغفرة والرحمة لمن أكل « فكلوا مما غنمتم حلالًا طيباً . واتقوا اللهَ . إنَّ الله غفورٌ رحيمٌ » ومثلك يعلم أن نظم هذه المتقابلات فى سلك واحد بهذه الصورة لآمر واحد ومأمور واحد ، لا يمكن أن يصدر من نفس بشرية هكذا من غير فاصل بين الإنكار والإذن ، ولا بين المدح والذم . ولا بين الوعيد والوعد ؛ لأن من طبيعة البشر أن يشغلهم شأن عن شأن ، ولا يجتمع لهم فى أمر واحد ووقت واحد خاطران متقابلان ، ولا حالان متنافيتان . كالغضب والرضا والاستهجان

والاستحسان . بل إذا تواردا على النفس فإنما يردان متعاقبين فى زمنين . وإذا تعاقبا فاللاحق منهما يمحو السابق . وإذا محاه لم يبق معنى لإثباته وتسجيله، بل من الطبعى تركه والإضراب عنه ، خصوصا إذا كان هذا الخاطر الأول وإعلانا لتخطئة المتكلم ونقده ولومه ، كقبول الفداء فى هذا المقام وأكله .

فلا جرم أن هذه الظاهرة تأبى هى الأخرى إلا أن تكون دليل إعجاز ، وبرهان صدق على أن هنا نفسيتين مختلفتين : نفسية لا يشغلها شأن ، ولا تتأثر ببواعث الغضب والرضا كما يتأثر الإنسان . ونفسية أخرى نسبتها إلى الأخرى نسبة المأمور من آمره ، والمسود من سيده ، لكن مع الحب والقرب . فهذه الآيات الكريمة ليست إلا كلام سيد عزيز يقول لعبده الحبيب : أخطأت فيما مضى وما كان لك أن تفعل، ولكنى عفوت وغفرت وأذنت لك بمثله فى المستقبل !

(المثال الثالث) قوله عز وجل : « عَبس وتولَّى * أن جاءه الأعمى * وما يدريكَ لعله يزكى * أو يذكر فتنفعهُ الذكرى * أما مَن استغنى * فأَنت له تصدى * وما عليك ألا يزكى * وأما مَنْ جاءك يسعى * وهو يخشى * فأَنت عنه تلهى * كلا إنها تذكرة » وذلك أن النبى ﷺ كان مشتغلا ذات يوم بدعوة أشراف من قريش إلى الإسلام ، وإذا عبد الله بن أم مكتوم يجىء ويسأل الرسول عليه الصلاة والسلام. وكان عبد الله رجلا أعمى تشرف بهداية الإسلام من قبل ، ولم يقدر تشاغله ﷺ بدعاية هؤلاء الصناديد الذين كان النبى ﷺ حريصا على هدايتهم كل الحرص ، وكان يستميلهم ويتألفهم إليه طمعاً فى أن يسلموا، فلا يلبث جماهير العرب أن تقتدى بهم فى إسلامهم. وفى أى شىء جاء هذا الصحابى يسأل ؟ إنه مسلم ، فطبيعى أنه لم يسأله عن الإسلام. بل جاء يستزيده من الهداية والعلم ويقول : « يا رسول الله علمنى مما علمك الله » .

وجد الرسول نفسه بين قوم غلاظ مشركين يدعوهم إلى الإسلام ، ورجل وديع مسلم يستزيده من العلم فآثر الإقبال على أولئك الصناديد . وعبس فى وجه ابن أم مكتوم هذا وأعرض عنه ، لا احتقاراً له وغضا من شأنه ، ولكن حرصاً على هداية هؤلاء خوفا

من أن تفوت هذه الفرصة السانحة لدعوتهم . فأنزل الله على رسوله تلك الآيات السالفة، يعاتبه فيها ذلك العتاب القاسى الخشن ، ويفهمه أن حرصه على الهداية ما كان ينبغى أن يصل به إلى حد الإقبال الشديد على هؤلاء الصناديد وهم عنه معرضون ، ولا إلى حد الإعراض العابس فى وجه هذا الضعيف الأعمى وهو عليه مقبل .

وكأنى بك تحس معى حرارة هذا العتاب . وذلك لتقرير مبدأ من المبادىء العالية، هو الإعراض عن المعرضين مهما عظم شأنهم ، والإقبال على المقبلين مهما رق حالهم « واصبر نفسكَ معَ الذين يدعون ربهم بالغَداةِ والعشى يريدونَ وجْهَهُ . ولا تَعْدُ عيناكَ عنهم تريدُ زينةَ الحياة الدنيا . ولا تُطعْ مَنْ أغفلنا قَلبهُ عن ذِكرنا واتبعَ هواهُ وكانَ أمرهُ فُرُطا » ولعلك تلمح معى من وراء هذا العتاب ، رحمة الرسول بأعدائه وإخلاصه لدعوته ، وتفانيه فى وظيفته ، وحرصه على هداية الناس أجمعين . زاده الله شرفا على شرفه وعزًّا على عزه ، آمين .

الوجه التاسع

ما نزل بعد طول انتظار

ومعنى هذا أن فى القرآن آيات كثيرة تناولت مهمات الأمور ، ومع ذلك لم تنزل إلا بعد تلبث وطول انتظار . فدل هذا على أن القرآن كلام الله لا كلام محمد، لأنه لو كان كلام محمد ما كان معنى لهذا الانتظار فإن الانتظار فى ذاته شاق وتعلقه بمهمات الأمور يجعله أشق ، خصوصاً على رجل عظيم يتحدى قومه بل تحدى العالم كله ! .

ولبيان هذا الوجه نمثل بأمثلة خمسة :

(أولها) حادث تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، نزل فيه قول الله تعالى « قدْ نرى تقلب وجهك فى السماء . فلنولينك قبلةً ترضاها . فول وجهك شطر المسجد الحرام . وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » فأنت تفهم معى من هذه الآية أن محمداً ﷺ

كان يتحرق شوقا إلى تحويل القبلة إلى الكعبة ، ومن أجل ذلك كان يقلب وجهه فى السماء تلهفا إلى نزول الوحى بهذا التحويل . ولقد طال به الأمر سنة ونصف سنة وهو يستقبل بيت المقدس، فلو كان القرآن من وضعه لنفّس عن نفسه وأسعفها بهذا الذي تهفو إليه نفسه ويصبو إليه قومه لأن الكعبة فى نظرهم ، هى مفخرتهم ومفخرة آبائهم من قبلهم .

(ثانيها) حادث الإفك ، وهو من أخطر الأحداث وأشنعها ، لم ينزل القرآن فيه إلا بعد أن مضى على الحادث قرابة أربعين يوما . على حين أنه يتصل بعرض الرسول وعرض صديقه الأول أبى بكر . وقام على اتهام أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق ورميها بأقذر العار وهو عار الزنى . فلو كان القرآن كلام محمد ما بخل على نفسه بتلك الآيات التى تنقذ سمعته وسمعة زوجه الحصان الطاهرة ؛ ولما انتظر يوما واحداً فى القضاء على هذه الوشايات الحقيرة الآثمة ، التى تولى كبرها أعداء الله المنافقون. اقرأ قوله سبحانه « إن الذينَ جاءوا بالإفك عصبة منكم ـ إلى قوله ـ أولئكَ مبرءونَ مما يقولون لهم مغفرةٌ ورزق كريم » فى سورة النور . ثم حدثنى بعد قراءتها : ألم يكن الواجب على محمد ﷺ أن يعجل الحكم بهذه البراءة لو كان الأمر إليه ، خصوصا أنه قد علم الناس وجوب الدفاع عن العرض ولو بالنفس ؟ ثم أخبرنى : ألا ترى فارقا كبيراً بين هذه اللغة الجريئة القاطعة ، المنذرة والمبسرة ، التى صيغت بها آيات البراءة ، وبين لغة الرسول الحذرة المتحفظة التى رويت عنه فى هذه الحادثة؟ إن كنت فى شك فأمامك آيات البراءة. وهاك كلمتين مما أثر عنه فى هذا الأمر الجلل : ورد أنه قال حين طال الانتظار وبلغت القلوب الحناجر : « إنى لا أعلم إلا خيرا » . وورد أنه قال قبيل الساعة التى نزلت فيها آيات البراءة : « ياعائشة ، أما إنه قد بلغنى كذا وكذا . فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله » .

فهل يجوز فى عقل عاقل أن يكون صاحب هذا الكلام هو صاحب آيات البراءة؟

دع عنك الأسلوبين ولكن تأمل النفسيتين المتميزتين فى الكلامين ، تميز السيد من المسود ، والعابد من المعبود !

(ثالثها) ماورد من أن النبى ﷺ سئل عن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح. فقال لسائليه: « ائتونى غداً أخبركم » ولم يقل : إن شاء الله فأبطأ عليه الوحى حتى شق ذلك عليه وكذبته قريش وقالوا : ودعه ربه وقلاه أى تركه ربه وأبغضه ، فأنزل الله : « والضحى * والليل إذا سجى * ماودعكَ ربك وما قلى » ثم نهاه مولاه أن يترك المشيئة مرة أخرى! إذ قال له فى سورة الكهف: « ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله . واذكر ربكَ إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقربَ من هذا رشدا » . ولما نزل جبريل بعد هذا الإبطاء والتمهل قال له ما حكاه الله عنه فى سورة مريم : « وما نتنزل إلا بأمر ربك . لهُ ما بينَ أيدينا وما خلفنا وما بينَ ذلكَ . وما كانَ ربكَ نسيا » . يعنى أن عدم الإسراع بالنزول لم يكن سببه إعراض الله عنه كما يزعمون . بل كان لعدم الإذن به لحكم بالغة، قد عرضنا لبعضها فى الكلام على أسرار تنجيم القرآن بالجزء الأول . وحسبك هنا أن يستدل المنصف بهذا الإبطاء والتراخى على أن القرآن تنزيل العزيز الرحيم لا كلام النبى الكريم .

(رابعها) ماورد من أنه لما نزل قوله سبحانه: « وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » انخلعت قلوب الصحابة وذعروا ذعراً شديداً ؛ لأنهم فهموا من هذه الآية أن الله تعالى سيحاسبهم على كل مايجول بخاطرهم ولو كانت خواطر رديئة، ثم سألوا فقالوا: يارسول الله ، أنزلت علينا هذه الآية ولا نطيقها ، فقال لهم النبى ﷺ « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم :سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غُفرانك ربنا وإليك المصير» فجعلوا يقولونها ويضرعون إلى الله بها حتى أنزل ـ تقدست أسماؤه ـ الآية الأخيرة من سورة البقرة وهى : «لا يكلف الله نفساً إلا وُسعهاَ» إلى آخر السورة. فسكنت نفوسهم واطمأنت قلوبهم، وفهموا أنهم لا يحاسبون إلا على مايقع تحت اختيارهم

وفى دائرة طاقتهم من نية وعزم وقول وعمل . أما خلجات الضمائر العابرة ، وخطرات السوء ولو كانت كافرة . فلا يتعلق بها تكليف، لأنها ليست فى مقدور العبد، والقرآن يقول : « لا يكلفُ اللهُ نفساً إلا وسعها » .

فأنت ترى أن النبى ﷺ لم يبين لهم هذا البيان حين سألوه، لأنه لم يوح وقتئذ إليه. ولو كان من وحى نفسه كما يقول الأفاكون لأسعف أصحابه بالآية الأخيرة ، وأنقذهم من هول هذا الخوف الذى أكل قلوبهم لا سيما أنهم أصحابه وهو نبيهم ، ومن خلقه الرحمة خصوصاً بهم « بالمؤمنينَ رءوفٌ رحيمٌ » . وأيضاً لو كان يملك هذا الكلام لعاجلهم بالبيان ، وإلا كان كاتما للعلم : « وكاتم العلم ملعون . فأين يذهبون ؟ » .

(خامسها) ورد أن كبير المنافقين عبد الله بن أبى لما توفى ، قام إليه النبى ﷺ فكفنه فى ثوبه وأراد أن يستغفر له، فقال له عمر: أتستغفر له وتصلى عليه وقد نهاك ربك؟ فقال ﷺ : إنما خيرنى ربى فقال: « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم. إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » وسأزيده على السبعين ، ثم صلى عليه . فأنزل الله تعالى : « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره » فترك الصلاة عليهم .

اقرأ الرواية بتمامها فى الصحيحين، ثم نبئنى: هل يعقل أن يكون القرآن كلام محمد مع ما ترى من أنه ﷺ فهم فى الآية الأولى غير ما فهم عمر ثم جاءت الآية الثانية صارفة للرسول عن فهمه ومؤيدة لعمر ؟ أفما كان الأجدر به لو كان القرآن كلامه أن يكون هو أدرى الناس بمراده منه وأعرفهم بحقيقة المقصود من ألفاظه، وأن يجىء آخر الكلام مؤيداً لما فهمه هو لا لما فهمه غيره ؟ لكن الواقع غير ذلك، فقد سبق إلى فهمه ﷺ أن كلمة (أو) فى الآية الأولى للتخيير، وفهم عمر أنها للمساواة وفهم الرسول أن المراد بكلمة (سبعين) حقيقة العدد المعروف فى العشرات بين الستين والثمانين، وفهم عمر أنها للمبالغة للتحديد فلا مفهوم لها. ولما كان ما فهمه الرسول جاريا على أصل الوضع فى معنى (أو) وفى معنى (سبعين مرة

تمسك برأيه ، خصوصا أن فيه رحمة برجل من الناس وإن كان منافقا ، وكان ﷺ مطبوعا على الرحمة « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

الوجه العاشر

مظهر النبى ﷺ عند هبوط الوحى عليه

وبيان ذلك أن النبى ﷺ كان فى أول عهده بالوحى، يتعجل فى تلقفه ،ويحرك لسانه بالقرآن من قبل أن يفرغ أمين الوحى من إيحائه إليه، وذلك للإسراع بحفظه والحرص على استظهاره حتى يبلغه للناس كما أنزل . وكان عليه الصلاة والسلام يجد من ذلك شدة على نفسه فوق الشدة العظمى التى يحسها من نزل الوحى عليه ، حتى إن جبينه ليتفصد عرقا فى اليوم الشديد البرد ، وحتى إن جسمه ليثقل بحيث يحس ثقله من بجواره ، وحتى أن وجهه ليحمر ويسمع له غطيط. روى مسلم « أنه ﷺ كان إذا نزل عليه الوحى كرب لذلك وتربد وجهه الشريف » فاقتضت رحمة الله بمصطفاه أن يخفف عنه هذا العناء فأنزل عليه فى سورة القيامة : « لا تحرك بهِ لسانكَ لتعجل بهِ . إن علينا جمعهُ وقرآنه * فإذا قرأناهُ فاتبع قرآنه * ثم إنَّ علينا بيانه * » . وبهذا اطمأن الرسول ثقة بأن الله قد تكفل له بأن يجمع القرآن فى صدره ، وأن يقرأه على الناس كاملا لا ينقص كلمة ولا حرفا، وأن يبين له معناه فلا تخفى عليه خافية منه . وكذلك قال الله فى سورة الأعلى : « سنقرئك فلا تنسى » وقال له مـــرة ثالثة فى سورة طه : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه . وقل رب زدنى علما » .

ألا ترى فى هذا كله نورا يهدى إلى أن القرآن كلام الله وحده، ومحال أن يكون كلام محمد ، وإلا لما احتاج إلى هذا العناء الذى كان يعانيه فى نزول القرآن عليه ،ولكان الهدوء والسكون والصمت أجدى فى إنضاج الفكرة وانتقاء ألفاظها لديه ، ولما كان ثمة من داع إلى أن يُطمأن على حفظه وتبليغه وبيان معانيه! . أضف إلى ذلك أن هذه الحال

التى كانت تعروه ﷺ عند الوحى ، لم تكن من عادته فى تحضير كلامه لا قبل النبوة ولا بعدها ، ولم تكن من عادة أحد من قومه. بل كان ديدنهم جميعا تحضير الكلام فى نفوسهم وكفى !

الوجه الحادى عشر

آية المباهلة

وذلك أن القرآن دعا إلى المباهلة ـ وهى مفاعلة من الابتهال والضراعة إلى الله بحرارة واجتهاد ،فأبى المدعوون وهم النصارى من أهل نجران، أن يستجيبوا لها وخافوها ولاذوا بالفرار منها ، مع أنها لا تكلفهم شيئا سوى أن يأتوا بأبنائهم ونسائهم ويأتى الرسول بأبنائه ونسائه، ثم يجتمع الجميع فى مكان واحد يبتهلون إلى الله ويضرعون إليه ، بإخلاص وقوة ، أن ينزل لعنته وغضبه على من كان كاذبا من الفريقين . قال سبحانه فى سورة آل عمران: «فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم، فقل تعالوْا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهلْ فنجعل لعنةَ اللهِ على الكاذبين * إنَّ هذا لهو القصصُ الحقُّ . وما منْ إله إلا الله . وإن اللهُ لهوَ العزيزُ الحكيم * » .

« ورد أنه عليه السلام لما دعاهم إلى المباهلة قالوا : حتى ننظر ، فقال العاقب وكان ذا رأيهم : والله لقد عرفتم يامعشر النصارى أن محمداً نبى مرسل، وما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم. ولئن فعلتم لتهلكن. فإن أبيتم إلا إلف دينكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم . فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا محتضنا للحسين آخذا بيد الحسن ، وفاطمة تمشى خلفه وعلىّ خلفها وهو يقول : « إذا أنا دعوت فأمنوا » . فقال أسقف نجران: يامعشر النصارى ، إنى لأرى وجوها لوسألوا الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله بها . فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانى!. فقالوا: ياأبا القاسم، رأينا ألا نباهلك فصالحهم النبى ﷺ على ألفى حلة كل سنة. فقال عليه السلام: «والذى نفسى بيده ، إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران. ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير» .

وإنما ضم الأبناء والنساء وإن كانت المباهلة مختصة به وبمن يكذبه ، لأن ذلك آكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه حتى جرؤ على تعريض أعزته وأفلاذ كبده لذلك ، ولم يقتصر على تعريض نفسه له ، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته إن تمت المباهلة. وخص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب وقدمهم في الذكر على الأنفس لينبه على قرب مكانهم ومنزلتهم. وفيه دليل على صحة نبوة النبي ﷺ لأنه لم يرو أحد من موافق أو مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك » اﻫ من تفسير النسفى .

ونقول: أليس هذا دليلا ماديا على أن هذا القرآن كلام القادر على إنزال اللعنة وإهلاك الكاذب. ثم أليس قبول محمد لهذه المباهلة مع امتناع أعدائه دليلا على أن صدقه في نبوته كان أمراً معروفا مقرراً حتى في نفوس مخالفيه من أهل الكتاب. وإلا فلماذا نكصوا على أعقابهم ولاذوا بالفرار من المباهلة (تأمل كلمة العاقب وأسقف نجران في الرواية الآنفة). لكنه الحقد والكبرياء أكلا قلوبهم ، فحسدوه أن آتاه الله النبوة دونهم مع أنه أمي وهم أهل كتاب. وكبر عليهم أن يؤمنوا به ويدينوا له فتضيع رياستهم وتنحط منزلتهم في نفوس العامة . والحسد والكبر من الحجب الكثيفة التي تحول بين المرء وسعادته ، فالحسود لا يسود، والمتكبر مخذول لا يسترشد ولا يتوب؛ « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغيرِ الحقّ. وإن يروا كلّ آيةٍ لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلًا . وإن يروا سبيلَ الغي يتخذوهُ سبيلا . ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين * » . معاذا بك اللهم من مقتك وغضبك، ومن كل ما يؤدى إلى مقتك وغضبك ، آمين .

الوجه الثاني عشر

عجز الرسول عن الإتيان ببدل له

وذلك أن أعداء الإسلام طلبوا من النبي ﷺ أن يأتي بقرآن غير هذا القرآن أو أن

يبدله ، فلم يفعل ، وماذاك إلا لأن القرآن ليس كلامه ، بل هو خارج عن طوقه ، آت من فوقه، ولو كان كلامه لاستطاع أن يأتى بغيره وأن يبدله حين اقترحوا عليه، وحينئذ يكتسب أنصاراً إلى أنصاره، ويضم أعواناً إلى أعوانه، ويكون ذلك أروج لدعوته التى يحرص على نجاحها ، لكنه أعلن عجزه عن إجابة هذه المقترحات وأبدى تخاوفه إن هو أقدم على هذا الذى سألوه ، وتنصل من نسبة القرآن إليه مع أنه الفخر كل الفخر ، وألقمهم حجراً فى أفواههم بتلك الحجة التى أقامها عليهم ، وهى أنه نشأ فيهم لا يعرف ولا يعرفون عنه ذلك الذى جاء به وهو القرآن .

اقرأ ـ إن شئت ـ هاتين الآيتين من سورة يونس: « وقالَ الذينَ لا يرجونَ لقاءنَا ائتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدِّله. قل مايكونُ لى أن أُبدله من تلقاءِ نفسى . إن أتبعُ إلَّا مايوحي إلى. إنى أخاف إن عصيتُ ربى عذابَ يومٍ عظيم * قل لوشاءَالله ماتلوتهُ عليكم ولا أدراكم به فقد لبثتُ فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلونَ ؟ » والمعنى: أن القرآن فوق طاقتى وليس من مقدورى، وما أنا إلا ناقل له أتبع مايوحى إلى منه. وإنى أخاف سطوة صاحب هذا الكتاب إذا أنا تلاعبت بنصوصه أو غيرت فيه. فالقرآن كلامه، ولو أراد ألا أكون رسولا بينه وبينكم ، ما كانت لى حيلة إلى أن أتلو هذا الكتاب عليكم وتأخذوه عنى، فقد نشأت بينكم ومكثت أكثر من أربعين سنة قبل نزوله ـ وهو عمر طويل ـ وأنتم لا تعرفون منى هذا الاستعداد الأعلى، ولا تسمعون منى مطلقا مثل هذا الكلام المعجز، ولم تأخذوا على قط أنى كذبت مرة على عبد من عباد الله، فكيف أكذب على الله بعد هذا العمر الطويل؟ (أفلاَ تعقلونَ)؟ يالها كلمة فيها من لذعة التعنيف والتخجيل بمقدار مافيها من لفت النظر إلى قوة الدليل ! !

الوجه الثالث عشر

الآيات التي تجرد الرسول من نسبتها إليه

وذلك أنك تقرأ القرآن فتجد فيه آيات كثيرة ، تجرد الرسول محمداً ﷺ من أن يكون له فيها حرف أو كلمة، وتصفه بأنه كان قبل نزول القرآن لا يدرى ما الكتاب ولا الإيمان وتمتن عليه بأن الله آتاه الكتاب والحكمة بعد أن كان بعيداً عنهما وغير مستعد لهما ولم يكن عنده رجاء من قبل لأن يكون منهل هذا الفيض ولا مشرق ذلك النور. اقرأ قوله سبحانه فى سورة النساء : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة. وعلمك مالم تكن تعلم. وكانَ فضلُ اللهِ عليكَ عظيماً » . وقوله فى ختام سورة الشورى: وكذلك أوحينا إليكَ رُوحاً من أمرنا . ما كنتَ تدرِى ما الكتاب ولا الإيمان » : وقوله فى سورة القصص : « وما كنتَ ترجو أن يلقى إليكَ الكتابُ إلا رحمة من ربك » .

بل كان ﷺ يخاف انقطاع هذا المدد الفياض عنه، فإذا فتر الوحى عراه من الحزن على فترته والتلهف على عودته ، ما يجعله يمشى فى الشعاب والجبال كأنه يتلمسه ، حتى لقد كاد يتردى مرة من شاهق وهو يطلبه ! . وأكثر من هذا أنه كان يخشى أن يتفلت منه شيء أثناء إيحائه إليه لولا أن طمأنه الله عليه (كما تقدم شرحه فى الوجه العاشر) وأكثر من هذا وذاك أنه كان يخاف أن ينزع الله من قلبه ما أنزل عليه وحفظه إياه، « ولئن شئنا لنذهبنّ بالذى أوحينا إليكَ ثمّ لا تجدُ لك به علينا وكيلا * إلا رحمةً من ربكَ؛ إنّ فضلهُ كان عليكَ كبيراً » .

قل لى ـ وربك ـ هل يتصور منصف على وجه الأرض أن القرآن كلام محمد ؛ بعد ما قصصنا عليك من هذه الآيات التى تجرده من إنشائه ووضعه، بل تجرده من رجاء نزوله عليه قبل مبعثه ، ومن رجاء بقائه لديه بعد نزوله عليه ؟ وهل يصح فى الأذهان أن أحدا

يبتكر بعبقريته أمراً هو مفخرة المفاخر ومعجزة المعجزات ، ثم يقول للعالم فى صراحة : ليس هذا الفخر فخرى ، وما هو من صنعى ، وما كان لدى استعداد أن آتى بشىء منه ، وأنتم تعرفوننى وتعرفون استعدادى من قبل ؟

ألا إن هذا يخالف العقل والمنطق ، ويجافى العرف والعادة ، وينافى مقررات علم النفس وعلم الاجتماع ، فإن النفوس البشرية مجبولة على الرغبة فى جلائل الأمور ومعاليها ، مطبوعة على حب كل ما يخلد ذكرها ويرفع شأنها ، لا سيما إذا كان ذلك نابعا منها وصادراً عنها ، وكان صاحب هـذه النفس صدوقا ما كذب قط ، رافعا عقيرته بزعامة الناس ودعوتهم إلى الحق . وليس شىء أجل شأنا ولا أخلد ذكرا من القرآن الكريم ، الذى جمع الله به شمل أمة ، وأقام به خير ملة ، وأسس به أعظم دولة ؛ فما كان لمحمد أن يزهد فى هذا المجد الخالد ، ولا أن يتنصل من نسبته إليه لو كان من وصفه وصنعه ، وهو يدعو الخلق إلى الإيمان به وبما جاء به !

وأى وجه لمحمد فى أن يتنصل من نسبة القرآن إليه وهو صاحبه ؟ إنه إن كان يطلب الوجاهة والعلو والمجد ، فليس شىء أوجه له ولا أعلى ولا أمجد من أن يكون هذا القرآن كلامه ، وإن كان يطلب هداية الناس ، فالناس يسرهم أن يأخذوا الهداية مباشرة ممن يعجز الجن والإنس بكلامه ، ويتحدى كل جيل وقبيل ببيانه ، ويقهر كل معارض ومكابر ببرهانه . ولو كان القرآن من تأليف محمد لأثبت به ألوهيته بدلا من نبوته ، لأن هذا القرآن لا يمكن أن يصدر إلا عن إله كما بينا فى الوجوه السالفة للإعجاز ، وإذن لكانت تلك الألوهية أبلغ فى نجاح دعوته ، وأرجى فى ترويج ديانته ، لأن الناس تبهرهم الألوهية أكثر مما تبهرهم النبوة ، ويشرفهم أنهم أتباع إله أكثر من أن يشرفهم أنهم أتباع رسول لم يخرج ولن يخرج يوما من أرض العبودية ، ولم يرتق ولن يرتقى يوما إلى سماء الربوبية .

« العبد عبد وإن تعالى والمولى مولى وإن تنزل »

ولهذا كان أعداء الرسل كثيراً ما يعظم عليهم أن يخضعوا لرجل منهم ، وكانوا يعجبون أن يوحى إلى بشر مثلهم ويقترحون أن يروا الله جهرة أو تنزل لهم الملائكة عيانا .

فلو كان محمد صاحب هذا التنزيل، لخرج عن مستوى الخلق جملة، ولظهر فى أفق الألوهية، يطل على العالم بعظمة تنقطع دونها الأعناق وتخضع لها الرقاب، وأن يحقق كل ما اقترحه معارضوه من الآيات، ولكنه اعترف بعبوديته حينذاك، وتبرأ من حوله وقوته إزاء هذا الكتاب وغيره من المعجزات وخوارق العادات. اقرأ فى سورة الإسراء : « وقالوا : لنْ نؤمنَ لكَ حتى تفجرَ لنا منَ الأرضِ ينبوعاً * أو تكونَ لكَ جنةٌ من نخيلٍ وعنبٍ فتفجِّرَ الأنهارَ خلالها تفجيرا * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كِسَفاً أو تأتى باللهِ والملائكةِ قبيلًا * أو يكون لكَ بيتٌ من زخرفٍ أو ترقى فى السماء . ولنْ نؤمنَ لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه . قل : سبحانَ ربى ، هل كنتُ إلا بشراً رسولًا » ؟ .

الوجه الرابع عشر تأثير القرآن ونجاحه

ومعنى هذا أن القرآن بلغ فى تأثيره ونجاحه مبلغاً خرق به العادة فى كل ما عرف من كتب الله والناس . وخرج عن المعهود فى سنن الله من التأثير النافع بالكلام وغير الكلام . وبيان ذلك أن الإصلاح العام الذى جاء به القرآن والانقلاب العالمى الذى تركه هذا الكتاب ، ما حدث ولم يكن ليحدث فى أى عهد من عهود التاريخ قديمه وحديثه إلا على أساس من الإيمان العميق القائم على وجدان قوى، بحيث يكون له من السلطان القاهر على النفوس، والحكم النافذ على العواطف والميول، ما يصد الناس عن نهجهم الأول فى عقائدهم التى توارثوها، وعباداتهم التى ألفوها ، وأخلاقهم التى نشأوا عليها، وعاداتهم التى امتزجت بدمائهم ، وما يحملهم على اعتناق هذا الدين الجديد الذى هدم تلك الموروثات فيهم ، وحارب تلك الأوضاع المألوفة لديهم .

وهذا الأساس الذى لا بد منه ، تقصر عنه فى العادة جميع الكتب التعليمية التى يؤلفها العلماء والمصلحون، وتعجز عن إيجاده كافة القوانين البشرية التى يضعها القادة والمشترعون، لأن قصارى هذه الكتب والقوانين ـ إذا وفقت ـ أن تشرح الحقائق وتبين الواجبات،

لا أن تحمل على الإيمان والإذعان ، وتدفع إلى العمل بوحى هذا الإيمان. وإذا فرض أن يؤمن بها أصحاب الاستعداد السليم ، فإيمانهم مجرد حينئذ من قوة الدفع ودفعة التحويل. ولا سبيل فى العادة إلى التأثير بها على الجماهير ونجاحها فيهم نجاحا عاما إلا بأمرين: أحدهما تربية الأحداث وترويضهم عليها علما وعملا من عهد الطفولة. والآخر قوة حاكمة تحمل الكبار على احترامها حملا بالقوة والقهر ، ومع هذا وذاك ، فتربية الصغار على هذا الغرار هيهات أن تكون تربية استقلالية ؛ بل هى تقليدية تفقد الدليل والبرهان، وكذلك إجبار الكبار هيهات أن يصل إلى موضع الإذعان والوجدن ! .

لكن القرآن الكريم وحده ، هو الذى نفخ الإيمان فى الكبار والصغار نفخا، وبثه روحا عاما، وأشعر النفوس بما جاء فيه إشعاراً، ودفعها إلى التخلى عن موروثاتها ومقدساتها جملة ، وحملها على التحلى بهديه الكريم علما وعملا ، على حين أن الذى أتى بهذا القرآن رجل أمى لا دولة له ولا سلطان ، ولا حكومة ولا جند ، ولا اضطهاد ولا إجبار، إنما هو الاقتناع والرغبة والرضا والإذعان ، «لا إكراهَ فى الدِّين قد تبينَ الرشدُ من الغىِّ» .
أما السيف ومشروعية الجهاد فى الإسلام ، فلم يكن لأجل تقرير عقيدة فى نفس ، ولا لإكراه شخص أو جماعة على عبادة ، ولكن لدفع أصحاب السيوف عن إذلاله واضطهاده ، وحملهم على أن يتركوا دعوة الحق حرة طليقة ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله .

هذا الأساس الذى وضعه القرآن وحده هو سر نهضته ، وإن شئت فقل هو نار ثورته ، بل هو نور هدايته، والروح السارى لإحياء العالم بدعوته، وذلك عن طريق أسلوبه المعجز الذى هو النفوس والمشاعر ، وملك القلوب والعقول، وكان له من السلطان ما جعل أعداءه منذ نزوله إلى اليوم ، يخشون بأسه وصولته ، ويخافون تأثيره وعمله، أكثر مما يخافون الجيوش الفاتحة والحروب الجائحة، لأن سلطان الجيوش والحروب لا يعدو هيا كل

الأجسام والأشباح ، أما سلطان هذا الكتاب فقد امتد إلى حرائر النفوس وكرائم الأرواح ، بما لم يعهد له نظير فى أية نهضة من النهضات !.

ولقد أشار القرآن نفسه إلى هذا الوجه من وجوه إعجازه، حين سمى الله كتابه روحاً من أمره بقوله : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرِنا » وحين سماه نوراً بقوله : « قد جاءكم من اللهِ نورٌ وكتابٌ مبينٌ » وحين وصف بالحياة والنور من آمن به فى قوله: « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلناله نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله من الظلمات ليس بخارج منها ؟ » . وفى قوله : « منَ عملَ صالحاً من ذكرٍ أو أُنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينهُ حياةً طيبةً » . وفى قوله : « يأيها الذينَ آمنوا استجيبوا للهِ وللرّسولِ إذا دعاكم لما يحييكم » .

هذا التأثير الخارق أو النجاح الباهر الذى نتحدث فيه ، أدركه ولا يزال يدركه كل من قرأ القرآن فى تدبر وإمعان ونصفة، حاذقا لأساليبه العربية ، ملما بظروفه وأسباب نزوله . أما الذين لم يحذقوا لغة العرب ولم يحيطوا بهذه الظروف والأسباب الخاصة ، فيكفيهم أن يسألوا التاريخ عما حمل هذا الكتاب من قوة محولة غيرت صورة العالم ، ونقلت حدود الممالك ، عن طريق استيلائها على قلوب المخاطبين به لأول مرة استيلاء أشبه بالقهر وماهو بالقهر ، وأفعل من السحر وما هو بالسحر ، سواء فى ذلك أنصاره وأعداؤه ، ومحالفوه ومخالفوه ! وماذاك إلا لأنهم ذاقوا بسلامة فطرتهم العربية بلاغته، ولمسوا بحاستهم البيانية إعجازه؛ فوجد تياره الكهربائى موضعا فى نفوسهم لشرارة ناره، أو لهطول غيثه وانبلاج أنواره !.

تأثيره فى أعدائه :

أما أعداؤه المشركون ، فقد ثبت أنه جذبهم إليه بقوته فى مظاهر كثيرة ، نذكر بعضها على سبيل التمثيل :

(المظهر الأول) أن هؤلاء المشركين مع حربهم له ، ونفورهم مما جاء به ، كانوا يخرجون فى جنح الليل البهيم يستمعون إليه والمسلمون يرتلونه فى بيوتهم. فهل ذاك إلا لأنه استولى على مشاعرهم ، ولكن أبى عليهم عنادهم وكبرهم وكراهتهم للحق أن يؤمنوا به « بل جاءهم بالحقّ وأكثرهم للحقّ كارهونَ » .

(المظهر الثانى) أن أئمة الكفر منهم كانوا يجتهدون فى صد رسول الله ﷺ عن قراءته فى المسجد الحرام وفى مجامع العرب وأسواقهم، وكذلك كانوا يمنعون المسلمين من إظهاره ، حتى لقد عالهم من أبى بكر أن يصلى به فى فناء داره ، وذلك لأن الأولاد والنساء كانوا يجتمعون عليه يستمتعون بلذة هذا الحديث ويتأثرون به ويهتزون له ! .

(المظهر الثالث) أنهم ذعروا ذعراً شديداً من قوة تأثيره ونفوذه إلى النفوس على رغم صدهم عنه واضطهادهم لمن أذعن له . فتواصوا على ألا يسمعوه ، وتعاقدوا على أن يلغوا فيه إذا سمعوه ، « وقال الذينَ كفروا لاتسمعوا لهذا القرآنِ والغوا فيهِ لعلكم تغلبونَ » ! .

(المظهر الرابع) أن بعض شجعانهم وصناديدهم ، كان الواحدُ منهم يحمله طغيانه وكفره وتحمسه لموروثه، على أن يخرج من بيته شاهراً سيفه، معلنا غدره ، ناوياً القضاء على دعوة القرآن ومن جاء بالقرآن ، فما يلبث حين تدركه لمحة من لمحات العناية ، وينصت إلى صوت القرآن فى سورة أو آية ، أن يذل للحق ويخشع، ويؤمن بالله ورسوله وكتابه ويخضع . وإن أردت شاهداً على هذا فاستعرض قصة إسلام عمر وهى مشهورة. أو فتأمل كيف أسلم سعد بن معاذ سيد قبيلة الأوس هو وابن أخيه أسيد بن حضير ، رضى الله عنهم أجمعين . وإليك كلمة قصيرة عن إسلام سعد وأسيد فيها نفع كبير :

تروى كتب السيرة أن رسول الله ﷺ وهو فى مكة قبل الهجرة ، أرسل مع أهل المدينة الذين جاءوا وبايعوه بيعة العقبة ، مبعوثين جليلين يعلمانهم الإسلام وينشرانه

فى المدينة ، هما مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم رضى الله عنهما، وقد نجح هذان فى مهمتهما أكبر نجاح، وأحدثا فى المدينة ثورة فكرية أو حركة تبشيرية جزع لها سعد بن معاذ سيد قبيلة الأوس، حتى قال لابن أخيه أسيد بن حضير: ألا تذهب إلى هذين الرجلين اللذين أتيا يسفهان ضعفاءنا فتزجرهما. فلما انتهى إليهما أسيد قال لهما: ماجاء بكما تسفهان ضعفاءنا ؟ ثم هددهما وقال: اعتزلا إن كانت لكما فى أنفسكما حاجة . رضى الله عن مصعب فقد تغاضى عن هذا التهديد وقال لأسيد فى وقار المؤمن وثباته : أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهته كففنا عنك ماتكره . ثم قرأ مصعب القرآن وأسيد يسمع، فما قام من مجلسه حتى أسلم، ثم كر راجعاً إلى سعد فقال له: والله مارأيت بالرجلين بأسا. فغضب سعد وذهب هو نفسه ثائراً مهتاجا، فاستقبله مصعب بما استقبل به أسيدا وانتهى الأمر بإسلامه أيضا ، ثم كر راجعا فجمع قبيلته وقال لهم: ما تعدوننى فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا. فقال سعد : كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تسلموا . فأسلموا أجمعين ! .

تأثير القرآن فى نفوس أوليائه :

تلك مظاهر لفعل القرآن بنفوس شانئيه ، فهل تدرى ماذا فعل بهم بعد أن دانوا له وآمنوا به وأصبحوا من تابعيه ومحبيه ؟ لعلك لم تنس مافعل القرآن بعمر وسعد وأسيد الذين نوهنا بهم بين يديك . ألم يعودوا من خيرة جنود الإسلام ودعاته من يوم أسلموا، بل من ساعة أسلموا ؟ وهناك مظاهر أربعة لهذا الضرب أيضا .

﴿ المظهر الأول ﴾ تنافسهم فى حفظه وقراءته فى الصلاة وفى غير الصلاة، حتى لقد طاب لهم أن يهجروا لذيذ منامهم من أجل تهجدهم به فى الأسحار ، ومناجاتهم العزيز الغفار. وما كان هذا حالا نادراً فيهم، بل ورد أن المار على بيوت الصحابة بالليل كان يسمع لها دويا كدوى النحل بالقرآن ! . وكان التفاضل بينهم بمقدار مايحفظ أحدهم من القرآن ! . وكانت

المرأة ترضى بل تغتبط أن يكون مهرها سورة يعلمها إياها زوجها من القرآن ؟ .

﴿ المظهر الثانى ﴾ عملهم به وتنفيذهم لتعاليمه ، فى كل شأن من شؤونهم تاركين كل ما كانوا عليه مما يخالف تعاليمه ويجافى هداياته . طيبة بذلك نفوسهم ، طيعة أجسامهم ، سخية أيديهم وأرواحهم ، حتى صهرهم القرآن فى بوتقته ، وأخرجهم للعالم خلقاً آخر مستقيم العقيدة ، قويم العبادة ؛ طاهر العادة ، كريم الخلق ، نبيل المطمح ! .

﴿ المظهر الثالث ﴾ استبسالهم فى نشر القرآن والدفاع عنه وعن هدايته . فأخلصوا له وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه وهو مدافع عنه ، ومنهم من انتظر حتى أتاه اليقين وهو مجاهد فى سبيله مضح بنفسه ونفيسه . ولقد بلغ الأمر إلى حد أن الرسول ﷺ كان يرد بعض من يتطوع بالجندية من الشباب لحداثة أسنانهم . وكان كثير من ذوى الأعذار يؤلمهم التخلف عن الغزو حتى يضطر الرسول أن يتخلف معهم جبراً لخاطرهم ، ويرسل سراياه وبعوثه بعد أن ينظمها ويزودها بما تحتاجه ولا يخرج معهم . روى مالك والشيخان أن رسول الله ﷺ قال : « والذى نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ماقعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبداً . ولكن لا أجد سعة فأحملهم . ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل » ! .

﴿ المظهر الرابع ﴾ ذلك النجاح الباهر الذى أحرزه القرآن فى هداية العالم . فقد وجد قبل النبى ﷺ أنبياء ومصلحون ، وعلماء ومشترعون ، وفلاسفة وأخلاقيون ؛ وحكام ومتحكمون ، فما تسنى لأحد من هؤلاء بل ما تسنى لجميعهم أن يحدثوا مثل هذه النهضة الرائعة التى أحدثها محمد فى العقائد والأخلاق ، وفى العبادات والمعاملات ، وفى السياسة والإدارة وفى كافة نواحى الإصلاح الإنسانى . وما كان لمحمد ولا لألف رجل غير محمد أن يأتوا بمثل هذا الدستور الصالح الذى أحيا موات الأمة العربية فى أقل من عشرين سنة ، ثم نفخ فيهم من روحه فهبوا بعد وفاته ينقذون العالم ففتحوا ملك كسرى وقيصر ، ووضعوا رجلا

فى الشرق ورجلا فى الغرب، وخفقت رايتهم على نصف المعمور فى أقل من قرن ونصف قرن من الزمان .

أفسحر هذا ؟ أم هو برهان عقلى لحه المنصفون من الباحثين فاكتفوا من محمد ﷺ بهذا النجاح الباهر دليلا على أنه رسول من رب العالمين .

هذا فيلسوف من فلاسفة فرنسا يذكر فى كتاب له مازعمه دعاة النصرانية من أن محمداً لم يأت بآية على نبوته كآيات موسى وعيسى ، ثم يفند هذا الزعم ويقول: « إن محمداً كان يقرأ القرآن خاشعاً أواهاً متألما ، فتفعل قراءته فى جذب الناس إلى الإيمان به مالم تفعله جميع آيات الأنبياء الأولين » !

أجل : لقد صدق الرجل ، فإن فعل القرآن فى نفوس العرب كان أشد وأرق وأبلغ مما فعلت معجزات جميع الأنبياء . وإن شئت مقارنة بسيطة فهذا موسى عليه السلام قد أتى بنى إسرائيل بآيات باهرة من عصا يلقيها فإذا هى ثعبان مبين، ومن يد يخرجها فإذا هى بيضاء للناظرين . ومن انفلاق البحر فإذا هو طريق يابسة يمشون فيها ناجين آمنين، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة فى مصر وفى طور سينا مدة التيه. فهل تعلم مدى تأثير هذه الهدايات فى إيمانهم بالله ووحدانيته ، وإخلاصهم لدينه ونصرة رسوله ؟ إنهم ما كادوا يخرجون من البحر بهذه المعجزة الإلهية الكبرى ويرون بأعينهم عبدة الأصنام والأوثان، حتى كان منهم ما حكاه الله فى القرآن : « وجاوزنا ببنى إسرائيلَ البحرَ فأتوْا على قوم يعكفونَ على أصنام لهم . قالوا يا موسى اجعلْ لنا إلها كما لهمْ آلهة . قال إنكم قومٌ تجهلونَ * إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملونَ * قال أغيرَ الله أبغيكم إلهاً وهو فضّلكم على العالَمينَ * » .

ثم لما ذهب موسى إلى مناجاة ربه واستخلف عليهم أخاه هارون عليهما السلام ، نسوا الله تعالى وحنوا إلى ماوقر فى نفوسهم من الوثنية المصرية وخرافاتها. فعبدوا العجل كما تحدثت سورة الأعراف بذلك: « واتخذ قومُ موسى من بعده من حُليهم عجلاً جسداً له

خوارُ. ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلًا. اتخذوه وكانوا ظالمينَ * ولما سُقِطَ في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين *».

ولما دعاهم موسى إلى قتال الجبارين ودخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، أبوا وخالفوا وفضلوا القعود والاستخذاء، على الجلاد والنزول إلى ميادين الجهاد، قالوا ياموسى إن فيها قوماً جبارينَ. وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها. فإن يخرجوا منها فإنا داخلون * قال رجلانِ من الذين يخافونَ أنعمَ الله عليهما ادخُلوا عليهم الباب. فإذا دخلتموهُ فإنكم غالبون. وعلى اللهِ فتوكلوا إن كنتم مؤمنينَ * قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً مادموا فيها فاذهبْ أنتَ وربكَ فقاتِلا إنا هٰهنا قاعدون *» ! .. هؤلاء أصحاب موسى فانظر إلى أصحاب محمد كيف تأثروا بالقرآن حتى ليحدث التاريخ عنهم أنهم قطعوا شجرة الرضوان؛ وهي تلك الشجرة التاريخية المباركة التي ورد ذكرها في القرآن. وماهذا إلا لأن الناس تبركوا بها، فخاف عمر إن طال الزمان بالناس أن يعودوا إلى وثنيتهم ويعبدوها، فأمر بقطعها ووافقه الصحابة على ذلك ! .

وكذلك يذكر التاريخ أن محمداً ﷺ استشار أصحابه حين عزم على قتال المشركين في غزوة بدر فقالوا: « والله لو استعرضت بنا هذا البحر (يريدون البحر الأحمر فخضته لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد. إنا لا نقول لك ماقال قوم موسى لموسى: «اذهبْ أنتَ وربكَ فقاتلاَ إنا هٰهنا قاعدونَ » : ولكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ! . هكذا كانوا يفضلون مصافحة المنايا في ميادين الجهاد، ويتهافتون على الغزو طمعا في الاستشهاد ! وهكذا حرصوا على الموت فوهبهم الله الحياة، وأتقنوا صناعة الموت فدانت لهم الملوك وعنت الكماة !: «ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه. إن الله لغني عن العالمين». « ولينصرنَّ الله منْ ينصرهُ . إنَّ اللهَ لقوىٌّ عزيزٌ ».

وجوه معلولة

ذكر بعضهم وجوها أخرى للإعجاز، ولكنها لا تسلم في نظرنا من طعن، لأن منها

ما يتداخل بعضه فى بعض ، ومنها مالا يجوز أن يكون وجها من وجوه الإعجاز بحال .

ونمثل لهذا الذى ذكروه بتلك الأوجه العشرة التى عدها القرطبى ، وهى :

١ ـ نظمه البديع المخالف لكل نظم معهود .

٢ ـ أسلوبه العجيب المخالف لجميع الأساليب .

٣ ـ جزالته التى لا تمكن لمخلوق .

٤ ـ التصرف فى الألفاظ العربية على وجه لا يستقل به عربى .

٥ ـ الوفاء بالوعد المدرك بالحس والعيان ، كوعد المؤمنين بالنصر وغير ذلك .

٦ ـ الأخبار عن المغيبات المستقبلة التى لا يطلع عليها إلا بالوحى .

٧ ـ ماتضمنه القرآن من العلوم المختلفة التى بها قوام الأنام .

٨ ـ اشتماله على الحكم البالغة .

٩ ـ عدم الاختلاف والتناقض بين معانيه .

١٠ ـ الإخبار عن الأمور التى تقدمت من أول الدنيا إلى وقت نزوله بما لم تجر العادة بصدوره ممن لم يقرأ الكتاب ولم يتعلم ولم يسافر إلى حيث يختلط بأهل الكتاب .

فإن المتأمل فى هذه الأوجه يلاحظ أن أسلوب القرآن العجيب يشمل جزالته التى لا تمكن لمخلوق، ويشمل التصرف فى الألفاظ العربية على وجه لا يستقل به عربى. ويلاحظ أيضا أن الوفاء بالوعد المدرك بالحس والعيان كوعد المؤمنين بالنصر ينضوى تحت مضمون الإخبار بالمغيبات ، وكذلك الأمور التى تقدمت من أول الدنيا إلى وقت نزوله تنتظم فى سلك الإخبار بالمغيبات . ويلاحظ كذلك أن الاشتمال على الحكم البالغة، وعدم الاختلاف والتناقض بين معانيه ، لا يصلح واحد منها أن يكون وجها من وجوه الإعجاز ، لأنهما لا يخرجان عن حدود الطاقة ، بل كثيراً ما نجد كلام الناس مشتملا على حكم وسليما من التناقض والاختلاف .

وبعضهم جعل وجه الإعجاز فى القرآن هو الفصاحة وحدها ، وذلك غير سديد أيضا،

لأن مجرد الفصاحة دون مراعاة لمقتضى الحال ، أمر لا يخرج بالكلام عن المعهود فى مقدور البشر. فكثيرا ما يكون الكلام البشرى فصيحا لكن تعوزه الخصائص والنكات الزائدة التى هى مناط بلاغته فى أقل درجاته فضلا عن إعجازه .

شبهة القول بالصرفة

ومن الباحثين من طوعت له نفسه أن يذهب إلى القول بأن وجه إعجاز القرآن هو الصرفة أى صرف الله العرب عن معارضته على حين أنه لم يتجاوز فى بلاغته مستوى طاقتهم البشرية ، وضربوا لذلك مثلا فقالوا: إن الإنسان كثيرا مايترك عملا هو من جنس أفعاله الاختيارية ومما يقع مثله فى دائرة كسبه وقدرته ، إما لأن البواعث على هذا العمل لم تتوافر ، وإما لأن الكسل أو الصدود أصابه فأقعد همته وثبط عزيمته وإما لأن حادثا مفاجئا لا قبل له به قد اعترضه فعطل آلاته ووسائله وعاق قدرته قهرا عنه ، على رغم انبعاث همته نحوه وتوجه إرادته إليه . فكذلك انصراف العرب عن معارضتهم للقرآن، لم ينشأ من أن القرآن بلغ فى بلاغته حد الإعجاز الذى لا تسمو إليه قدرة البشر عادة ، بل لواحد من ثلاثة :

(أولها) أن بواعث هذه المعارضة ودواعيها لم تتوافر لديهم .

(ثانيها) أن صارفا إلهيا زهدهم فى المعارضة فلم تتعلق بها إرادتهم ولم تنبعث إليها عزائمهم ، فكسلوا وقعدوا على رغم توافر البواعث والدواعى .

(ثالثها) أن عارضا مفاجئا عطل مواهبهم البيانية ، وعاق قدرهم البلاغية، وسلبهم أسبابهم العادية إلى المعارضة على رغم تعلق إرادتهم بها وتوجه هممهم إليها .

بهذا التوجيه أو نحوه يعزى القول بالصرفة إلى أبى إسحاق الإسفرايينى من أهل السنة والنظام من المعتزلة ، والمرتضى من الشيعة . وأنت إذا تأملت هذه الفروض الثلاثة التى التمسوها أو التمست لهم ، علمت أن عدم معارضة العرب للقرآن لم تجىء من ناحية إعجازه البلاغى فى زعمهم . بل جاءت على الفرضين الأولين من ناحية عدم اكتراث العرب بهذه

المعارضة ، ولو أنهم حاولوها لنالوها . وجاءت على الفرض الأخير من ناحية عجزهم عنه لكن بسبب خارجى عن القرآن ، وهو وجود مانع منعهم منها قهرا . ذلك المانع هو حماية الله لهذا الكتاب وحفظه إياه من معارضة المعارضين وإبطال المبطلين . ولو أن هذا المانع زال لجاء الناس بمثله ، لأنه لا يعلو على مستواهم فى بلاغته ونظمه .

تفنيد هذا القول

وهذا القول بفروضه التى افترضوها ، أو بشبهاته التى تخيلوها، لا يثبت أمام البحث، ولا يتفق والواقع .

(أما الفرض الأول) فينقضه ما سجل التاريخ وأثبت التواتر ، من أن دواعى المعارضة كانت قائمة موفورة ودوافعها كانت ماثلة متآخذة ، وذلك لأدلة كثيرة :

(منها) أن القرآن تحداهم غير مرة أن يأتوا ولو بمثل أقصر سورة منه ؛ ثم سجل العجز عليهم وقال بلغة واثقة إنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا ولن يفعلوا ولو ظاهرهم الإنس والجن . فكيف لا تثور حميتهم إلى المعارضة بعد هذا ولو كانوا أجبن خلق الله ؟ .

(ومنها) أن العرب الذين تحداهم القرآن كانوا مضرب المثل فى الحمية والأنفة وإباء الضيم . فكيف لا يحركهم هذا التحدى والاستفزاز ؟ .

(ومنها) أن صناعتهم البيان ، وديدنهم التنافس فى ميادين الكلام . فكيف لا يطيرون بعد هذه الصيحة إلى حلبة المساجلة ؟ .

(ومنها) أن القرآن أثار حفائظهم وسفه عقولهم وعقول آبائهم، ونعى عليهم الجمود والجهالة والشرك . فكيف يسكتون بعد هذا التقريع والتشنيع ؟ .

(ومنها) أن القرآن أقام حربا شعواء على أعز شىء لديهم وهى عقائدهم المتغلغلة فيهم، وعوائدهم المتمكنة منهم، فأى شىء يلهب المشاعر ويحرك الهمم إلى المساجلة أكثر من هذا ؟ مادامت هذه المساجلة هى السبيل المتعين لإسكات خصمهم لو استطاعوا .

(وأما الفرض الثانى) فينقضه الواقع التاريخى أيضا . ودليلنا على هذا ماتواترت به الأنباء ، من أن بواعث العرب إلى المعارضة قد وجدت سبيلها إلى نفوسهم ، ونالت منالها من عزائمهم . فهبوا هبة رجل واحد يحاولون القضاء علىَ دعوة القرآن بمختلف الوسائل ؛ فلم يتركوا طريقا إلا سلكوه ، ولم يدعوا بابا إلا دخلوه .

لقد آذوه ﷺ وآذوا أصحابه ، فسبوا من سبوا ، وعذبوا من عذبوا ، وقتلوا من قتلوا .

ولقد طلبوا إلى عمه أبى طالب أن يكفه ، وإلا نازلوه وإياه .

ولقد قاطعوه وقاطعوا أسرته الكريمة لا يبيعون لهم ولا يبتاعون ولا يتزوجون منهم ولا يزوجون ، واشتد الأمر حتى أكلت الأسرة الكريمة ورق الشجر .

ولقد فاوضوه أثناء هذه المقاطعة التى تلين الحديد مفاوضات عدة وعرضوا عليه عروضا سخية مغرية ، منها أن يعطوه حتى يكون أكثرهم مالا ، وأن يعقدوا له لواء الزعامة فلا يقطعوا أمراً دونه ، وأن يتوجوه ملكا عليهم إن كان يريد ملكا ، وأن يلتمسوا له الطب إن كان به مس من الجن . كل ذلك فى نظير أن يترك هذا الذى جاء به. ولما أبى عليهم ذلك عرضوا عليه أن يهادنهم ويداهنهم ، فيعبد آلهتهم سنة ويعبدون إلهه سنة . فأبى أيضا ونزل قول الله : « قلَ أفغيرَ اللهِ تأمرونى أعبدُ أيهاَ الجاهلونَ » ونزلت كذلك سورة الكافرون .

ولقد صادروه وصادروا أصحابه فى عبادتهم ، وانبعث شقى منهم فوضع النجاسة على ظهره ﷺ وهو يصلى . وخنقه طاغية من طواغيتهم لولا أن جاء أبو بكر فدفعه وقال: «أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يكُ كاذباً فعليه كذبه؟»

ولقد اتهموه ﷺ مرة بالسحر ، وأخرى بالشعر ، وثالثة بالجنون ، ورابعة بالكهانة . وكانوا يتعقبونه وهو يعرض نفسه على قبائل العرب أيام الموسم ، فيبهتونه ويكذبونه أمام من لا يعرفونه . ولقد شدوا وطأتهم على أتباعه حتى اضطروهم أن يهاجروا من وطنهم ، ويتركوا أهلهم وأولادهم وأموالهم فرارا إلى الله بدينهم .

ولقد تآمروا على الرسول أن يثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه ، لولا أن حفظه الله وحماه من مكرهم وأمره بالهجرة من بينهم .

ولقد أرسلوا إليه الأذى بعد ذلك فى مهاجره ، فشبت الحرب بينه وبينهم فى خمس وسبعين موقعة ، منها سبع وعشرون غزوة وثمان وأربعون سرية .

فهل يرضى عاقل لنفسه أن يقول بعد ذلك كله : إن العرب كانوا مصروفين عن معارضة القرآن ونبى القرآن ، وإنهم كانوا مخلدين إلى العجز والكسل زاهدين فى النزول إلى هذا الميدان ؟

وهل يصح مع هذا كله أن يقال: إنهم كانوا فى تشاغل عن القرآن غير معنيين به ولا آبهين له ؟

وإذا كان أمر القرآن لم يحركهم ولم يسترع انتباههم ، فلماذا كانت جميع هذه المهاترات والمصاولات ؟ مع أن خصمهم الذى يزعمون خصومته قد قصر لهم المسافة ، ودلهم على أن سبيلهم إلى إسكاته هو أن يأتوا بمثل أقصر سورة مما جاءهم به ! أليس ذلك دليلا ماديا على أن قعودهم عن معارضة القرآن ، ليست إلا بسبب شعورهم بعجزهم عن هذه المعارضة واقتناعهم بإعجاز القرآن ؟ وإلا فلماذا آثروا الملاكمة على المكالمة ، والمقارعة بالسيوف على المعارضة بالحروف ؟ !

وقد يظن جاهل أن حماستهم فى خصومتهم هذه، ليس مبعثها شعورهم بقوة القرآن وإعجازه، وإنما مبعثها بغضهم لمحمد وأصحابه. ولكن هذا الظن يكذبه ماهو مقرر تاريخيا، وثابت ثبوتا قطعيا، من أن محمدا ﷺ وأصحابه لم تكن بينهم وبين هؤلاء عداوة قبل نزول القرآن ، بل كانوا أمة واحدة وقبيلة واحدة ، وكان الرسول وأصحابه من أحب الناس إليهم لدماثة أخلاقهم . وللرحم الماسة التى بينهم .

وقد يظن آخر أن حماسة قريش فى خصومتهم للنبى وأتباعه، إنما كان مبعثها مجرد المخالفة فى الدين ، بقطع النظر عن إعجاز هذا القرآن الكريم . وهذا ظن خاطئ أيضا

لأمرين: أحدهما أنه كان بين المشركين فى جزيرة العرب يهود وأهل كتاب يخالفونهم فى الدين، فما أرّث ذلك بينهم حربا ولا أوقد لخصومتهم نارا، على مثل ما كان بينهم وبين محمد. والآخر أنه كان يوجد بين العرب حنفاء من مقاويل الخطباء وفحول الشعراء، كأمية بن أبى الصلت وقس بن ساعدة، فما كان هذا ليثير حفائظهم ولا ليقفهم موقف الخصومة منهم. بل رضوا بتحنفهم ومخالفتهم لدينهم ودين آبائهم، وزادوا على ذلك أن سجلوا كلامهم فى التوحيد وشعرهم فى التنزيه والتمجيد، لأنهم لم يجدوا فى هذا المنظوم والمنثور مثل ماوجدوا فى القرآن من شدة التأثير وقوة الدفع. ذلك الكتاب الذى جاءهم من فوقهم، وكان له شأن غير شأنهم ورأوا فيه من مسحة الألوهية ماجعله روحا من أمر الله يتحرك به كل من سمع صوته، ويهتز له كل من شام برقه، ولاسبيل إلى وقف تياره وأثره، إلا بالوقوف فى وجهه والحيلولة بين الناس وبينه. روى أبو داود والترمذى أن الرسول ﷺ قال: «ألا رجل يحملنى إلى قومه فإن قريشا منعونى أن أبلغ كلام ربى» فتأمل كلمة «أن أبلغ كلام ربى» ولم يقل: منعونى أن أتلو أو أعمل فى نفسى بكلام ربى، لأن التلاوة والعمل من غير استعلان بالقرآن ونشر له، كان لا يؤثر على قريش كثيرا إنما الذى كان يحز فى نفوسهم ويقض من مضاجعهم، هو نشر هذا النور الذى يكاد يخطف الأبصار، وإعلان هذا الكتاب الذى يجذب القلوب والأفكار. وكان من تأثيره وفتحه وغزوه للنفوس ما ألمعنا إليه فى إسلام عمر وسعد وأسيد!

(وأما الفرض الثالث) فينقضه ماهو معروف من أن العرب حين خوطبوا بالقرآن قعدوا عن معارضته، اقتناعا بإعجازه وعجزهم الفطرى عن مساجلته. ولو أن عجزهم هذا كان لطارئ مباغت عطل قواهم البيانية، لأثر عنهم أنهم حاولوا المعارضة بمقتضى تلك الدوافع القوية التى شرحناها ففوجئوا بما ليس فى حسبانهم؛ ولكان ذلك مثار عجب لهم. ولأعلنوا ذلك فى الناس ليلتمسوا العذر لأنفسهم وليقللوا من شأن القرآن فى ذاته، ولعمدوا إلى كلامهم القديم فعقدوا مقارنة بينه وبين القرآن يغضون بها من مقام القرآن وإعجازه، ولكانوا بعد

نزول القرآن أقل فصاحة وبلاغة منهم قبل نزوله، ولأمكننا نحن الآن وأمكن المشتغلين بالأدب العربى فى كل عصر أن يتبينوا الكذب فى دعوى إعجاز القرآن . وكل هــذه اللوازم باطلة ؟ فبطل ما استلزمها وهو القول بالصرفة بناء على هذه الشبهة الهازلة .

ثم ألم يكف هؤلاء شهادة أعداء القرآن أنفسهم فى أوقات تخليهم من عنادهم، كتلك الشهادة التى خرجت من فم الوليد « والفضل ماشهدت به الأعداء » ؟ .

ثم ألم يكفهم ماف القرآن من وجوه الإعجاز الكثيرة التى دللنا عليها فيما سبق ؟ والتى لا تزال قائمة ماثلة ناطقة إلى يومنا هذا ولا تزيدها الأيام وما يجد فى العالم من علوم ومعارف وتجارب إلا وضوحا وبيانا ؟ ! .

إنى لأعجب من القول بالصرفة فى ذاته، ثم ليشتد عجبى وأسفى حين ينسب إلى ثلاثة من علماء المسلمين الذين نرجوهم للدفاع عن القرآن، ونربأ بأمثالهم أن يثيروا هذه الشبهات فى إعجاز القرآن ! .

على أننى أشك كثيراً فى نسبة هذه الآراء السقيمة إلى أعلام من العلماء ويبدو لى أن الطعن فى نسبتها إليهم ، والقول بأنها مدسوسة من أعداء الإسلام عليهم ؛ أقرب إلى المعقول ، وأقوى فى الدليل، لأن ظهور وجوه الإعجاز فى القرآن من ناحية ، وعلم هؤلاء من ناحية أخرى ، قرينتان مانعتان من صحة عزو هذا الرأى الآثم إليهم .

ولقد عودنا أعداء الإسلام أن يفتروا على رسول الله وعلى أصحابه وعلى الأئمة والعلماء ، فلم لايكون هذا منه ؟

على أن الحق لايعرف بالرجال، إنما يعرف الحق بسلامة الاستدلال. وها قد طاش هذا الرأى فى الميزان ، فلنرده على قائله أيا كان .

« وليس كلُّ خلافٍ جاء معتبراً   إلا خلافٌ له حظٌّ من النظر »

وأحب أن تلتفت إلى أن هذه الشبهةقد أثارها أعداءالإسلام فيما أثاروا وصوبوا منها سهما طائشاً إلى القرآن وإعجازه. فلنكتف بنقضنا لها هنا عن إعادتها بين ماسنذكره فى دفع الشبهات هناك إن شاء الله .

دفع الشبهات الواردة فى هذا المقام

لقد كان ما ذكرناه من وجوه الإعجاز الأربعة عشر ، كافيا للقضاء على كل شبهة ، ولرد كل فرية ومحو كل تهمة. لولا أن المخذولين من أعداءالإسلام وجدوا آذانا صاغية من نفوس عزيزة علينا ، وفئات متعلمة تعلما مدنيا ، فتأثروا بدجلهم ، ثم رضوا أن يكونوا أبواقا لهم ، يرددون شبهاتهم ، على تلاميذنا فى الجامعات والمدارس ، ويطلقون بخورهم على جماهيرنا فى المطبوعات والأندية والمجالس. لهذا كان من واجبنا أن نحشد قوانا لتطهير الجو الإسلامى من هذه الجراثيم الفتاكة والمطاعن الجارحة الهدامة ، وألا نكتفى عند المناسبة بذكر أحد المتلازمين عن الآخر ، اللهم إلا إذا كان الأمر ظاهراً لايحتاج إلى تنبيه. أما عند الحاجة فقد نكرر ما سبق لنا ذكره ، ولكن بمقدار الحاجة من غير إكثار .

ونلفت نظرك إلى ما أسلفناه من الكلام على الوحى بين مثبتيه ومنكريه، بالمبحث الثالث من هذا الكتاب (ص ٥٧ ـ ٨٤) من الجزء الأول ، وإلى ما حواه هـذا الكلام من أدلة علمية عقلية ، ومن تفنيد شبهات عشر تتصل بإعجاز القرآن عـن قرب أو بعد .

ثم نلفت نظرك أيضاً إلى نقض تلك الشبهات الست التى أثيرت حول المكى والمدنى من القرآن (ص ١٩٨ ـ ٢٣٢ بالجزء الأول) .

ونرشدك إلى أننا راعينا عند كلامنا على أسلوب القرآن وإعجازه تفصيلات

وتوجيهات ، نعتقد أن فيها غناء عن دفع كثير من الشبهات فاحرص عليها ، ثم اشدد يديك على مايلقى إليك .

الشبهة الأولى ودفعها :

يقولون : إن محمداً ﷺ لقى بحيرا الراهب فأخذ عنه وتعلم منه . وما تلك المعارف التى فى القرآن إلا ثمرة هذا الأخذ وذاك التعلم .

وندفع هذا (أولا) بأنها دعوى مجردة من الدليل ، خالية من التحديد و التعيين . ومثل هذه الدعاوى لاتقبل مادامت غير مدللة ، وإلا فليخبرونا ما الذى سمعه محمد من بحيرا الراهب ؟ ومتى كان ذلك ؟ وأين كان ؟ .

(ثانيا) أن التاريخ لا يعرف أكثر من أنه ﷺ سافر إلى الشام فى تجارة مرتين، مرة فى طفولته ومرة فى شبابه. ولم يسافر غير هاتين المرتين ،ولم يجاوز سوق بصرى فيهما. ولم يسمع من بحيرا ولا من غيره شيئا من الدين . ولم يك أمره سرًّا هناك بل كان معه شاهد فى المرة الأولى وهو عمه أبو طالب، وشاهد فى الثانية وهو ميسرة غلام خديجة التى خرج الرسول بتجارتها أيامئذ . وكل ماهنالك أن بَحيرا الراهب رأى سحابة تظلله ﷺ من الشمس ، فذكر لعمه أن سيكون لهذا الغلام شأن ، ثم حذره عليه من اليهود . وقد رجع به عمه خوفا عليه ولم يتم رحلته . كذلك روى هذا الحادث من طرق فى بعض أسانيدها ضعف . ورواية الترمذى ليس فيها اسم بَحيرا . وليس فى شىء من الروايات أنه ﷺ سمع من بحيرا أو تلقى منه درسا واحداً أو كلمة واحدة ، لا فى العقائد ولا فى العبادات ولا فى المعاملات ولا فى الأخلاق . فأنى يؤفكون ؟ .

(ثالثا) أن تلك الروايات التاريخية نفسها تحيل أن يقف هذا الراهب موقف المعلم المرشد لمحمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه بشره أو بشر عمه بنبوته، وليس بمعقول أن يؤمن

رجل بهذه البشارة التى يزفها ، ثم ينصب نفسه أستاذاً لصاحبها الذى سيأخذ عن الله ، ويتلقى عن جبريل ويكون هو أستاذ الأستاذين ، وهادى الهداة والمرشدين ! وإلا كان هذا الراهب متناقضا مع نفسه .

(رابعا) أن بحير الراهب لو كان مصدر هذا الفيض الإسلامى المعجز ، لكان هو الأحرى بالنبوة والرسالة والانتداب لهذا الأمر العظيم .

(خامسا) أنه يستحيل فى مجرى العادة أن يتم إنسان على وجه الأرض تعليمه وثقافته ، ثم ينضج النضج الخارق للمعهود فيما تعلم وتثقف، بحيث يصبح أستاذ العالم كله، لمجرد أنه لقى مصادفة واتفاقا راهبا من الرهبان مرتين. على حين أن هذا التلميذ كان فى كلتا المرتين مشتغلا عن التعليم بالتجارة ، وكان أميا لا يعرف القراءة والكتابة، وكان صغيراً تابعاً لعمه فى المرة الأولى ، وكان حاملا لأمانة ثقيلة فى عنقه لا بد أن يؤديها كاملة فى المرة الثانية؛ وهى أمانة العمل والإخلاص فى مال خديجة وتجارتها .

(سادسا) أن طبيعة الدين الذى ينتمى إليه الراهب بحيرا ، تأبى أن تكون مصدراً للقرآن وهداياته . خصوصا بعد أن أصاب ذلك الدين ما أصابه من تغيير وتحريف .

وحسبك أدلة على ذلك ما أقمناه من المقارنات السابقة بين تعاليم القرآن وتعاليم غيره. وما قررناه من الوفاء فى تعاليم القرآن دون غيره، وما أشرنا إليه من أن القرآن قد صور علوم أهل الكتاب فى زمانه بأنها الجهالات ثم تصدى لتصحيحها وصور عقائدهم بأنها الضلالات ثم عمل على تقويمها . وصور أعمالهم بأنها المخازى والمنكرات ثم حض على تركها. فارجع إلى ما أسلفناه ، ثم تذكر أن فاقد الشىء لا يمكن أن يعطيه ، وأن الخطأ لا يمكن أن يكون مصدراً للصواب ، وأن الظلام لا يمكن أن يكون مشرقا للنور .

(سابعا) أن أصحاب هذه الشبهة من الملاحدة يقولون: إن القرآن هو الأثر التاريخى

الوحيد الذى يمثل روح عصره أصدق تمثيل . فإذا كانوا صادقين فى هـذه الـكلمة فإننا نحاكمهم فى هـذه الشبهة إلى القرآن نفسه ، وندعوهم أن يقرءوه ولو مرة واحـدة بتعقل ونصفة ، ليعرفوا منه كيف كانت الأديان وعلماؤها وكتابهـا فى عصره ؟ وليعلموا أنها ما كانت تصلح لأستاذية رشيدة ، بل كانت هى فى أشد الحاجة إلى أستاذية رشيدة ! . إنهم إن فعلوا ذلك فسيستريحون ويريحون الناس من هـذا الضلال والزيغ ، ومن ذلك الخبط والخلط . هدانا وهداهم الله فإن الهدى هداه . «ومنْ لم يجعلِ اللهُ لهُ نورا فما له من نور » .

(ثامنا) أن هذه التهمة لو كان لها نصيب من الصحة، لفرح بها قومه وقاموا لها وقعدوا، لأنهم كانوا أعرف الناس برسول الله، وكانوا أحرص الناس على تبهيته وتـكذيبه وإحباط دعوته بأية وسيلة لـكنهم كانوا أكرم على أنفسهم من هؤلاء الملاحدة فحين أرادوا طعنه بأنه تعلم القرآن من غيره لم يفـكروا أن يقولوا إنه تعلم من بحيرا الراهب كما قال هؤلاء ، لأن العقل لا يصدق ذلك والهزل لا يسعه . بل لجأوا إلى رجل فى نسبة الأستاذية إليه شىء من الطرافة والهزل، حتى إذا مجت العقول نسبة الأستاذية إليه لاستحالتها، قبلتها النفوس لهزلها وطرافتها، فقالوا: إنما يعلمه بشر، وأرادوا بالبشر حدادا روميا منهمكا بين مطرقته وسندانه ، ضالا طول يومه فى خبث الحديد وناره ودخانه ، غير أنه اجتمع فيه أمران حسبوهما مناط ترويج تهمتهم أحدهما: أنه مقيم بمكة إقامة تيسر لمحمد الاتصال الدائم الوثيق به ، والتلقى عنه. والآخر غريب عنهم وليس منهم، ليخيلوا إلى قومهم أن عند هذا الرجل علم مالم يعلموا هم ولا آباؤهم ، فيكون ذلك أدنى إلى التصديق بأستاذيته لمحمد. وغاب عنهم أن الحق لا يزال نوره ساطعا يدل عليه ، لأن هذا الحداد الرومى أعجمى لا يحسن العربية ، فليس بمعقول أن يكون مصدراً لهذا القرآن الذى هو أبلغ نصوص العربية، بل هو معجزة المعجزات ومفخرة العرب واللغة العربية. « لسان الذين يلحدونَ إليه أعجمىٌّ. وهذا لسانٌ عربىٌّ مبينٌ » ! .

الشبهة الثانية ودفعها :

يقولون : نحن لا نشك فى صدق محمد فى إخباره عما رأى وسمع . ولكننا نعتقد أن نفسه هى منبع هذه الأخبار، لأنه لم يثبت علميا أن هناك غيبا وراء المادة يصح أن يتنزل منه قرآن أو يفيض عنه علم أو يأتى منه دين . ثم ضربوا لذلك مثلا فقالوا : إن الفتاة الفرنسية (جان دارك) الناشئة فى القرن الخامس عشر الميلادى ، قد حدث التاريخ عنها أنها اعتقدت ـ وهى فى بيت أهلها بعيدة عن التكاليف السياسية ـ أنها مرسلة من عند الله لإنقاذ وطنها ودفع العدو عنه ، واعتقدت أنها تسمع صوت الوحى الإلهى يحضها على القتال والجهاد . وانطلقت تحت هذا التأثير فجردت حملة على أعداء وطنها وقادت الجيش بنفسها فقهرتهم ثم دارت الدائرة فوقعت أسيرة وماتت ميتة الأبطال فى ميدان النزال ولا يزال ذكرها يتلألأ نوراً ويعبق أريجا ، حتى لقد قررت الكنيسة الكاثوليكية قداستها بعد موتها بزمن .

وندفع هذه الشبهة بأمور :

(أولها) تلك الأدلة العلمية التى أقمناها هناك على إثبات الوحى الإلهى الحقيقى لا الوحى النفسى الخيالى ، مع دفع الشبهات الواردة عليه (بالمبحث الثالث من هذا الكتاب) .

(ثانيها) هذه الأدلة الأربعة عشر التى أقمناها وجوها لإعجاز القرآن فى هذا المبحث ؛ ففى كل وجه منها دفع كاف لهذه الشبهة عند التأمل والإنصاف ، لأن الإنسان محدود القوى والمواهب ، فلا يستطيع أن يخرق النواميس الكونية العادية. وماذكرناه من وجوه إعجاز القرآن فيه أربعة عشر دليلا على خرق القرآن للنواميس الكونية المعتادة . وخرقها لا يملكها إلا من قهر الكون ونواميسه ، وكان له السلطان المطلق على العالم وما فيه ، وهو الله وحده لا محمد ولا غير محمد لا بالعقل الباطن ولا الظاهر ، لا بالوحى النفسى ولا الانفعال العصبى .

(ثالثها) أن الدارس لتاريخ هذه الفتاة يعلم أن أعصابها كانت ثائرة لتلك الانقسامات الداخلية التي مزقت فرنسا ، والتي كانت تراها وتسمعها كل يوم بين أهلها وفى بلدها (جوارد ورمى) مع ماشاع فى عهدها من خرافات كان لها أثرها فى نفسها وعقلها ومخها . من تلك الخرافات أن فتاة عذراء ستبعث فى هذا الزمن تخلص فرنسا من عدوها . يضاف إلى هذا أن الفتاة كانت بعيدة الخيال تسبح فيه يقظة ومناما ، وتتوهم منذ حداثتها بأنها ترى وتسمع مالم تر ولم تسمع حتى خيل إليها أنها دعيت لتخلص بلادها وتتوج ملكها . ولما تعدى البرغنيور على قريتها التي ولدت فيها قوى عندها هذا الخيال حتى صار عقيدة إلى غير ذلك مما يدل على أن الفتاة كانت أعصابها متهيجة تهيجا ناشئا عن تألمها من الحال السياسية السيئة فى بلادها ، وعن تأثرها بالاعتقادات الخرافية التي سادت زمنها .

وليس هذا بدعا ، فكم رأينا وسمعنا أصحاب دعايات عريضة يعتمدون فيها على مثل هذه الخيالات الباطلة ، كالذين قاموا باسم المهدى المنتظر يدعون ويحاربون ، وكغلام أحمد القاديانى والباب البهائى الذين أقام كل منهما نحلته الباطلة على أوهام فارغة .

لكن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يك عصبيا ثائراً مهتاجا . بل كان وقوراً متزن العقل ثابت الفؤاد قوى الأعصاب . يثور الشجعان من حوله وهو لا يثور ، ويشطح الناس ويسرفون فى الخيال وهو واقف مع الحجة يكره الشطح والإسراف فى الخيال ؛ بل يحارب الإسراف فى الخيال وما يستلزمه ، ويرد هؤلاء المسرفين إلى حظيرة الحقائق ويحاكمهم إلى العقل . ألم تر إلى القرآن كيف يذم الشعراء الذين يركبون مطايا الخيال إلى حد الغواية ويقول : « والشعراءُ يتبعهمُ الغاوُونَ * ألم تر أنهم فى كلِّ وادٍ يهيمونَ * وأنهم يقولونَ ما لا يفعلونَ * إلَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وذكروا اللهَ كثيراً وانتصروا من بعدِ ما ظلموا » .

وانظر كيف ينفى القرآن أنه شعر وأن الرسول شاعر فيقول : « وما علمناه الشعرَ وما ينبغى له . إنْ هوَ إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبينٌ * لينذرَ منَ كان حيًّا ويحق القولُ على الـكافرينَ * » .

وتأمل ما جاء فى صحيح مسلم وغيره من أنه ﷺ أبى على عائشة أم المؤمنين أن تقول فى شأن صبى من الأنصار جىء به ميتا ليصلى عليه "طوبى لهـــذا لم يعمل شرًّا فقال ﷺ : « أو غير ذلك ياعائشة ؟ إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا وخلقها لهم وهم فى أصلاب آبائهم ، وخلق النار وخلق لها أهلا ، وخلقها لهم وهم فى أصلاب آبائهم » . مع أن أطفال المسلمين يعلم الله أنهم فى الجنة ، لـكن توقف الرسول وإباءه على عائشة أن تقول هذا، كان قبل أن يعلمه الله ذلك . فلم يسمح لها أن تسير مع الوهم أو الظن مادام الأمر غيبا ، ولا يعلم الغيب إلا الله .

وتدبر مارواه البخارى من أنه لما توفى عثمان بن مظعون رضى الله عنه قالت أم العلاء ـ امرأة من الأنصار ـ رحمة الله عليك أبا السائب فسهادتى عليك لقد أكرمك الله فقال ﷺ : « وما يدريك أن الله أكرمه » ؟ فقالت : بأبى أنت يا رسول الله فمن يكرمه الله ؟ قال : أما هو فقد جاءه اليقين . والله إنى لأرجو له الخير . والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل بى » . قالت: فوالله لا أزكى أحداً بعده أبداً ، وكذلك يقول القرآن الـكريم : « قل ما كنت بدعاً من الرسل . وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم . إن أتبع إلا ما يوحَى إلىَّ . وما أنا إلا نذيرٌ مبينٌ » .

فهل يعقل أن يقاس صاحب هذه الدقة البالغة والتثبت الدقيق بفتاة خفيفة سابحة فى أوهامها غريقة فى أحلامها ؟ ! .

(رابعها) أن تلك الفتاة : جان دارك ، لم تأت ولا بدليل واحد معقول على صدق أوهامها وتخيلاتها التى تزعمها وحياً وحديثاً من الله إليها . لـكن محمداً ﷺ له على وحيه

الذى يدعيه ألف دليل ودليل ، كما سبق بيانه . فأين الثرى من الثريا ؟ وأين الظلام من النور ؟ .

(خامسها) أن هذه الفتاة المائجة الثائرة لم تكن صاحبة دعوة إلى إصلاح ولا ذات أثر باق فى التاريخ . إنما كانت صاحبة سيف ومسعرة حرب فى فترة من الزمن ، لغرض مشترك بين الإنسان والحيوان وهو الدفاع عن النفس والوطن بمقتضى غريزة حب البقاء؛ ثم لم تلبث جذوتها أن بردت ، وحماستها أن خمدت .

« كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر »

فأين هذه الآنسة الثائرة من أفضل الخلق فى دعوته الكبرى، وأثره الخالد فى إصلاح أديان البشر وشرائعهم وأعمالهم وأخلاقهم، وفى إنقاذ الإنسانية العانية وتجديد دمها بدينه الجديد الذى قلب به أوضاع الدنيا ، ونقل بسببه العالم إلى طور سعيد ، بل إلى الطور السعيد الذى لولاه لدام يتخبط فى الظلمات، ولبات فى عداد الأموات ! ؟ « أو من كانَ ميتاً فأحييناهُ وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليسَ بخارج منها؟! »

الشبهة الثالثة ودفعها :

يقولون : إنه ﷺ كان يلقى ورقة بن نوفل فيأخذ عنه ويسمع منه ، وورقة لا يبخل عليه لأنه قريب لخديجة زوج محمد . يريدون بهذا أن يوهموا قراءهم وسامعيهم بأن هذا القرآن استمد علومه من هذا النصرانى الكبير الذى يجيد اللغة العبرية ويقرأ بها ماشاء الله .

وندفع هذه الشبهة بمثل مادفعنا به ماقبلها . ونقرر أنه لا دليل عندهم على هذا الذى يتوهمونه ويوهمون الناس به، بل الدليل قائم عليهم؛ فإن الروايات الصحيحة تثبت أن خديجة ذهبت بالنبى ﷺ حين بدأه الوحى إلى ورقة ، ولما قص الرسول قصصه قال :

هذا هو الناموس الذى أنزل الله على موسى. ثم تمنى أن يكون شابا فيه حياة وقوة ينصر بهما الرسول ويؤازره حين يخرجه قومه. ولم تذكر هذه الروايات الصحيحة أنه ألقى إلى الرسول عظة أو درس له درساً فى العقائد أو التشريع ولا أن الرسول كان يتردد عليه كما يتوهمون أو يوهمون. فأنى لهم مايقولون ؟ وأى منصف يسمع كلمة ورقة هذه ولا يفهم منها أنـــه كان يتمنى أن يعيش حتى يكون تلميذاً لمحمد، وجنديا مخلصاً فى صفه ينصره ويدافع عنه فى وقت المحنة ؟. ولـكن القوم ركبوا رءوسهم على رغم ذلك، وحاولوا قلب الأوضاع وإيهام أن ورقة هو الأستاذ الخصوصى الذى استقى منه محمد دينه وقرآنه : ألا ساء ما يحكمون ؟.

الشبهة الرابعة ودفعها :

يقولون : إن إعجاز القرآن للبشر عن أن يأتوا بمثله، لا يدل على قدسيته وأنه كلام الله. وشاهد ذلك أن لـكل متأدب أسلوبا خاصا به يتبع استعداده الأدبى ومزاجه الشخصى. وهذا الأسلوب الخاص يستحيل على غيره أن يأتى بمثله ضرورة اختلاف مواهب المتأدبين وأمزجتهم. ومع هذا فإعجاز كل أسلوب لغير صاحبه، وعجز كل متأدب عن الإتيان بأسلوب غيره، لم يضف على الأساليب البشرية شيئا من القدسية وأنها كلام الله. فـكذلك القرآن يزعمون أنه كلام محمد ويعترفون بإعجازه على هذا النحو.

وندفع هذه الشبهة (أولا) بوجوه الإعجاز التى بسطناها سابقا غير وجه الإعجاز بالأسلوب.

(ثانيا) أن هذه الشبهة مغالطة، فإن التحدى بالقرآن ليس معناه مطالبة الناس أن يجيئوا بنفس صورته الـكلامية ومنهاجه المعين الذى انفرد به أسلوبه، حتى ترد هـــذه الشبهة. بل معناه مطالبة الناس أن يجيئوا بـكلام من عندهم أيا كانت صورته ومزاجه، وأيا كان نمطه ومنهاجه، ولـكن على شرط ألا يطيش فى الميزان، إذا قيس هو والقرآن

بمقياس واحد من البيان، بل يظهر أنه يماثله أو يقاربه فى خصائصه، وإن كان على صورة بيانية غير صورته . هذا هو ما يتحداهم به الرسول ، وهو القدر الذى يتنافس فيه البلغاء عادة فيتماثلون أو يتفاضلون ، مع احتفاظ كل منهم بمنهاجه الخاص ونمطه المعين .

ومثال ذلك أن يتبارى قوم فى العدو والجرى إلى هدف واحد، ويرسم لكل واحد من هؤلاء المتبارين طريق معين بحيث لا يمشى أحدهم من طريق صاحبه ، ولا يضع قدمه فى موضع قدم أخيه. بل يمشى فى طريقه هو غير مزاحِم ولا مزاحَم، ويسير موازيا لقرنه فى المبدأ وفى الاتجاه، ثم يمضون جميعا إلى الهدف المشترك الذى إليه يتسابقون، وإذا هم بعد ذلك بين سابق مبرز ، ولاحق متخلف . ومساو متكافئ . دون أن يكون اختلاف طرقهم قادحا فيما يكون بينهم من هذا التفاضل أو التماثل . بل يعرف التناسب بينهم بمعرفة نسبة ما قطعه كل من طريقه إلى ذلك الهدف المشترك . . . كذلك المتنافسون فى ميدان البيان ، يختار كل منهم طريقته التى يستمدها من مزاجه الشخصى واستعداده الخاص للوصول إلى الغاية البيانية العامة . ثم هم بعد ذلك يتفاوتون أو يتعادلون، بمقدار وفائهم بخصائص البيان أو نقصهم منها . فالمدعوون إلى معارضة القرآن إن افترضتهم أكفاء لنبى القرآن فسيأتون بمثل ما جاء به ، وإن افترضتهم أعلى منه كعبا فسيأتون بأحسن مما جاء به ، وإن افترضتهم دونه فلن يشق عليهم أن يأتوا بقريب مما جاء به ، مع احتفاظ كل منهم بنمطه فى الكلام ومنهجه فى البيان . لكن شيئا من هذه المراتب الثلاث لم يكن . فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثل القرآن ولا بما يعلوه ولا بما يقرب منه ، لا بالنسبة إليه كله ، ولا بالنسبة لعشر سور ، ولا بالنسبة لسورة واحدة من مثله، لا منفردين ولا مجتمعين ولو كان معهم الإنس والجن وكان بعضهم لبعض ظهيراً . يضاف إلى ذلك أنهم كانوا أئمة البيان ونقدة الكلام . وكانوا أهل إباء وضيم يحرصون على الغلبة فى هذه الحلبة من معارضة القرآن .

أليس ذلك بدليل كاف على أن هذا الكتاب تنزيل العزيز الرحيم ولا يمكن أن يكون كلام محمد ولا غير محمد من المخلوقين ؟ !

الشبهة الخامسة ودفعها :

يقولون : إن عجز النـاس عن الإتيان بمثل القرآن ، ماهو إلا نظير عجزهم عن الإتيان بمثل الـكلام النبوى . وإذن فلا يتجه القول بقدسية القرآن وأنه كلام الله ، كما لا يتجه القول بقدسية الحديث النبوى وأنه كلام الله ! .

وندفع هذه الشبهة (أولا) بأن الحديث النبوى إن عجز عامة الناس عن الإتيان بمثله ، فلن يعجز أحد خاصتهم عن الإتيان ولو بمقدار سطر واحد منه . وإذا عجز أحد هؤلاء الممتازين عن مقدار سطر واحد منه نفسه ، فلن يعجز عن مقدار سطر واحد من مماثله القريب منه . وإن عجز أن يأتى بسطر من هذا المثل وهو وحده ،فلن يعجزعنه إذا انضم إليه ظهير ومعين أيا كان ذلك الظهير والمعين . وإن عجز عن هذا مع الظهير والمعين أيا كان ، فلن يعجز الإنس والجن جميعا أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً كما قال القرآن .

ذلك شأن الحديث النبوى مع معارضيه . أما القرآن الـكريم فله شأن آخر ، لأن أحداً لا يستطيع الإتيان بمثل أقصر سورة منه لا هو وحده ولا مع غيره ولو اجتمع من بأطرافها من الثقلين .

وإنما قلنا إن الحديث النبوى لا يعجز بعض الخواص الممتازين أن يأتى بمثله ، لأن التفاوت بين الرسول وبلغاء العرب مما يتفق مثله فى مجارى العادة بين بعض الناس وبعض فى حدود الطاقة البشرية ، كالتفاوت بين البليغ والأبلغ والفصيح والأفصح والحسن والأحسن . وليس هذا التفاوت بالأمر الشاذ الخارق للنواميس العادية جملة، بحيث تنقطع الصلة بين الرسول وسائر البلغاء جميعا ، لاختصاصه من بينهم بفطرة شاذة لا تمت إلى سائر الفطر بنسب إلا كما ينتسب النقيض إلى النقيض والضد إلى الضد، كلا بل إن هذا القول باطل من وجهين :

(أحدهما) أنه يخالف المعقول والمشاهد ، لمـا هو معروف من أن الطبيعة الإنسانية

العامة واحدة، ومن أن الطبائع الشخصية يقع بينها التشابه والتماثل، فى شىء أو أشياء، فى واحد أو أكثر، فى زمن قريب أو أزمنة متطاولة، فى كل فنون الكلام أو فى بعض فنونه. (والآخر) أنه يخالف المنقول فى الكتاب والسنة، من أن البشرية قدر مشترك بين الرسول وجميع آحاد الأمة. ولا ريب أن هذه البشرية المشتركة وجه شبه يؤدى لا محالة إلى المماثلة بين كلامه وكلام من تجمعه بهم رابطة أو روابط خاصة على نحو ما قررنا. أليس الله يقول: «قل سبحان ربى! هل كنت إلا بشراً رسولًا؟» ويقول: «قلْ إنما أنا بشر مثلكم يوحَى إلىّ» ثم أليس الرسول يقول فى الحديث الآنف «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ» الخ، ويقول لرجل رآه فامتلأ منه فرقا ورعبا: «هون عليك فإنى لست بملك. إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد»!.

(ثانيا) أننا نجد تشابها بين كلام النبوة وكلام بعض الخواص من الصحابة والتابعين، حتى لقد نسمع الحديث فيشتبه علينا أمره: أهو مرفوع ينتهى إلى النبى ﷺ؟ أم موقوف عند الصحابى؟ أم مقطوع عند التابعى؟ إلى أن يرشدنا السند إلى عين قائله.

ومن أوتى حاسة بيانية يدرك هذا الشبه كثيرا كلما كان صاحب البيان المشابه تصله بالرسول صلات قوية، كتلك الصلات أو العوامل المتآخذة التى توافرت فى على بن أبى طالب حتى مسحت بيانه مسحة نبوية، وجعلت نفسه فى الكلام من أشبه الأنفاس بكلام رسول الله إن لم يكن أشبهها.

أما القرآن وما أدراك ما القرآن، فلن تستطيع أن تجد له شبيها أو ندا، لأن الذى صنعه على عينه لن تستطيع أن تجد له شبيها أو ندا!. فكيف يقاس القرآن بالحديث فى هذا المقام؟ أم كيف يجمع بينهما فى قران؟.

(ثالثا) أن القرآن لو كان كلام محمد كالحديث الشريف، لكان أسلوبهما واحدا؛ ضرورة أنهما على هذا الفرض ـ صادران عن شخص واحد، استعداده واحد ومزاجه واحد، لكن الواقع غير ذلك، فأسلوب القرآن ضرب وحده تظهر عليه سمات الألوهية التى تجل عن المشابهة

والمماثلة ، وأسلوب الحديث النبوى ضرب آخر لا يجل عن المشابهة والمماثلة ، بل هو محلق فى جو البيان يعلو أساليب الناس فى جملته دون تفصيله ؛ ولا يستطيع بحال أن يصعد إلى سماء إعجاز القرآن ! . فإن افترضت أنه عليه الصلاة والسلام كان له أسلوبان مختلفان: أحدهما يحضره ويتعمل له وهو ما سماه بالقرآن ، والآخر يرسله ولا يحضره وهو ما سمى بالحديث: إن افترضت ذلك فانظر علاج الشبهة العاشرة فى المبحث الثالث من هذا الكتاب (ص ٧٨ ـ ٨٤ من الجزء الأول) فإن فيه شفاء ما فى نفسك ، والله يكتب العافية لى ولك .

الشبهة السادسة ودفعها :

يقولون : إن أنباء القرآن الغيبية ، لا تستقيم أن تكون وجها من وجوه الإعجاز الدالة على أنه كلام الله بل هو كلام محمد استقى أنباءه من أهل الكتاب فى الشام وغيرها، أو رمى فيه الكلام على عواهنه فصادف الحقيقة اتفاقا ، أو استنبط الأنباء برأيه استنباطا ثم نسبها إلى الله .

وندفع هذه الشبهة (أولا) بأن أكثر أنباء الغيب التى فى القرآن لم يكن لأهل الكتاب علم بها على عهده .

(ثانيًا) أنه صحح أغلاطهم فى كثير من هذه الأنباء فليس بمعقول أن يأخذها عنهم وهو الذى صححها لهم ! .

(ثالثًا) أن أهل الكتاب فى زمنه كانوا أبخل الناس بما فى أيديهم من علم الكتاب .

(رابعًا) أنه لو كان لهذه الشبهة ظل من الحقيقة لطار بها أهل الكتاب فرحا ، وطعنوا بها فى محمد وقرآنه ، ولطبل لها المشركون ورقصوا . لكن شيئًا من ذلك لم يكن، بل إن جلة من علماء أهل الكتاب آمنوا بهذا القرآن ، ثم لم يمض زمن طويل حتى أعطت قريش مقادتها له عن إيمان وإذعان .

(خامسا) أن محمدا كان رجلا عظيما بشهادة هؤلاء الطاعنين. وصاحب هذه العظمة البشرية يستحيل أن يكون ممن يرمى الكلام على عواهنه خصوصاً أنه رجل مسؤول فى موقف الخصومة بينه وبين أعداء ألداء. فما يكون له أن يرجم بالغيب ويقامر بنفسه وبدعوته ، وهو لا يضمن الأيام وما تأتى به مما ليس فى الحسبان .

(سادساً) أنه على فرض رجمه بالغيب جزافا من غير حجة ، يستحيل فى مجـرى العادة أن يتحقق كل ما جاء به مع هذه الكثرة . بل كان يخطىء ولو مرة واحدة ، إما فى غيوب الماضى أو الحاضر أو المستقبل. لكنه لم يخطىء فى واحدة منها على كثرتها وتنوعها .

(سابعاً) أن هذه الأنباء الغيبية ليست فى كثرتها مما يصلح أن يكون مجالا للرأى، ثم إن ما يصلح أن يكون مجالا للرأى أخبر محمد ﷺ فى بعضه بغير ما يقضى به ظاهر الرأى والاجتهاد . انظر ما ذكرناه تحت عنوان أنباء الغيب من هذا المبحث . وتأمل نبوءة انتصار الروم على الفرس وانتصار المسلمين على المشركين فى وقت لم تتوافر فيه عوامل هذا الانتصار كما بينا سابقاً .

الشبهة السابعة ودفعها :

يقولون : إن ما تذكرونه من علوم القرآن ومعارفه وتشريعاته الكاملة، لا يستقيم أن يكون وجهاً من وجـوه الإعجاز . فهذا سولون اليونانى وضع وحده قانونا وافياً كان موضع التقدير والإجلال والطاعة ؛ وما قال أحد إنه أتى بذلك معجزة ولا إنه صار بهذا التشريع نبيًّا .

وندفع هذه الشبهة (أولا) بأن البون شاسع بين ما جاء به القرآن وما جاء به هذا القانون السولونى اليونانى . ونحن نتحداهم أن يثبتوا لنا كماله ووفاءه بكافة ضروب الإصلاح البشرى على نحو ما شرحنا سابقاً بالنسبة إلى القرآن الكريم .

(ثانيا) أن الفرق بعيد بين ظروف محمد ﷺ التى جاء فيها بالقرآن وظروف سولون التى وضع فيها القانون . وهذا الفرق البعيد له مدخل كبير فى إثبات هذا الوجه من الإعجاز بالنسبة إلى محمد ﷺ دون سولون : فمحمد كان أمياً نشأ فى الأميين ، أما سولون فكان فيلسوفا نشأ بين فلاسفة ومتعلمين ، بل هو أحد الفلاسفة السبعة الذين كان يشار إليهم بالبنان فى القرن السابع قبل الميلاد المسيحى . . .

ومحمد ﷺ لم يتقلد قبل القرآن أعمالا إدارية ولا عسكرية ، بل جاءه القرآن بعد أن حببت إليه الخلوة والعزلة ، أما سولون فقد تولى قبل وضعه القانون أعمالا إدارية وعسكرية ، وانتخب فى عام ٥٩٤ قبل الميلاد (أرجونا) أى رئيساً على الأمة بإجماع أحزابها، وقلدوه سلطة مطلقة ليغير ماشاء من نظم البلاد وقانونها الذى وضعه (زرا كوت) من قبله . فوضع لهم نظاما جديداً أقرته الأمة حكومة وشعباً وقررت اتباعه والعمل به عشر سنين .

فهل يجوز حتى فى عقول المغفلين أن تقام موازنة ويصاغ قياس مع هذه المفارقات الهائلة بين محمد الأمى الناشىء فى الأميين ، وسولون الفيلسوف والحاكم والقائد والزعيم والناشىء فى أعظم أمة من أمم الحكمة والحضارة ؟ !

(ثالثاً) أين ذلك القانون الذى وضعه أو عدله سولون ؟ وما أثره وما مبلغ نجاحه؟ بجانب قانون القرآن الجامع ودستوره الخالد وأثره البارز ونجاحه المعجز! ثم ماقيمة قانون وضع تحت تأثير تلك الظروف ومات وأصبح فى خبر كان ، بجانب القرآن الذى جاء فى ظروف مضادة جعلته معجزة بل معجزات، ثم حى حياة دائمة لا مؤقتة، ولا يزال يزداد مع مرور العصور والقرون جدة وحياة وثباتاً واستقراراً ، حتى أصبح كثير من الأمم المتحضرة تستمد منه، وقررت مؤتمرات دولية اعتباره مصدراً من مصادر القانون المقارن فى هذا العصر ، إلى غير ذلك مما أشرنا إليه قبلا ؟ !

خلاصة

والخلاصة أن القرآن من أية ناحية أتيته، لا ترى فيه إلا أنواراً متبلجة وأدلة ساطعة على أنه كلام الله. ولا يمكن أن تجد فيه نكتة من كذب، ولا وصمة من زور، ولا لطخة من جهل. وإني لأقضى العجب من هؤلاء الذين أغمضوا أعينهم عن هذه الأنوار، وطوعت لهم أنفسهم اتهام محمد ﷺ بالكذب، وزعموا أن القرآن من تأليفه هو لا من تأليف ربه، مع أن الكاذب لا بد أن تكشف عن خبيئته الأيام والمضلل لا مناص له من أن يفتضح أمره ويتهتك ستره.

« ثوب الرياء يشِفُّ عما تحته   فإذا التحفْتَ به فإنك عارِ »

فيأيها اللاعبون بالنار الهازئون بقوانين العقل والمنطق، العابثون بمقررات علم النفس وعلم الاجتماع. الغافلون عن نواميس الكون وأوضاع التاريخ، الساخرون بدين الله وكتابه ورسوله. كلمة واحدة أقولها لكم فاعقلوها: معقول أن يكذب الكاذب ليجلب إلى نفسه أسباب العظمة والمجد، وليس بمعقول أبداً (حتى عند البهائم) أن يكذب الصادق الأمين ليبعد عن نفسه أعظم عظمة وأمجد مجد. ولا شيء أعظم من القرآن ولا أمجد، فكيف يتنصل محمد ﷺ منه ولا يتشرف بنسبته إليه لو كان من تأليفه ووضعه ؟!

يميناً لا حنث فيها، لو أن محمداً كان كاذباً لكذب فى أن ينسب هذا القرآن إلى نفسه، على حين أنه ليس من إنشائه ورصفه. كيما يحرز به الشرف الأعلى، ويدرك به المقام الأسمى، لو كان ينال شرف ويعلو مقام بالافتراء والكذب! . ولكن كيف يكذب الصادق الأمين ومولاه يتوعد ويقول: « ولوْ تقوَّلَ علينا بعض الأقاويل * لأخذْنا منه باليمينِ * ثمَّ لقطعنا منهُ الوَتين * فما منكم منْ أحدٍ عنهُ حاجزينَ * وإنه لتذكرةٌ

للمتقينَ * وإنا لنعلم أنَّ منكم مكذبين * وإنه لحسرةٌ على الكافرينَ * وإنه لحق اليقين * فسبحْ باسمِ ربكَ العظيم * »

ومن أعجب العجب أن نسمع أمثال تلك الشبهات الساقطة فى محيطنا الإسلامى ؛ على حين أن طوائف كثيرة من علماء الإفرنج فى هذه العصور الأخيرة ، قد أعلنوا بعد دراستهم للقرآن ونبى القرآن : « إن محمداً كان سليم الفطرة ، كامل العقل ، كريم الأخلاق ، صادق الحديث ، عفيف النفس ، قنوعا بالقليل من الرزق ، غير طموع فى المال ولا جنوح إلى الملك . ولم يعن بما كان يعنى به قومه من الفخر والمباراة فى تحبير الخطب وقرض الشعر . وكان يمقت ما كانوا عليه من الشرك وخرافات الوثنية ، ويحتقر ما يتنافسون فيه من الشهوات البهيمية ، كالخمر والميسر وأكل أموال الناس بالباطل . وبهذا كله وبما ثبت من سيرته ويقينه بعد النبوة جزموا بأنه كان صادقا فيما ادعاه بعد استكمال الأربعين من سنه ، من رؤية ملك الوحى ، ومن إقرائه إياه هذا القرآن ، ومن إنبائه بأنه رسول من الله لهداية قومه وسائر الناس » . ولقد وصل الأمر ببعض هؤلاء الباحثين الأجانب ، أن أعلن هذه الحقيقة : « لو وجدت نسخة من القرآن ملقاة فى فلاة ، ولم يخبرنا أحد عن اسمها ومصدرها ، لعلمنا بمجرد دراستها أنها كلام الله ، ولا يمكن أن تكون كلام سواه » .

كلمة الختام

أما بعد : فإن الكلام فى إعجاز القرآن طويل ، وعلاج جميع الشبهات التى لفقها أعداء الإسلام أطول . حتى لقد اطلعت على رسالة خبيثة أسموها (كتاب حسن الإيجاز فى إبطال الإعجاز) فوجدتها قد حملت من الأكاذيب والأراجيف ، ومن اللف والدوران ، أشكالا وألوانا فى الصحيفة الواحدة . وعقيدتى أن ما بسطناه فى هذا المبحث وما يتصل به ، فيه الكفاية لمن أراد الهداية . ولو أننا استقصينا وجوه الرد على مثل هذه الرسالة لاقتضانا الأمر كتابا كبيراً كاملا ، على حين أنها هى لا تزيد على اثنتين وعشرين صفحة من القطع الصغير . ثم أنى لنا ذلك الرد المسهب الآن ؟ وأزمة الورق طاحنة ، وأدوات الطباعة عزيزة ، حتى لقد اضطررنا من أجل هذا ، أن نقف فى الكتابة عند هذا الحد (بالطبع) ولقد كنا نود أن نمضى قدما حتى نأتى على قصص القرآن وأمثاله وجدله ، ولكن الضرورات تبيح المحظورات . وعسى أن يكون خيراً .

نحمده سبحانه أن كتب لنا التوفيق فى هذه المحنة حتى انتهينا إلى هذه الغاية ، ونستغفره ونتوب إليه من كل خطأ وزلل . ونسأله القبول والمزيد والتعجيل بتفريج الكروب ، وأن يصلح الحال والمآل لنا وللمسلمين جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها .

رجاء

ونرجو من كل مطلع على هذا الكتاب أن يتفضل فيدعو لنا بالخير، وأن يزودنا بملاحظاته واستدراكاته، فإن الدين النصيحة؛ والمؤمنون بخير ما تناصحوا.

وليعلم القارئ الكريم أننا لا نزعم لأنفسنا الكمال. ولكن قصارانا أننا نحاول الكمال، وأن نؤدى رسالتنا فى هذه الحياة كما يجب. أما الكمال المطلق فهو لله تعالى وحده.

« وتمتْ كلمة ربك صدقاً وعدلًا. لا مُبدِّل لكلماتِه. وهو السميع العليم ».

« سبحانَ ربكَ ربِّ العزةِ عما يصفونَ * وسلامٌ على المرسلينَ * والحمدُ للهِ ربِّ العالمين * ».

وصلى الله على أفضل خلقه، وخاتم رسله، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وأصحاب الحقوق علينا أجمعين، آمين آمين.

وكان الفراغ من طبع هذه المذكرات فى شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٦٢ هـ الموافق لشهر يونيه ١٩٤٣ م.

فهرس الجزء الثانى

من مناهل العرفان

صفحة	الموضوع

صفحة	الموضوع
٦٦	تفسير الجلالين
٦٧	تفاسير البيضاوى والفخر الرازى وأبى السعودى
٦٨	تفاسير النيسابورى ، والنسفى ، والخطيب
٦٩	تفسير الخازن
«	تفاسير الفرق المختلفة
٧٠	« المعتزلة
«	كتاب الكشاف
٧٤	« تنزيه القرآن عن المطاعن
«	تفاسير الباطنية
٧٦	« الشيعة
٧٧	مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار
٧٨	التفسير الإشارى
٧٩	ملحوظة فى معنى الظهر والبطن والحد والمطلع
٨١	شروط قبول التفسير الإشارى
٨٢	أهم كتب التفسير الإشارى
«	تفسير النيسابورى
٨٤	« الألوسى
٨٥	« التسترى
٨٦	« ابن العربى
٨٩	نصيحة خالصة فى الموضوع
٩٠	كلمة قيمة لحجة الإسلام الغزالى فى الموضوع
٩١	الشطح
٩٢	الطامات

صفحة	الموضوع

صفحة	الموضوع

صفحة	الموضوع
١٩٨	دفع شبهات المنكرين لجوازه عقلا .
«	دفع اعتراضهم بأن النسخ يستلزم البداء أو العبث .
١٩٩	دفع اعتراضهم بأن النسخ يستلزم الجهل أو تحصيل الحاصل
«	دفع اعتراضهم بأن النسخ يستلزم تحصيل الحاصل أو ما هو فى معناه
٢٠١	دفع اعتراضهم بأن النسخ يستلزم اجتماع الضدين .
٢٠٣	شبهات المنكرين للنسخ سمعا ودفعها .
«	شبهة العنانية والشمعونية ودحضها .
٢٠٤	شبهة النصارى ودحضها .
٢٠٦	شبهة العيسوية ودحضها .
٢٠٧	شبهة أبى مسلم ودحضها .
٢٠٩	طرق معرفة النسخ .
٢١١	قانون التعارض .
٢١١	ما يتناوله النسخ .
٢١٤	أنواع النسخ فى القرآن .
٢١٦	دفع شبهات المانعين لنسخ التلاوة أو الحكم دون الآخر .
«	ا ـ دفع شبهتهم بأن التلاوة والحكم متلازمان .
«	ب ـ دفع شبهتهم بأن نسخ الحكم دون التلاوة يستلزم تعطيل الكلام الإلهى .
٢١٧	دفع شبهتهم بأن نسخ الحكم دون التلاوة يوقع فى اللبس .
٢١٨	دفع شبهتهم بأن نسخ التلاوة دون الحكم يوقع فى اللبس أيضا.
«	دفع شبهتهم بأن نسخ التلاوة دون الحكم عبث .
٢٢٠	النسخ ببدل وبغير بدل .
٢٢١	شبهة المعتزلة فى منع النسخ بغير بدل ودفعها .
٢٢٣	نسخ الحكم ببدل أخف أو مساو أو أثقل .

صفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

صفحة	الموضوع

صفحة	الموضوع